دكتور
عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني

خصائص التعبير القرآني
وسماته البلاغية

الجزء الثاني

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠



ملكة ولغة

ملكة ولغة

مكتبة
وهبة

مكتبة
وهبة

دكتور
عبد العظيم ابراهيم محمد المطعني

خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية

« رسالة دكتوراة بتقدير ممتاز
مع مرتبة الشرف الأولى »

الجزء الثاني

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

الباب الثالث

من روائع « المعانى » فى القرآن الكريم

- من أسرار الحذف .
- من أسرار التقديم فى القرآن .
- التقديم غير الاصطلاحى .

الفصل الأول

من أسرار الحذف

الحذف فن عظيم من فنون القول ، ومسلك دقيق فى التعبير وتأدية المعانى ، ترى به ترك الترك أفصح من الذكر . والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة . وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم بياناً إذا لم تبن (١) .

وقد أشاد البيانيون كثيراً بفن الحذف . وأفصحوا عن ملامحه الجمالية فقعّدوا له القواعد ووضعوا الشروط وأظهروا المزايا .

وكان لمظاهر الحذف فى القرآن الكريم أكبر عون للبلاغيين على تعرف جهاته . ورصد حالاته وكشف أسراره مقيساً عليه كل فن بليغ وأدب ممتع .

● شروط الحذف :

كل حذف لا بد فيه من شرط وسبب ..

أما الشرط فقد أجمعوا على أن الحذف لا يُصار إليه إلا إذا بقيت فى الكلام قرينة تدل على المحذوف . حتى لا يصبح البيان ضرباً من التعمية والغموض ، لأن شرط جودة الأسلوب الوضوح وحسن الدلالة . وهذا الشرط ضرورى لا يُحمد إغفاله ، لأن الحذف إذا لم يكن فيه ما يدل على المحذوف - ويعينه أحياناً - جار على اللفظ والمعنى . والألفاظ - كما قالوا - أوعية المعانى فلا بد من ملاحظتها مذكورة أو محذوفة دل عليها دليل (٢) .

---

(١) إعجاز القرآن : عبد القاهر الجرجانى ص ٧ .

(٢) لا يشترط البلاغيون عند حذف الفاعل ، وإقامة المفعول مقامه أن يكون هناك دليل على الحذف لأن الفاعل عمدة لا بد من ملاحظته وإن حذف . ولأنه قد أقيم مكانه عوض ، فهم يكتفون فيه بتوفير الداعى إلى الحذف مثل « قتل الخارجى » لأن الأهم قتله لا مَنْ قتله : المطول ص ٦٨

وأما السبب فهو الأمر الذى يدعو المتكلم إلى ترجيح الحذف على الذِكر . أو وجوبه . إذا كان أدل على فخامة المعنى . وسعة تصوره فى بعض المواضع .

وفى هذا – أعنى الداعى إلى الحذف – يكمن السر الجمالى فى التعبير لكونه مظهراً من مظاهر مقتضى الحال . والتصرف فى إلقاء الكلام . ومظاهر الحذف فى القرآن الكريم كثيرة جداً لكن البلاغيين اتجهت عنايتهم إلى حذف المفعول به أكثر من غيره . لأن اللطائف فيه أكثر وأعجب [(١)] .

ويمكن تصنيف الحذف فى القرآن الكريم على الوجوه الآتية :

١ – حذف حرف .　　　　٢ – حذف كلمة مفردة .

٣ – حذف جملة .　　　　٤ – حذف فقرة كاملة .

وأرى أن دراسة الحذف فيه على هذا المنهج أضبط من المنهج الذى سار عليه ابن الأثير فى « المثل السائر » . حيث قسّم الحذف إلى نوعين :

أولهما : حذف الجمل ويقع فى أربع أنواع .. وستأتى طريقته .

ثانيتهما : حذف المفردات ويقع فى أربعة عشر نوعاً . وقد أورد فى حذف المفردات بعض الحروف ، والحرف لا يعد مفرداً . وكان الأولى أن يبحثه تحت عنوان « حذف الأداة » .. كما أنه أدخل ما هو أكثر من جملة فى حذف الجملة . وحذف الجملة فى حذف المفردات [(٢)] ، لذلك آثرت هذه الطريقة إذ يبدو أنها أكثر ضبطاً .

أولاً – حذف الحرف :

وقد جاء حذف الحرف فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة ، ولمعرفة حذفه فيه – فيما أرى – ضابطان ، الأول : دلالة الحرف المحذوف على معنى مع بقاء

(١) المثل السائر لابن الاثير : ٣٠٤/٢　　　(٢) انظر المثل السائر : ٢٧٩/٢ وما بعدها .

هذا المعنى بعد الحذف . والثانى : اعتبار الحرف محذوفاً بالقياس على موضع آخر مماثل ورد فيه الحرف دون حذف .

فمن النوع الأول : حذف حرف النداء « الياء » كثيراً فى القرآن الكريم حيث لم يأت فى القرآن أداة نداء سواه . ولأن العلماء صرَّحوا على أن أداة النداء إذا حذفت وجب أن يقدر المحذوف ياءً . لأنها أم الباب [1] .

وقد التزم القرآن الكريم حذف أداة النداء « الياء » مع كلمة « رب » خاصة فى كل موضع وردت فيه على هذا الوجه إلا فى موضعين :

الآية (٣٠) من سورة الفرقان . وهى قوله : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ .

والآية (٨٨) من سورة الزخرف ، وهى قوله : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . وقد قصر الدكتور أحمد أحمد بدوى إذ يقول :

« وعلى كثرة ما نودى الرب فى القرآن لم أعثر عليه مسبوقاً بحرف النداء إلا فى تلك الآية الكريمة : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

« ويبدو أنه لم يتتبع مواضعها . وإلا لم يقع فى هذا القصور حيث صرَّح بسبقه فى آية الزخرف فحسب » [2] .

وقد اهتدى الدكتور بدوى إلى تعليل مقبول لسر حذف أداة النداء « الياء » مع « رب » إذ يرى أن سر الحذف فيه للمبالغة فى تصوير قُرب المنادَى « رب » حيث إن معناه : المربى والسيد والمالك . وهو بهذه المعانى من شأنه أن يكون قريباً حاضراً لا يحتاج فى ندائه إلى وسائط .

* *

(١) المغنى لابن هشام .

(٢) انظر كتابه من بلاغة القرآن ص ١٦٩

● لماذا حذف « يا » مع « رب » ؟

ونضيف إلى ما ذكره الدكتور بدوى : إن هذه الكلمة « رب » أكثر استعمالاً من غيرها فى الدعاء . فروعى فيها من جهات التخفيف ما يجعلها أطوع فى الألسنة . وأسهل فى مجارى الحديث .

ولم يقتصر حذف أداة النداء فى القرآن الكريم على كلمة « رب » فحسب ، بل جاء ذلك فى مواضع كثيرة غيرها مثل : ﴿ يس * وَالقُرْآنِ الحَكِيمِ ﴾ (١) .

ومثل : ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ (٢) .

ومثل : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ (٣) .

والأصل يا يس ويا طه ويا يوسف .. وقد كسا الحذف - هنا - العبارات فخامة وخلابة .



● إيثار « الياء » :

ولعل السر فى إيثار القرآن الكريم لحرف النداء « يا » دون غيره . لأن هذه الأداة تكون الوسيلة الطبيعية فى النداء . إذ هى أكثرها استعمالاً عند الخاصة والعامة . ولأنها أُم الباب ، ولأنها أخف أحرف النداء فى النطق ، لأنها تبدو فى خفة حركتها كأنها صوت واحد ، لانطلاق اللسان بمدها دون أن يستأنف عملاً .

أما الأربع الأُخر - وهى الهمزة وأيا وهيا وأى - فإن كلا منها يبدأ بحرف من حروف الحلق . وهى أثقل الأصوات نطقا .



---

(١) يس : ١ - ٢ (٢) طه : ١ - ٢ (٣) يوسف : ٢٩

● حذف« لا » مع « تفتأ » :

ومن حذف الحرف في القرآن الكريم إسقاط « لا » في قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَاللَّه تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ ﴾ (١) .

والتقدير : لا تفتأ تذكر يوسف .

ويرى الزمخشري ومَن تابعه أن الحذف هنا حصل لا من اللبس . والكلام مسوق للنفي إذ لو كان إثباتاً لوجب اللام والنون فيه . فترك ذلك دليل على بقاء النفي وإن حذفت أداته .

وقال ابن المنير في حاشيته على الكشاف في الموضع المذكور : « وحذف « لا » النافية للمضارع بعد القَسَم كثير لأمن اللبس » .

وقد استشهد الزمخشري بقول امرئ القيس :

فَقُلْتُ يَميـنُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِداً   وَلَوْ قَطَّعُواْ رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

هذا حاصل تخريجهم للمسألة .

ولكن ألا يرد عليهم هذا الاعتراض وهو : إن جواز الحذف - هنا - في الصناعة النحوية لا يمكن أن يكون تفسيراً بلاغياً لتوجيه المعنى . وأياً كان أمر الحذف في الآية والبيت فإنه ليس مستوى الطرفين . بل الإثبات أرجح منه لأنه الأصل . فلا بد - إذن - من تلمس وجه آخر غير الجواز النحوي يرجح من حيث المعنى الحذف على الذكر .

● سر حذفه :

وهذا الوجه - كما أراه - أن حرف النفي في الآية الكريمة « لا » محذوف لضيق المقام لأن الأزمات النفسية عند إخوة يوسف قد بلغت ذروتها في هذا الموضع . ويكفي أن يستحضر الإنسان الآيات السابقة على هذه الآية للتأكد من صحة ما أراه . ويكون الجواز النحوي حينئذ ترشيحاً ومساندة لما نذكر :

---

(١) يوسف : ٨٥

﴿ ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فقد تجمعت - هنا - آثار الجريمتين : فَقْد يوسف . واحتجاز أخيه بنيامين . وتفجرت فى نفس يعقوب عليه السلام عواطف اليأس والرجاء . وظهر ذلك على ملامحه وأعرض عن إخوة يوسف غير آبه بما يقولون . شاكاً فى قولهم فى مقام يفيدهم فيه التصديق . جائراً بالشكوى إلى اللّه يكاد الأسى يمزق قلبه وهو شيخ كبير افترسه شعور الحزن على وليدين محبوبين .

هذه المواقف المويئسة كان لها أثر بالغ على إخوة يوسف فضاقت عليهم الأرض بما رحبت فكان حسناً من القرآن - وهو يُعبِّر عن تلك الحالات النفسية الدقيقة - أن يكون فى التعبير نفسه ما يشير إلى تلك الحالات أبلغ وأوجز إشارة .. وكان التعبير كذلك .

أما ما ذكروه عن امرئ القيس .. فإن موسيقى الشعر . وما كان فيه الشاعر من موقف يترقب فيه الخطر . فإن من الخير له أن يستبدل بالكلمات الهمسات وبالهمسات الإشارات خوفاً من أسماع وأعين الرقباء .

وهذه حالة شبيهة بتلك . ناسبها أن يخرج التعبير على الصورة التى جاء عليها فى الموضعين .

---

(١) يوسف : ٨١ - ٨٦

ذلك ما أراه لائقاً لتوجيه المعنى - بلاغياً - فوق الجواز النحوى .

أما النوع الثانى من ضابطى حذف الحرف - وهو النوع الذى يعتبر الحرف فيه محذوفاً فى موضع قياساً على موضع آخر جاء مذكوراً فيه - فإن أمثلة ذلك من القرآن كثيرة ...

* *

● حذف الواو وذكره :

ومنها قوله تعالى فى شأن أهل النار : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

فى هذه الآية حذف حرف الواو وقبل : « فتحت » بدليل ذكرها فى موضع آخر مماثل لهذا الموضع . وهو قوله تعالى فى شأن أهل الجنة : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ * فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٢) .

● دلالة هذا الحذف :

الواو - إذن - محذوفة فى الموضع الأول . مذكورة فى الموضع الثانى . فما السر فى الحذف هناك والذكر هنا ؟ وما الذى ترتب على الحذف والذكر من تغيير فى المعنى وفى الإعراب ؟

لقد كان لهذا الصنيع أثره فى الموضعين . ويمكن تلخيصه فيما يأتى :

١ - حذف الواو فى الآية الأولى محض ما بعدها للشرط . فأصبح جواباً لـ « إذا » ، أما ذكرها فى الثانية فقد حمى ما بعدها أن يقع جواباً للشرط .

---

(١) الزمر : ٧١ (٢) الزمر : ٧٣

ولوّح بأن الجزاء محذوف . ولأنه صفة ثواب أهل الجنة . فدل بحذفه على أنه شئ لا يحيط به الوصف (١) .

٢ - والحذف فى الأولى دل على أن أبواب جهنم فتحت حين جاءوها ، لأن « إذا » ظرف لما يُستقبل من الزمان ، و « فتحت » جوابها ، والذكر فى الثانية دل على أن أبواب الجنة كانت مفتحة قبل أن يأتوها . فلماذا - إذن - كانت أبواب جهنم مغلقة ثم فتحت حين جاءوها ، وأبواب الجنة مفتحة قبل أن يأتوها ؟

٣ - والجواب : لأن جهنم سجن ، والسجن ذلك شأنه : حُرّاس شداد ، وأبواب محكمة الإيصاد : ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ (٢) .

والجنة دار كرامة وتشريف ، فللترحيب بهم استعدت لهم قبل وصولهم ، ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ ﴾ (٣) .

* *

● موضع آخر لحذف الواو :

فتلك أسرار ثلاثة استفيدت من حذف حرف فى موضع ، وذكره فى موضع آخر مماثل .

ومثله فى كون الواو محذوفاً فى موضع ومذكوراً فى آخر مماثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَٰلِكُم بَلاَءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ، وَفِي ذَٰلِكُم بَلاَءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٥) .

---

(١) الكشاف للزمخشرى : ١١٤/٤ (٢) البلد : ٢٠ . (٣) سورة ص : ٥٠ .

(٤) البقرة : ٤٩ (٥) إبراهيم : ٦

وتوجيه التعبير فى الموضعين ميسور . لأنهما - وأن اتحدا فى الغرض العام - فبينهما فرق واضح هو مكمن السر فى الذكر والحذف .

فالآية الأولى تذكير من الله - مجرد تذكير - بما حدث لبنى إسرائيل من بطش فرعون وآله .

وفى الآية الثانية يعمد موسى - عليه السلام - إلى تذكير بنى اسرائيل بنعَم اللّه .. ويعدد عليهم تلك النعَم . فلم يكتف بذكر الإنجاء . بل مهَّد له من أول الأمر للتذكير فناسب ذلك تعداد النعَم . والفصل بين آحادها . فكأنه جعل سومهم العذاب محنة مستقلة نجاهم اللّه منها . وعطف عليها غيرها .

لذلك جئ بالواو بين النوعين . ومعروف أن العطف بالواو يقتضى المغايرة .. فلو ترك هذا العطف لصار السوم والتذبيح نوعاً واحداً . ويكون الثانى تفسيراً للأول . كما هو فى الآية الأولى .

وإلى هذا المعنى أشار الزركشى فى شئ من الإجمال [1] .

ومثله كذلك قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، قُلْ رَّبِّى أَعْلَمُ بعدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ، فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً ﴾ [2] .

فقد جاء « رابعهم » و « سادسهم » . بعد « ثلاثة » و « خمسة » بدون واو ... ثم خولف فى « سبعة » هذا النسق . حيث عطف عليها « ثامنهم » بالواو . والمواضع الثلاثة متماثلة .

فلا بد من سر خفى اقتضى الحذف فى الأولين . والذكر فى الثالث .. فما هو إذن ذلك السر ؟

*

---

(١) البرهان : ١١٦/١

(٢) الكهف : ٢٢

● توجيه النص مع الحذف وعدمه :

تعددت الآراء فى توجيه ذلك ..

ففريق يقولون : إنها واو الثمانية (١) .. ويذكرون على ذلك أمثلة من القرآن الكريم اتفق لهم فيها مجئ هذه الواو فيما هو مظنة ذلك . منها : أن الله يقول فى شأن أبواب الجنة : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ (٢) ، وفى أبواب النار : ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ وأبواب الجنة ثمانية وأبواب النار ودركاتها - سبعة .

ومنها قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ، وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

وعدُّوا منها - كذلك : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ (٤) ، لأن « أبكاراً » ثامن كذلك . .

● رد ابن المنير على هذا الرأى :

وقد شنَّع ابن المنير على مَن يقول بواو الثمانية هذه ولم يرضه . وناقش أدلتهم وانتهى من المناقشة بأن ما زعموه من وجود واو ثمانية فى اللغة العربية غير مُسلَّم . وأن كل واو جاءت فى موضع مما يستدلون به هى لغير ما يرون . فالواو فى : ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ للربط بين الصفتين المتعاطفتين . ويؤيد رأيه بأن هذه الواو صاحبت هاتين الصفتين فى جميع استعمالاتهما مثل : ﴿ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾ (٥) ، و ﴿ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ ﴾ (٦) . والواو فى قوله تعالى : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ للتقسيم . ولو حذفت لذهب المعنى المراد .

---

(١) واو الثمانية هى التى تعطف الثامن على السابع .

(٢) الزمر : ٧٣ — (٣) التوبة : ١١٢ — (٤) التحريم : ٥

(٥) لقمان : ١٧ — (٦) التوبة : ٧١

يقول ابن المنير مستخلصاً من كل ما سبق : « فقد وضح أن الواو في جميع هذه المواضع المعدودة لغير ما زعمه هؤلاء ، والله الموفق » [1] .

* *

● إضافة :

ونضيف إلى ما ذكره ابن المنير ما يأتي :

إن الواو كما دخلت على : ﴿ وَالنَّاهُونَ ﴾ دخلت على ﴿ وَالحَافِظُونَ ﴾ وهي التاسعة فهلاً قالوا بأنها واو التسعة ، مشابهة لتلك ؟ وحيث لم يسغ لهم هذا القول فما الفرق - إذن - بين الواوين الداخلتين على : ﴿ وَالنَّاهُونَ ﴾ ، ﴿ وَالحَافِظُونَ ﴾ ؟

أرى أن ليس فيما ذكروه حُجَّة لهم على هذه الواو المدَّعاة .

ويوجه الزمخشري - فيما يذكر - التعبير . فيقول : « إن هذه الواو هي التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة . وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف .

وإن اتصافه بها أمر ثابت مستقر . وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا : ﴿ سَبعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ قالوا عن ثبات علم . وطمأنينه نفس . ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم .

والدليل عليه أن الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله : ﴿ رَجْماً بِالْغَيْبِ ﴾ وأتبع القول الثالث قوله : ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [2] .

وأقول : إن الذي ذكره الزمخشري توجيه صائب . ورأى سديد لائق بكتاب الله تعالى ، وأنا مع مَن ينكر أن هذه الواو تسمى واو الثمانية . لأنه حتى ولو سلمنا به لاحتاج الأمر إلى توجيه آخر هو :

---

(١) على هامش الكشاف : ٥٥٧/٢

(٢) الكشاف : ٥٥٧/٢ (بتصرف في الصياغة) .

لماذا اختصت اللغة العربية الثمانية بهذه الواو دون غيرها من الأعداد ؟ وأظن أن محاولة توجيه هذا الجعل الأخير لا يخرج عن تعليلات ليس تحتها طائل .

* *

● موضع ثالث لحذف الواو :

ومن أمثلة حذف الواو وذكرها أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ (٢) .

فالموضعان متماثلان . وقد ذكر الواو فى الأولى . وحذف فى الثانية .. فما السر ؟

وقد رد ابن الأثير المسألة إلى مجرد الجواز من حيث الصناعة النحوية . قال : « اعلم أن كل اسم نكرة جاء خبره بعد « إلا » . يجوز إثبات الواو فى خبره وحذفها ، كذلك قولك : ما رأيت رجلاً إلا وعليه ثياب . وإن شئت قلت : إلا عليه ثياب - بغير واو » (٣) .

وكلام ابن الأثير على ما فيه من خلط بين الخبر والصفة لا يحل الإشكال لأن مجرد الجواز النحوى تخريج عام لا ينطبق على موضوعنا هذا إلا من وجه بعيد كما ترى .

ويقول الزمخشرى : « هذه الواو ذكرت فى آية الحِجْر لتفيد لصوق الصفة بالموصوف على نحو ما كان فى قوله تعالى : ﴿ سَبعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ (٤) .

* *

---

(١) الحجر : ٤ (٢) الشعراء : ٢٠٨ (٣) المثل السائر : ٢/ ٢٣٠

(٤) الكشاف : ٢/ ٤٤٤ - والآية من سورة الكهف : ٢٢

- **هل توجيه الزمخشرى مقنع ؟**

وكلام الزمخشرى على ما فيه من قُرب إلى الصواب حيث حلّل الفكرة تحليلاً مباشراً ولم ينزلها على تخريج عام – مع هذه الإعتبارات كلها – لا يقنع الباحث لأنه يرد عليه سؤال مؤداه : لماذا رجح لصوق الصفة بالموصوف فى الآية الأولى .. ورجح عدم لصوقها فى الثانية ؟

والذى أراه فى توجيه المسألة – بعد موافقة الزمخشرى على أن الواو مفيدة للصوق الصفة بالموصوف – أن المقام فى الأولى يقتضى التأكيد بخلاف الثانية .

لأن الصفة المراد إثباتها فى الأولى كون القرية ذات كتاب سابق قد أُنزل على رسولها لا الكتاب المحفوظ المقدّر فيه أجلها – كما يقول الزمخشرى – وذلك لأن الآية تهدف إلى أنهم أُنذروا ولم يؤخذوا ظلماً .

والصفة المراد إثباتها فى الثانية كون القرية ذات منذرين . وفرق بين الكتاب والمنذرين ، لأن الكتاب ليس له من قوة الظهور ما للرسل . لذلك كان المقام فى الأولى مقام تأكيد ، وفى الثانية – أعنى ظهور المنذرين – لأنهم جماعة من الناس فهم فى غنى عن التأكيد الذى احتاجت إليه الأولى . فكان الذِكر والحذف من أجلهما .



- **حذف حرف الجر « الباء » :**

ومثل ذلك – فى غير الواو – حذف حرف الجر « الباء » فى قوله تعالى : ﴿ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (١) .

---

(١) آل عمران : ١٨

قوله تعالى : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ [1] .

هذان موضعان متماثلان تمام التماثل . وقد خولف بينهما . فجاء التعبير فى آية آل عمران بعطف ﴿ الزُّبُرِ ﴾ و ﴿ الْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ على ﴿ البَيِّنَاتِ ﴾ محذوفاً منهما حرف الجر « الباء » الداخلة على المعطوف عليه . وهذا حسن وفصيح .

ثم جاء التعبير فى آية فاطر مذكوراً فيه حرف الجر « الباء » فى المعطوفين : ﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴾ و ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ .

● توجيهى للمسألة :

ولم أر توجيهاً لأحد فى هذا ... ولذلك فإنى أوجهه - فيما أرى - على النحو الآتى :

أولاً : إن ذكر الحرف فى المواضع الثلاثة - المعطوف عليه ، والمعطوفين - جاء فى سورة « فاطر » وهى مكية النزول . فهى إذن أسبق وجوداً بين الناس بهذا الاعتبار فهى مؤسسة للمعنى الوارد فيها بخلاف ما فى « آل عمران » ، لأن « آل عمران » مدنية النزول .

ثانياً : إن القوم فى مكة يختلف حالهم عن القوم فى المدينة من حيث الاستجابة إلى الدعوة والإسراع إلى الإيمان . فأهل مكة أهل عناد وتحد ، وأهل المدينة أهل إسلام وطاعة .

ثالثاً : هذان الاعتباران يفيدان أن المقام فى مكة كان يقتضى التأكيد فى المعانى لتقريرها ورسوخها لتتناسب مع حالة الإنكار التى كانوا عليها . وعلى هذا جاء التعبير فى « فاطر » المكية . لأن تكرار حرف الجر فى المواضع الثلاثة يشعر بتكرار المتعلق ، فكأنه قال : جاءوا بالبيِّنات . وجاءوا بالزبر . وجاءوا بالكتاب المنير .

---

(1) فاطر : ٢٥

وخلا التعبير المدنى من هذا التكرار لعدم الحاجة إليه لإسلام أهل المدينة وطاعتهم .

* *

● صورة أخرى لحذف الحرف فى القرآن :

وقد يأتى الحرف فى القرآن محذوفاً على غير الصور السابقة . ففيها كان الحرف المحذوف من الحروف التى ليست من بنية الكلمة كـ « واو العطف » و « باء الجر » و « ياء النداء » . أما ما نحن بصدد ذكره فهو حذف حرف من بنية الكلمة . فتأتى فى موضع آخر على صورة أخرى .

ونكتفى فى هذا النوع بذكر مثال واحد .

قال سبحانه فى سورة البقرة : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدىً فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [(١)] .

وقال فى طه : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ ﴾ [(٢)] .

والشاهد فى « تبع » و « أتبع » الأولى بدون همزة وبتخفيف الباء . والثانية مقترنة بهما . ولذلك سر فما هو ؟

*

● توجيهات العلماء للمسالة :

نقل عبد الغنى الراجحى أقوال للأئمة فى توجيه هذا التعبير [(٣)] ..

الإمام البقاعى يرى أن المقام فى « طه » مقام تحذير ونسيان فشدّد الفعل حثاً على النشاط والجد وقد سبقه مباشرة : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ والمقام يتطلب أدنى اتباع وأقله . وقد جاء جواب الشرط فى الموضعين مناسباً لدلالة

---

(١) البقرة : ٣٨ (٢) طه : ١٢٣

(٣) المناهج الجديدة فى تفسير آيات الله المجيدة : عبد الغنى الراجحى ص ٧٨

الفعل فهو فى طه : ﴿ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ ﴾ ، وفى البقرة : ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بنفى الضلال والشقاء فى الأول . والخوف والحزن فى الثانى .

ويقول الأنصارى : إن القصة فى « طه » بنيت من أولها على القوة والمبالغة والتوكيد فناسب آخرها أولها [1] .

ويقول ابن جماعة : إن التشديد فى « طه » للتصريح بمعصبة آدم وقد سبقه الاتباع مشدداً فى نفس السورة [2] .

ويقول صاحب ملاك التأويل : « إن صيغة التخفيف فى سورة البقرة حيث لم يتقدم فى حكاية إغواء إبليس لآدم ذكر وسوسة الشيطان والاحتيال عليه . وصيغة التشديد فى « طه » حيث تقدمت وسوسة اللعين صريحة وسعة مكره واحتياله . فكان المخفف بجوار ما لا تعمل فيه . والمشدد بجوار ما فيه ذلك [3] .

هذا ما ذكره الراجحى عن الأئمة السابقين . وكل هذه التوجيهات تبدو وجيهة لا ريب وما منها إلا وهو لائق بالمقام . والنكات - كما يقولون - لا تتزاحم . فلتكن كلها مرادة للحكيم سبحانه خاصة وأن ليس بينها تدافع .

أما رأى الراجحى نفسه فى الموضوع - والذى أراه معه - فهو أن المشدَّد كان مع أهل مكة . والمخفَّف كان مع أهل المدينة . ولا ينكر أحد ما بين البيئتين من فروق . وكيف أن القرآن كان شديداً فى تعبيره مع أهل مكة . رقيقاً فيه مع أهل المدينة .. ذلك هو منهج القرآن مع الفريقين .

ما سبق كان خاصاً بحذف الحرف فى القرآن سواء أكان خارجاً عن بنية الكلمة أو داخلاً فيها . وهى مُثُل مضروبة لا على سبيل الاستقصاء .

* * *

---

(١) المصدر السابق .

(٢) يقصد قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ ﴾ (طه : ١٠٨) .

(٣) المناهج الجديدة ص ٨٠ .

ثانياً - حذف الكلمة المفردة :

وخطة البحث هنا تجرى على هذا النسق :

(أ) حذف الفعل . (ب) حذف الفاعل . (جـ) حذف المبتدأ .

(د) حذف الخبر . (هـ) حذف الموصوف . (و) حذف الصفة .

(ز) حذف المضاف . (ح) حذف المضاف إليه .

١ - حذف الفعل :

يأتى حذف الفعل فى القرآن الكريم على ضربين :

١ - ضرب يُحذف فيه الفعل دون تعويض . ويبقى عمله من رفع ونصب .

٢ - وضرب يُحذف فيه الفعل مع إقامة شئ مقامه . وهو التعويض الذى نقصده ويكون الشئ المقام مقامه « العوض » على جهة الإبانة أو التفسير له . وكل من هذه الأنواع لا يُصار إليها إلا لغرض بيانى .

من ذلك حذف الفعل إذا وقع اسم مرفوع على الفاعلية بعد أدوات الشرط : « إن » و « إذا » .

مثل ذلك مطالع سور التكوير والانفطار . والانشقاق . ومواضع أخرى مثبوتة فى ثنايا السور المختلفة :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ (١) .

---

(١) التكوير : ١ - ١٤

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا القُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ (١) .

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ ﴾ (٢) .

*

فى « التكوير » حذف الفعل بعد أداة الشرط « إذا » فى إثنى عشر موضعاً . وولى الاسم مرفوعاً أداة الشرط . ثم فسَّر ذلك الفعل المحذوف بإعادته بعينه بعد الاسم المرفوع . والفعل المحذوف فى هذه المواضع هو فعل الشرط (٣) ، ويجب تقديره فى مثل هذه الاستعمالات لأن أدوات الشرط مختصة بالدخول على الأفعال دون الأسماء . وذلك هو الأصح عند البصريين وبعض العلماء .

وفى « الانفطار » حذف الفعل بعد أربع أدوات للشرط . وفعل فيه ما فعل فى سابقه .

وفى « الانشقاق » حذف فى موضعين كذلك . وفى كل بقى الفاعل مرفوعاً .

ودليل الحذف ما ذكرناه من مذهب البصريين من أن أدوات الشرط لا تدخل إلا على الأفعال .

* *

---

(١) الانفطار : ١ - ٥ (٢) الانشقاق : ١ - ٦

(٣) جرينا - هنا - على مذهب البصريين . أما الكوفيون والأخفش - من البصريين - فيرون خلاف ذلك .

● سبب الحذف هنا :

ذلك هو الدليل .. فما هو السبب ؟

إنه حذف لإرادة التأكيد المستفاد من تكرار الإسناد . فالفعل فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ قد أُسند إلى الفاعل مرتين. مرة - محذوفاً - إلى الظاهر « الشمس » ومرة - مذكوراً - ضمير الفاعل « هى » .

فكأنه قال : إذا كُوِّرت الشمس كُوِّرت الشمس .. والمقام فى كُلٍّ يقتضى التوكيد لغرابة الأفعال والظواهر المدلول عليها . لأن الناس لم يشهدوا مثلها من قبل . ولن يشهدوا ذلك إلا مرة واحدة يوم البعث .

وفضلاً عن غرابتها فى نفسها ومخالفتها للسنن المعهود - فإنها تتصل بقضية البعث اتصالاً مباشراً ، والبعث كان - كما نعلم - مثار جدل ومبعث إنكار والمناسب له التوكيد والتقرير . وكان ذلك هو ما فعله القرآن . وهذه السور جميعها مكيات النزول .

وقد جاء ذلك فى سورة التوبة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ (١) .. فقد اقتضى المقام هنا التوكيد لأن إستجارة المشرك بعدوه المسلم مما يُنكر ويُستغرب . فخرج الكلام مخرج التوكيد .

قال الزمخشرى : « أحد » مرتفع بفعل الشرط مضموراً يفسره الظاهر .. تقديره : وإن استجارك أحد استجارك ، ولا يرتفع بالابتداء (٢) لأن « إن » من عوامل الفعل لا تدخل على غيره . والمعنى : إن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن . وتبيِّن ما بعثت له فأمِّنه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلِّع على حقيقة الأمر . ثم أبلغه بعد ذلك داره التى يأمن فيها . إن لم يسلم » (٣) .

---

(١) التوبة : ٦

(٢) يرد بذلك على ما يراه الكوفيون والأخفش من البصريين .

(٣) الكشاف : ١٩٣/٢ وما بعدها .

وترى أن الزمخشرى لم يذكر سبب الحذف البيانى . وهو لا يخرج عما قلناه . ويُحذف الفعل أحياناً - ويُعوَّض عنه مصدره للدلالة على التأكيد كذلك ، وقد مَثَّل له ابن الأثير بقوله تعالى : ﴿ فَإذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الوَثَاقَ * فَإمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإمَّا فِدَاءً ﴾ (١) .

فقد حذف الفعل وأُقيم مصدره مقامه . والمعنى : فاضربوا الرقاب ضرباً .

قال ابنَ الأثير : « وفى هذا معنى التوكيد والمبالغة والاختصار (٢) وجرى الزمخشرى على هذا التوجيه » (٣) .

وقد ناب المصدر عن فعله فى موضعين أخرين فى هذه الآية : ﴿ فَإمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإمَّا فِدَاءً ﴾ . إذ التقدير : فإما تمنون مَنّاً . وإما تفدون فداءً .. وفيهما ما فى الأولَ . ويبدو أن المقام مبنى على الإيجاز لنزول هذه الآية فى ظروف الحرب .

وقد يكون السر البيانى فى حذف الفعل هو الاختصاص كما فى قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِى إسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإيَّاىَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلاً وَإيَّاىَ فَاتَّقُونِ ﴾ (٤) .

فقد حذف الفعل فى الآيتين فى فواصلهما : ﴿ إيَّاىَ فَارْهَبُونِ ﴾ و ﴿ إيَّاىَ فَاتَّقُونِ ﴾ والمعنى : « إياى فارهبوا فارهبون . وإياى فاتقوا فاتقون » .

قال الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿ وَإيَّاىَ فَارْهَبُونِ ﴾ هو من قولك : زيداً رهبته . وهو أوكد فى إفادة الاختصاص من : ﴿ إيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (٥) .

---

(١) محمد : ٤

(٢) المثل السائر : ٢/٢.٣

(٣) الكشاف : ٤/٢٥١

(٤) البقرة : ٤٠ - ٤١

(٥) الكشاف : ١/ ٧٠ وما بعدها .

فالاختصاص من تقديم المفعول « إياى » والتوكيد من تكرار الفعل المفسر ولعل هذا هو الفرق الذى قصد إليه الزمخشرى بين : ﴿ وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ ﴾ . و ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لأن « إياك » منصوب بالفعل بعده لعدم اشتغاله بسواه و ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ يفيد الاختصاص - دون التوكيد - لعدم إرادة تقدير فعل قبل « إياك » .



● إيضاح :

وفى عدى حذف الفعل - هنا - لإفادة الاختصاص مجاراة لما ذكره الزمخشرى والسيد وصاحب المطول « وإلا فالحقيقة أن الاختصاص مستفاد من تقديم المفعول لا من التكرار . بدليل وجود الاختصاص مع عدم التكرار المفهوم من الحذف » .

وإلى هذا يشير السيد فى حاشيته على المطول فيقول : « وقدّم المفعول عوضاً عنه - أى عن الشرط المحذوف - على أحد الرأيين مع كون تقديمه مفيداً لأمرين أخريين : الاختصاص وصيرورة « الفاء » متوسطة فى الكلام كما هو حقها . فصار الكلام هكذا : « إياى فارهبوا . ثم كرر الفعل تأكيداً وقصداً » (١) .



● حذف الفعل اكتفاءً بآخر :

وقد يُحذف الفعل لوقوعه فى خير فعل آخر لكل منهما معموله فى الكلام . ولقوة اختصاص ذلك المعمول بفعله . ودليل الحذف فى هذا النوع هو العُرف اللغوى ، أو الشرعى .. فمن الأول قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ﴾ (٢) والتقدير : فأجمعوا أمركم . وادعوا شركاءكم ، وقد جاء ذلك

---

(١) حاشية السيد على المطول ص ١٩٩ - ط . الآستانة .

(٢) يونس : ٧١

صريحاً فى قراءة ابن مسعود وأُبَىّ . فقد نص على ذلك الزمخشرى [١] ، وابن الأثير [٢] .

فـ « أمركم » معمول « أجمعوا » .. و « شركاءكم » معمول الفعل المحذوف « ادعوا » ، والدليل هو العُرف اللغوى إذ لا يصح أن يتعلق « الشركاء » بإجماع الأمر والرأى .

أما السبب فإيجاز مع تكثير المعنى . ولإخراج المعمولين المختلفى العامل مخرج المعمولين لمعمول واحد لسبق إجماع الرأى على دعوة الشركاء .. ولأن كِلاً الأمرين مطلوبان لموقف واحد هو أن يتحدوا ما استطاعوا ضد نبى اللّه نوح عليه السلام .ولينظروا بعد حشد كل ما يمكنهم من عوامل الانتصار مَن هو المنتصر ؟

والواو ليست عاطفة مفرداً على مفرد . بل جملة على جملة - كما ترى . وعليه [٣] جاء قول الشاعر :

« علفتها تبناً وماءً بارداً » - أى : وسقيتها ماءً بارداً

ومثله : « وزججن الحواجب والعيونا » . أى : وكحلن العيون . لأن العُرف اللغوى يمنع من تشريك ما بعد « الواو » مع ما قبله فى حكمه . لأن لكل منهما متعلقاً خاصاً لا يصح تعليق الآخر به ، وجعل الفعل المذكور - فى الظاهر - للمعمولين - وهو فى الواقع لأحدهما ضرب من التعبير فيه خلابة وسحر .

ويرى الزمخشرى أن « الواو » فى الآية الكريمة ليست للعطف . بل هى بمعنى « مع » ، ويرى أن مجئ الشركاء على هذا الوضع فيه معنى التهكم [٤] .

وكِلاً التوجهين لا يأباه الأسلوب .

---

(١) الكشاف : ٢٢٨/٢

(٢) المثل السائر : ٣٠١/٢

(٣) أى على العُرف اللغوى .

(٤) الكشاف : ٢٨٢/٢

ومثال ما دل على حذفه العُرف الشرعى دون اللغوى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .. ﴾ (١) . بنصب : « أرجلَكم » .

فـ « أرجلكم » معمول لفعل محذوف تقديره : واغسلوا أرجلكم . فالذى دَلَّ على الحذف وتعيين المحذوف - هنا - هو الشرع . لأنه أفاد أن الرجل فى الوضوء تُغسل ولا تُمسح كما يُمسح الرأس . فلذلك لم يصح عطفها على « رءوسكم » لئلا تشترك معها فى الحكم وهو فاسد كما ترى . ولم تُعطف على « وجوه » للفصل بين المتعاطفين .

ولعل السبب إخراج الأعمال التى يقوم بها المتوضئ مخرج اليُسر والسهولة فكان الحذف من أجل ذلك .

* *

● الحذف للتحذير والإغراء :

وقد يُحذف الفعل لإرادة التحذير أو الإغراء .

فمثال الأول قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾ (٢) .

أى : احذروا ، فحذف الفعل لما ذكر . وللاختصار - مع كثرة المعنى

ومثال الثانى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ، لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (٣) .

فحذف الفعل والتقدير : الزموا ، وعوّض عنه اسم الفعل « عليكم » .

وقوله تعالى : ﴿ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ ﴾ (٤) .

---

(١) المائدة : ٦ (٢) الشمس : ١٣

(٣) المائدة : ١٠٥ (٤) النساء : ١٧١

أى : انتهوا واصنعوا خيراً لكم [1] . فحذف الفعل دون تعويض وبقى معموله منصوباً على الإغراء ، والسر البلاغى فى الموضعين هو ضيق المقام . لئلا يصيبه مكروه فى الأول ولئلا يفوته الخير فى الثانى .

* *

● حذف الفعل إذا وقع جواب سؤال :

وكذلك يُحذف الفعل إذا وقع جواب سؤال – أى ضمنه – لقيام القرينة على تعيينه .. وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴾ [3] .

وتقدير المحذوف فعلاً فى الموضعين أولى من تقديره خبراً . ليتطابق السؤال مع الجواب ، ولأن الكثير الغالب فى جواب الاستفهام حذف المبتدأ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [4] .

﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمْ ، النَّارُ ﴾ [5] ، والقول بأن الفعل المحذوف خبر جائز وتقدير الجواب على الوجهين : « ليقولن خلقهن الله » . و « ليقولن الله خلقهن » .

ويؤيد هذا ما ذكره ابن هشام [6] عند تقدير المحذوف فى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [7] . حيث قال : « فلا يُقدَّر : ليقولن الله خلقهم . بل خلقهم الله ، لمجئ هذا فى شبه هذا الموضع وهو :

---

(١) النحو الوافى : عباس حسن : ٤/١٠٧ ، وفى الآية وجوه أخرى

(٢) العنكبوت : ٦١ (٣) الزمر : ٣٨ (٤) القارعة : ١٠ - ١١

(٥) الحج : ٧٢ (٦) المغنى : ٢/٦٥ (٧) الزخرف : ٨٧

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ ﴾ (١) . وفى مواضع آتية على طريقته نحو : ﴿ قَالَ نَبَّأَنِىَ العَلِيمُ الخَبِيرُ ﴾ (٢) . و ﴿ قَالَ مَن يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٣) .

ودليل الحذف أو مسوغه هنا كونه مذكوراً فى سياق جواب السؤال .. وهذا السؤال قد اشتمل على الفعل نفسه .

*

● سبب هذا الحذف :

والسبب البلاغى لهذا الحذف هو - والله أعلم - توفير العناية باسم الجلالة الذى هو المقصود الأهم . ولتكثير الفائدة لاختلاف التقدير كما رأينا .

وقد جاء فى سورة الزخرف مصرحاً بالفعل فى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ ﴾ .

وهنا تبدو ملاحظة هامة ...

إن هذه السور الأربع التى ورد فيها هذا السؤال مكيات النزول . وهذه مناسبة عامة لورود السؤال لما طُبِعَ عليه أهل مكة من جدل وعناد ، وإن السورة التى صرَّح فيها بالفعل فى صدر الجواب - وهى لقمان - هى أول سورة نزلت من هذه السور الأربع . ولذلك جاءت على الأصل . بدون حذف شئ لأنها سورة مؤسسة ، وجاء الحذف فيما نزل بعدها اعتماداً عليها .

وهناك مواضع كثيرة حُذِفَ فيها الفعل فى التنزيل الحكيم . ولكنها لا تخرج فى مجموعها عن التأكيد والتقرير والاختصاص . مثل قوله تعالى : ﴿ وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ ﴾ (٤) .

---

(١) الزخرف : ٩ — (٢) التحريم : ٣

(٣) يس : ٧٩ — (٤) يس : ٣٩

وقوله تعالى : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا ، لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (١) .

وخلاصة هذا الموضع : إن الفعل يُحذف - أحياناً - فى القرآن الكريم لداع بلاغى . وهذا الحذف يتوافر له الدليل القوى الدال عليه والسبب المرجح له . فهو صنيع حكيم ، وفن جليل من فنون التعبير لا تجد فيه إلا حكمه وإصابة .

* *

٢ - حذف الفاعل :

الفاعل ركن أساسى من ركنى الجملة الفعلية . ولذلك يمنع النحاة حذفه لغير علّة صرفية أو يمنعونه مطلقاً (٢) فالذكر هو الأصل فيه .

فالعلّة التى من أجلها يحذفون الفاعل خاصة بما إذا كان الفاعل « واو جماعة » وقد أكد فعله بـ « نون التوكيد » أو « ياء مخاطبة » وقد أكد مثل سابقه . والنحاة - غير الخضرى والصبان - يوجبون الحذف فى هذين الموضعين . والجواز فى سواهما (٣) . أما هما فيريان المنع مطلقاً وقد جاء ذلك كثيراً فى القرآن الكريم . مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٤) .

وقوله سبحانه : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً ، وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٥) .

---

(١) النحل : ٥

(٢) انظر الخضرى جـ ١ ، والصبان جـ ٢ . باب : « الفاعل .. موضع حذفه » .

(٣) كما إذا كان الفعل مبنياً للمجهول أو كان عامله مصدراً أو غيرهما ، واقتضى الحذف داع بلاغى .. انظر النحو الوافى : عباس حسن : ٥٩/٢

(٤) آل عمران : ١٠٢ (٥) آل عمران : ١٨٦

فقد حذف الفاعل وهو « واو جماعة » فى : « تموتن » و « لتسمعن » . لأنه التقى ساكناً مع نون التوكيد الساكنة « الأولى » فحذف للتخلص من التقاء الساكنين . ويقى الضم دليلاً عليه .

ومثاله مع ياء المخاطبة : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً ﴾ (١) .

هذا قياس مطرد فى كل ما كان شأنه كذلك . وقد نقلت الرواية العربية حذفه لغير هذا فى موضعين :

● حذف الفاعل على غير قياس :

أحدهما : فى قول العرب : أرسلت ، وهم يريدون جاء المطر ولا يذكرون السماء التى هى فاعل الإرسال .

وثانيهما : قول حاتم الطائى :

أماوِيُّ مَا يُغْنِى الثَّرَاءُ عَلَى الفَتَى
إذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

ومسوغ الحذف فى الموضعين قرينة الحال القوية التى لا يلتبس معها معنى بمعنى ، ففى « أرسلت » الفاعل معروف وهو السماء . لأن المطر لا يأتى إلا من جهتها . وفى « حشرجت » الفاعل معروف هو « النفس » لأنه لا يُحشرج ساعة الموت إلا هى (٢) .

وقوة القرينة أمر هام بنوا عليه كثيراً من الأساليب والأحكام اللغوية كتركهم علامة التأنيث فى الصفات الخاصة بالمؤنث والتى لا يشاركه فيها المذكر . مثل : حامل ، ومرضع ، وحائض .

* *

---

(١) مريم : ٢٦

(٢) انظر المثل السائر لابن الأثير : جـ ٣ : « حذف الفاعل » .

● مماثلة عجيبة .

ومن روائع الصدف : أن حذف الفاعل جاء فى القرآن الكريم – فى غير ما ذكر – فى ثلاثة مواضع منها موضعان شبيهان بالموضعين اللذين حذف فيهما عند العرب فى المثالين المذكورين .

فالأول قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ (١) . ففاعل « بلغت » هو النفس ولم يجر لها ذكر قبل حتى يُقَال إنها مضمرة . وهذا شبيه ببيت حاتم إذ الفاعل هناك النفس والفاعل هنا النفس . وكلاهما حديث عن ساعة الاحتضار . وهى القرينة الحالية التى دلّت على الحذف وعيّنت المحذوف .

ومثله قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَرَاقِىَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ (٢) . إذ لا يبلغ التراقى عند الموت إلا النفس .

والموضع الثالث هو قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ، حَتَّى تَوَارَتْ بِالحِجَابِ ﴾ (٣) . ففاعل : « توارت » هو الشمس فى أرجح الأقوال (٤) .

والشمس أكبر مظهر من مظاهر الطبيعة تسير فى مسار ونظام دقيق لا يتخلف ، وهى أشرف وأعظم الأفلاك .. فحذفت فى الآية لقوة ظهورها كما حذفت السماء فى قول العرب السابق : « أرسلت » لأنها مثل الشمس ظهوراً وعظمة ، وقوة القرينة مع الاختصار مرجح للحذف على الذكر لأن حذف ما يُعلم جائز ، كما يقول ابن مالك .

فهل بعد قوة القرينة من سبب بلاغى آخر للحذف أو لترجيحه على الذكر فى هذه المواضع ؟

*

(١) الواقعة : ٨٣ – ٨٤
(٢) القيامة : ٢٦ – ٢٧
(٣) سورة ص : ٣٢
(٤) انظر الكشاف : ٤/٧٢

● سبب حذف الفاعل فيها :

إن السر البلاغى لهذا الحذف - فيما أرى - هو ضيق المقام ، إذ المقام فى الأولين وصف ما يعترى المحتضر من عوارض الموت . وفى الثالث المقام مقام شكوى وندم .

وقد سوَّغت قوة القرينة الحذف فى موضع آخر وهو قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ ﴾ (١) . ففاعل « الظن » هو المحتضر إذ المقام يعنيه دون سواه ، وقد عبرَ عن شعور المحتضر بالظن دون اليقين . لأنه لا يعلم مجئ الأجل إلا اللّٰه وإن قويت علامات الموت عند الناس . فقد يتخلف ظنهم .



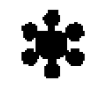
● موضعان آخران لحذف الفاعل فى القرآن :

وفى القرآن الكريم موضعان آخران حُذِفَ فيهما الفاعل .

أحدهما - قوله تعالى : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٢) . وقد اختُلِفَ فى الفاعل هنا فبعضهم يرى أنه : « بينكم » ويقرأه حينئذ بالرفع بدلَ النصبِ على الظرفية المكانية ، وعليه فلا حذف .

وبعضهم يرى : أن الفاعل محذوف تقديره الأمر - مثلاً - حذف لقوة إيحاء الفعل به (٣) .

والموضع الثانى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٤) . فالفاعل محذوف وهو المصدر المتَصيد من الفعلَ ، والتقدير : ثم بدَا لَهم سجنه . وهذا أليق من تقديره : ثم بدا لهم البداء . لأن الفعل المذكور : « ليسجننه » أقوى دلالة على الفاعل المحذوف .



---

(١) القيامة : ٢٨
(٢) الأنعام : ٩٤
(٣) من بلاغة القرآن : أحمد بدوى ص ١٦٩
(٤) يوسف : ٣٥

● وما سر الحذف إذن ؟

أما الأول فأرى سر الحذف فيه إرادة التعميم . ليقدروا ما شاءوا من صلات تعطلت كانت قوية بينهم . أو أى أمر كان يجمعهم إلى آخر ما يحتمله المقام .

وفى الثانى وضعوا الفعل موضع الفاعل لدلالة الفعل على الاستقبال لأنه حال التفكير فى الأمر واستقرارهم على أن يسجنوه لم يكن سجيناً . وإنما سُجِنَ بعد إجماعهم على هذا الرأى . ودلالة الفعل على الاستقبال ظاهرة . ولو قال : « بدا لهم سجنه » لفات هذا المعنى .

ومعنى آخر صلح له الفعل دون الاسم هنا هو : أن الفعل أمكن معه تصوير حالتهم النفسية وإجماعهم الأكيد على سجنه وأنهم لن يستبدلوا به أمراً آخر أخف منه فدخلت على الفعل لام القَسَم ونونه ، والاسم « سجنه » غير صالح لهذه الدلالات بداهة .

والدكتور أحمد أحمد بدوى يرى أن الحذف لمجرد أن الفعل شديد الإيحاء بالفاعل . هذا صحيح ولكن ما رأيناه بجانب هذا أولى فيما أظن .



٣ - حذف المبتدأ ، وحذف الخبر :

حذف أحد ركنى الجملة الإسمية - المبتدأ أو الخبر - كثير شائع فى الكلام العربى الفصيح وليس لديهم محظور فى حذف أيهما إذا دلَّت عليه قرينة . واقتضاه داع بلاغى أو صناعى .

وحذفهما له أحوال شتَّى عند النحاة . فقد يكون واجباً ، وقد يكون جائزاً .. وقد حققوا كل هذه المواضع ووضعوا أصولها وقواعدها .

وهذا بخلاف حرصهم الشديد على عدم الحذف فى الجملة الفعلية . إذ يرون أن ذِكر الفاعل - دائماً - واجب إلا فيما ذكرناه . والفعل الأصل فيه الذِكر . وليست هناك حالة واحدة يجب فيها حذفه فالأمر فيه دائماً محمول على الجواز .

فنظرتهم إلى ركنى الجملة الفعلية غير نظرتهم إلى ركنى الجملة الإسمية - كما رأينا - ولم أجد توجيهاً لأى أحد فى سبب اختلاف النظرتين . وإن كنت أرى أن الرابطة بين الركنين فى الإسمية رابطة متكافئة . فليس أحدهما فيها بأظهر من الآخر .

أما الرابطة بين الركنين فى الفعلية فغير متكافئة . لأنها ملحوظة فى الفاعل بدرجة أقوى إذ هو موجد للفعل . فيكون فى حذفه إجحاف بالمعنى فلم يترخصوا فيه .

وفى القرآن الكريم مواضع متعددة وكثيرة جداً لحذف المبتدأ . أو الخبر . أو هما معاً .. وفى كل موضع حدث فيه حذف من هذا النوع فالحذف فيه سواء أكان واجباً - كما ترى الصناعة النحوية - أو جائزاً .. فهو أحسن من الذكر .

خذ إليك - مثلاً - قوله تعالى فى مطلع سورة البقرة : ﴿ آلم * ذَٰلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ ، هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) . فقد جاء فيه المبتدأ محذوفاً قبل قوله « هدى » والتقدير : « هو هدى » .

فلماذا الحذف ؟

أرى أن سر الحذف - هنا - أمران :

أحدهما : الإشعار بالاتصال المباشر بين « الكتاب » و « هدى » بعد جملة الاعتراض ولو ذكر فقيل : هو هدى . لزال هذا الاتصال . لأنه مع الذكر يكون « هدى » خبراً عن ضميراً لكتاب .. ومع الحذف فإن أول ما يقع فى الذهن أنه صفة مباشرة له . وكم بين هذا الكتاب وبين الهدى من اتصال . حتى أوثر إنه هو الهدى نفس الهدى . ولم يقل : « هادياً » مثلاً .

---

(١) البقرة : ١ - ٢

ثانيهما : أن ذكر المبتدأ - هنا - يؤدى إلى نوع من الثقل اللفظى حيث يصبح التركيب : « فيه هو هدى » لاجتماع ثلاثة هاءات لم يفصل بينها إلا حرف واحد ، والهاء من حروف الحلق ، وحروف الحلق معروفة بالثقل .

هذا ما أراه . وأرى فى الوقت نفسه أن هذين الاعتبارين أولى مما ذهب إليه الدكتور أحمد أحمد بدوى من أن سر الحذف فيه خشية أن يبعث فى النفس السآمة والملل لشدة وضوحه (١) .

ويحذف المبتدأ - كذلك - إذا وقع فى سياق تقدم ذكره فيه . فتكون إعادته تكراراً لم تدع إليه حاجة . وأمثلة ذلك كثيرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِى النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لاَ تُبْقِى وَلاَ تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ (٥) .

وتقدير النظم فى الآية الأولى : « وهو رب المشرق » .. وفى الثانية : « هى لا تبقى » .. « هى لواحة » .. وهكذا بقية النصوص .

وليس مجرد قوة الظهور هى السر فى هذا الحذف . إذ لنا فى المثال الأول : « هو رب » أن نقول : إن الخبر المذكور لا يصح إسناده إلا لضميره . لأنه ليس للمشرق والمغرب رب سواه وحذف المبتدأ محقق لتكثير الفائدة . إذ يجوز تقدير

---

(١) انظر كتابه : من بلاغة القرآن ص . ١٢ .
(٢) المزمل : ٧ - ٩
(٣) المدثر : ٢٦ - ٣٠ .
(٤) القارعة : ٩ - ١١
(٥) الهمزة : ٤ - ٦

كلمة « رب » خبراً لمبتدأ محذوف هو « هو » ويجوز اعتباره بدلاً من « رب » الأولى فى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ (١) . قال الزمخشرى فى تفسيره : قرئ - يعنى « رب » الثانية - مرفوعاً على المدح ، ومجروراً على البدل من « ربك » . وعن ابن عباس : عن القَسَم بإضمار حرف القسم . كقولك : اللّه لأفعلن ، وجوابه : لا إله إلاّ هو (٢) .

فهذه معان ثلاث احتملها المقام بسبب الحذف .. ولو ذكر المبتدأ لاقتصر المعنى عليه دونما سواه .

وفى الأمثلة الثلاثة الأخر . تقدم ذكر النار فى أسماء لها وصفات . فصارت ماثلة فى الذهن . لأنها عظيمة الشأن تملأ النفوس رهبة ورغبة . رهبة من الوقوع فيها . ورغبة فى النجاة منها . فكان هذا كافياً فى حضورها فى الذهن عند الحديث عنها . وفى هذا الحذف ترهيب لا يخفى أثره .

وفيه كذلك تعجيل المساءة لهم . حيث حذف الضمير « هى » وعوجلوا بذكر النار أو بصفة من صفاتها المقبضة مثل : ﴿ لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ .



• أسباب أخرى لحذفهما :

ويحذف الخبر كذلك عند ظهوره وسهولة تعيينه مثل قوله تعالى : ﴿ وَاللائِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَاللائِى لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُوْلاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ (٣) .

فقد حذف الخبر من قوله تعالى : ﴿ وَاللائِى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ والتقدير : واللائى لم يحضن كذلك أو مثلهن . فيكون الخبر محذوفاً وحده .

---

(١) المزمل : ٨ (٢) الكشاف : ٥١٢/٤ (٣) الطلاق : ٤

أو التقدير : فعدتهن كذلك ، فيكون المبتدأ والخبر محذوفين .. والذى سوّغ الحذف هنا هو العطف بالواو . لأن العطف يشرك المعطوف عليه فيما ثبت له من الإعراب والحكم .

ولذلك صرّح بالخبر بعده فى قوله تعالى : ﴿ وَأُوْلاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ لاختلاف أجل الحامل عن أجل غيرها : مَن هى يائسة من المحيض . أو مَن لم تحض . فذكر الخبر هنا واجب لأن حذفه يؤدى إلى فساد المعنى .

كذلك ورد حذف الخبر فى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ، أُوْلَئِكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

وقبله حذف من نفس السورة « الزمر » فى قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

وكذلك جاء فى سورة فى « فاطر » فى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣) .

هذه مواضع ثلاثة حُذِفَ فيها الخبر . وفى « فاطر » قدّر الزمخشرى الخبر بقوله : « أفمن زُيِّنَ له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يُزَيَّنْ له » (٤) ؟

وتابعه النسفى على هذا التقدير . ثم نقل عن الزجاج تقديرين آخرين . قال : « وذكر الزجاج أن المعنى : أفمن زُيِّن له سوء عمله ذهبت نفسك عليه حسرات . فحذف الجواب لدلالة : فلا تذهب نفسك عليه .

---

(١) الزمر : ٢٢ (٢) الزمر : ٩

(٣) فاطر : ٨ (٤) الكشاف : ٤٧٣/٣

أو : أفمن زُيِّنَ له سوء عمله كمن هداه الله . فحذف لدلالة : فإن الله يضل من يشاء ويهدى مَنْ يشاء عليه » [١] .

وأقوم هذه الآراء - فيما أظن - الرأى الثالث مع احتمال الأسلوب لها جميعاً .

ولعل هذا هو سر الحذف فى هذه المواضع : أن تختلف وجهات النظر فيكثر معها المعنى ويتعدد .

أما الموضعان اللذان فى « الزمر » فقد قدر الخبر فيهما على النحو الآتى :

« أفمن هو قانت كغيره ، ثم : أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن لم يشرح صدره » ؟ [٢] . وإذا قارنا بين المواضع الثلاثة نجد أنها :

أولاً : تنكر المساواة بين فريقين مختلفين فى العقيدة والسلوك . وفى المنزلة عند الله .

ثانياً : أنها - جميعاً - صدرت بحرف الاستفهام الإنكارى .

ثالثاً : أن المحذوف فيها ظاهر تعيينه لدلالة الكلام عليه ، وإن اختلف فيه أحياناً . والحذف مما يُمكِّن المحذوف من النفس بعد البحث عنه والتوصل إليه .

وهكذا فقد اجتمع للحذف فى هذه المواضع : المسوغ والمقتضى .

وكذلك جاء حذف الخبر فى قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [٣] .

أى : حلٌّ لكم . وقد أغنى عن ذكره التصريح به مرتين فى صدر الآية . فكان فى حذفه حُسن الدلالة مع الإيجاز وعدم التكرار .

* *

---

(١) تفسير النسفى : ٣/٣٣٦ (٢) الكشاف : ٤/٩٠ (٣) المائدة : ٥

● حذف الخبر مع « لا » النافية :

ومن المواضع التى كثر فيها حذف الخبر « لا النافية للجنس » مثل قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ لاَ ضَيْرَ ﴾ [1] أى علينا .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُواْ فَلاَ فَوْتَ ﴾ [2] : أى لهم .

فالمحذوف فى هذا كله الخبر إلا فى آية اليائسات من المحيض فقد صح كون المحذوف الخبر وحده . أو هو مع مبتدئه .

وهناك موضع آخر يصح فيه تقدير المحذوف - خبراً . أو مبتدءاً - وهو الواقع بعد « الفاء » الواقعة فى جواب شرط .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [3] .

وقوله : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ ﴾ [4] .

وقوله : ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ [5] .

ومثله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [6] .

ففيما عدا الأخير جاز التقدير أن يكون هكذا : فالواجب : عدةٌ من أيام أخر. أو : فعدةٌ من أيام أخر واجب صيامها . وهكذا البواقى

وفى الأخير يقدر : فأمرى ، أو شأنى صبر جميل ، أو : صبر جميل أمثل . وأنت ترى أن تكثير المعنى مع الإيجاز مصاحب لهذه الأساليب مع خلوها من الإجحاف والجور على المعنى .

* *

---

(١) الشعراء : ٥٠ (٢) سبأ : ٥١ (٣) البقرة : ١٨٦

(٤) النساء : ٩٢ (٥) المجادلة : ٤ (٦) يوسف : ١٨

٤ - حذف الموصوف وحذف الصفة :

جاء حذف الموصوف فى الكلام الفصيح كثيراً وهو أكثر من حذف الصفة لأنه أقوى منها ، وجاء ذلك فى القرآن الكريم على صور متعددة . منها قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾ (٥) .

هذه مواضع حُذِفَ فيها الموصوف . لأن التقدير فى الأولى : حور قاصرات الطرف .. وفى الثانية : دروعاً سابغات . وفى الثالثة : ضحكاً قليلاً وبكاءً كثيراً ، وفى الرابعة : المِلَّة القيِّمة . وفى الخامسة : الحياة الآخرة .

وأرى أن السر البلاغى فى حذف هذه الموصوفات - مما ذكرناه وما لم نذكره وهو كثير - هو توفير العناية بالصفة لأنها المطلوبة .

فقصر الطرف هو دليل العفة المطلوبة فى كل امرأة .

والظاهر فى الثانية الاهتمام بجودة الصنعة لأن المطلوب أن تكون الدرع سابغة لا مجرد درع ، فأقيمت هذه الصفة التى هى محل العناية من كل درع مقام الموصوف .

كذلك فإن القِلَّة من الضحك . والكثرة من البكاء هما المطلوب إثباتهما دون مجرد الضحك أو مجرد البكاء .

---

(١) سورة ص : ٥٢ (٢) سبأ : ١٠ - ١١ (٣) التوبة : ٨٢
(٤) البينة : ٥ (٥) الأنعام : ٣٢

و « القيِّمة » وصف حاز كل فضيلة فليس المراد كلمة « مِلّة » لأن هذه تُطلق على كثير من العقائد الضالة وغيرها . إنما المطلوب الوصف « القَيِّمة » وهو ما يفصل بين ما هو حق وما هو باطل . فهو بالعناية أولى .

وكثيراً ما اجتزئ بالآخرة – وهى صفة – عن الحياة وهى موصوف فى التعبير القرآنى كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ (١) ، وإذا كثر اتصاف الشئ بصفة واشتهر بها صلحت لأن تقوم مقامه .

وهذا الوصف « الآخرة » هو الفاصل بين الحياتين : الأولى والآخرة . لأنهما جميعاً يشتركان فى مطلق حياة . فكان لهذا الوصف الذى لا اشتراك فيه فضيلة ليست لغيره .

لذلك نرى القرآن يُفرِّق بينهما حتى فيما هما مشتركتان فيه من لفظ « الحياة » إذ يقول : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . فزاد فى بِنية الكلمة زيادة تفيد المبالغة فى إثبات المعنى . فكاد يسلب عن الحياة الأولى معنى الحياة . ويفيد – فى نفس الوقت – أن الحياة الحقيقية إنما هى الآخرة .

وهكذا تجد فى كل موضع حُذِفَ فيه الموصوف وأقيمت الصفة مقامه لم يكن الحذف اعتباطاً – كما يقال – ولا قسراً . وإنما هو لسر يبدو فيه توفير العناية بالصفة لأمر يقتضى ذلك .

أما حذف الصفة فدون حذف الموصوف . لأنها عرض لا تدل على نفسها إلا بذكرها ، فمن حذف الصفة فى القرآن قوله تعالى : ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ (٣) . أى صالحة .

---

(١) الضحى : ٤ (٢) العنكبوت : ٦٤ (٣) الكهف : ٧٩

وقوله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [1] . أى أتت عليه .

وقوله تعالى : ﴿ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ [2] . أى الواضح .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ [3] . أى السابقة ... وأسباب الحذف فيها واضحة .

فحذف صفة السفينة : « صالحة » فيه مبالغة فى تصوير طمع الملك واستيلائه على كل سفينة حتى ولو كانت غير صالحة . فغير الصالح داخل فى مأخوذ الملك ، هكذا يخيل الحذف . ولو ذكر الوصف لزال هذا التخييل .

وهذا التوجيه أراه أكثر قيمة مما ذكر الدكتور أحمد أحمد بدوى إذ يقول : « وقد أوحى إلينا هذا الحذف بأن الملك ينظر إلى السفينه المعيبة كأنها قد فقدت حقيقتها » [4] .

لأن هذا التوجيه غير مبيِّن لسبب الحذف ، والمعنى الذى ذكره مفهوم من ﴿ فَأَردتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وليس من الحذف .

والحذف فى وصف الريح أفاد أن قوة الريح تمكنها من تدمير كل شئ سواء أتت عليه أو لم تأت عليه فتأثيرها ممتد إلى كل شئ . ولو ذُكِرَت الصفة لزال هذا التخييل .

وهكذا يمكن فهم الحذف فى كل موضع على أساس يخدم المعنى ولا يضره .

* *

٥ - حذف المتضايفين :

يحذف المضاف كثيراً كضرب من التوسع فى اللغة . وإيراد المعنى فى قليل من اللفظ لأن المضاف إذا حُذِفَ سهل تصوره .

---

(١) الأحقاف : ٢٥

(٢) البقرة : ٧١

(٣) الزخرف : ٤٨

(٤) من بلاغة القرآن ص ١٢٤

قال الأعشى :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا   وَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّداً

فحذف فى البيت مضافان : مضاف إلى « ليلة » ، ومضاف إلى « أرمد » والمعنى : اغتماض ليلة رجل أرمد [1] .

وقال الكلحبة اليربوعى :

فَأَدْرَكَ إِرْقَالُ العَرَادَةِ ظَلْعَهَا   وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِنْ خُزَيْمَةَ أَصْبُعَا [2]

والتقدير : ذا مسافة أصبع . فحذف من الكلام مضافان متجاوران .

وهذا فى كلامهم لا حصر له ..وكذلك جاء حذف المضاف فى القرآن الكريم ، ومنه : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ [3] ، و ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ [4] ، و ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ [5] ، و ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ [6] ، و ﴿ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ ﴾ [7] ، و ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ [8] ، و ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ [9] ، و ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ [10] .

هذه نصوص من القرآن الكريم حُذِفَ فيها المضاف ودليل الحذف واحد فى الجميع هو عدم صحة تعلق الحكم المستفاد من السياق بالمذكور فى اللفظ .

---

(١) المغنى لابن هشام : ٢/٦٢٤

(٢) نسب ابن هشام البيت فى المغنى إلى رؤبة . والصحيح ما أثبتناه نقلا عن المفضليات .

(٣) الفجر : ٢٢   (٤) النحل : ٢٦   (٥) النساء : ٢٣

(٦) المائدة : ٣   (٧) النساء : ١٦٠   (٨) يوسف : ٨٢

(٩) الأعراف : ٨٥   (١٠) الأعراف : ٤

فالجائى : أمر ربك لا ربك . لاستحالة ذلك عقيدة . والآتى البنيان من القواعد : أمر الله لا الله نفسه . والمحرم : الاستمتاع بالأمهات لا ذواتهن ، وأكل الميتة . والطيبات : لا ذوات الميتة أو الطيبات .

والمسئول : أهل القرية . وأهل العير لا القرية نفسها . ولا العير نفسها . والمرسل إليه شعيب : أهل مدين لا مدين ... وهكذا .

والذى يهمنا فى هذه المواضع السر البلاغى فى الحذف لا تقصى أمثلته ، والذى أراه فى هذا العبارات وما أشبهها من كل موضع حُذفَ فيه المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه : أن سر الحذف فيه بلاغياً هو إظهار المعنى فى صورة أتم وأوضح . وعلى وجه أقوى وأشمل .



● مناقشة مثالين :

أولهما : ﴿ وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

هذه مقولة أخوة يوسف لأبيهم عندما أرادوا أن ينبئوه نبأ سرقة بنيامين أخيهم صواع الملك .

وسبق أن نبأوه نبأ فقد يوسف شقيق بنيامين بأن الذئب أكله فحصل عنده - أى أبيهم - شك فيما قالوا .

لكنهم فى هذه الحالة الأخيرة صادقون . وهم يعلمون أن هذا الخبر سيفجر فى نفس أبيهم كثيراً من هواجس الريب والظن . فالمقام مقام إتهام لهم وإنكار لما يقولون .

فأرادوا أن يُعبِّروا عن صدقهم وأنهم فى هذا الخبر صادقون . فبالغوا فى تصوير صدقهم وادَّعوا أن أمر السرقة شاع حتى إن القرية كادت تعلم به ولو سألتها لأجابت فما بالك بأهلها ؟ وحتى إن العير - التى هى حيوان أعجم -

كادت تفقه أمر هذه السرقة لكثرة ما ترددت على الألسنة فلو سألتها لأجابت بما نقول ، فما بالك براكبيها ! فالسر - إذن - وراء هذا الحذف هو قصد المبالغة واشتهار أمر السرقة بدرجة لم يستقم معها شك أو تكذيب .

وأما المثال الثاني فهو قوله تعالى : ﴿ وكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ (١) .

وقد أجمع المفسرون على أن المراد : أهل قرية ، وهذا صحيح . ولكن لماذا حذف المضاف إليه ؟

والجواب : إن الله تعالى ينذر الناس بأن المخالفين منهم سيحل بهم سوء المصير . وضرب لهم من قصص السابقين مثلاً ليكون لهم فيها عظة .

ومقام الإنذار يتطلب التهويل والتعظيم فى عرض ما حدث أو ما سيحدث . لأن الإنذار مراد به التخويف ليرتدع المخالفون .

ولما كان الأمر - كذلك - فقد صوَّر الله فى هذه الآية ما نزل بأهل القرى السابقين تصويراً فيه شدة وهول . فجعل الهلاك واقعاً على القرية نفسها بما فيها من زروع وأنهار - وجبال ومنازل وكل ما يتصل بها . وإذا كان الهلاك بالغاً هذا الحد فما بالك بأهل تلك القرى التى هلكت فى أنفسها . إنهم - لا شك - أكثر هلاكاً وأكثر بوراً .

والدليل على أن هدف الآية ما ذكرناه من التهويل والتعظيم فى تصوير ما حدث أنها صُدِّرت بـ « كم » الخبرية التى معناها الكثرة فى العدد . وجاء حذف المضاف مفيداً للتهويل فى الكيف .

فهو على نمط : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ (٢) فى إفادة المبالغة والشمول .

---

(١) الأعراف : ٤ (٢) مريم : ٤

ولنا أن نعتبر هذه العلّة فى كل الأمثلة التى فيها حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ففى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ (١) . أى الاستمتاع بهن . يحمل سر الحذف على إرادة العموم فى المفعول . فيكون المحرَّم كل ما لا يليق بهن من عقوق وحرمان . وإساءة فى قول أو عمل .

وهذه الأمور وإن حرِّمت بطُرق أخرى فإن احتمال المقام لها على أنها داخلة فى جملة المحرَّم هدف من أهداف الأسلوب الحكيم .

هذا فى حذف المضاف ..

أما حذف المضاف إليه فدونه فى الورود ولكنه مثله من حيث أنه دال على معان كان حذفه من أجلها بلاغة .

ويكثر حذف المضاف إليه إذا كان ياء المتكلم والمضاف منادى . كما فى قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِى ﴾ (٢) . فقد حذف المضاف إليه . وهو « الياء » . والمضاف وهو « رب » منادى كما ترى . وقد اجتزئ عنه بالكسرة .

وحذف كذلك فى المواضع الآتية :

قال تعالى : ﴿ قُل رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِى فِى القَوْمِ الظَّالمِينَ * وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ * ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (٣) .

فى هذا النص الحكيم حذف المضاف إليه . وهو ياء المتكلم . والمضاف منادى وهو ما جاء عليه الحذف فى الآيات إلا فى موضع واحد منها وهذا جائز فى اللغة .

---

(١) النساء : ٢٣ (٢) الأعراف : ١٥١ (٣) المؤمنون : ٩٣ - ٩٩

ولكن الجواز اللغوى لا يفسر لنا السر البلاغى . فتلك قاعدة نحوية عامة والمقاصد البلاغية اعتبارات خاصة . فما هو السر البلاغى إذن ؟

● وجه لحذف ياء المتكلم مع « رب » :

ولعل السر أن كلمة « رب » لا تحتاج فى نسبتها إلى المتكلم إلى تلك العلامة اللفظية « الياء » فهو رب كل شئ سواء أضيف أو لم يضف . وقد حرص القرآن الكريم على أن يستعمل هذه الكلمة محذوفاً منها ضمير المتكلم المضاف إليه فى أغلب مواضعها .

هذا من حيث المعنى .. ووجه آخر من حيث اللفظ : لما كانت هذه الكلمة « رب » تستعمل كثيراً فى النداء روعى فيها وجه الخفة . بحذف ما تضاف إليه إلا أن يكون ما تضاف إليه اسماً ظاهراً غير ضمير المتكلم . فإن الإضافة لا تكمل إلا بذكر المضاف إليه كقوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ (١) .

ولأن قوة القرينة مع الإضافة إلى ياء المتكلم ساعدت على أمر الحذف . بخلاف غيره ، ويكثر - كذلك - حذف المضاف إليه فى القرآن الكريم . بعد الظروف والغايات مثل : ﴿ للَّه الأَمْرُ من قَبْلُ وَمن بَعْدُ ﴾ (٢) . وبعد « كل » و « بعض » مثل : ﴿ وكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (٤) .

وكذلك بعد « أى » . مثل قوله تعالى : ﴿ أَيًّامًّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (٥) .

---

(١) الشعراء : ٢٦ (٢) الروم : ٤ (٣) يس : ٤٠ .

(٤) البقرة : ٣٦ (٥) الإسراء : ١١٠ .

وقد يُحذف فى غير هذه المواضع كما جاء فى بعض القراءات نحو قراءة مَن قرأ : ﴿ فَلاَ خَوْفُ عَلَيْهِمْ ﴾ [1] . فيمن ضم ولم يُنوِّن – أى فلا خوف شئ عليهم ، كما قرئ : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [2] – أى سلام الله عليكم . أو على إضمار آل [3] .

وهذه المواضع مما يظهر فيها أمر الحذف والتقدير . وهو فضلاً عن كونه من التوسع فى اللغة فإن فيه فضيلة الإيجاز مع وفاء الدلالة .

* *

٦ – حذف الحال وحذف التمييز :

هاتان فضلتان الأصل فيهما عدم الحذف ، لأن الفضلة ضعيفة لا تكاد تتصور إذا حذفت . لكنَّا وجدنا فى القرآن بعض المواضع التى اعتراهما فيهما الحذف . لأن الدليل عليهما فى تلك المواضع من القوة بحيث أجاز ذلك الحذف .

وقد تحدث ابن هشام فى المغنى [4] عن حذف الحال ، والتمييز . وذكر بعض مواضع حذف الحال ولكنه لم يمثل لحذف التمييز فى القرآن الكريم . مع أن فى القرآن مواضع جاء فيها التمييز محذوفاً .

فمن أمثلة حذف التمييز فى القرآن الكريم قوله تعالى حكاية عن أهل الكهف : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ، قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [5] .

التمييز فى هذه الآية محذوف تقديره : كم يوماً لبثتم ؟ ودليل الحذف : كون السائل مستفهماً عن مدة لبثهم نائمين . وإنما كان التقدير بـ « اليوم » دون ظروف الزمان الأخرى لأن السؤال منصب عن مدة النوم . والنومة الواحدة لا تتجاوز – فى العادة – اليوم أو بعضه .

---

(١) البقرة : ٣٨ (٢) الزمر : ٧٣

(٣) مغنى اللبيب لابن هشام : ٦٢٤/٢ (بتصرف) .

(٤) الكشاف : ٦٣٤/٢ (٥) الكهف : ١٩

كما جاء التمييز محذوفاً فى نفس السورة فى قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ (١) . والتقدير : ثلاثة فتيان أو أشخاص ، والمعدود معلوم الحقيقة والجنس فلذلك سُوِّغَ حذف تمييزه .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً ﴾ (٢) . فقد نص المفسرون على أن التمييز محذوف تقديره : قطعة . والذى دَلَّ على الحذف أن كُلاً من « أسباطاً » و « أمماً » لا يجوز إعرابه تمييزاً لـ « اثنتى عشرة » لأمرين :

أولاً : أنهما جمع . وتمييز العدد المذكور لا يكون مفرداً منصوباً .

ثانياً : تأنيث جزئى العدد يدل على أن التمييز مؤنث . إذن فهو محذوف ، فإن كان فى حذف التمييز ما يؤدى إلى لبس فى المعنى وجب ذكره .

ومثاله من سورة الكهف أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُواْ تِسْعاً ﴾ (٣) .

وذلك لأن العدد المذكور لم يدخل فى حساب أحد منهم . وعلمه إنما إلى الله وحده فكان لا بد من ذكره . وكذلك كان .

ثم انظر إلى عَجُز الآية حينما عطف القرآن قوله : ﴿ وَازْدَادُواْ تِسْعاً ﴾ كيف عاد إلى حذف التمييز عندما سهل تصوره . فلم يذكر تمييز التسع . لماذا ؟ لأنه قد عُلِمَ من العطف على ما عُلِمَ تمييزه نصاً . فكان ذكره شبيهاً بالزيادة التى لم تدع إليها حاجة فى البيان .

وهذا فن عظيم من فنون التصرف فى القول لم تجده على كماله إلا فى القرآن الكريم لأنه تنزيل حكيم .

---

(١) الكهف : ٢٢ (٢) الأعراف : ١٦٠ . (٣) الكهف : ٢٥

أما حذف الحال فقد جاء فيه في مواضع كثيرة . وفى كل موضع حُذِفَ فيه الحال قد قام الدليل القوى على حذفه وتقديره . كأن يكون عاملاً قد بقى معموله . خذ إليك مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (١) .

والتقدير : قائلين لهم : سلام .

فالمحذوف حال من الفاعل الذى هو الواو فى « يدخلون » ، وهى - أى الحال - هنا اسم فاعل له معمول هو : « سلام عليكم » . وهو مقول القول المحذوف الواقع حالاً ، فبقاء المعمول يتطلب تقدير العامل ضرورة . ولذلك صح الحذف لقوة القرينة وللإسراع إلى تعجيل المسرّة التى يوحى بها المعمول : « سلام » .

وذلك فضل الله يتلقى به أهل رضوانه .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) . أى قائلين : ربنا .

فهل ترى فى حذف أى منهما « الحال » و « التمييز » - وهما فضلتان - أى إجحاف بالمعنى أو قصور فى البيان .

* *

● حذف المفعول به :

لعلماء البلاغة بحوث رائعة فى حذف المفعول . قلبوا فيه وجوه القول . وأولوه عناية خاصه لم يولوها لغيره من المحذوفات . وقعَّدوا له القواعد . وذكروا الأسباب .

---

(١) الرعد : ٢٣ - ٢٤ (٢) البقرة : ١٢٧

● الأغراض البلاغية لحذف المفعول به :

١ - البيان بعد الإبهام . كما في فعل المشيئة والإرادة ونحوهما إذا لم يكن في تعلقه بمفعوله غرابة .

ومثاله من القرآن : ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ (٢) .

فإذا كان في التعلق غرابة امتنع الحذف . ومثّلوا له من غير القرآن بقول الشاعر :

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَماً لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ (٣)

فقد صرّح بالمفعول به ولم يحذف لأنه بكاء دم وهو غريب في العادة ولو حُذِفَ لم يُعْلَم .

وفي البيان بعد الإبهام يقول عبد القاهر : « وذلك أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام ، وبعد التحريك له أبداً لطفاً لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك . وأنت إذا قلت : لو شئتَ . علم السامع أنك قد علّقت هذه المشيئة في المعنى بشئ . فهو يضع في نفسه أن ههنا شيئاً تقتضي مشيئته له أن يكون أو لا يكون . فإذا قلت : لم تفسد سماحة حاتم - عرف ذلك الشئ . وليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت : لو شئتَ ألا تُفسد سماحة حاتم لم تفسدها .. صرتَ إلى كلام غث . وإلى شئ يمجه السمع . وتعافه النفس » (٤) .

وهذا السبب وجيه . فلا اعتراض عليه .

---

(١) الأنعام : ١٤٩ (٢) الأنعام : ٣٥

(٣) نسبه الدسوقي لأبي الهندام الخزيمي يرثي ابنه الهندام . وكذلك نسبه المبرد في الكامل : (٢٥١/٢) وابن الاثير في المثل السائر ص ٣٠٣ وعبد القاهر في الدلائل ص ١٢٦ .

(٤) الدلائل ص ١٨٤

٢ - دفع توهم غير المراد :

ومثّلوا له بقول الشاعر :

وكَمْ ذدْتَ عَنِّى مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ   وَسَوْرَةِ أيَّامٍ حَزَزْنَ إلَى العَظْمِ

أى حززن اللحم إلى العظم . وإنما حُذِفَ المفعول لئلا يتوهم متوهم أن الحز كان إلى اللحم فقط . وهذا يُشعر بتهوين أمر الملمة المدفوعة . والمقام مقام مدح المناسب فيه عِظَم النعمة .

لذلك طوى ذكره لأنه يفهم المراد إبتداءً .

وهذا أيضاً توجيه دقيق ولا شئ فيه .

٣ - إظهار كمال العناية بوقوعه على المفعول . ومثّلوا له بقول البحترى يمدح المعتز .

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِى السُّؤْ   دُدِ وَالمَجْدِ وَالمَكَارِمِ مِثْلاً

أى قد طلبنا لك مثلاً فى هذه المظان فلم نجده . فحذف المفعول الذى هو « مِثْلاً » لأن غرضه أن يوقع نفى الوجود على صريح لفظ المثل دون ضميره . وفى ذلك إظهار لكمال العناية بوقوع النفى على المفعول . ولو ذكره لوقع النفى على الضمير فيفوت المراد .

وفى البيت توجيه آخر مؤداه : إن الحذف هنا لكراهة أن يواجه الممدوح بأن له مثلاً . والذى أراه أن التوجيه الأول فى البيت أحق بالاعتبار فى توجيه الحذف . وإن كان فى التوجه الثانى رقة وعذوبة .

٤ - قصد التعميم فى المفعول مع الاختصار . وقد مثّلوا له بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُواْ إِلَى دَارِ السَّلاَمِ ﴾ (١) .

---

(١) يونس : ٢٥

أى : يدعو كل أحد . ويلاحَظ أن العموم مستفاد حتى مع ذكره ولذلك قالوا : « مع الاختصار » - ليسلم لهم التمثيل ؟

● سبب قرآنى بحت :

٥ - رعاية الفاصلة . وهذا سبب قرآنى لا غير . أما الأسباب التى سبقت فعامة وإن كان بعضها ليس له شاهد فى القرآن .

وقد مثَّلوا له من القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (١) .

أى : وما قلاك ، فحذف الكاف الذى هو ضمير المخاطب وواقع مفعولاً به لمراعاة الفاصلة . لأن ما قبلها كانت فاصلته الألف .

ولنا عود لمناقشة هذا التوجيه ..

٦ - استهجان ذكره . ومثَّلوا لذلك بحديث عائشة رضى الله عنها تصف أخلاق بيت النبوة : « فما رأيتُ منه وما رأى منى » تعنى : العورة

٧ - مجرد الاختصار ، ومثَّلوا له من القرآن بقوله تعالى : ﴿ أَهَٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وقد عَدَّ السكاكى (٤) من الحذف لمجرد الاختصار قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا لاَ نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ، وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ (٥) .

*

(١) الضحى : ١ - ٣ (٢) الفرقان : ٤١ (٣) البقرة : ٢٢
(٤) المفتاح . (٥) القصص : ٢٣ - ٢٤

● خلاف حول آية :

فقد حُذِفَ المفعول فى النص الحكيم فى أربعة مواضع وهى : « يسقون » - « تذودان » - « نسقى » - « فسقى » .

ويخالف الخطيب السكاكى . فيعد الحذف فى المواضع الأربعة لإثبات العلم فى نفسه [١] .

وكذلك قال الزمخشرى : « ترك المفعول لأن الغرض هو الفعل لا المفعول » [٢] .

كما يرى هذا الرأى عبد القاهر الجرجانى . وله فى توجيه هذا الحذف كلام طويل [٣] .

وعلى هذا فإن الخطيب والزمخشرى وعبد القاهر يرون غير ما يراه السكاكى فى الحذف المذكور .

وقد حاول السيد أن يوفق بين هذين الرأيين ، لكنه فى النهاية مال إلى رأى السكاكى حيث قال : « فصاحب المفتاح نظر إلى أن المفعول هو الغنم المضافة إليهما - بنتا شعيب - والمواشى المضافة إليهم . وكل واحد منهما يقابل الآخر . فلو لم يقدر المفعول فى الآية لفسد المعنى . وهذا أدق نظراً وأوضح معنى » [٤] .

والذى يؤخذ على رأى السكاكى والسيد . أن المفعول ما دام بهذه المنزلة عنده من الأهمية فلماذا جعل مجرد الاختصار علِّة الحذف . ومجرد الاختصار حُجَّة ضعيفة ؟

* *

---

(١) الأيضاح : ٢/٢٢٧

(٢) الكشاف .

(٣) دلائل الإعجاز ص ١٨٢

(٤) المطول ص ١٩٧

● نقد وتوجيه :

هذا مجمل لما ذكروه من أسباب حذف المفعول وأغراضه البلاغية .. فهل ينتهى البحث البلاغى عندها ؟ أم يمكن أن يتوصل إلى أسباب وأسرار أخرى ؟

وهل هذه الأسباب التى ذكروها مسلَّمة ؟ أم بينها ما يحتمل المناقشة والتعديل ؟

مع إعجابى بالبحوث القيمة التى وضعها العلماء فى حذف المفعول بالذات ، فإن لى على بعض توجيهاتهم تحفظات آراها ضرورية . وهى كالآتى :

أولاً : أنهم يرون مجرد الاختصار - مفرداً ، أو هو مع إرادة العموم - سبباً بلاغياً فى حذف ما يُحذف . وهذا لا يُسلَّم على إطلاقه فمجرد الاختصار ضمن علّة أخرى للحذف قوية أمر لا يُدفع . وليس لنا عليه ملاحظات .

أما أن يُجعل مجرد الاختصار وحده سراً بيانياً نوجّه به الأسلوب . فذلك ما لا يمكن قبوله فى يُسر .

وكل موضع حكموا بأن الحذف فيه لمجرد الاختصار يمكن توجيهه بلاغياً على غير الوجه الذى ذكروه . فلننظر فى أمثلتهم عليه .

فهم يذكرون قوله تعالى حكاية عن المشركين : ﴿ أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ (١) ، ويقولون : إن الحذف فيه لمجرد الاختصار ؟

وقوله تعالى : ﴿ أَرِنِى انظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (٢) ، ويقولون : إن الحذف فيه لمجرد الاختصار كذلك ؟

ويذكرون قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّه أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ، ويقولون : إن الحذف فيه لمجرد الاختصار أيضاً ؟

والمواضع الثلاثة تحتمل غير ما ذكروه ..

---

(١) الفرقان : ٤١ (٢) الأعراف : ١٤٣ (٣) البقرة : ٢٢

فالحذف فى الآية الأولى يمكن حمله على غرض آخر مؤداه : أن مَنْ صدر منهم هذا الكلام : ﴿ أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ - وهم المشركون - ينكرون أن يكون محمد ﷺ مبعوثاً رسولاً من عند الله . لذلك صدَّروا مقولتهم بالاستفهام الإنكارى . فإثبات الرسالة له أمر لا تساعدهم عليه أنفسهم ولذلك جاء التعبير مصوِّراً للقلق النفسى الذى كان يساورهم من أمر الرسالة . حيث حذف المفعول لأنهم يكرهون وقوع بعثه رسولاً فى الواقع . لذلك لم يوقعوا الفعل « بعث » على ضميره ليطابق اللفظ حالتهم النفسية .

* *

● كراهة نسبة الرسالة هى السبب :

إذن فكراهة نسبة الرسالة إلى محمد ﷺ فى الواقع وفى اللفظ هى التى أوحت بحذف المفعول . وهذا الحذف يُصوِّر لنا ما وراء اللفظ من خفايا نفوسهم وظواهرها . لا أن الحذف جاء لمجرد الاختصار - كما يقولون !

ولهذا نظير عندهم من غير باب حذف المفعول . وهو قول الشاعر :

إذَا سَئِمَتْ مُهَنَّدَهُ يَمِينٌ ... لِطُولِ العَهْدِ بَدَّلَهُ شِمَالاً

والأصل : يمينه . أى يمين الممدوح . فحذف الهاء الواقع مضافاً إليه . وعللوه بقولهم : إنه لكراهة إسناد السأم ليمين الممدوح . فأخرج الكلام مخرج مطلق يمين لا يمينه هو .

والآية الثانية : ﴿ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (١) . قدَّروا فيها المحذوف : ذاتك . وحملوا حذفه على مجرد الاختصار .

* *

(١) الأعراف : ١٤٣

● عزة المطلب هى السبب :

فلماذا لا يكون الحذف لأن نفس موسى عليه السلام لا تساعد عليه - لعزة المطلب - لذلك طوى فى نفسه ذكره ولم يصرِّح به .

والواقع يشهد بذلك . فإن الناس إذا سأل بعضهم بعضاً . وكان موضوع السؤال عظيماً فإن السائل يتلجلج أمام المسئول ولا يكاد يُفصح عن المطلوب .

فسبب الحذف فى الآيتين نفسى مع الاختلاف فى البواعث . ففى حذف المفعول فى قوله تعالى حكاية عن المشركين : ﴿ .. أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ [١] كان السبب نفسياً باعثه كراهة إيقاع الفعل على ضمير المسنَد إليه ليطابق اللفظ الشعور .

أما فى قوله حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ فإن السبب نفسى كذلك هو الرهبة والإجلال والطمع فى مطمع .

وذلك - فيما أرى - أولى من اعتبار علِّة الحذف فيهما مجرد الاختصار .

أما الآية الثالثة فقد كفانا الخطيب القزوينى مؤنة البحث فيها فقال : « يجوز حمل الحذف فيها لأن الغرض إثبات الفعل فى نفسه فيكون التقدير : وأنتم من أهل العلم والمعرفة » [٢] .

* *

● مجرد الاختصار وحده لا يكفى :

فمجرد الاختصار - إذن - علِّة سلبية لا تفسر الأساليب تفسيراً بلاغياً ، والظاهر أن علماء البلاغة كانوا يحملون عليها كل حذف لم يتبين لهم فيه وجه ظاهر من الاعتبارات المناسبة .

---

(١) الفرقان : ٤١ (٢) الإيضاح : ٢/٢٢٧

فأولى بالباحث الحديث أن يكون من هذا السبب على حذر لأنه يحجر على الفهم ولا يغنى عن البحث .

ثانياً : أنهم يعتبرون – كذلك – رعاية الفاصلة سبباً من أسباب الحذف وغيره من مظاهر التعبير المخالفة للظاهر أو العُرف اللغوى . وهى كثيرة جداً فى القرآن الكريم .

وقد أحصى منها ابن الصائغ أكثر من أربعين موضعاً زعم أن الحذف فيها وغير الحذف من أجل رعاية الفواصل أو مطابقة رءوس الآى . ولكنه عاد فقال :

« إن هذه المواضع تحتمل وجوهاً أخرى غير مناسبة الفواصل . وقد نقل عنه ذلك السيوطى وقال : إن لشمس الدين ابن الصائغ الحنفى كتاباً سماه « إحكام الرأى فى أحكام الآى » ذكر فيه هذه الوجوه .

والأمثله التى ذكرها ابن الصائغ فإن الظاهر فيها إنها ليست لرعاية الألفاظ بل لدواع أخرى غيرها . وقد ناقشنا بعضها فيما تقدم .

* *

● ورعاية الفواصل وحدها لا تكفى :

والحق أن رعاية الفاصلة سبب أقوى من مجرد الاختصار . وهو مع قوته ينبغى عدم التعويل عليه وحده فى توجيه الظواهر الأسلوبية .

وهذا أمر أمكن التوصل إليه فى يُسر . فلننظر فيما ذكروه من أمثلته .

إنهم ذكروا قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (١) ، وقالوا : إن المفعول حُذِفَ لرعاية الفواصل .

(١) الضحى : ٣

ويقول الزمخشري [(١)] : « إنه اختصار لفظي مثل : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ [(٢)] : أي والذاكراته ، وسببه عند الزمخشري - أي سبب الاختصار اللفظي - ظهور المحذوف والأولى - فيما أرى - أن يكون السبب في الحذف - هنا - كراهة مواجهة الرسول ﷺ بأنه موضع قلى من الله . ولو وقع ذلك في سياق النفي فإن الذوق البلاغي يقتضيه . وقد أشار إلى ذلك - فيما أذكر - الخطيب في الإيضاح .

ولهذا نظير في القرآن الكريم من اللطف في الخطاب مع النبي عليه السلام حتى في أشد مواضع العتاب كقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ ﴾ [(٣)] . فلم يواجهه بالعبوس والتولي .

وقال : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [(٤)] . فقدَّم العفو على سبب العتاب ... وغير ذلك كثير .

وإنما لم تكن رعاية الفصل بين الآيات سبباً وحده في الحذف وغيره . لأنها مظنة السجع المتكلف . فلذلك ينبغي الحيطة في مثل هذه الأمور . وبلاغتنا العربية غنية بالاعتبارات المناسبة في توجيه الأسلوب في غير ما سرف أو قصور .

* * *

ثالثاً - حذف جملة فأكثر :

أما حذف جملة فأكثر .فإن القرآن قد حفل بكثير منه . وقد وضع العلماء لهذا النوع ضوابط نوجزها فيما يلي :

أولاً : حذف السؤال المقدَّر ويسمى « الاستئناف » ويأتي على وجهين :

١ - إعادة الأسماء والصفات . وقد مثَّلوا له من غير القرآن الكريم بقولهم أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان .

---

(١) الكشاف : ٦١١/٤

(٢) الأحزاب : ٣٥

(٣) عبس : ١ - ٢

(٤) التوبة : ٤٣

وقولهم : أحسنت إلى زيد ، صديقك القديم حقيق بالإحسان .

وقد صرَّح ابن الأثير بأبلغيه الثانى . وهو ما كان المعاد فيه صفة لاشتماله على موجب الإحسان (١) .

ومثَّلوا له من القرآن بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ ، هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

والاستئناف وارد قبل « أولئك » كأن سائلاً سأل : فما بال المتصفين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى ؟

فأجيب : إن الذين اتصفوا بهذه الصفات غير مستبعد أن يفوروا - دون الناس - بالهدى عاجلاً والفلاح آجلاً (٣) .

٢ - الاستئناف بغير إعادة الأسماء والصفات . ومثَّلوا له من القرآن بقوله تعالى : ﴿ وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ * إِنِّى إِذاً لَّفِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * إِنِّى آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ ، قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ المُكْرَمِينَ ﴾ (٤) .

وتقدير السؤال المحذوف : كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه ؟ فقيل : ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ ﴾ .

---

(١) المثل السائر لابن الأثير : ٢/٢٨١

(٢) البقرة : ٢ - ٥

(٣) المثل السائر : ٢/٢٨١

(٤) يس : ٢٢ - ٢٧

وإلى هنا يسكت ابن الأثير .. والظاهر أن فى الآية استئنافاً آخر قبل قوله : ﴿ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ . وتقديره : فماذا قال حين قيل له ادخل الجنة ؟

فأجيب : ﴿ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثانياً : الاكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالمسبب عن السبب . ومثّلوا للأول بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ ، وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (١) .

فقد ذكر سبب الوحى . وهو تطاول العمر . ودلَّ به على المسبب الذى هو الوحى . أما الثانى – وهو الاكتفاء بالمسبب عن السبب – فقد مثّلوا له بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٢) .

والتقدير : إذا أردت قراءة القرآن . فاكتفى بالمسبب . الذى هو القراءة عن السبب الذى هو الإرادة .

وقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الحَجَرَ ، فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ (٣) .

والتقدير : فضرب فانفجرت .

ثالثاً : الإضمار – على شريطة التفسير وهو أن يحذف من صدر الكلام ما يؤتى به فى آخره . فيكون الآخر دليلاً عليه (٤) وهو ثلاثة أنواع :

---

(١) القصص : ٤٤ – ٤٥
(٢) النحل : ٩٨
(٣) البقرة : ٦٠.
(٤) المثل السائر : ٢٨٧/٢

الأول : أن يأتى على طريقة الاستفهام . فتُذكر الجملة الأولى دون الثانية مثل : ﴿ أَفَمن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ، أُوْلَئِكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١)

والتقدير : أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه (٢) . ودليل الحذف قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٣) .

الثانى : أن يأتى على حدى النفى والإثبات ، ومثّلوا له بقوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِى منكُم مَّنْ أنفَقَ من قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواْ .. ﴾ (٤) .

والتقدير : لا يستوى منكم مَنْ أنفق من قبل الفتح وقاتَلَ . ومَنْ أنفق من بعده وقاتَلَ . ودليل الحذف : ﴿ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواْ ﴾ (٥) .

الثالث : أن يأتى على غير هذين فلا يكون استفهاماً ولا على حدى النفى والإثبات ، ومثّل له ابن الأثير بقول أبى تمام :

يَتَجَنَّبُ الآثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا   فَكَأَنَّمَا حَسَنَاتُهُ آثَامُ

قال : وفى صدر البيت إضمار مفسَّر فى عجزه . وتقديره : « أنه يتجنب الآثام فيكون قد أتى بحسنة . ثم يخاف تلك الحسنة . فكأنما حسناته آثام » (٦) .

يرى ابن الأثير أن البيت طباق قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ (٧) .

---

(١) الزمر : ٢٢   (٢) المثل السائر : ٢٨٧/٢
(٣) سبق أن فى الآية وجوهاً أخرى .   (٤) الحديد : ١٠
(٥) المثل السائر : ٢٨٨/٢   (٦) المصدر السابق   (٧) المؤمنون : ٦٠

لكن المفسرين فسَّروا هذه الآية على غير ما يراه ابن الأثير . يقول الزمخشرى فى معناها : « الذين يعطون ما أعطوا » أى الذين يفعلون الخيرات وهم وجلون من ربهم ان لا يتقبل منهم .

ونقل حديثاً روته عائشة عن النبى ﷺ يؤيد ما ذكره . وكذلك رأى الإمام النسفى فى تفسيره قال : « الذين يعطون ما أعطواً من الزكاة والصدقات وهم خائفون ألا يُقبل منهم لتقصيرهم » [1] .

وعلى هذا فإن ما يراه ابن الأثير من تطابق الآية والبيت غير دقيق.

وأظهر من البيت المذكور فى التمثيل له قول الشاعر [2] :

سُنَّـــةُ العُشَّاقِ واحِدَةٌ فَإذَا أحْبَبْتَ فَاسْتَكِنِ

لأن المعنى : سُنَّة العشاق واحدة هى الاستكانة . فاذا أحببتَ فاستكن .

أما مثاله من القرآن فأولى أن يكون قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [3] .

فقد قال المفسِّرون : « وجعلنا ابن مريم آية ، ثم حُذفَت الأولى لدلالة الثانية عليها »

والحذف من الأول لدلالة الثانى عليه كثير فى كلامهم .

رابعاً : ما ليس بسبب ولا مسبب ولا إضمار - على شريطة التفسير ولا استئناف .

أى إن الحذف هنا ليس له ضابط معيَّن . فهو يشمل كل حذف بعد الأنواع الثلاثة المذكورة وهو - بحق - كثير جداً فى القرآن . وأكثر ما يكون فى القصص ولا حد لمقدار ما يُحذف فيه .

---

(١) تفسير النسفى : ٣/١٢٢ ، والكشاف الجزء الثالث .

(٢) هو أبو نواس .　　(٣) المؤمنون : ٥٠ .

ومن أمثلته فى القرآن الكريم قوله تعالى يحكى طرفاً من قصة يوسف عليه السلام فى السجن : ﴿ وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ * وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ .. ﴾ (١) .

فى هذا النص الحكيم حذف فى أربعة مواضع . والمحذوف ليس حرفاً ولا كلمة مفردة بل كلام كثير . وتلك المواضع هى :

أولاً : عند ما طلب الذى نجا من الفتيين أن يرسلوه إلى يوسف . وتقدير المحذوف فيه : إلى يوسف فاستجابوا له فأرسلوه فلما مثل أمامه قال له .....

ثانياً : بعد أن نبأه يوسف بحقيقة الرؤيا ، والتقدير : فرجع إليهم فقص لهم ما قاله يوسف .

ثالثاً : بعد أن طلب الملك أن يأتوه بيوسف . والتقدير : فأرسلوا ليوسف رسولاً ليأتى به إلى الملك فلما وصل إليه أعلمه بأمره قال .....

رابعاً : حين عاد الرسول وأبلغ الملك رغبة يوسف ، والتقدير : فلما رجع الرسول إلى الملك وأبلغه رغبة يوسف أرسل الملك إلى النسوة اللاتى قطعن أيديهن وسألهن قائلا .....

---

(١) يوسف : ٤٥ - ٥١

والمحذوف فى المواضع الأربعة ظاهر موضعه سهل تصوره .. إذ لا يستقيم الكلام إلا بملاحظة المحذوف ودليل الحذف فيها أو قرينته أن هذه الأحداث يحكمها أمران هما : الترتيب الزمنى بينها . ثم التلازم الطبيعى .

أما الترتيب الزمنى .. فأمره واضح . إذ تجرى أحداث هذه القصة على نسق وقوعها : السابق سابق . واللاحق لاحق . فلم يتداخل حدثان فى زمن واحد .

وأما التلازم الطبيعى .. فمن حديث أن هذه الأحداث ما طوى ذكره منها ... وما ذُكِر ولم يُطو .. بينها صلات وثيقة فبعضها مقدمة طبيعية لبعض . أو لازم له .

ففى الموضع الأول لا يُتصور سؤال الرسول ليوسف عليه السلام إلا بعد تصور استجابة طلبه والإذن له بالذهاب إلى يوسف ثم الوصول إليه ومثوله أمامه .. هذه الفجوات متروكة بلا إشارة . لأنها واقعة بين طرفين هى واسطتهما . على طريقة قص المناظر (فى الأدب المسرحى والتمثيلى الحديث) .

وما دام الفكر يهتدى إليها فى يُسر وسهولة . فإن ذكرها - والحالة هذه - ليس بمستساغ . ذلك سر الحذف .

يُضاف إليه أن أولى فنون التعبير بالإيجاز والحذف والإجمال هو القصص لأنه يعالج كثيراً من المواقف ويسرد كثيراً من الأحداث . فمن خصائصه أنه يحتاج إلى كثير من البيان حتى يكمل بناء القصة . وتؤدى غرضها الجمالى والأخلاقى . لذلك كانت القصة ميداناً للاختصار والحذف . وفى حاجة ماسة إلى التركيز والإجمال . وكذلك جاء القصص القرآنى .

ومن حذف الجمل فى القرآن الكريم أمور :

- حذف أداة الشرط وفعله :

ويكثرهذا بعد الطلب [1] نحو : ﴿ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [2] ، أى : إن اتبعتمونى .

ونحو : ﴿ قُلْ لِعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ ﴾ [3] ، أى : أن تقل لهم .

وجعل منه الزمخشرى قوله تعالى : ﴿ فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ﴾ [4] ، أى إن اتخذتم عند الله عهداً .

كما جعل منه أبو حيان قوله تعالى [5] : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾ [6] .أى : إن كنتم آمنتم بما أنزل الله إليكم فلم تقتلون ؟

ويجوز أن يجعل منه قوله تعالى : ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنَكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [7] ، على قراءة مَن جزم الفعل وجعل منه السعد [8] وابن الأثير [9] وقوله تعالى : ﴿ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ ﴾ [10] .

وجعلا الفاء فى « فاعبدون » واقعة فى جواب شرط محذوف تقديره :

إن أرضى واسعة فإن لم تخلصوا العبادة فى أرض فاخلصوها فى غيرها .

فحذف الشرط وعوِّض منه تقديم المفعول لإفادة الاختصاص .

- حذف جواب الشرط :

وهو كثير فى القرآن الكريم . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِى السَّمَاءِ ﴾ [11] . أى فافعل ..

---

(١) معترك الأقران (٢) آل عمران : ٣١ (٣) إبراهيم : ٣١
(٤) البقرة : ٨٠ (٥) من معترك الأقران : ٣٣٢/١
(٦) البقرة : ٩١ (٧) مريم : ٥ - ٦ (٨) المطول .
(٩) المثل السائر : ٣١٧/٢ (١٠) العنكبوت : ٥٦ (١١) الأنعام : ٣٥

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١) ، أى : أعرضوا

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ ﴾ (٢) . أى : لرأيتَ أمراً عظيماً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) . أى : لعذَّبكم

ومنه الأيات الآتية : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُواْ فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (٤) .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ﴾ (٥) .

فحذف جواب الشرط عام فيما كانت الأداة فيه جازمة أو غير جازمة . كما فى الأداة « لو » فى الموضعين المذكورين .

فإذا لم يتضح جواب « لو » وجب ذكره . كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (٦) .

وكذلك حذف جواب « لما » فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧) .

---

(١) يس : ٤٥ (٢) السجدة : ١٢ (٣) النور : ٢٠

(٤) سبأ : ٥١ ، وقد مر بيان هذه الآية فيما سبق . (٥) الرعد : ٣١

(٦) الحجر : ١٤ - ١٥ (٧) الصافات : ١٠٣ - ١٠٥

- حذف جواب القَسَم :

ما أكثر حذف جواب القَسَم فى القرآن . وقد جاء ذلك فى مطالع السور مثل : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً .. ﴾ (١) ، ومثل : ﴿ ص ، وَالقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ .. ﴾ (٢) ، ومثل : ﴿ ق ، وَالقُرْآنِ المَجِيدِ ﴾ (٣) ، ومثل : ﴿ وَالفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ (٤) .

وتقدير الجواب فى الأول : لتبعثن . وفى الثانى : إنه لمعجز - يعنى القرآن ، وفى الثالث : ليس الأمر كما زعموا . وفى الرابع : ليعذبن .

هذا فى مطلع السور . أما فى درج الكلام فإن السيوطى يرى فى قوله تعالى : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ (٥) . إن جملة القسم محذوفة .. والتقدير : والله قسمى .

وفى حذف الشرط أو جوابه أو حذف جواب القَسَم فإن دليل الحذف ما بقى من الأجزاء ، أما السبب البلاغى فلتقدره النفس بأى صورة مناسبة وفيه تكثير المعنى فقد قدر صاحب النحو الوافى جواب القَسَم فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ ﴾ (٦) . بقوله : ما نفعكم . وقدَّره المفسرون بقولهم : لكان هذا القرآن .. وهو أرجح مما ذهب إليه صاحب النحو الوافى .

* *

● أنواع الحذف :

ذكر السيوطى فى كتابه « معترك الأقران » (٧) أن الحذف يأتى على أربعة أنواع هى :

الأول - الاقتطاع : وهو حذف بعض أحرف الكلمة لغير عِلَّة صرفية أو نحوية (٨) ، وقد حكى

(١) النازعات : ١
(٢) سورة ص : ١
(٣) سورة ق : ١
(٤) الفجر : ١- ٢
(٥) النمل : ٢١
(٦) الرعد : ٣١
(٧) الجزء الأول ص ٣١٩
(٨) هذا القيد زيادة أرى ضرورة إثباتها للفصل بين الحذف الذى ينشأ عن العلل النحوية والصرفية . والحذف الذى يسمونه : الاقتطاع لاختلاف أمثلتهما .

السيوطى أن ابن الأثير يمنع ورود هذا النوع فى القرآن الكريم . ثم ذكر رأى المؤيدين لوروده فيه ذاكراً أمثلتهم وأدلتهم كورود الحروف المقطعة فى أوائل السور - على رأى مَن يقول إنها ترمز إلى أسماء اللّه - ثم قال : .. وادعى بعضهم أن « الباء » فى قوله تعالى : ﴿ وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ ﴾ (١) أول كلمة « بعض » ثم حذف الباقى . ومثل قراءة : « ونادوا يا مالَ » بالترخيم (٢) .

ويبدو أن السيوطى يميل إلى رأى ابن الأثير فى إنكاره ورود هذا النوع فى القرآن على الرغم من أنه ذكر أمثلة أخرى منها حذف همزة « أنا » فى قوله تعالى : ﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى ﴾ (٣) - إذ جعل التقدير : لكن أنا هو اللّه ربى .

وكذلك أورد أربعة أمثلة أخرى لقرّاء مختلفين : « ويسمك السماء أن تقع علرض » . و .. « وبما أنزليك » و « ومن تعجل فى يومين فلثم عليه » و « إنها لحدى الكبر » .

وقد راجعتُ كلام ابن الأثير فى ذلك . فلم أجده قد صرَّح بعدم وجوده بل اكتفي بتعليقه على بعض أمثلته من غير القرآن بقوله : « فهذا وأمثاله مما يقبح ولا يحسن وإن كانت العرب قد استعملته فإنه لا يجوز لنا أن نستعمله » (٤) .

والمثال الذى علّق عليه ابن الأثير هو قول الشاعر (٥) :

كَأَنَّ إبْرِيقَهُمْ ظَبْىٌ عَلَى شَرَفٍ ... مُفَــدَّمٌ بِسبَا الكِتَّانِ مَلْثُــومُ

والتقدير : بسبائب الكتان .

والذى أذهب إليه أن ابن الأثير قد جانبه التوفيق فى إنكاره . ومن أقوى الأدلة عليه ما ذكره السيوطى نفسه من أمثلة تقدم ذكرها .

---

(١) المائدة : ٦ — (٢) المعترك : ٣١٩/١

(٣) الكهف : ٣٨ — (٤) المثل السائر : ٣٣٢/٢

(٥) هو علقمة بن عبدة الفحل : نفس المصدر (٣٣٢/٢) وما بعدها .

على أن فى القرآن أمثلة أخرى لم يذكرها السيوطى . وأكثر ما يكون ذلك فى أسماء المصادر مثل قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ (١) . والأصل : إنباتاً .

ولعل السر فى العدول عن الأصل أمران :

الأول : لفظى وهو التخلص من كسرين يؤديان إلى نوع ما من الثقل إذا قارنا بين الصورتين : الأصلية ، والتى عليها التعبير . لأن « الضاد » من أرض مكسورة كما أن « الهمزة » من المصدر - وهى أول حرف فيه - مكسورة .

الثانى : معنوى لأن المصدر « إنباتاً » يدل على مجرد الحَدَث . أما اسمه « نباتاً » فيدل على صورة النبات بعد خلقه وترعرعه . فضلاً عن دلالته على الحَدَث . ولا شك أن ما دل على معنيين أولى مما دل على معنى واحد . والمقام هنا يقتضى ذلك لأنه بيان لقُدرة اللّه سبحانه .

وقد جئ بالمصدر الأصلى فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ (٢) والمقام واحد .

فلماذا إذن خولف نسق الآية الثانية عن نسق الأولى ؟

والجواب من وجهين :

أولاً : لأن ما أطلقنا عليه « ثقل لفظى » فى الأولى لو جئ بالأصل . زال هنا فى هذه الآية لسكون ما قبل همزة المصدر المكسورة .

ثانياً : لأنه لو قال : « خروجاً » بدل « إخراجاً » . والخروج مصدر خرج اللازم لأشعر ذلك - ولو فى الوهم - أن الناس مختارون لخروجهم من المقابر خارجون بقدرتهم . وهذا الفهم لا يستقيم مع المقام . وإنما لم يراع هذا الوجه فى الأولى لأن النبات لا تُتصور له إرادة محضة . ومنه كذلك حذف الياء من قوله

---

(١) نوح : ١٧ (٢) نوح : ١٨

تعالى حكاية عن الخضر عليه السلام : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (٢) . فقد جاء حذف الياء في الموضعين واجتزئ عنهما بالكسرة وبهذا يتضح ضعف ما ذهب إليه ابن الأثير .

الثاني - الاكتفاء :

وهو ما يقتضى المقام فيه ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة (٣) ويختص غالباً بالارتباط العطفى كقوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ ﴾ (٤) . أى والبرد . وفى تخصيص الحر بالذكر دون البرد قيل : لأن الخطاب أصلاً كان للعرب وهم فى بلاد حارة . فذكر ما هو أهم وهذا أوجه ما قيل فى توجيه الآية (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ بِيَدِكَ الخَيْرُ ﴾ (٦) . أى والشر ، وذكر الخير دون الشر لرغبة الناس فيه . أو لأنه أكثر وجوداً من الشر . ذكر الرأيين السيوطى فى المعترك أيضاً (٧) .

ومن أمثلته أيضاً الآيات الآتية : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ (٨) .
﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ ﴾ (٩) .

والتقدير فى الأولى : وما تحرك . وخص السكون لأنه الأصل . والتقدير فى الثانية : والشهادة ، وخص الغيب بالذكر لأنه أدخل فى باب المدح . ولاستلزامه الإيمان بالشهادة

وهناك أمثلة كثيرة لهذا النوع فلنكتف بما ذكرناه .

---

(١) الكهف : ٦٤
(٢) الفجر : ٤
(٣) معترك الأقران : ١/ ٣٢٠ .
(٤) النحل : ٨١
(٥) نقل السيوطى فى المعترك (١/ ٣٢٠) وجوهاً أخرى هذا أحسنها .
(٦) آل عمران : ٢٦
(٧) المعترك : ١/ ٣٢١
(٨) الأنعام : ١٣
(٩) البقرة : ٣

الثالث - الاحتباك :

وهو أن يحذف من الأول لدلالة الثانى عليه ، ومن الثانى ما ثبت نظيره فى الأول .

ويطلق عليه الزركشى : « الحذف المقابلى » فيقول : « هو أن يجتمع فى الكلام متقابلان . فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه » (١) .

ومبنى هذه التسمية من الحبك . وهو الشد والإحكام وتحسين أثر الصنعة فى الثوب ، فحبك الثوب شد ما بين خيوطه بحيث يمنع عنه الخلل (٢) وأصله من قولهم : « بعير محبوك العرى : أى محكمها ، والاحتباك شد الإزار (٣) .

فكأن هذا النوع من الحذف يُكسب الكلام قوة وزينة . القوة من حيث استيفاء الأقسام ، والزينة من حيث الحذف المتناظر . ومن أمثلته فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

والتقدير : ومثل الأنبياء والكفار كمثل الذى ينعق . والذى ينعق به . فحذف من الأول الأنبياء لدلالة الذى ينعق عليه . ومن الثانى الذى ينعق به لدلالة الذين كفروا عليه (٥) .

ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ (٦) .

والتقدير : تدخل غير بيضاء . وأخرجها تخرج بيضاء . فحذف من الأول : تدخل بيضاء ومن الثانى : وأخرجها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (٧) .

---

(١) البرهان : ١١٩/٣ (٢) المعترك : ٣٢٣/١ (٣) مفردات الراغب ص ١٠٦
(٤) البقرة : ١٧١ (٥) الكشاف : ١٦٠/١ (٦) النمل : ١٢
(٧) الأحزاب : ٢٤

والتقدير : يعذب المنافقين فلا يتوب عليهم أو يتوب عليهم فلا يعذبهم ، وهذا فن بديع فيه روعة وخلابة .

قال السيوطى : ومن لطيفه قوله تعالى : ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ (١) . أى فئة مؤمنة تقاتل فى سبيل الله . وأخرى كافرة تقاتل فى سبيل الطاغوت (٢) .

قال الكرمانى : « وله فى القرآن نظائر وهو أبلغ ما يكون من الكلام » حكاه عنه السيوطى فى المعترك .

وأنت ترى أن هذا الأسلوب شبيه بالميزان الدقيق الحساس .. فما أحرى أن يسمى به .

الرابع - الاختزال :

وهو ما ليس واحد مما سبق. والمحذوف فيه إما اسم أو فعل أو حرف أو أكثر . وإلا ظهر أن يسمى « الحذف العام » لأنه لا يمكن التفرقة بينه وبين الأقسام الثلاثة المتقدمة لا من حيث المحذوف . ولا من حيث كيفية الحذف . فأمثلته - إذن - هى ما تقدم لأنه يشمل حذف المضاف والمضاف إليه . والصفة والموصوف والفعل وهكذا .

ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ (٣) ، أى حج أشهر .

وقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ (٤) أى نكاح أمهاتكم .

وقوله تعالى : ﴿ لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ (٥) أى ضعف عذاب .

وقوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ (٦) أى من قبل الغلب ومن بعده .

---

(١) آل عمران : ١٣ (٢) المعترك : ١/٣٢٢ وما بعدها . (٣) البقرة : ١٩٧
(٤) النساء : ٢٣ (٥) الإسراء : ٧٥ (٦) الروم : ٤

وقوله تعالى : ﴿ أنِ اضْرِب بِعَصَاكَ البَحْرَ ، فَانفَلَقَ ﴾ (١) .. أى فضرب فانفلق ..

وهكذا .. فأنت ترى أن ما سموه من الحذف بالاختزال شامل لجميع الأقسام على ما بيَّناه فليس له من نصيب إلا التسمية .

*

● والخلاصة :

صاحبنا القرآن الحكيم فى هذا الفصل فى بعض مواطن الحذف فيه . والذى يدعوه البلاغيون : « أحد مظاهر الإيجاز » ؛ وهو أن يكون المعنى المفهوم من اللفظ أكثر من الألفاظ التى استُعملت فيه . وهذه فضيلة واحدة عامة من فضائل الحذف فى القرآن – أعنى الإيجاز المذكور – وليس الحذف القرآنى ينتهى عند هذه الفضيلة المسماة بالإيجاز . بل له فضائل بيانية أخرى تكاد تتعدد بتعدد مواضع وروده . وخصائص الحذف القرآنى – فيما أرى – يمكن تلخيصها فى الآتى :

● خصائص الحذف القرآنى :

أولاً : سلامته من الإجحاف بالمعنى والخلل فى الأسلوب فكل حذف فيه يحكمه أمران :

(أ) دليل قوى يعين على تصوره وقد يعينه تعييناً أحياناً . وكل منهما – أى التصور والتعيين – بليغ فى موضعه . ففى قوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (٢) يحصل تصور المحذوف دون تعيينه . فيجوز أن يقدَّر التركيب على هذا الوجه : فأمرى صبر جميل ، ويجوز أن يكون : فصبر جميل أمثل ، وفى هذا تكثير للفائدة .

وفى قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الحَجَرَ ، فَانفَجَرَتْ ﴾ (٣) . يمكن تعيين المحذوف ، والتقدير لا محالة : فضرب فانفجرت .

---

(١) الشعراء : ٦٣ (٢) يوسف : ١٨ (٣) البقرة : ٦٠.

وقد أفاد هذا الحذف مع الإيجاز سرعة حصول الانفجار [١] والسرعة هنا مطلوبة لأن المقام مقام طلب للنجاة من فرعون وقومه .. وقد كرر هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ أنِ اضْرِب بِعَصَاكَ البَحْرَ ، فَانفَلَقَ ﴾ [٢] . فاتحد الموضعان فى الحذف والغرض .

ويمكن أن نفهم من هذين الموضعين - فوق فضيلة الإيجاز ، وفوق معنى السرعة - معنى ثالثاً لم أجد أحداً قد نص عليه .

وهو أن الحذف يشير فيهما إلى سرعة امتثال موسى عليه السلام لأمر ربه . حتى إن الزمن بين تلقيه الأمر وتنفيذه لا يكاد يُذكر لقصره وذلك يكشف لنا - أيضاً - أن موسى عليه السلام كان متلهفاً لما يشير عليه به ربه فى التصرف أمام الأزمات .

(ب) الداعى البلاغى الذى دعا إلى الحذف ، وهذا الداعى على ما وضع فيه البلاغيون من بحوث قيِّمة وثرية . ما زال مورداً بِكراً فى القرآن الكريم . فالباحث فى مواضع الحذف فى القرآن واجد جديداً لم يشر إليه القوم وقد بان لنا - نحن - فى غضون هذا الفصل نصيب من ذلك الجديد . مثل ما ذكرناه فى توجيه الحذف فى قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف : ﴿ تَاللَّه تَفْتَؤاْ تَذكُرُ يُوسُفَ ﴾ [٣] . من أن الحذف كان لضيق المقام ، ومثل ما ذكرناه من توجيه الحذف فى قوله تعالى حكاية عن المشركين : ﴿ أَهَذَا الَّذى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ [٤] . حيث أرجعنا حذف عائد الصلة إلى أمر نفسى هو كراهية إيقاع الفعل المفيد لإثبات الرسالة للنبى ﷺ على ضميره . لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه .. والبلاغيون يعدون الحذف فيه من مجرد الاختصار .

---

(١) تفسير أبو السعود ١٢٩/١

(٢) الشعراء : ٦٣

(٣) يوسف : ٨٥

(٤) الفرقان : ٤١

وقوله تعالى : ﴿ أرِنِى أنظُرْ إلَيْكَ ﴾ (١) . حيث أرجعنا الحذف فيه إلى عامل نفسى كذلك هو الرهبة والإجلال والطمع فى غير مطمع .

والبلاغيون يعدونه – كذلك – من مجرد الاختصار .

ومثل ما ذكرناه من توجيه الحذف فى قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (٢) . من أن حذف المفعول فيه كراهية مواجهة النبى ﷺ بأنه موضع قِلى من الله . أو للإشعار بمنزلته عند الله فلذلك لم يوقع على ضميره فعل مكروه ، والمجال – بعد – مفتوح أمام النظر العميق الفاحص . وهذا مورد لا ينضب .

ثانياً : أن كل موضع حُذِفَ فيه منه شئ فالحذف فيه أبلغ من الذكر من حيث المعنى فليس فى القرآن حذف ألبس أو أخل كقول الشاعر :

وَالعَيشُ خَيْرٌ فِى ظِلاَلِ ... النَوْكِ مِمَّــنَ عَاشَ كَداً

حيث حذف فألبس وأخل ، وظل لفظه دون معناه . لأن مراده العيش الناعم ولذلك عابره وحكموا بقصوره .

* *

● شهادة عدلين :

وأكاد أجزم أن عبد القاهر حينما قال : « ما من اسم حُذِفَ فى الحالة التى ينبغى أن يُحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره » (٣) .

إنما كان يعنى الحذف فى القرآن على أن يُحمل كلامه على جميع صور الحذف ، سواء أكان المحذوف اسماً ، أو فعلاً ، أو حرفاً ، أو جملة ، أو أكثر من جملة .

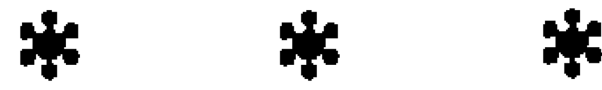
---

(١) الأعراف : ١٤٣ (٢) الضحى : ٣ (٣) الدلائل .

ونختم هذا الفصل بشهادة أديب ذوّاق ، وناقد فاحص :

« إن القرآن حين يحذف فيه ما يحذف من مشاهد وأحداث يحمل السامع أو القارئ على المشاركة فى بناء ما يمكن أن يقص . تنشيطاً لخياله ، وتحريكاً لوجدانه ، فيظل - أبداً - مأسوراً لما يسمع أو يقرأ . ماضياً على هوى نفسه . وقد استمتعت نفسه بكل مزايا الفن الجميل . مؤمناً بما يهدف إليه القصص القرآنى من مُثل عليا وآداب رفيعة . وذلك لأن القرآن يحيل الجمال الفنى أداة للتأثير الوجدانى . فخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية » [(١)] .

هذا النص الموفق ، وإن كان خاصاً من حيث قصد كاتبه بالقصص القرآنى ينطبق على مظاهر الحذف فى القرآن جميعها . فلكل حذف فيه نصيب .



---

(١) التصوير الفنى فى القرآن : سيد قطب ص ١٤١

الفصل الثانى

من أسرار التقديم فى القرآن الكريم

التقديم – بعامة – سمة أسلوبية لها عظيم الأثر فى روعة الأسلوب وإبرازه فى صورة حكيمة من الوفاء بالمعانى ومطابقتها لمقتضى الحال ، سواء أكانت هذه الحال ملاحظاً فيها جانب المخاطبين ، أو جانب المخاطب . وهو من أقدر الفنون على كشف خبايا النفوس وسبر غورها . ويطوِّع المعانى للاعتبارات المناسبة التى يراها البليغ حرية بالكلام .

وقد أولاه علماء البلاغة عناية فائقة باعتباره أحد أصول علم المعانى الذى به تعرف أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق مقتضى الحال [١] .

أو هو – كما يقول السكاكى : « تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره » [٢] .

ودراستنا للتقديم فى القرآن الكريم نمارسها – بعد – من خلال دراسة أربعة مناهج وضعها العلماء وهم يعالجون هذا الفن « التقديم » وهذه المناهج الأربعة هى :

---

(١) المطول ص ٣٤ (٢) المفتاح ص ٧ .

الأول : منهج البلاغيين ابتداءً من عبد القاهر الجرجانى [1] ، حتى الخطيب القزوينى [2] .

الثانى : منهج شمس الدين بن الصائغ الحنفى .

الثالث : منهج ضياء الدين بن الأثير .

الرابع : منهج المفسرين متمثلاً فى العلاَّمة أبى السعود . والإمام الزمخشرى .

أولاً - منهج البلاغيين

الذى ينظر فى منهج علماء البلاغة يجد طريقتهم فى التقديم تعتمد على العناصر الآتية :

(أ) حقيقة التقديم .　　　(ب) أغراض التقديم .

(جـ) أقسام التقديم وموضوعاته .

والعنصران الثانى والثالث هما المسيطران على منهجهم . فأغراض التقديم هى الدواعى والأسباب التى ترجح تقديم المقدَّم على تأخيره . وهذه الأغراض عندهم نوعان :

أغراض عامة كالاهتمام بالمقدم . وأغراض خاصة كإرادة التخصيص .

أما أنواع التقديم أو أقسامه . فإنها عندهم نوعان كذلك :

(أ) تقديم على نية التأخير ، كتقديم الخبر على المبتدأ ، وتقديم المفعول على الفاعل أو الفعل .

(ب) تقديم لا على نية التأخير كتقديم المبتدأ على الخبر وتقديم الفعل على الفاعل .

---

(١) المتوفى سنة ٤٧١ على الراجح .

(٢) المتوفى سنة ٣٧٩ - شذرات الذهب : ١٢٣/٦ ، الدرر الكامنة : ٣/٤ ، والنجوم الزاهرة : ٣١٨/٩

وقد عارض الزمخشرى – كما نقل عنه صاحب المطول [١] – على اعتبار هذا النوع من التقديم فقال : « إنما يقال مقدَّم ومؤخر للمزال لا للقار فى مكانه » ورد هذا الاعتراض بأن المراد بتقديمه الإتيان به مقدماً .

وهذا التقسيم نص عليه عبد القاهر فى الدلائل [٢] وتابعه البلاغيون من بعده [٣] .

والحق أن الزمخشرى له دليل قوى فيما تمسَّك به . وإن كان يؤخذ عليه ما أجاب به البلاغيون ، لأنه اعتبار دقيق ما كان ليفوت الزمخشرى وهو من أبرز ذوَّاقى الأساليب .

أما موضوعات التقديم . فهى لا تخرج – عندهم – عن الأحوال الآتية :

١ – تقديم المسند إليه ، وهو – هنا – خصوص المبتدأ . أما نظيره « الفاعل » فليس له نصيب فى هذا البحث ، لأنه لو قُدِّم على فعله لأصبح مبتدأ وزال عنه معنى الفاعلية وتحوَّلت إلى ضميره . ويصبح التركيب – حينئذ – أصيلاً لا تقديم ولا تأخير فيه .

٢ – تقديم المسند ، وهو – هنا – خصوص الخبر غير الفعلى . لأن الخبر الفعلى لو قُدِّم لصار المبتدأ فاعلاً ، ولحصلنا على نمط من التركيب مغاير تماماً لما حُوِّل عنه . فمثل : الصدق ينفع ، لو قدَّمنا فيه الخبر – وهو فعلى – لأصبح التركيب : ينفع الصدق . ولما بان – إذن – أن فى الكلام تقديماً .

٣ – تقديم المتعلقات على عواملها ، أو تقديم بعضها على بعض ، كالمفعول به على الفعل وكالظرف والجار والمجرور ، وكالحال والتمييز ، وكتقديم التوابع بعضها على بعض . عند هذا الحد تقف بحوث البلاغيين فى التقديم ، وقد كشفوا عن أسراره فيها وتباينت وجهات نظرهم فى بعض الفروع .

---

(١) المطول ص ١٠٦ (٢) الدلائل ص ١٣٧

(٣) كالخطيب القزوينى : الإيضاح : ١١٣/٢ ، شرح خفاجى والسعد : المطول ص ١٠٦

ونوجز فيما يأتى خلاصة منهجهم فى الموضوعات الثلاثة الآتية :

أولاً - أسرار تقديم المسند إليه :

يُقدَّم المسند إليه لأغراض مختلفة ، وكان الأقدمون - قبل عبد القاهر الجرجانى - يرجعون تقديم المسند إليه إلى غرض واحد عام ، هو الاهتمام والعناية . ويفسرون بذلك كل تقديم وقد أشار إلى ذلك سيبويه . ولم يرتض عبد القاهر هذا التفسير العام ، لأن الاهتمام والعناية من الظواهر التى تحتاج إلى تعليل وكشف عن دواعيهما [1] .

وبهذا فتح عبد القاهر المجال أمام النظر بهذا التنبيه ، وقد تلمَّس هو نفسه فى كتابه « الدلائل » أسبابًا أعمق ، وأسراراً أدق . وقد أسفرت البحوث بعده عن الأسرار الآتية التى يقدم من أجلها المقدم - المسند إليه - هنا .

١ - التقديم للعناية والاهتمام : أشار الخطيب [2] إلى شرح كونه أهم ، كما يقول صاحب المطول . وقبله السكاكى [3] . والطريقة فيه أنه يُقدَّم لكون ذكره إما لأنه الأصل ، ولا مقتضى للعدول عنه ، فإذا وُجِدَ مقتض لتقديم المسند أهمل تقديم المسند إليه ، كما إذا أريد قصر المسند إليه على المسند ، أو التشويق إلى المسند إليه وذلك يقتضى تأخيره إذا كان فى المسند ما يثير هذا التشويق . أو غير ذلك من الأسباب . لأن التقديم للأصالة ضعيف يراعى إذا لم يعارض بسبب آخر أقوى منه .

٢ - وإما ليتمكن الخبر فى ذهن السامع لأن فى المبتدأ - كذلك - تشويقاً إليه إما لغرابة صلته إن كان موصولاً ، كقول أبى العلاء :

وَالَّذِى حَـارَتِ البَرِيَّــةُ فِيهِ ... حَيَّوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٨٤ ، المطول ص ١٦٥

(٢) الإيضاح ص ١١٤ (٣) المفتاح ص ٨٤

فإن الحيرة فى جانب المسند إليه تشويق إلى معرفة مَن وقعت عليه ، وتعلقت به وهو المسند . وهذا يُمكِّن الخبر فى الذهن حيث قد هُيِئَ له ، وأثير الشعور نحوه .

وإما لغرابة صفته إن كان موصوفاً . كالتصرف فى المثال السابق : الشئ الجالب للحيرة حيوان مستحدث من جماد (١) .

وإما لكونه ضمير شأن أو قصة . كقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٢) . وقوله : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ ﴾ (٣) . لأن ضمير الشأن والقصة - بما فيهما من الإبهام - يشوقان السامع إلى البيان الذى يتكفل به المسند وذلك من دواعى التمكين .

٣ ، ٤ - وإما لتعجيل المسرَّة أو المساءة كقولك : سعيد فى دارك . والسفاح فى دار صديقك .

٥ - وإما لإيهام أنه لا يزول عن الخاطر ، فهو إلى الذكر أقرب . وذلك الإيهام إما لكونه مطلوباً فى نفسه كقول الجائع العطشان : الرغيف والماء أجمل ما تحت السماء ، وإما لكونه مستلذاً استلذاذاً حسياً كقول جميل :

بُثَيْنَـةُ مَا فِيهَا إذَا ما تُبُصِّرَتْ   مَعَابٌ ، وَلاَ فِيهَا إذَا نُسِبَتْ أشَبُ

أى هى الوسيمة الأصيلة فالتقديم لما ذكرناه (٤) .

٦ ، ٧ - وإما للمبادرة إلى إظهار تعظيمه أو تحقيره إذا كان اللفظ مشعراً بهما - إما بذاته - وقد مثلوا لهما بأمثلة مصنوعة . وفى القرآن ما يغنيهم عن هذه الصناعة . كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَٰهَ إلاَّ هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ ، لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ (٥) .

---

(١) محاضرات فى البلاغة : محمود فرج العقدة - ص ٥٢

(٢) الإخلاص : ١   (٣) الحج : ٤٦

(٤) محاضرات فى البلاغة : محمود فرج العقدة ص ٥٢   (٥) البقرة : ٢٥٥

واللفظ – هنا – مشعر بالعظمة بذاته ، وأما بالإضافة فمثل قوله تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ (١) هذا فى التعظيم .

أما فى التحقير فيمكن الاستشهاد عليه بقوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) واللفظ – هنا – مشعر بالتحقير بذاته .

وأما بالإضافة فمثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ (٣) .

وقد نَصَّ السكاكى على موضعين آخرين ، أحدهما :

٨ – أن يكون كونه متصفاً بالخبر هو المطلوب لا نفس الخبر . كما إذا قيل : كيف الزاهد ؟ فتقول : الزاهد يشرب ويطرب (٤) .

وقد عَدَّ بعض المحدَثين (٥) هذا الموضع تحت ضابط : طرافة حصول المسند من المسند إليه لأن الزاهد من شأنه التقوى والورع ، فكونه شارباً طروباً مخالف لما ينبغى .

وثانيهما :

٩ – أن يكون متضمناً لاستفهام مثل : أيهم منطلق ؟ لأن أدوات الاستفهام لها الصدارة .

١٠ ، ١١ – التقديم لإفادة التخصيص أو التقوى . وفى ذلك مذهبان ، أحدهما لعبد القاهر الجرجانى ، والثانى لأبى يعقوب يوسف السكاكى .

---

(١) الفرقان : ٦٣ (٢) البقرة : ٢٦٨ (٣) النساء : ٧٦

(٤) المفتاح ص ٨٦ (٥) هو محمود فرج العقدة .

أولاً - مذهب عبد القاهر :

وهو يتلخص فى الاعتبارات الآتية :

١ - إذا تقدَّم المسند إليه على خبره الفعلى ، وقد ولى حرف النفى ، فإنه يفيد قصر نفى الخبر عليه وجهاً واحداً ، سواء أكان المسند إليه معرَّفاً أو منكراً ، مُظهَراً أو مُضمَراً .

٢ - أما إذا كان المسند إليه غير والٍ لحرف النفى ، وكان خبره أيضاً فعلياً ، ولم يكن المسند إليه نكرة سواء أكان الخبر مثبتاً أو منفياً . فإنه يأتى - أحياناً - للتخصيص إن كان للمخاطب حكم على خلاف حكمك .

ويفيد التقوى - فحسب - إن لم يكن له ذلك الحكم المخالف لما تقول . والمرجع فى ذلك للمقامات وقرائن الأحوال .

٣ - فإن كان نكرة ، والحال أن خبره فعلى مثبت أو منفى ، ولم يل المسند إليه حرف النفى فإنه يفيد التخصيص قطعاً . إلا أنه يتنوع إلى نوعين :

(أ) تخصيص الجنس .

(ب) تخصيص الواحد من الجنس (العدد) .

وتوضيح ذلك بالأمثلة :

ما أنا قلت - هذا ما محمد قال هذا - ما رجل قال هذا .. فى هذه الأمثلة الثلاثة قُدِّم المسند إليه الذى خبره فعلى والياً - أى المسند إليه - حرف النفى ، وهو معرف فى المثالين الأولين مضمر فى أحدهما ، ومظهر فى الثانى ، ونكرة فى الثالث .

وقد مثَّل عبد القاهر لهذا النوع بقول المتنبى :

وَمَا أنَا أسْقَمْتُ جِسْمِى بِهِ   وَمَا أنَا أضْرَمْتُ فِى القَلْبِ نَاراً (١)

---

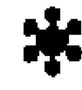
(١) البيت وارد فى الدلائل - تحقيق خفاجى - ص ١٥٤

ويرتب عبد القاهر على هذه القواعد أمرين :

أولاً : أنه يصح لك أن تقول : ما قلتُ هذا ، ولا قاله أحد من الناس . ولا يصح ذلك فى الوجه الآخر .

فلو قلت : ما أنا قلت هذا . ولا قاله أحد من الناس ، كان خلفاً من القول . وكان فى التنافض بمنزلة أن تقول : لست الضارب زيداً أمس . فتثبت أنه قد ضُرِب ثم تقول من بعده : وما ضربه أحد من الناس .

ثانياً : إنك تقول : ما ضربتُ إلا زيداً ، فيكون كلامك مستقيماً ، ولو قلت : ما أنا ضربت إلا زيداً ، كان لغواً من القول . وذلك لأن نقض النفى بـ « إلا » يتقضى أن تكون ضربت زيداً . وتقديمك ضميرك وإيلاؤه حرف النفى يقتضى نفى أن تكون ضربته فهما يتدافعان فاعرفه [1] .



● معارضة :

وعارض الخطيب [2] هذا التعليل الذى شرحه عبد القاهر من حيث أن إيلاء الضمير حرف النفى يقتضى ألا يكون ضربه . لكنه لم يذكر - أى الخطيب - لماذا لم يسلم بقول عبد القاهر .

ورد السعد على اعتراض الخطيب بقوله : « إن تقديم المسند إليه ، وإيلاءه حرف النفى إنما يكون إذا كان الفعل المذكور ثابتاً متحققاً بينهما . وإنما المناظرة فى فاعله فقط » .



٤ - أما إذا لم يل المسند إليه حرف النفى ، والخبر - كذلك فعلى - مثبت أو منفى فإنه يفيد القصر تارة ، إذا كان للسامع حكم خلاف ما أنت تقول

---

(١) نفس المصدر : ويوافقه السكاكى - انظر المفتاح ص ١٠١ (٢) الإيضاح : ٢/ ٧٠

كقولك : أنا كتبت فى معنى فلان . قلباً أو إفراداً أو تعييناً - حسب حالة السامع - ويؤكد الإفرادى بـ « وحدى » ، والقلبى بـ « لاغيرى » .

فإن لم يكن للسامع حكم خلاف ما أنت تقول ، فإنه لا يفيد إلا التقوى .



● مبنى افادة التقوى :

وطريق إفاد التقوى فى هذا النوع فيه رأيان :

فالخطيب [(١)] والجمهور يقولون : إنه راجع إلى تكرار الإسناد ، وهذا واضح إذ الخبر فيه مسند إلى المبتدأ مرتين . مرة من حيث أنه خبره . ومرة من حيث أنه فعل مسند إلى ضميره وهذا رأى وجيه كما ترى .

وعبد القاهر يرى [(٢)] أنه راجع إلى أن تقديم المحدَّث عنه يفيد تنبيه السامع لقصده بالحديث قبل إيراد الحديث تحقيقاً للأمر ، وتأكيداً له .

والفرق بين الرأيين - بعد اتفاقهما فى إفادة التقوية - أن رأى الخطيب والجمهور مبنى على قواعد الصناعة النحوية لا غير ، أما رأى عبد القاهر فمبناه الذوق والوجدان المرهف .

وتطبيقاً لهذه الفكرة سرد الإمام عبد القاهر - وتابعه المتأخرون - بعض النصوص القرآنية وغيرها . فمن القرآن ذكر الآيات الآتية :

﴿ وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [(٣)] .

﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ ﴾ [(٤)] .

---

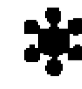
(١) الإيضاح - شرح خفاجى - ٢/٧٢ - ٧٣

(٢) الدلائل ص ١٥٧

(٣) الفرقان : ٣

(٤) المائدة : ٦١

ويعترف عبد القاهر بأنه استقى مذهبه هذا من سيبويه صاحب الكتاب فيقول : « وهذا الذى ذكرت من أن تقديم ذكر المحدث عنه يفيد التنبيه له . قد ذكره صاحب الكتاب فى المفعول إذا قدم فرفع بالابتداء ، وبنى الفعل الناصب له عليه وعدى إلى ضميره فشغل به ، كقولنا فى : ضربت عبد الله . عبد الله ضربته . فقال : وإنما قلت عبد الله فنبهته له ، ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء » [1] .



● مرجحات رأى :

ثم يقول [2] : « ويشهد لما قلنا من أن تقديم المحدث عنه يقتضى تأكيد الخبر وتحقيقه ، أنَّا إذا تأملنا وجدنا هذا الضرب من الكلام يجئ :

١ - فيما سبق فيه إنكار من منكر مثل قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [3] .

٢ - وفيما اعترض فيه شك . نحو أن يقول الرجل : كأنك لا تعلم ما صنع فلان ؟ فتقول : أنا أعلم .

٣ - أو فى تكذيب مدع . كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ [4] .

٤ - أو فيما القياس فى مثله ألا يكون كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [5] .

٥ - وفيما يكون على خلاف العادة . كقولك : ألا تعجب من فلان ، يدعى العظيم وهو يعيى باليسير . ويزعم أنه شجاع وهو يفزع من أدنى شئ .

---

(١) الدلائل - شرح خفاجى - ص ١٥٩
(٢) نفس المصدر ص ١٦٠.
(٣) آل عمران : ٧٥
(٤) المائدة : ٦١
(٥) الفرقان : ٣

٦ – وفى الوعد والضمان ، وهو فيها حسن كثير ، تقول للرجل : أنا أعطيك . أنا أكفيك .. لأن الموعود والمضمون له فى حاجة إلى التأكيد .

٧ – ويكثر – كذلك – فى المدح كقوله الشاعر [(١)] يفخر :

نَحْنُ فِى المشْتَاةِ نَدْعُو الجَفْلَى لاَ تَـرَى الآدَبُ منَّا يَنْتَقِـر

ويرى عبد القاهر أن بعض المواضع لا يصلح فيها إلا هذا النوع من التعبير فهو فيها ألزم . وذلك إذا وقع الفعل المضارع بعد واو الحال . كقول الشاعر :

تَمَزَزْتُهَا وَالدِّيكُ يَدْعُو صَبَاحَهُ إذَا مَا بَنُو نَعْشٍ دَنَوا فَتَصَوَّبُوا

فلا يصح – عنده – أن تقول : رأيته ويكتب ، ودخلت عليه ويمل الحديث ، وتمززتها ويدعو صباحه ، فإنه ليس بشئ . والملحظ هنا ذوقى .

ومما لا يصلح فيه إلا هذا النوع من التعبير قوله تعالى : ﴿ إنَّ وَلِيِّىَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الكتَابَ ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالحينَ ﴾ [(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ أسَاطِيرُ الأوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْه بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [(٣)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [(٤)] .

قال بعد ذكر هذه النصوص : « فإنه لا يخفى على مَن له ذوق أنه لو جئ بذلك والفعل غير مبنى على الاسم لوجد اللفظ قد نبا عن المعنى وقد زال عن صورته ، والحال التى ينبغى أن يكون عليها » [(٥)] .

---

(١) هو طرفة بن العبد . (٢) الأعراف : ١٩٦ (٣) الفرقان : ٥

(٤) النمل : ١٧ (٥) الدلائل ص ١٦٢ – ١٦٣

وعبد القاهر فى تقديره هذه المسألة ، التى لم يُسْبَق إليها كان على جانب كبير من تذوق البلاغه الرفيعة ، والتى تسمو فوق توجيهات القواعد ، إنها بلاغة الجمال الفنى والذوق المصفى . والإحساس السليم .

* *

● التقديم والتأخير فى الفعل المنفى :

يطبق عبد القاهر فكرته التى حرر القول فيها فى الفعل المثبت فى الفعل المنفي كذلك . فهما فيها سواء قال [١] : « واعلم أن هذا الصنيع يقتضى فى الفعل المنفى ، ما اقتضاه فى الفعل المثبت فإن قلت : أنت لا تحسن هذا . كان أشد لنفى إحسان ذلك عنه من أن تقول : لا تحسن هذا . ويكون الكلام فى الأول مع مَن هو أشد إعجاباً بنفسه ، وأعرض دعوى فى أنه يحسن . حتى إنك لو أتيت بـ « أنت » فيما بعد « تحسن » فقلت : لا تحسن أنت ، لم يكن له تلك القوة ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ ﴾ [٢] . يفيد من التأكيد فى نفى الإشراك عنهم مما لو قيل : الذين لا يشركون بربهم . أو : بربهم لا يشركون . ولم يفد ذلك » .

هذا فى المعرفة . أما الفكرة فإنها تفيد التخصيص الجنسى أو العددى . فنحو : رجل جاءنى . يحتمل أن يكون الجائى امرأة فيكون لقصر الجنس ، أو رجلين ، فيكون لقصر العدد قلباً أو إفراداً أو تعييناً ..

هذه خلاصة رأى عبد القاهر فى إفادة تقديم المسند إليه التخصيص أو التقوى حرصنا أن نعرضها بعيداً عن تعليقات أصحاب الشروح والحواشى إلا فيما خف لأن الذوق وحده هو الذى يحكم على هذا المذهب الجزل والمورد العذب والإحساس الرقيق .

*

---

(١) الدلائل ص ١٦٣ — (٢) المؤمنون : ٥٩

ثانياً – مذهب السكاكى :

يضع السكاكى لإفادة تقديم المسند إليه التخصيص شرطين :

١ – أن يجوز تقدير كونه فى الأصل مؤخراً . بأن يكون فاعلاً فى المعنى مثل قولك : أنا قمت . فإنه يجوز تقدير أصله : قمت أنا ، على أن يكون « أنا » تأكيداً للفاعل الذى هو « التاء » فى « قمت » . فقدم وجعل مبتدأ .

٢ – أن يقدر كونه كذلك . فإن انتفى الشرط الأول ، وهو جواز تقديره مؤخراً على أن يكون فاعلاً فى المعنى دون اللفظ ، ولم يلاحظ فى الكلام تقديم ولا تأخير أو انتفى الشرط بأن كان المسند إليه اسماً ظاهراً ، فإنه لا يفيد إلا تقوى الحكم .

وفرق بين النكرة والمعرفة بأن النكرة لو لم يُقدَّر فيها ذلك لامتنع تخصيصه إذ لا سبب له سواه . ولو امتنع تخصيصه لم يقع مبتدأ . بخلاف المعرَّف لوجود شرط الابتداء فيه وهو التعريف .

والمثال : رجل جاءنى صالح . لإفادة قصر الأفراد ، أى : لا رجلان ولا رجال . وقصر الجنس ، أى : لا امرأة .

وشرط إفادة النكرة التخصيص ألا يمنع منه مانع . وهو يضع هذا القيد ليمنع ما رأى عبد القاهر أن فيه تخصيصاً ، وهو خصوص المثال الذى يقول : شر أهر ذا ناب ، إذ لا يجوز عنده أن يكون المعنى : المهر شر لا خير ، ولا المهر شران لا شر .

وحين رأى إطباق العلماء على إفادة المثال المذكور التخصيص ، التمس له وجهاً آخر هو أن التخصيص فيه نوعى . أى : شر عظيم أهر ذا ناب .

وبذلك أصبح شرطه : « ألا يمنع من التخصيص مانع » لا محصل له .

*   *

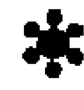
● **مقارنة :**

المقارنة بين هذين المذهبين تُسفر عما يأتى :

١ - عبد القاهر يجعل أهمية خاصة لإيلاء المسند إليه حرف النفى فى إفادة التخصيص بل المدار عنده على هذا الإيلاء بينما يهدر السكاكى هذا الشرط كلية .

٢ - عبد القاهر يرى أن المعرف إذا لم يقع بعد النفى وخبره فعلى مثبت أو منفى فإنه يفيد الاختصاص ، مضمراً أو مظهراً ، وكلام السكاكى صريح فى أنه لا يفيده إلا المضمر .

٣ - عبد القاهر لا يرى الاختصاص فى المشتقات . والسكاكى يرى ذلك .



١٢ - تقديم المسند إليه لإفاده عموم السلب ، وعكسه فى عكسه :

يُقدَّم المسند إليه إذا كان لفظ « كل » ومثله ما فى معناه : كجميع وعامة . على أداة السلب ليفيد عموم السلب ، وشموله لكل ما أضيف إليه لفظ « كل » وما جرى مجراه فى الدلالة [١] .

فإذا عكست وقدَّمت أداة السلب على لفظ « كل » انعكس فأفاد سلب العموم والشمول عما أضيف إليه « كل » . واقتضى ذلك ثبوت الفعل ، ومثله الأوصاف المشتقة لبعض ونفيه عن بعض .

ولا بد - هنا - من مراعاة شروط ثلاثة :

١ - أن يكون المسند إليه مسوراً بـ « كل » ، أو ما جرى مجراه .

٢ - أن يكون المسند مقروناً بحرف النفى .

---

(١) محاضرات فى البلاغة : محمود فرج العقدة - ص ٧ .

٣ - أن يكون المسند إليه بحيث لو أُخِّر كان فاعلاً فى المعنى [١] .

هذا هو مذهب الإمام عبد القاهر [٢] .

*

• موقف المتأخرين من هذا الرأى :

لعلماء البلاغة الذين جاءوا بعد الجرجانى والسكاكى رأى فى هذا المذهب ونخص منهم اثنين :

١ - الخطيب القزوينى . وقد عرض هذا الموضوع فى صيغة التضعيف فقال : « قيل : وقد يقدم لأنه دال على العموم [٣] .. ثم أخذ فى تحليل المسألة تحليلاً رائعاً . مستخدماً فى ذلك مهارته النقدية . وقواعد المنطق ، وقد انتفع بما كتبه مَن سبقه من العلماء كبدرالدين بن مالك فى المصباح .

٢- ثم السعد فى المطوّل ، ونقد السعد لهذا الموضوع موضوعى وجيه يقول : « لأنّا لا نجده حيث لا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [٤] ، و ﴿ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [٥] ، ﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴾ [٦] .

٣ - والسعد يقصد من هذا أن مقتضى ما قاله عبد القاهر أن الله يحب بعض المختال الكفور ، ويحب بعض الكفّار الأثيم ، وأن الرسول مأذون له أن يطيع بعض الحلاّف المهين .

---

(١) شرح عبد المنعم خفاجى على الإيضاح : ١٤٠/٢ .

(٢) انظر الدلائل - شرح خفاجى - ص ١٢٦ - ١٢٧

(٣) الإيضاح - شرح خفاجى : ١١٢/٢

(٤) لقمان : ١٨ (٥) البقرة : ٢٧٦

(٦) المطول ص ١٢٥ . ط . تركيا - والآية من سورة القلم : ١٠

وليس هذا بصالح هنا ، ولا هو مقصود . وهذا أكبر خطر يوجه لرأى عبد القاهر رحمه الله فى خصوص هذه المسألة .

لكن السعد لم يبطل كل ما قرره عبد القاهر . بل كان رقيقاً معه فى الحكم على مذهبه مع قوة دليل الطعن ووجاهته .. فقال : « إن الحكم فى مثل هذه القاعدة أكثرى لا كلى » [1] .

وقد دافع الشيخ البرقوقى فى شرح التلخيص عن الشيخ عبد القاهر فقال : « فإن قلت : ماذا تصنع فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [2] (ثم ذكر الآيتين الأخريين) ؟ وقال : « قد يعدل عما يدل على عموم السلب إلى ما يفيد سلب العموم . والسلب عام على الحقيقة للتعريض بالمخاطب . والإيماء إلى أنه شر صنفه .. فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ .معناه : إن محبة الله لا تعم المحتالين الفخورين حتى تشمل هؤلاء . فكأنه سبحانه يقول : لو أن محبتنا تعلقت بمختال فخور لما تعلقت بأولئك ، لأن مختالهم وفخورهم شر مختال وفخور .

وهكذا يقول فى الآيات التى تشبه هذه الآية . وما ظاهره أنه من سلب العموم ، وحقيقته أنه من عموم السلب [3] .

وهذا دفع وجيه ، وتخريج مقبول ليس من السهل التقليل من شأنه فرحم الله العلماء الملهمين .

*

١٣ - تقديم « مثل » و « غير » :

لـ « مثل » و « غير » وضع خاص فى التقديم . فهما لا يخضعان للمقاييس السابقة التى ترجح التقديم تارة ، والتأخير أخرى . بل هما مقدمان دائماً تقديماً

---

(١) نفس المصدر . (٢) لقمان : ١٨

(٣) شرح التلخيص : للبرقوقى ص ٦٨

لازماً أو كاللازم . يقول عبد القاهر : « واستعمال « مثل » و « غير » على هذا السبيل شئ مركوز فى الطباع . وهو جار فى عادة كل قوم ، فأنت الآن إذا تصفحتَ هذا الكلام وجدَت هذين الاسمين يُقدَّمان أبداً على الفعل إذا نحى بهما هذا النحو الذى ذكرتُ لك - يريد الكناية بدون تعريض - وترى هذا المعنى لا يستقيم فيهما إذا لم يُقدَّما ، ورأيتَ كلاماً مقلوباً عن جهته ، ومغيَّراً عن صورته ، ورأيتَ اللفظ قد نبا عن معناه ، ورأيتَ الطبع يأبى أن يرضاه » (١) .

وهذا القانون الذى يخضع عبد القاهر « مثل » و « غير » تحته يتحقق بألا يراد بـ « مثل » ، و « غير » ، غير ما أضيفتا إليه - أى أريد بهما الكناية بدون تعريض . مثل قول المتنبى يعزى عضد الدولة فى أمه :

مِثْلُكَ يَثْنِى المُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ ... وَيَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ (٢)

وعبد القاهر - كما علمنا - يرجع السر فى هذا التقديم إلى الطبع والعُرف اللغوى ، وجاء الخطيب وأشار إلى توجيه عبد القاهر . ثم أخذ يلتمس وجهاً آخر خلاف ما ذكره عبد القاهر . وقد تابعه السعد فى المطول عند حديثه عن تقديم « مثل » و « غير » (٣) ، وخلاصة رأيهما :

قال الخطيب فى الإيضاح : « والسر فى ذلك أن تقديمهما يفيد تقوى الحكم كما سبق تقديره - يريد تكرار الإسناد - وأن المطلوب بالكناية فى قولنا : مثلك لا يبخل وغيرك لا يجود ، هو الحكم ؛ وأن الكناية أبلغ من التصريح فيما قُصِدَ بها فكان تقديمهما أعون للمعنى الذى جلبا لأجله (٤) .

---

(١) الدلائل ص ٢١٦

(٢) يثنى : يرد ، صوب الدمع : انصبابه ، غربه : سيله .

(٣) المطول ص ٤١٤ (٤) الإيضاح : ١٠٣/٢

ثانياً – أسباب تقديم المسند :

يُقدَّم المسند على المسند إليه عند البلاغيين للأسباب الآتية :

١ – تخصيصه بالمسند إليه ، نحو : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (١) .

ولهذا لم يقدَّم الظرف فى قوله تعالى : ﴿ ذَلكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٢) . لئلا يفيد التقديم ثبوت الريب فيما عدا القرآن من كتب الله المنزَّلة .

٢ – للتنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا صفة ، كقول الشاعر (٣) :

لَهُ هِمَــمٌ لاَ مُنْتَهَـــى لِكِبَارِهَا وَهِمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلُّ مِنَ البَحْرِ

ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ (٤) .

٣– للتفاؤل به ، كقول الشاعر :

* سَعِدَتْ بِغُرَةِ وَجْهِكَ الأَيَّامُ * (٥)

وفى هذا المثال نظر حاصله : أن الاستشهاد به إنما يصلح إذا اعتبرنا الأيام مبتدأً مؤخراً ، والجملة قبله خبراً مقدَّماً . والتقدير : الأيام سعدت بغُرة وجهك .

وهذا الاعتبار ليس بلازم لجواز أن تكون الأيام فاعلاً لـ « سعدت » . فلا تقديم حينئذ ؟ فالأولى بهم أن يمثلوا للتفاؤل بما لا لبس فيه .

٤ – أو التشويق إلى ذكر المسند إليه كقول الشاعر (٦) :

ثَلاَثَــةٌ تُشْــرِقُ الدُّنْيَا بِبِهَجَتِهَا شَمْسُ الضُّحَى ، وَأَبُو إِسْحقَ ، وَالْقَمَرُ

---

(١) الكافرون : ٦ (٢) البقرة : ٢

(٣) حسان بن ثابت يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام . والمبرد ينسبه لبكر بن النطاح يمدح أبا دلف (الكامل : ٢/٨٧) .

(٤) البقرة : ٣٦ (٥) المطول ص ١٨٥ ، ولم يُنسب لشاعر معيَّن .

(٦) محمد بن وهيب يمدح المعتصم بالله – المطول ص ١٨٥

وقد وضع السكاكى لهذا الموضع شرطاً قال : « وحق هذا تطويل الكلام فى المسند وإلا لم يحسن » .

٥ – وزاد السعد فى المطول [١] : ومما يقتضى تقديمه – أى المسند – تضمنه للاستفهام نحو : كيف زيد . أو :

٦ – كونه أهم عند المتكلم . وقد نبَّه السعد على أن المصنف أهمل هذين النوعين ثم التمس له عذراً .

وتقدم التخصيص يقتضى الاهتمام دائماً بالمقدم . ولذلك قدَّروا المحذوف فى قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّه ﴾ مؤخراً ليصح تقديم الجار والمجرور . أما تقديم الفعل عليها فى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [٢] . فقد خرج على وجهين :

أولهما : أن تقديم الفعل – هنا – أولى لكونها أول سورة نزلت وهى تأمر بالقراءة . من هنا كان الفعل أولى بالتقديم .

ثانيهما : وهو السكاكى : أن الجار والمجرور ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ متعلق بـ : ﴿ اقْرَأْ ﴾ الثانية . ومعنى الأول : افعل القراءة . وأوجدها .

ولم يرض الخطيب رأى السكاكى ، فعقَّب عليه بقوله : « وهو بعيد » [٣] لكنه لم يبيِّن وجه بُعده . ولعله يريد بوجه البُعد طول الفصل بين العامل والمعمول . إذ بينهما جملتان .

ثالثاً – تقديم بعض المعمولات على بعض :

ومن أسباب هذا التقديم :

١– أن يكون التقديم – فيما قُدِّم – هو الأصل ، ولا مقتضى للعدول عنه ، كتقديم الفاعل على المفعول . وتقديم المفعول الأول على الثانى ، لأن فى الأول معنى الفاعلية .

---

(١) المطول ص ١٨٦ (٢) العلق : ١ – ٢ (٣) الإيضاح الجزء الثانى .

أما ترتيب المفاعيل فيما بينها فقيل : الأصل تقديم المفعول المطلق ، ثم المفعول به بلا واسطة حرف الجرّ ، ثم ما كان بواسطة . ثم المفعول فيه : الزمان فالمكان . ثم المفعول لأجله . ثم المفعول معه ، والأصل - كذلك - أن يذكر الحال عقيب صاحبه والتابع عقيب المتبوع من غير فاصل . وعند اجتماع التوابع فالأصل تقديم النعت ثم التأكيد ثم البدل ثم البيان [1] .

● ملاحظة :

١ - أرى أن هذا الترتيب من باب الفرض والتقدير ، لأن الأساليب لا تكاد تجتمع فيها هذه المعمولات فى موضع واحد . كما أنه يبدو كمنهج القواعد الجافة ، والأفضل - بلاغة - أن يخضع التقديم والتأخير فيها لنفس الاعتبارات التى رأوها فى المسند إليه والمسند .

٢ - أو لأن ذكره أهم . وذلك حسب اعتناء المتكلم أو السامع . وهذا الاعتبار يغنى عن الترتيب الذى ذكرناه آنفاً . وقد مثّلوا لذلك بقولهم : « قتل الخارجىَّ فلانٌ » لأن قتل الخارجى هو الأهم لا مَن قتله . وكأن يقال : قتل اللصَّ شرطىٌّ فإن خشية الناس من اللص تجعل نبأ قتله عندهم هو المطلوب لا مَن باشر القتل .

٣ - وإما لأن فى التأخير إخلالاً بالمعنى .. ومثّلوا له بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ [2] . فلو أخّر « من آل فرعون » عن « يكتم إيمانه » لوقع فى الوهم أنه صلة . فلم يفهم أن ذلك الرجل من آل فرعون وهو المطلوب .

فقد ذكرت الآية للرجل ثلاثة أوصاف . فقدّم الإيمان ، لأنه أشرفها .. وأُخّر « يكتم إيمانه » لأن فى تقدمه على الثانى خللا بالمعنى وهذا توجيه سديد ليس عليه اعتراض .

(١) نفس المصدر ، ولم يذكر ترتيب العطف .

(٢) غافر : ٢٨

٤ - وإما لأن فى التأخير إخلالاً بالتناسب .

وقد فسَّروا هذا التناسب برعاية الفواصل ، والسجع ، وموافقة كلام السامع ومن أمثلتهم فى رعاية الفاصلة قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ (١) . حيث جعلوا تقديم الجار والمجرور والمفعول به على الفاعل « موسى » لرعاية الفواصل . لأنها مبنية على الإلف .

وجعل السكاكى التقديم للعناية مطلقاً . سواء أكان من معمولات الفعل أو غيره ، قسمين :

أحدهما : أن يكون أصل الكلام التقديم ، كتقديم المبتدأ المعرف على الخبر ، وتقديم ذى الحال المعرف على الحال ، وتقديم العامل على المعمول .

وثانيهما : أن تكون العناية بتقديمه ، إما لأنه نصب عينك كتقديم المعمول على العامل فى قولك : وجه الحبيب أتمنى ، لمن قال لك : ما الذى تتمنى ؟

وتقديم المفعول الثانى على الأول فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ (٢) . على أنهما مفعولا « جعلوا » . فإن ذكر الله . وذكر وجه الحبيب أهم لأنه فى نفسه نصب عينك .

كذلك إذا توهمت أن مخاطبك ملتفت إليه منتظر لذكره ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ (٣) .

وكما إذا عرفت أن فى التأخير مانعاً . كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٤) حيث قدم الحال من « قومه » على الوصف « الذين كفروا » إذ لو تأخر لتوهم أنه من صلة الدنيا ، لأنها هنا اسم تفضيل من الدنو وليست اسماً ، والدنو يتعدى بـ « من » (٥) .

---

(١) طه : ٦٧ (٢) الأنعام : ١٠٠ (٣) يس : ٢٠

(٤) المؤمنون : ٣٣ (٥) المفتاح (بتصرف) .

● مناقشة الخطيب له :

وناقش الخطيب كلام السكاكى بما حاصله :

أولاً : أنه جعل تقديم « لله » على « شركاء » للعناية والاهتمام وليس كذلك . لأن الآية مسوقة للإنكار التوبيخى . فيمتنع أن يكون تعلق « جعلوا » بالله منكراً على الإطلاق بل باعتبار تعلقه بـ « شركاء » . وما قيل فى بـ « الله » يقال كذلك فى « شركاء » ، لأن المنكر تعلقه بهما لا بأحدهما . فلا فرق إذن بين التلاوة وعكسها . فإذا قُدِّم أحدهما على الآخر فلا يصح تعليل التقديم بالعناية .

وهذا نقد وجيه نحمده للخطيب . ومنه ندرك إلى أى مدى كان السكاكى واهماً .



● تقديم المفعول به :

كما عنوا بحذف المفعول به ، عنوا بتقديمه كذلك . حتى صارت لهذا المفعول عندهم منزلة خاصة فى بحوثهم .

ويُقدَّم المفعول به على فعله لثلاثة أغراض :

أولاً : أن يكون لرد الخطأ فى التعيين كقولك : فلان عرفت ، وهذا المثال صالح لجميع أغراض القصر . قلباً وإفراداً وتعييناً .

ثانياً : أن يكون لتأكيد الحكم دون قصره . وذلك كقولنا : محمداً أكرمته ، وهذا المثال صالح لاحتمالين :

(أ) أن يفيد التوكيد وجهاً واحداً . وذلك إذا قُدِّر المحذوف قبل المنصوب : أكرمت محمداً أكرمته .

(ب) أن يفيد التخصيص لأن المحذوف المقدَّر كالمذكور إذا قُدِّر المحذوف بعد المنصوب . فيكون التقدير : محمداً أكرمت أكرمته .

ولهذا جزم السكاكى [1] بإفادة التقديم التخصيص فى قوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [2] .فيمن قرأ بنصب « ثمود » . وذلك لامتناع تقدير المحذوف قبل المنصوب لالتزام النجاة فاصلاً بين « أما » و « الفاء » ولو قُدِّر كذلك فات ذلك الالتزام ووقع المحظور .

*　*

● تقديم المفعول للإنكار :

ثالثاً : أن يكون لإنكار الفعل على معنى : لا ينبغى أن يكون . وقد أفاض الإمام عبد القاهر فى تحليل هذا الموضوع فى أسلوب أدبى آسر ، قال - وكلامه فى الهمزة : « وقد تكون إذ يراد إنكار الفعل من أصله ، ثم يخرج اللفظ مخرجه » [3] .

وبعد أن أورد أمثلة لتقديم الفاعل ، شارحاً وموضحاً لمذهبه ، يورد كذلك أمثلة لتقديم المفعول والياً الهمزة فيقول : « ونظير هذا - أى نظير تقديم الفاعل - قوله تعالى : ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ ﴾ [4] . أخرج اللفظ مخرجه إذا كان قد ثبت تحريم فى أحد أشياء . ثم أريد معرفة عين المحرَّم ، مع أن المراد إنكار التحريم من أصله ، ونفى أن يكون قد حُرِّم شئ بما ذكروا أنه محرَّم وذلك إن كان الكلام وضع على أن يجعل التحريم كأنه قد كان ثم يقال لهم : أخبرونا عن هذا التحريم الذى زعمتم فِيمَ هو ؟ أفى هذا أم ذاك ؟ أم فى الثالث ؟ ليتبين بطلان قولهم ، ويظهر مكان الفرية منهم على الله » .

وقريب من هذا قوله : « واعلم أن حال المفعول - فيما ذكرنا - كحال الفاعل . أعنى تقديم الاسم المفعول يقتضى أن يكون الإنكار فى طريق الإحالة والمنع ، من أن يكون بمثابة أن يوقع به مثل ذلك الفعل فإذا قلت : أزيداً تضرب ؟ كنت

---

(١) المفتاح ص ٩٧
(٢) فصلت : ١٧
(٣) الدلائل : ص ١٤٧
(٤) الأنعام : ١٤٣

قد أنكرت أن يكون زيد بمثابة أن يُضرب أو بموضع أن يُجترأ عليه . ويستجاز ذلك فيه . ومن أجل ذلك قدَّم « غير » فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ (٢) .

وكان له من الحسن والفخامة ما تعلم أنه لا يكون لو أخَّر فقيل : أأتخذ غير الله ولياً ؟ .. أتدعون غير الله ؟ وذلك لأنه حصل بالتقديم معنى قولك : أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً ؟ و : أيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ و : أيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك ؟

ولا يكون شئ من ذلك إذا قيل : « أأتخذ غير الله ولياً . وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد على ذلك فاعرفه » (٣) .

وهذا المبحث جزء من بحث رائع جداً خطه الإمام عبد القاهر فيما يلى همزة الاستفهام من فعل أو فاعل أو مفعول أو غيرها .

وحاصل مذهبه - فى كل أولئك - أن الهمزة يجب أن يليها المسئول عنه . والمقرر به من فعل أو اسم . والمعنى يختلف باختلاف المقدم الوالى لهمزة الاستفهام .

هذا فى التصور دون التصديق . لأن أجزاء الجملة فى التصديق لا يختص شئ منها فضل اختصاص بالمعنى حتى يكون تقديمه وإيلاؤه الهمزة واجباً .

هذه خلاصة سريعة لمنهج البلاغيين فى التقديم . وقد رأينا أنهم يهتمون بتقديم المسند إليه ، والمسند ، والمعمولات ، ومنها المفعول به .. ولا يزيدون على ذلك .

*

(١) الأنعام : ١٤ (٢) الأنعام : ٤٠ . (٣) الدلائل ص ١٤٨

ثانياً : منهج ابن الصائغ فى التقديم

ذكر هذا المنهج السيوطى فى المعترك [١] ، وهو بصدد تقسيم التقديم . وقد قسّمه إلى قسمين :

أحدهما : ما أشكل معناه ، بحسب الظاهر ، فلما عرف أنه من باب التقديم والتأخير اتضح . وقد أورد على هذا القسم بعض الأمثلة من القرآن الكريم . ومنها ما حكاه عن ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [٢] . قال - يعنى قتادة - : هذا من تقديم الكلام يقول : « لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا . إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الآخرة » [٣] .

وحكى عن قتادة - كذلك - أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ورَافِعُكَ إِلىَّ ﴾ [٤] : هذا من المقدم والمؤخر ، أى : « رافعك إلىَّ ومتوفيك » .

وحكى عن عكرمة أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الحِسَابِ ﴾ [٥] : هذا من التقديم والتأخير .

يقول : لهم يوم القيامة عذاب شديد بما نسوا .

ونُسبَ إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [٦] ، أى : « إنما قالوا جهرة أرنا الله » قال ابن جرير : يعنى سؤالهم كان جهرة .

كما حكى عن ابن عباس - أيضاً - أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ [٧] . الأصل : هواه إلهه . لأن مَن اتخذ الله هواه غير مذموم [٨] .

---

(١) الجزء الأول - تحقيق على محمد البجاوى ط . دار الفكر الحديث ص ١٧٤ - ١٨٠ .
(٢) التوبة : ٥٥ (٣) المعترك ص ١٧١ (٤) آل عمران : ٥٥
(٥) سورة ص : ٢٦ (٦) النساء : ١٥٣ (٧) الفرقان : ٤٣
(٨) نفس المصدر ص ١٧٢

ويبدو أن السيوطى كان مأخوذاً بهذا النوع من التقديم ، لأنَّا نراه يقول معقباً عليه : « وهذا جدير أن يُفرد بالتصنيف » .

والذى يأخذه الباحث عليهم فى هذا القسم ، أنهم يكتفون ببيان ما فى العبارة من تقديم ، ولم يذكروا وجه وسر ذلك التقديم ، ولماذا خولف فيه الأصل . فمثلاً قوله تعالى : ﴿ إنِّى مُتَوَفِّيكَ ورَافِعُكَ إلَىَّ ﴾ (١) قالوا : إن فيها تقديماً وتأخيراً .. وهذا صحيح على بعض الآراء . لكنهم لم يبينوا لماذا قدمت التوفية على الرفع ؟ ويمكن التوصل إليه .

والذى أراه أن السر فى ذلك : هو أن الرفع إلى الله لما كان موهماً لانتفاء حلول الموت بعيسى عليه السلام لو قُدِّم على التوفية . أراد الله أن يقطع ذلك الوهم ابتداءً فقدَّم التوفية على الرفع . دفعاً لذلك الوهم .

والقسم الثانى عند السيوطى عرَّفه بقوله : ما ليس كذلك (٢) ثم أشار إلى أن العلاَّمة شمس الدين بن الصائغ (٣) الحنفى وضع فيه كتاباً سماه « المقدمة فى أسرار الألفاظ المقدمة » وقال فى مقدمته : « إن الحكمة الشائعة الذائعة فى ذلك الاهتمام – أى فى التقديم – كما قال سيبويه فى كتابه : كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم ، وهم ببيانه أعنى . وهذه الحكمة إجمالية . وأما أسباب التقديم وأسراره فقد ظهر لى منها فى الكتاب العزيز عشرة أنواع » .

إذن فما هى تلك الأسباب كما يراها ابن الصائغ ؟

---

(١) آل عمران : ٥٥ (٢) نفس المصدر ص ١٧٣

(٣) هو محمد بن عبد الرحمن بن على شمس الدين الحنفى عالم مصرى توفى سنة ٨٧٦ هـ – (الدرر الكامنة : ٣/٤٩٩) .

هى كالآتى :

١ - التبرك : كتقديم اسم اللّٰه فى الأمور ذوات الشأن . ومنه قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ (٢) .

٢ - التعظيم كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ (٣) .

*

● تعقيب :

إن الباحث لا يرى فرقاً بين ما ذكره المؤلف من أمثلة على التبرك ، وما ذكره من أمثلة على التعظيم .

والأولى فى مثل هذه الأمثلة أن يكون التقديم فيها لأصالة المقدم فى الوصف الذى من أجله سيق الحديث .

ولا شك أن شهادة اللّٰه أكبر شأناً من شهادة الملائكة . وشهادة الملائكة أكبر شأناً من شهادة العلماء لقربهم من اللّٰه وفرط طاعتهم له .

كما أن طاعة اللّٰه من طاعة الرسول . فقدم فى الموضعين ما هو أصل فى بابه .

*

٣ - التشريف : وقد ذكر ابن الصائغ كثيراً من الأمثلة تطبيقاً على هذا القانون منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ﴾ (٤) . حيث قدم الذكر لشرفه على الأنثى . وقوله تعالى : ﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ ﴾ (٥) ، حيث قدّم الحر على العبد لشرفه ، ويمكن اعتبار تقديم الذكر على الأنثى فى : ﴿ وَالعَبْدُ بِالعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ ﴾ .

---

(١) آل عمران : ١٨ (٢) الأنفال : ٤١ (٣) النساء : ٦٩

(٤) الأحزاب : ٣٥ (٥) البقرة : ١٧٨

ومنه تقديم الخيال على البغال والحمير ، والبغال على الحمير فى قوله تعالى : ﴿ وَالخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ (١) .

والحى على الميت فى قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ وَيُحْيِى الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (٢) .

ومنها كذلك تقديم السمع على البصر فى قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٤) .

*

● تعقيب :

قد أطرد تقديم السمع على البصر وما يجرى مجراه فى القرآن الكريم - سواء أكان الكلام فى شأن الخالق ، أو شأن المخلوقين .

وقد تقدم أمثلة ما الكلام فيه فى شأن الناس . ومنه قوله تعالى : ﴿ إن أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾ (٥) .

وكذلك فى شأن الله ومنه قوله تعالى : ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (٦) .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (٧) .

* *

---

(١) النحل : ٨ — (٢) الروم : ١٩ — (٣) البقرة : ٧

(٤) الإسراء : ٣٦ — (٥) الأنعام : ٤٦ — (٦) الإسراء : ١

(٧) طه : ٤٦

● ملحظ مهم فات ابن الصائغ :

وليس تقديم السمع مقصوراً على البصر . فقد قُدِّم على العلم - كذلك - وهذا لم يتنبه له ابن الصائغ . والمتتبع لمواضع تقديم السمع على العلم وما جرى مجراه فى القرآن يجد أنها اثنان وثلاثون موضعاً . هى كل ما جاء فيه . وهى فى المواضع الآتية :

سبعة فى البقرة آيات : ١٢٧ ، ١٣٧ ، ١٨١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦ ، وثلاثة فى آل عمران آيات : ٣٤ ، ٣٥ ، ١٢١ ، وواحدة فى النساء آية : ١٤٨ ، وواحدة فى المائدة آية : ٧٦ ، وإثنان فى الأنعام آيتا : ١٣ ، ١١٥ ، وواحدة فى الأعراف آية : ٢٠٠ وأربعة فى الأنفال آيات : ١٧ ، ٤٢ ، ٥٣ ، ٦١ ، وموضعان فى التوبة آيتا : ٩٨ ، ١٠٣ ، ثم يونس : ٦٥ ، ويوسف : ٣٤ ، والأنبياء : ٤ ، وموضعان فى النور : ٢١ ، ٦٠ ، ثم الشعراء : ٢٢٠ ، وموضعان فى العنكبوت : ٥ ، ٦٠ ، ثم فصلت : ٣٦ ، والدخان : ٦ ، والحجرات : ١

وكما قُدِّم السمع على البصر وما جرى مجراه ، وكما قُدِّم على العلم ، قُدِّم ذلك على القُرب فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ (١)

هذا ما يقف عليه الباحث فى تقديم السمع على ما سواه . وقد فات ابن الصائغ وهو يقرر تقديم السمع على البصر . لأنه أشرف منه . فاته تقديم السمع على العلم ، وعلى القُرب . وهو يؤخذ عليه .

كما لا نُسلِّم له أن التقديم هنا من باب تشريف المقدَّم على المؤخر دون أن يحتمل المقام تفسيراً آخر . ونحن نحاول ذلك فيما يأتى :

● سر هذا التقديم :

فتقديم السمع على البصر لكونه أهم منه ، لأن ما يحصل من ضروب المعرفة عن طريق السمع لا يحصل عن البصر .

---

(١) سبأ : ٥٠ .

والبصر يتوقف فى تحصيله للعلم على وسائط لا يتوقف عليها السمع . وكم من أناس فقدوا نعمة الإبصار فلم يقعدوا عن طلب العلم بل كانوا من المبرزين فيه .

يقول « جويو » : « ولعل فى إمكان الشاعر الذى وُلِدَ أعمى أن يرسم بشعره صوراً ملونة إلى أبعد حد . رغم أنه لا يعتمد إلا على إحساسات اللمس والسمع والشم . على الإحساس بالحياة على العواطف والأفكار .

إن جمال الشمس لا يقوم على النور وحده .. ولقد قال أحد العميان : إنى لأسمع الشمس لحناً جميلاً . وأما السمع الذى أوجد أرفع الفنون (الشعر والموسيقى والبلاغة) فإنه يدين بأرفع مزاياه الجمالية للصوت . لكونه خير وسيلة للتفاهم بين الكائنات الحية التى قد أكسبته قيمة اجتماعية [١] .

ونحن نعلم أن بشاراً كان أعمى ... ومع ذلك فإنه صاحب البيت المشهور الذى يمثل به البلاغيون للتشبيه التمثيلى فلا يكاد يتكرر مثله فى موضوعه . وهو :

كأنَّ مَثَارَ النَقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنَا وَأسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهاوَى كَوَاكِبُه

فهل أبصر بشار أجزاء هذه الصورة البديعة . واللوحة الخالدة ؟ لا .. ولكن أحسها فأخرجها أجمل إخراج .

* *

● مقارنة بين ثلاثة نصوص :

ولقد قارن عبد القاهر الجرجانى بين بيت بشار هذا وبين بيتى المتنبى وعمرو ابن كلثوم ، وهما مبصران . ففضَّل بيت بشار على بيت المتنبى الذى يقول فيه :

يَزُورُ الأعَادِى فِى سَمَاءٍ عَجَاجَةٍ أسِنَّتُهُ فِى جَانِبَيَها الكَوَاكِبُ

---

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة لجويو : ترجمة الدروبى - ص ٥٩ - ٦٥ - ٧٢ (بتصرف بالحذف) .

كما فضّله على بيت عمرو الذى يقول فيه :

تَبْنِي سَنَابِكُهَا مِنْ فَوْقِ أرْؤُسِهِمْ   سَقْفاً كَوَاكِبُهُ الْبِيضُ المَبَاتِيرُ

الشعراء الثلاثة متحدون فى الغرض . لأن كل واحد منهم يُشبِّه لمعان السيوف فى الغبار بالكواكب فى الليل . وفى تفوق قول بشار يقول عبد القاهر : « .. إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الموقع ، ولطف التأثير فى النفس ما لا يقل مقداره ، ولا يمكن إنكاره . وذلك لأنه راعى ما لم يراعه غيره . وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتم التشبيه . وعبّر عن هيئة السيوف ، وقد سُلّتْ من الأغماد ، وهى تعلو وترسب . وتجئ وتذهب . ولم يقتصر على أن يريك لمعانها فى أثناء العجاجة كما فعل الآخران .. » [1] .

وبشار نفسه يقول :

يَا قَــــوْمِ أُذْنِـــى لِبَعْضِ الحَىِّ عَاشِقَةٌ
وَالأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْــلَ العَيْــنِ أحْيَانا
قَالُوا : بِمَنْ لاَ تَرَى تَهْذِى فَقُلْتُ لَهُمْ
الأُذْنُ كَالْعَيْــنِ تُوفِــى القَلْبَ مَا كَانَا

وأروع من هذا قوله :

إنْ تَكُ عَيْنِى لا تَرى وَجْهَهَـا   فَإنَّهَا قَدْ صُوِّرَتْ فِى الضَّمِيرِ

ويقول المازنى عن بشار : « وإن كان من المعقول إذا تعطلت جارحة أن تقوى الأخرى ، أو كما يقول بشار نفسه : إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب . ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء . فيتوفر حسه . وتذكو قريحته » [2] .

*

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٤٠ - ١٤١   (٢) النقد الأدبى : لسيد قطب ص ٢٢٧

● ملحظ آخر فات ابن الصائغ :

ويؤخذ على ابن الصائغ - هنا - مأخذ ثان . حاصله أن كلامه فى تقديم السمع على البصر يُشعر بأن ذلك مطرد فى الذكر الحكيم ، وليس كذلك . فقد جاء البصر قبل السمع فى مواضع نذكر منها ما يأتى :

أولاً : قوله تعالى فى سورة الكهف : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمَوات وَالأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ (١) .

وقوله فى سورة الأعراف : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (٢) .

وقوله فى الكهف أيضاً : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ (٣) .

وقوله فى سورة الإسراء : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾ (٤) .

هذه أمثلة لم يتنبه لها ابن الصائغ . إذن فلو كان تقديم السمع على البصر لشرف السمع على البصر دون اعتبار آخر لاقتضى ذلك تقديمه فى كل موضع اجتمعا فيه ولما تخلّف منها موضع واحد لعدم تخلف العِلّة فى التقديم .

فالناظر فى آيات الكتاب الحكيم يجد :

(أ) تقديم السمع على البصر فى الأغلب بما يقرب من الأصل .

(ب) تقديم البصر على السمع فيما قلّ .

---

(١) الكهف : ٢٦ (٢) الأعراف : ١٧٩

(٣) الكهف : ١٠١ (٤) الإسراء : ٩٦

يقول الدكتور عبد الغنى الراجحى موجهاً هذه الظاهرة ما خلاصته : « والقاعدة التى انتهينا إليها بعد طول النظر والبحث أنه بالنسبة للخلق والعباد وفى مقام ذكر حواسهم والاستفادة بها ، وفيما يوحى إليهم من الرسالات ، أو عدم الانتفاع بها فى هذه المجالات يتقدم السمع على البصر ، لأن الوليد يكتمل تمييزه بسمعه قبل بصره ، ولأن المسموعات من جميع الجهات . والمرئيات من جهة واحدة . ولأن الانتفاع بالسمع فى مقام الهدايات والنبوات أكثر . هذا بالنسبة للعباد لا يكاد يتخلف فيأتى البصر قبل السمع إلا لملحظ بلاغى » (١) .

ثم يُخرِّج الراجحى الآيات التى قُدِّم فيها البصر على السمع تخريجاً لا يخالف عليه .. ثم يقول : « أما بالنسبة إلى اللّه جَلَّ جلاله فالأمر فيه على خلاف البَشر لا ترتيب ولا تفاوت عنده بين المسموعات والمبصرات ، فإذا جاء البصر متقدماً على السمع - كما فى سورة الكهف - أو جاء السمع مُقدَّماً على الرؤية - كما فى سورة طه - فلا غضاضة فى ذلك لا سيما إذا كان كل واقعاً موقعه لمناسبات لفظية ومعنوية تقضى بذلك » (١) .

وقد خولف هذا الأصل - شأنه شأن كل الأصول - لاعتبارات مناسبة ، فقوله تعالى فى سورة الكهف : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ قد تقدَّم عليه قوله : ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ والغيب شامل للمبصرات والمرئيات والمسموعات وغيرهما . لكن ما غاب من المخاطب من مبصرات السموات والأرض - إذ هو الكون كله وما وقع عليه بصر المخاطب من حيز ضيق محدود - أكثر بهذا الاعتبار مما غاب عنه من مسموعات .. لذلك اقتضى المقام الإتيان بالبصر مقدَّماً على السمع .

وقوله تعالى فيها أيضاً : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ (٢) . حيث قدَّم البصر على السمع على خلاف

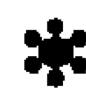
(١) المنهج الحديث فى تفسير أحسن الحديث : د . عبد الغنى عوض الراجحى ص ٨٣ - ٨٤

(٢) الكهف : ١٠١

الأصل . لأن هذه الآية تقدَّم عليها قوله تعالى : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً ﴾ [١] أى عرضناها ليروها . فناسب ذلك تقديم البصر على السمع .

وأما قوله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنس ، لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [٢] . حيث قدَّم الأعين على الآذان . فلأنه - سبحانه - شبههم بالأنعام فأخَّر السمع ليكون مجاورا لتشبيههم بها . لأن الأنعام لا تختلف رؤيتها للأشياء عن رؤية الإنسان لها . وإنما يقع التخالف فى السمع إذ لا يميز الحيوان بين النصح وغيره من الأقوال ولا تثمر فيه النُذُر.

بقى تقديمه فى سورة الإسراء فى قوله تعالى :﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ﴾ [٣] ، حيث قدَّم العمى الذى هو ضد الإبصار ، وأخَّر الصمم الذى هو ضد السمع . فذلك لمناسبة الحشر على الوجوه لأن مَن أُلقى على وجهه ثم سُحِبَ عليه لم يبصر شيئاً ولم يستطع أن يتكلم بكلام مسموع فتأخذه دهشة الهول فلا يكاد يسمع مما حوله شيئاً . وعلى هذا النسق العجيب جاءت الآية الحكيمة .



● خطأ وقع فيه ابن الصائغ :

وبهذا يستبين الخطأ الذى وقع فيه ابن الصائغ . وشئ آخر ...... وأنا لا أريد أن أذكر كل ما ساقه ابن الصائغ من أمثلة قدَّم فيها الأشرف على غيره ... وإنما أتناول بالذكر والتفصيل ما جانبه فيها الصواب .. ولذلك فإن هناك خطأ آخر نأخذه عليه .

---

(١) الكهف : ١٠٠ (٢) الأعراف : ١٧٩ (٣) الإسراء : ٩٧

وهو أنه قرر أن الإنس يُقدَّم على الجن فى القرآن الكريم فى كل موضع وردا فيه لشرف الإنس على الجن ! !

وهذا خطأ أيضاً .. وليتضح لنا وجه هذا الخطأ نذكر استعمالات القرآن للجن والإنس مجموعين فى سياق واحد .

قال سبحانه : ﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى ﴾ (١) .

﴿ قَالُواْ ادْخُلُواْ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ (٢) .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ (٣) .

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ (٤) .

﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ (٥) .

﴿ أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ (٦) .

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ (٧) .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٨) .

﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ .. ﴾ (٩) .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ .. ﴾ (١٠) .

﴿ وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّى لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ .. ﴾ (١١) .

﴿ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (١٢) .

---

(١) الأنعام : ١٣٠ — (٢) الأعراف : ٣٨ — (٣) الأعراف : ١٧٩

(٤) النمل : ١٧ — (٥) فصلت : ٢٥ — (٦) فصلت : ٢٩

(٧) الأحقاف : ١٨ — (٨) الذاريات : ٥٦ — (٩) الرحمن : ٣٣

(١٠) هود : ١١٩ — (١١) السجدة : ١٣ — (١٢) الناس : ٥ – ٦

هذه اثنتا عشرة آية جاء الجن والإنس ، أو الجِنَّة والناس ، مجموعين فيهما فى سياق واحد .

مقدّماً فيه الجن على الإنس ، والجِنَّة على الناس .. وهذا يهدر ما ذهب إليه ابن الصائغ من أساسه .

وهناك مواضع قُدِّم فيها الإنس على الجن وهى :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ (١) .

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ (٢) .

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ (٣) .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ (٤) .

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (٥) .

﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ (٦) .

وهذه ست آيات أورد القرآن فيها الإنس والجن أو الجان مجموعين فى سياق واحد مُقدّماً فيه الإنس على الجن ، وعلى الجان .

* *

● عرض ونقد وتحليل :

وبمقارنه يسيرة بين الطائفتين يتضح أن ورود الجن مقدّماً على الإنس فى القرآن الكريم أكثر كثرة نسبتها ٢ - ١ ، أو ١٢ - ٦

فكيف ساغ لابن الصائغ أن يزعم أن الإنس يأتى مقدّماً على الجن فى القرآن الحكيم فى كل موضع اجتمعا فيه ؟ ! !

---

(١) الرحمن : ٣٩ (٢) الرحمن : ٥٦ (٣) الرحمن ٧٤
(٤) الأنعام : ١١٢ (٥) الإسراء : ٨٨ (٦) الجن : ٥

وكيف جاز للسيوطى أن يتابعه على هذا . وهو العالِم المحرر المدقق ، دون أن يشير إلى وجه الخطأ فيه ؟ .

وحتى فى المواضع التى قُدِّم فيها الإنس على الجن لا يستقيم قول ابن الصائغ أن التقديم فيها لتشريف المقدَّم .

وإلا فأى تشريف يعود على الإنس فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالجِنِّ ﴾ (١) .

إن تحرير القول فى هذه المواضع أن يدار الأمر فيها من حيث التقديم والتأخير على غير هذا الوجه الذى ذهب إليه ابن الصائغ .

ونحن نُخرِّج مثالين منها من كل طائفة مثال على خلاف ما ذكره هو من تفسير لكون ذلك مقياساً لما بقى من أمثله :

المثال الأول : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالجِنِّ ﴾ .

فى هذه الآية قُدِّم الإنس على الجن .. لماذا ؟

ليس للتشريف قطعاً - كما يرى ابن الصائغ - لأن المقام ليس مقام تشريف وهذا ظاهر .

إذن فما هو الوجه اللائق لتفسير هذا التقديم ؟

والذى أراه - وأرجو أن يكون سديداً - أن سر التقديم هنا : لأن عداوة الإنس للرسل ظاهر أمرها . وعنادهم لهم لا يحتاج إلى دليل . تحدَّث عن ذلك القرآن مبيِّناً الصراع الطويل بين قُوَى الهداية والخير متمثلة فى الرسل ، وقُوَى الضلال والشر متمثلة الناس المخالفين لدعوة الرسل . فبنو إسرائيل- مثلاً - وهم من الإنس تمردوا على الرسل وقتلوهم . ولم تقتل الجن رسولاً أو نبياً .

---

(١) الأنعام : ١١٢

هذا الظهور فى عداوة الإنس للرسل جعلهم أصلاء فى هذا المقام جديرين بالتقديم فيه .

أما عداوة الجن للرسل فهى مساع وحيل متخفية ، يدركها العقل ولا تدركها الحواس ، فهى - بهذا الاعتبار - تأتى فى المرحلة الثانية بعد عداوة الإنس للرسل والتمرد عليهم وقتلهم .

فالتقديم - إذن - ليس للتشريف . بل لأن المقدَّم أكبر شأناً من حيث اتصاله بالحقيقة التى سيق من أجلها الكلام .

الموضع الثانى : ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (١) .

وفى هذا الموضع قُدِّمت الجِنَّة على الناس . لأن المقام يقتضى ذلك . المقام هنا وسوسة خفية . وإغراء متستر ، والجن - حيث يروننا ولا نراهم - أقدر على هذه الوسوسة ، وهى بهم أليق . إغراء خفى . ومغر أشد خفاء . على هذا المنهج الذى خرَّجنا عليه المثالين يجب أن نفهم التقديم والتأخير فى هذه المواضع وما أشبهها .لا على ما ذهب إليه ابن الصائغ لأنه يحجر على التذوق الحر ، والبحث الجاد فى توجيه الظواهر الفنية . وهو أمر ليس بمقبول .

أما تقديم السمع على العلم . فذلك - فيما أرى - من باب تقديم السبب على المسبب لأن السمع سبب من أسباب العلم ، أو من تقديم الخاص على العام .

وأما تقديم السمع على القُرب فى الموضع المذكور فهو لا يبعد أن يكون من قبيل الترتيب الطبيعى بين الأشياء ، لأن مَن يُدعى فيستجيب يقرب من الداعى الذى دعاه .

ويرى ابن الصائغ أن تقديم « هارون » على موسى ، وموسى أشرف من هارون ، إنما هو مخالف للأصل . وعزاه إلى مراعاة الفواصل . وقد رددنا على هذه الشُبهة من قبل فى مبحث الفواصل .

*

---

(١) الناس : ٥ - ٦

● رأى صائب :

وقد وفق ابن الصائغ أيما توفيق فى توجيه التقديم فى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ، أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

فقد حمل التقديم فى « أنعامهم » على « وأنفسهم » حيث تقدم ذكر الزرع ، وهو مرعى الأنعام ، وقد جاء على الأصل فى آية عبس : ﴿ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ (٢) لأن سياق الحديث فيه طعام الإنسان . حيث قال سبحانه : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ (٣) .

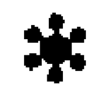
ولأن الآية تقدم فيها كلمة « متاعاً » وهذا يقتضى تقديم مَن هو أكثر تذوقاً للمتاع وفهماً له . وهو الناس (٤) .



● السموات لم تُقدَّم على الأرض دائماً :

ويرى كذلك تقديم السموات على الأرض من أجل شرف السماء .. ويُرَد عليه أن الأرض جاءت مقدَّمة على السموات فى مواضع منها : ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ (٥) .

ولعله يقول : إن التقديم هنا لمراعاة الفواصل - وحتى لو سلَّمنا له بذلك - فإنه زعم أن السموات فى القرآن - دائماً - مقدَّمات على الأرض وهذا يخالفه !



٤ - المناسبة ، وقد جعلها نوعين :

الأول : مناسبة المقدم لسياق الكلام ومن أمثلته عنده الآيات الآتية :

---

(١) السجدة : ٢٧ (٢) النازعات : ٣٣ (٣) عبس : ٢٤

(٤) ابن الصائغ يسمى ما كان مثل هذا : تقديم المناسبة كما سيأتى .. فكيف يذكره فىّ ما سماه بتقديم التشريف .

(٥) طه : ٤

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (١) ، ولم يكتف فى هذا الموضع بذكر المثال بل حلله فقال : « .. لأنها حالة إراحتها آخر النهار يكون الجمال بها أفخر ، إذ هى بطان ، وحالة سراحها للمرعى يكون الجمال بها دون الأول . إذ هى فيه خماص » (٢) .

ويؤيد الرمخشرى هذا التوجيه ، ويكاد أن يتفقان فى العبارة (٣) .

أما النوع الثانى : فهو مناسب لفظ لما له من التقدم نحو : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ لَهُ الحَمْدُ فِى الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ ﴾ (٥) .

أما قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ ﴾ (٦) فالتقديم – عنده – لمراعاة الفواصل .

وقد وردت « الآخرة » مقدّمة على « الأولى » فى المواضع الآتية : ﴿ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ ﴾ (٦) .

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ ﴾ (٧) .

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ ﴾ (٨) .

وقد علمنا تصرف ابن الصائغ فيما يخالف قاعدته أن يحمله على مراعاة الفواصل كما مرّ .

٥ – الحث عليه : ومن أبرز أمثلته عنده تقديم الوصية على الدَّيْن فى قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ (٩) وحُجَّته أن الوصية ضعيفة فلو أُخِّرت لتهاون الناس فى أمرهم فقُدِّمت للحث عليها ..

---

(١) النحل : ٦ (٢) معترك الأقران : جـ ١ (٣) الكشاف : ٤٦٢/٢٢

(٤) الحديد : ٣ (٥) القصص : ٧٠ (٦) النجم : ٢٥

(٧) النازعات : ٢٥ (٨) الليل : ١٣ (٩) النساء : ١١

٦ - السبق : إما باعتبار الإيجاد كتقديم الليل على النهار . قال سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

وإما باعتبار الإنزال كقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الفُرْقَانَ .. ﴾ (٢) .

أو باعتبار الوجوب والتكليف كقوله تعالى : ﴿ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُواْ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ (٤) .

ولو قال هنا : من حيث الوجود الفعلى لكان أنسب .

أو باعتبار الذات ، كقوله تعالى : ﴿ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ (٦) .

أما قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ .. ﴾ (٧) . فقد علَّله بأنه للحث على الجماعة والاجتماع على الخير .

وكان الأولى أن يعتبر التقديم - هنا - باعتبار الوقوع التنجيزى لأن الرجل لا يكون زوجاً لاثنتين حتى يكون - قبلاً - زوجاً لواحدة .. وهكذا فى البواقى .

أو يكون التقديم باعتبار الترتيب التصاعدى . أو من باب تقديم الأقل على الأكثر ، والوجه الأولى - مما ذكرناه نحن - أقوى هذه الوجوه جميعاً .

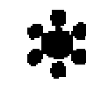
٧ - السببية : كتقديم « العزيز » على « الحكيم » ، لأنه عزَّ فحكم . و « العليم » على « الحكيم » ، لأن الإحكام والإتقان ناشئان عن العلم .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ . (٢) آل عمران : ٣ - ٤ (٣) الحج : ٧٧
(٤) المائدة : ٦ (٥) النساء : ٣ (٦) المجادلة : ٧
(٧) سبأ : ٤٦

قال : وأما تقديم « حكيم » على « عليم » فى الأنعام [١] . فلأن المقام تشريع الأحكام ومنه تقديم العبادة على الاستعانة فى قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [٢] .

وذلك لأنها سبب حصول الإعانة . ويتفق ضياء الدين بن الأثير مع ابن الصائغ فى هذا التوجيه [٣] .



● تقديم ذو وجهين :

ويخالفهما العز بن عبد السلام إذ يقول [٤] .

« وقدَّم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ - لأن ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ - خبر بمعنى الدعاء فيكون من النصف المختص بالعبد . والعبادة مختصة بالله تعالى فقدَّم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ليقع ما لله فى نصفه ، وما للعبد فى نصفه . أو قُدِّم اهتماماً بالعبادة لأنهم يُقدِّمون الأهم » .

فالتقديم هنا عند العز محتمل لوجهين :

(١) أن يكون لما بيَّنه من جَعْل ما لله لله ، وما للعبد للعبد . وهذا التوجيه تبدو فيه روح عبد السلام فقيهاً محدثاً .

(٢) أن يكون التقديم من أجل أهمية العبادة على الاستعانة . وهنا يبدو هو بلاغياً متذوقاً .

٨ - الكثرة على القلة : ومن أمثلته عنده قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ [٥] . قَدَّم « الظالم » لكثرته ، ثم « المقتصد » ثم

---

(١) ورد لفظ « حكيم » مقدماً على « عليم » فى الأنعام فى ثلاث آيات فى : ٨٣ ، ١٢٨ ، ١٤٩

(٢) الفاتحة : ٥

(٣) المثل السائر : ٢/ ٣٢.

(٤) مشكل القرآن : للعز بن عبد السلام ط . الكويت ص ١٤ - ١٥

(٥) فاطر : ٣٢

« السابق » . وجعل منه تقديم السارق على السارقة والزانية على الزانى لأن السارق أكثر من السارقة ، والزانية أكثر من الزانى .

ويرى العلأمة أبو السعود فى تفسيره : أن المرأة هى الداعية إلى الزنا وبها تتعلق الرغبات .. لذلك قُدِّمت .

والذى أراه : أن تقديم السارق على السارقة لأن معرَّة السرقة فى الرجل أكبر شأناً منها فى المرأة .. لأنه المكلَّف بجلب الرزق لنفسه ولمن يعول . فوقوعه فى السرقة قدح فى قُدرته . وتقصير فى مهمته . فكان حرياً به وهو الرجل القادرعلى العمل والكدح أن لا يفعل ما يقعد به عن الشرف والكرامة .

وأما تقديم الزانية .. فلأنها أيضاً تلحقها من المعرَّة منه ما لا يلحق الزانى ، فقد يترك بها الزنا علامات مادية كزوال البكارة والحمل السفاح وما إلى هذه الاعتبارات ، فقدَّم فى كل موضع ما يناسبه باعتبار ما ذكرناه ، والنكات - كما يقولون - لا تتزاحم ، فقد يكون المراد بالتقديم جميع ما سبق ما دام لا تناقض أو تنافى بينهما .

٩ - الترقى من الأدنى إلى الأعلى : وقد مثَّل له بأمثلة كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾ (١) .

قال : بدأ بالأدنى لغرض الترقى . لأن اليد أشرف من الرِجل ، والعين أشرف من اليد ، والسمع أشرف من البصر .

١٠ - التدلى من الأعلى إلى الأدنى : ومن أمثلته - عنده - قوله تعالى : ﴿ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ (٢) .

* *

---

(١) الأعراف : ١٩٥ (٢) الكهف : ٤٩

- مقارنة بين المنهجين :

عرضنا – فى إيجاز – نظريتين فى التقديم ، إحداهما نظرية البلاغيين ، والثانية نظرية ابن الصائغ . ونخلص الآن إلى الموازنة بينهما .

أولاً – نظرية البلاغيين تشمل كل أنواع الكلام سواء أكان قرآناً أو حديثاً . أو شعراً ، أو نثراً . فهى تنظر فى جميع الأساليب بلا خلاف .

أما نظرية ابن الصائغ فإنها خاصة بالتنزيل الحكيم ، ولم يُمثِّل لها من غير آياته .

وبهذا فإن نظرية البلاغيين أهم وأجدى لشمولها وعدم اختصاصها بنوع معيَّن من القول .

ثانياً – يؤخذ على ابن الصائغ عدة أمور :

(أ) إهماله أسباباً هامة لم يتعرض لها ، وهى التقديم الذى يفيد الاختصاص وهذه وظيفه هامة جداً خاصة فى دراسة التقديم فى القرآن الكريم الذى قصر همه عليه . وهذا قصور ظاهر .

(ب) أنه لم يلتزم الدقة فى وضع القواعد ، والتمثيل لها . وقد رأينا خلطه فى التمثيل للنوعين الأولين اللذين هما التبرك والتعظيم . كما أننا لم نجاره فى ما ذكر من أمثلة عليه باعتبار وجه السر فيها والتمسنا وجهاً آخر للتقديم غير ما ذكره هو .

(جـ) ورأينا خطأه حين زعم أن الإنس يُقدَّم على الجن فى القرآن فى كل موضع ذُكِر فيه لأن الإنس أشرف من الجن . وقد أثبتنا اثنى عشر موضعاً جاء فيها الجن مقدَّماً على الإنس على خلاف ما ذكر هو . كما أننا التمسنا وجهاً للتقديم فيها على غير ما ذهب إليه هو .

ومثل ذلك الخطأ الذى وقع فيه أنه زعم أن السمع يُقدَّم على البصر فى القرآن وأن سر التقديم هو التشريف .

وقد أثبتنا مواضع لم يتنبه إليها هو قُدِّم فيها البصر على السمع . وقد خرّجنا تلك الأمثلة على غير الوجه الذى ادعاه . وقد سبقنا أحد الباحثين إلى شئ من ذلك أشرنا إليه فى موضعه .

ثالثاً : أنه كما أهمل التقديم المفيد للاختصاص حصر بحثه فى نوع معيَّن هو الأسماء والصفات المرتبطة ارتباطاً عطفياً . ولم يشر من قريب أو بعيد إلى تقديم المسند إليه ، أو المسند ، أو المفعول به ، أو متعلقات الفعل مما عنى به البلاغيون عناية فائقة .

وحتى عندما يذكر مثالاً على ما يراه من قاعدة فإنه يكتفى بعرض المثال دون تحليل ، اللّهم إلا فيما ندر كتوجيه تقديم الأنعام على ضمير المخاطبين ، وقد وُفِقَ فيه ، وكتوجيه تقديم الوصية على الدَّيْن ، وقد وُفِقَ فيه كذلك .

رابعاً : أن نظريته تعتمد على قواعد عامه تفتح باباً من الخلاف معه عند التطبيق - كما رأينا - أما البلاغيون فقد بنوا نظرتهم على أسس وقواعد فنية يقل أو ينعدم الخلاف معهم فيها عند التطبيق .

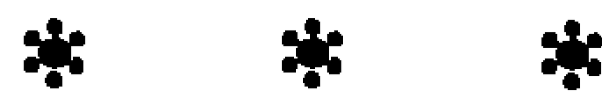
خامساً : أنه بحسب طبيعة منهجه - فاته الكثير من مظاهر التقديم فى القرآن كتقديم السمع على العلم . وقد خلا منهجه من الإشارة إليه مع كثرة ما سرد من أمثله فى باب التشريف بالذات .

سادساً : ويؤخذ عليهما معاً - البلاغيين وابن الصائغ - أنهم يجعلون مراعاة الفواصل سبباً فى التقديم ، وهذا اعتبار لفظى فحسب لا يليق أن نفهم على أساسه روائع التعبير فى القرآن الكريم وحسب ابن الصائغ أنه مجتهد ، والمجتهد لا يخلو من الأجر - إن حسنت النيِّة - أخطأ أو أصاب ، وبين الأجرين فرق ما بين الصواب والخطأ.

سابعاً : ويؤخذ على البلاغيين أنهم أهملوا كثيراً من مظاهر الأسلوب فلم يتعرضوا لها تعرضاً كافياً ، ولم يدخل شئ منها فى حسابهم . مثل تقديم الوصية على الدَّيْن لأنه ليس بمسند إليه ولا مسند ، ولا مفعول به ، ولا ظرفاً ..

ومثل تقديم السمع على البصر - مما عنى به ابن الصائغ - فلكل من النظريتين مزايا وعيوب ، ونحن فى الكشف عن أسرار التقديم فى القرآن الكريم محتاجون إلى النظريتين معاً . وإلى غير هاتين النظريتين ، من كل ما يعيننا على فهم التقديم فى القرآن الكريم .

هذا ما يمكن أن يقال عن نظريتى البلاغيين ، وابن الصائغ . ولنعرض الآن - فى إيجاز أيضاً - كلا من نظرية ابن الأثير ، ونظرية المفسرين فى التقديم .



ثالثاً : منهج ابن الأثير فى التقديم

يقسم ابن الأثير التقديم إلى قسمين [1] :

الأول ، وسماه : ما يختص بدلالة الألفاظ على المعانى . ولو أخِّر المقدَّم ، أو قدِّم المؤخر لتغير المعنى .

الثانى ، وسماه : ما يختص بدرجة التقديم فى الذِكر . لاختصاصه بما يوجب له ذلك .

والأول عنده نوعان :

١ - ما يكون التقديم فيه هو الأبلغ ، كتقدم المفعول به على الفعل ، وتقديم الخبر على المبتدأ ، وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل . وقد مثَّل لها بأمثلة مصنوعة ، وهذا النوع يفيد عنده الاختصاص مرة ، ومراعاة نظم الكلام مرة أخرى . وهو بهذا يرد على الزمخشرى والبيانيين ، حيث يجعلون التقديم فى هذا النوع - بكل صوره ، ومعهم الحق - مفيداً للاختصاص :

ومراعاة نظم الكلام عنده أبلغ من الاختصاص وأوكد منه .

---

(١) المثل السائر : ٢/٢١٧ وما بعدها .

فمما يفيد الاختصاص قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

قال : « إنما قال : بل الله فاعبد » ولم يقل : « بل اعبد الله » ، لأنه إذا تقدَّم وجب اختصاص العبادة به دون غيره . ولو قال : « بل اعبد » لجاز إيقاع الفعل على أى مفعول شاء (٢) .

● مراعاة النظم :

ومما التقديم فيه - عنده - لمراعاة نظم الكلام قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٣) .

قال : « وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره أن التقديم فى هذا الموضع قُصِدَ به الاختصاص وليس كذلك ، وإنما قُدِّم لمكان نظم الكلام ، لأنه لو قال : « نعبدك ونستعينك » لم يكن له من الحسن ما لقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

ألم تَرَّ أنه تقدم قوله : ﴿ الحَمْدُ للَّه رَبِّ العَالَمِينَ * الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ * مَالك يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٤) . فجاء بعد ذلك قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وذلك لمراعاة حسن النظم السجعى الذى هو على حرف النون . ولو قال : « نعبدك ونستعينك » لذهبت تلك الطلاوة ، وزال ذلك الحسن (٥).

ثم يخلص من ذلك كله إلى إبطال ما ذكره الزمخشرى وغيره من علماء البلاغة ، والحق أن الصواب جانبَ ابن الأثير فى هذا . والصحيح مذهب الزمخشرى والبلاغيين .

ومن مراعاة نظم الكلام عنده قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ (٦) .

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ (٧) .

---

(١) الزمر : ٦٦ — (٢) نفس المصدر ص ٢١٨ — (٣) الفاتحة : ٥

(٤) الفاتحة : ٢ - ٤ — (٥) المثل السائر ص ٢١٩ — (٦) طه : ٦٧

(٧) الحاقة : ٣٠ - ٣٢

ثم يقول : وله فى القرآن نظائر كثيرة ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (١) .

فقوله : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ . ليس تقديم المفعول فيه على الفعل من باب الاختصاص وإنما من باب مراعاة نظم الكلام . فإنه قال : ﴿ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ .

وقال : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى ﴾ . فاقتضى حسن النظم أن يقول : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ ﴾ ليكون الجميع على نسق واحد فى النظم ولو قال : « وقدرنا القمر منازل » لما كان بتلك الصورة فى الحسن (٢) .

وكذلك يرى فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (٣) .

قال : إن تقديم المفعول فى الموضعين الأولين لمكان حسن النظم (٤) .

*

● مأخذنا على ابن الأثير :

ويؤخذ على ابن الأثير إسرافه فى حمل التقديم على مراعاة النظم أو ما يسميه أحياناً : « الفضيلة السجعية » .

وليس له من دليل واحد يستطيع أن يقنعنا به لنجاريه فيما يقول .

إن الأمثلة التى ذكرها جاءت مستوفية لشروط إفادة القصر ، وهو فى الوقت نفسه يفصل بينها .

---

(١) يس : ٣٧ - ٣٩

(٢) المثل السائر : ٢/ ٢٢٠ .

(٣) الضحى : ٩ - ١١

(٤) المثل السائر : ٢/ ٢٢١

فبعضها - عنده - يقيد القصر وهذا صحيح ، وبعضها لا يفيد ، وهذا غير صحيح ، لقد أغراه الحسن اللفظى فيه فراح يشيد به ، وينفى عنه إفادة القصر . والواقع أنه يفيد الأمرين : القصر - كما يرى غيره - والحسن اللفظى - كما يرى هو ولا ينازعه فى ذلك أحد .

وما الذى يمنع من إفادة القصر فى قوله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ ؟ (١) .

لقد أجمع البيانيون أن مثل هذا التعبير يفيد التوكيد والاختصاص مرة ، والتوكيد مرة أخرى على حسب تقدير المحذوف .

ولو كان المراد الحسن اللفظى - أى بدء الجمل بأسماء كما يقول - لما جاءت القراءة المشهورة التى هى النصب . لأن الرفع يوفى بالغرض حينئذ . وقراءة الرفع هنا قراءة صحيحة كما نص عليها الشيخان أبو السعود (٢) والزمخشرى (٣) .

وكذلك لا يسلم قوله بالحسن اللفظى فقط فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ (٤) ، لأن لو كان الأمر - كذلك - لوجب التماثل بين الفواصل ولقال - مثلاً - فخبر فتبنى الفواصل على حرف الراء .

أما تقديم الخبر فقد مثّل له بقوله تعالى : ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ (٥) ، وهو يرى فى تقديم الخبر فى هذا الموضع التدليل على فرط اعتقادهم فى حصانتها ، وزيادة وثوقهم بمنعها إياهم .

قال : « وفى تصويب ضميرهم اسماً لأن بناء الجملة عليه ، دليل على تقريرهم فى أنفسهم أنهم فى عزة وامتناع لا يبالى معهما بقصد قاصد ، ولا تعرض متعرض ولا شئ من ذلك فى قولك : وظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله (٦) .

---

(١) يس : ٣٩ (٢) الإرشاد : ٣٨٥/٤ (٣) الكشاف : ١٢/٤

(٤) الضحى : ٩ (٥) الحشر : ٢ (٦) المثل السائر : ٢٢٢/٢

قال : ومن غامض هذا الموضع قوله تعالى : ﴿ وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (١) . والتقدير : « فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة » .

ويفيد التقديم - عنده - أمرين :

الأول : تخصيص الأبصار بالشخوص دون غيرها .

الثانى : أراد أن الشخوص خاص بهم دون غيرهم . دل على ذلك بتقديم الضمير أولاً . ثم بصاحبه ثانياً . كأنه قال : فإذا هم شاخصون دون غيرهم . ولو لم يرد هذين الأمرين لقال : فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة (٢) .

والذى أراه فى هذه العبارة - بعد موافقة ابن الاثير على إفادة التعبير الأمرين - أن إفادة اختصاصهم بهذه الحالة ، مستفاد من اختصاص شخوص الأبصار بدلالة الالتزام فليس فى التعبير قصر إصطلاحى يفيد الأمرين معاً وتفسير ابن الأثير يفيد هذا المعنى .

* *

● تقديم الظرف :

أما تقديم الظرف عند ابن الأثير ، وهو يشمل الظرف الاصطلاحى والجار والمجرور ، فيكون على الوجوه الآتية :

١ - إذا كان مقصوداً به الإثبات فالتقديم فيه أولى من التأخير وهو - فى هذه الحالة - يفيد القصر . ومثَّل له بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ (٣) .

---

(١) الأنبياء ٩٧

(٢) المثل السائر : ٢٢٣/٢ (بتصرف فى الصياغة) .

(٣) الغاشية : ٢٥ - ٢٦

وبقوله أيضاً : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ (١) .

والتقديم فى هذه الصورة مفيد للقصر ، لكنه غفل عن موضع وهو « للّه » حيث قدُم الجار والمجرور على الفاعل : ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ . فلم يشر إليه وقصر ملاحظته على : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ .

ويحمل ابن الأثير مواضع كثيرة وردت فى القرآن الكريم وقدِّم فيها الظرف فهى مفيدة للاختصاص حتى على حسب ما قرره هو هنا . لكنه يحملها على الحُسن اللفظى وهذه الفكرة تستبد به كثيراً قال : وقد استُخدم تقديم الظرف فى القرآن كثيراً كقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (٢) . أى تنظر إلى ربها دون غيره .

فتقديم الظرف هنا ليس للاختصاص . وإنما هو كالذى أشرتُ إليه فى تقديم المفعول . وأنه لم يُقدِّم للاختصاص وإنما قُدِّم من أجل نظم الكلام (٣) .

وأنت ترى أن ابن الأثير يناقض نفسه فى هذا الكلام حيث ينفى عن هذه الأمثلة إفادة الاختصاص . ثم يعود فيفسرها تفسيراً قصرياً . ألم يقل فى قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أى : تنظر إلى ربها دون غيره ؟ .

ومن المواضع التى يرى أنها لا تفيد الاختصاص . بل هى لمراعاة نظم الكلام النصوص القرآنية الآتية :

قوله تعالى : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ (٥) .

---

(١) التغابن : ١ (٢) القيامة : ٢٢ - ٢٣ (٣) المثل السائر : ٢/٢٢٤

(٤) القيامة : ٢٩ - ٣٠ (٥) القيامة : ١٢

وقوله تعالى : ﴿ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (٢) .

قال بعد أن ذكرها : « فإن هذه جميعها لم تُقدَّم فيها الظروف للاختصاص وإنما قُدِّمت لمراعاة الحُسن فى نظم الكلام فاعرف ذلك » (٣) .

وقد وَهِمَ ابن الأثير فى هذه النظرة التى لم يستطع أن يشفعها بدليل . فهى - قطعاً - للاختصاص .. وذلك أمر يوحى به التعبير نفسه ، ويؤكده المعنى المدلول عليه بهذا التعبير .

وإذا كان مقصوداً به النفى فيحسن فيه الأمران : التقديم والتأخير ، ولكل منهما موضعه .

فتقديمه فى النفى مفيد للقصر - عنده - وهو كذلك عند غيره . أما التأخير فلا يفيد سوى النفى المجرَّد . وعبارته فى ذلك : « فأما تقديمه فى النفى فإنه يقصد به تفضيل المنفى عنه على غيره ، وأما تأخيره فإنه يقصد به النفى أصلاً من غير تفضيل » .

وظاهر أنه يريد بالتفضيل : القصر ، وبنفيه عدم القصر . وذكر للتأخير قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٤) وهذا حق .

أما التقديم فقد مثَّل له بقوله تعالى : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ (٥) . ثم قال : « فإنه إنما أخَّر الظرف فى الأول لأن القصد من إيلاء حرف النفى الريب نفى الريب عنه ، وإثبات أنه حق وصدق . لا باطل وكذب .. ولو أولاه الظرف لقصد أن كتاباً آخر فيه الريب لا فيه ، كما قصد فى قوله تعالى : ﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ فتأخير الظرف يقتضى النفى أصلاً من غير تفضيل . وتقديمه يقتضى تفضيل المنفى عنه (٦) .

---

(١) الشورى : ٥٣ — (٢) هود : ٨٨ — (٣) المثل السائر : ٢/٢٢٥

(٤) البقرة : ٢ — (٥) الصافات : ٤٧ — (٦) المثل السائر : ٢/٢٢٦

ويمثل للحال والاستثناء بأمثلة مصنوعة وينتهى من ذلك كله إلى أن الكلام فيها مثل الكلام فى غيرها - يريد الظرف - حسب التفصيل المتقدم .

*

● تعقيب :

إن الظرف - مطلقاً - سواء أكان فى النفى أو فى الإثبات ، يخضع لقواعد مضبوطة من حيث إفادة القصر وعدمه ، فما فائدة هذه التقسيمات إذن . اللّهم إلا ما ادعاه من أن نوعاً من التقديم فى الإثبات ، لا يأتى للقصر ، بل لمراعاة نظم الكلام وهذا منحى ثبت ضعفه فيما سبق .

* *

٢ - النوع الثانى من القسم الأول :

وهو ما يكون التأخير فيه هو الأبلغ ، وضابطه عنده :

أن يُقدَّم ما الأولى به التأخير ولأن المعنى يختل ويضطرب ويسميه « المعاظلة المعنوية » كتقديم الصفة على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول ، وبدهى أنه ليس لهذا النوع أمثلة من القرآن الكريم . إذ هو ضرب نازل من الكلام لذلك مثَّل له ابن الأثير بأمثلة خارجة معيبة وهذا النوع يسميه البلاغيون « التعقيد » .
ومن أمثلته عند ابن الأثير قوله الشاعر :

فَقَدْ - وَالشَّكُّ - بَيَّنَ لِى عَنَاءً ... بِوشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ يَصِيحُ

وتقدير الكلام : صُرَدٌ يصيح بوشك فراقهم بيَّن لى عناء . حيث قَدَّم المعمول : « بوشك فراقهم » على العامل : « يصيح » . والصُرَد طائر ضخم الرأس يصيد العصافير ، ومنه أيضاً قول الشاعر :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطٍّ بَهْجَتَها ... كَـأَنَّ قَفْــراً رِسُومَهَا قَلَما

والتقدير : فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلماً خط رسومها .

وغيرهما كثير ذكره ابن الأثير ثم نقده ورماه بالغموض الذى لا يتضح معه مراد والكلام إنما يُقصد به الإيضاح والإفهام [١] .

* * *

● القسم الثانى - من قسمى التقديم - عند ابن الأثير :

وهو الذى يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك .

وقد أبان ابن الأثير أن هذا القسم لا يحصره حد ، ولا ينتهى إليه شرح ، والذى ذكره هو منه . نبذة مختصرة ليقاس عليها غيرها كما يقول هو [٢] .

وذكر من أسبابه ما يأتى :

١ - تقديم السبب على المسبب : ومثّل له بقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [٣] حيث قُدِّمت العبادة على الاستعانة لأنها سببها . وقد علمنا رأى العز بن عبد السلام فيها [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴾ [٥] .

حيث قُدِّمت حياة الأرض على حياة الأنعام والناس . لأن حياة الأرض سبب فيما بعدها من حياة الأنعام والناس [٦] .

٢ - تقديم الأكثر على الأقل : وهو - هنا - يتفق مع ابن الصائغ ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [٧] .

٣ - تقديم الأفضل على المفضول : ولم يمثّل له من القرآن بل اكتفى بأنه لو عكس الترتيب فى الآية السابقة لكان فيها ذلك .

---

(١) المثل السائر : ٢/٢٢٩ (٢) المثل السائر : ٢/٢٣٠ (٣) الفاتحة : ٥

(٤) راجع ص ١٢٠ من هذا البحث .

(٥) الفرقان : ٤٩ (٦) المثل السائر : ٢/٢٣٤ (٧) فاطر : ٣٢

ولست أدرى لماذا لم يمثِّل له ، والقرآن مشحون بمثل هذا النوع . كقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالْحَمِيرَ ﴾ (٢) . فإن ما قُدِّم أفضل من حيث الانتفاع به فالخيل أفضل الأنواع ، والحمير أفضل من البغال .

٤ – تقديم الأعجب فالأعجب : ومثّل له بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ، فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ (٣) .

٥ – تقديم المناسب : ومثّل له بقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ * لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ (٤) .

فتقديم الإناث على الذكور – مع أن الذكور أشرف – ليناسب ما يرونه بلاء البلاءُ .

ومثّل له بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ (٥) لأنه حين ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم ووصل ذلك بقوله : « وما يعزب » لاءم بينهما ليَلى المعنى المعنى (٦) .



● أبرز ملامح منهج ابن الأثير :

هذه خلاصة سريعة لنظرية ابن الأثير فى التقديم . فما هى – إذن – أبرز خصائصها ؟

---

(١) المنافقون : ٨ — (٢) النحل : ٨ — (٣) النور : ٤٥

(٤) الشورى : ٤٨ — (٥) يونس : ٦١ — (٦) المثل الثائر : ٢٣٤/٢

والجواب :

أولاً : أنه يجمع بين طريقتى ابن الصائغ والبلاغيين فهو حين يوجه تقديم حياة الأرض على حياة الأنعام والناس . وحين يوجه تقديم الظالم لنفسه على المقتصد . وحين يوجه تقديم العبادة على الاستعانة . حين يوجه هذا كله وما كان على شاكلته مما ليس بمسند إليه ولا بمسند . فإنه ينهج نهج ابن الصائغ .

وحين يتلمس أسباب تقديم المفعول والظرف والحال والاستثناء .. والخبر . حين يوجه هذا كله فإنه ينهج نهج البلاغيين مع ولوعه بكثرة التقسيمات والتنويعات كما مرَّت بنا فى دراسة منهجه .

ثانياً : أنه يميل إلى التطرف - كثيراً - ومخالفة ما عليه الإجماع . كإخضاعه أنواعاً شتَّى من التقديم لحسن النظم ، نافياً عنه إفادة الاختصاص مع أنه فى الواقع مفيد للاختصاص .

ثالثاً : أنه يهتم بالنصوص القرآنية . ويتخذ منها المورد الأولى لأمثلة مبيِّناً ما فيها من وجوه الجمال الفنى ، والحُسن اللفظى .

رابعاً : أنه يجمع إلى العلم العقل الذكى ، والذوق الحساس ، فهو لذلك كان ناقداً طويل الباع ، صائب الحكم فى أكثر قضاياه التى تعرَّض لها . ومنهجه مجد إلى حد كبير فى فهم أسرار التقديم فى القرآن الكريم .

* * *

رابعاً :منهج المفسرين فى التقديم

قد تكون الفروق دقيقة بين ما نسميه بمنهج المفسرين ، وبين الطُرق الثلاث المتقدمة - طريقة ابن الصائغ وطريقة البلاغيين وطريقة ابن الأثير - والذى دعانى إلى أن أفرد بحثاً خاصاً تحت هذا العنوان « منهج المفسرين » أنى رأيت المفسرين أنفسهم قد تمرسوا هذا الفن حين تصديهم لشرح كتاب الله وإيضاح معانيه ، وبيان مظاهر الجمال والإعجاز فيه .

ورأيت هذه الطريقة - طريقة المفسرين - قد استوعبت ما ذهب إليها أصحاب المناهج السابقة . فهى لا تتقيد بما قيَّد البلاغيون به منهجهم ولا بما حصر فيه ابن الصائغ فكرته ولا بما دار فى فلكه ابن الأثير . فهى تجمع ما تفرَّق من هذه الطُّرق من محاسن ، ولذلك كان للمفسرين جولات غنية جداً فى فهم التقديم فى القرآن والكشف عن أسراره المختلفة .

وكل ما يؤخذ عليهم أنهم قد ينساقون - أحياناً - وفى بعض المواضع إلى إرجاع شئ من التقديم إلى رعاية الفواصل - كما يقول البلاغيون - أو حُسن النظم السجعى كما يقول ابن الأثير .

ولما كان تتبع أسفار التفسير - وهى كثيرة - ليس بمستطاع هنا . فإنى سأعتمد أساساً على اثنين منهم هما :

١ - العلاَّمة أبو السعود فى تفسيره المسمى « إرشاد العقل السليم ، إلى مزايا الكتاب الكريم » .

٢ - الإمام محمود بن عمر الزمخشرى . فى تفسيره المسمى « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » .

أولاً : من تفسير أبى السعود

١ - تقديم التحلية على اللباس :

قال تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (١) :

يقول العلاَّمة أبو السعود فى تقديم التحلية على اللباس : « للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق ، غنى عن البيان ، إذ لا يمكن عراؤهم عنه . وإنما المحتاج إلى البيان أن لباسهم ماذا ؟ بخلاف الأساور واللؤلؤ فإنها ليست من اللوازم الضرورية . فجعل بيان تحليتهم بها مقصوداً بالذات . ولعل هذا هو الباعث إلى تقديم بيان التحلية على بيان حال اللباس » (٢) .

---

(١) الحج ٢٣ (٢) تفسير أبو السعود : ١٥/٤

فهذا البحث ليس فى تقديم المسند إليه أو المسند ، أو متعلقاتهما مما يعنى به علماء البلاغة . وإنما هو تقديم معنى على معنى بغض النظر عن الألفاظ الدالة عليه وتحت أى ضابط يقع .

لذلك فهو أقرب إلى طريقة ابن الأثير والعلة أو السر فى التقديم هنا - كما يراه أبو السعود - ليس من الأسرار التى أرجع إليها علماء البلاغه تقديم ما يُقدَّم . وهو ما موفق فى هذا التوجيه . ويؤيده من النظم نفسه أن المعنى الأولى « التحلية » مدلول عليه بالجملة الفعلية . التى تفيد التجدد والحدوث وطول الكلام فى العبارة نفسها .

أما المعنى الثانى : فقد دَلَّ عليه بعبارة موجزة قوامها ثلاث كلمات : « ولباسهم فيها حرير » ، كما دَلَّ عليه بالجملة الإسمية التى تفيد الثبوت والدوام . فكأن اللّه - سبحانه - فى التحلية . أراد أن ينشئ ويحدث معنى جديداً فهى إذن تأسيس .

كذلك فقد عمد إلى ما هو حاصل معناه عند السامع « لباسهم » وجعله موضوعاً لحكم « حرير » فأفاد الخبر بيان النوع وليس المعنى الأصلى الحاصل على وجه الجملة !؟

فللّه دُرّ أبى السعود فقد كان ملهَماً وهو يقرر هذه الحقيقة .

ومع احترامنا لما يرى أبو السعود يمكن تخريج المسألة على الوجه الآتى :

● توجيه آخر :

إن التقديم هنا سببه تقديم الأضعف على الأقوى . وإذا جاز هذا فإن له فى القرآن نظائر وأشباهاً .

يقول الرازى فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (١) : « قدَّم حق اليتيم والسائل ، لأنه غنى ، وهما محتاجان . وتقديم حق المحتاج أولى » .

---

(١) الضحى : ٩ - ١١

ولنا أن نقول على طريقته فى تقديم اليتيم على السائل : « قدَّم اليتيم على السائل . لأن اليتيم أضعف من السائل . إذ هو لا يكون يتيماً إلا دون البلوغ والرُشد . والسائل قد يكون بالغاً راشداً . فقدَّم ما هو مظنة الضعف وموضع الرعاية والعطف على ما هو ليس بهذه الحالة .

ويتأكد المعنى وضوحاً إذا أخذنا بالرأى القائل إن المراد بالسائل هو سائل العلم لا الطالب الصدقة (١) .

ونظيره ما تقدم عند ابن الصائغ فى تقديم الوصية على الدَيْن .

ولعل من هذا النوع تقديم الإناث على الذكور فى معرض الهبات : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ (٢) .

لأن الأنثى أقل شأناً من الذكر فى معرض الهبة . وكان العرب يرون هبتها عاراً فقدَّمت الإناث على الذكور تنبيهاً لهم على خطأ تلك النظرة لإفادة أن الإنثى والذكر سواء كلاهما هبة من اللّه .

وهذا التوجيه أراه أنسب مما ذهب إليه ابن الأثير آنفاً حيث جعله بلاء . كما كانوا ينظرون إليه - فقدم ليلائم البلاء (٣) .

وقريب منه ما ذكره أبو السعود فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً .. ﴾ (٤) .

حيث قدَّم حالة القاتلية على المقتولية ، للإيذان بعدم الفرق بينهما فى كونهما مصداقاً لكون القتال بذلاً للنفس .

والداعى إلى هذا التقديم أن الناس كانوا لا يساوون بين أن يَقتل المجاهد العدو . وبين أن يُقتل هو . فالاستشهاد أعظم صور الجهاد .

---

(١) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده .

(٢) الشورى : ٤٨

(٣) انظر ص ١٣٣ من هذا البحث .

(٤) التوبة : ١١١

فأراد اللّه أن يبيِّن لهم أن كِلا العملين عظيم : القتل للعدو ، والقتل بيد العدو [1] .

وعلى هذا فإن القرآن قدَّم الأضعف على الأقوى إشعاراً بتساويهما فى الفضل .. هذا على قراءة حفص حيث قدَّم المبنى للمعلوم « فيَقتلون » على المبنى للمجهول « يُقتلون » .

أما على قراءة مَن عكس . فإن أبا السعود يرى تقديم الشهادة : رعاية لكونها عريقه فى الباب . وإيذاناً بعدم مبالاتهم بالموت فى سبيل اللّه . بل بكونه أحب إليهم من السلامة [2] .

*

٢ - تقديم قصة نوح على مصاحبها :

وقال فى تقديم قصة نوح عليه السلام على غيره ممن ذُكرَ معه فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [3] .

قال : « وفى تقديم قصة نوح على سائر القصص ما لا يخفى وجهه . وفى إيرادها إثر » . قوله تعالى : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [4] من حُسن الموقع ما لا يوصف .

فالتقديم هنا ذو غرضين :

١ - مناسبة ما تقدم : حيث تقدَّم عليها الفلك والحمل عليه .

٢ - الإشارة إلى سبقه فى الوجود ففى التعبير تقديم بحسب الترتيب الزمنى .

---

(١) تفسير أبى السعود : ٤٥١/٢ (بتصرف) .

(٢) نفس المصدر : ٤٣/٤

(٣) المؤمنون : ٢٣

(٤) المؤمنون : ٢٢

وهذا السبب الآخر لم يذكره أبو السعود صراحة بل اكتفى بكونه ظاهراً لا يخفى .. ولا يمكن أن يكون مراده غير ما ذكرناه .

*

٣ - تقديم المحصنات على مصاحبها :

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (١) .

يرى أبو السعود أن فى تقديم المحصنات الغافلات على المؤمنات . وهى ثلاثة أوصاف لموصوف واحد . إيذاناً بأن المراد الوصف المنبئ عما ذكر من صفتى الإحصان والغفلة . وليس المراد المعنى المؤسس المصحح لإطلاق الاسم فى الجملة - كما هو المتبادر على تقدير التقديم .

والخلاصة - عنده - أن ترتيب هذه الصفات الثلاث كما جاء فى الآية مفيد بأنهن مؤمنات بكل ما يجب الإيمان به من الواجبات والمحظورات وغيرها إيماناً حقيقياً تفصيلياً .

● رأى لنا فى المسألة :

هذا ما ذكره أبو السعود . ويمكن توجيه التقديم على وجه آخر . وهو أن الكلام مسوق للتشنيع على الرامين ، وتفظيع أمرهم بدليل قوله تعالى فى عجز الآية : ﴿ لُعِنُواْ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

وإذا كان الأمر كذلك فإن تقديم « المحصنات » وإلية الفعل « يرمون » وإيقاعه عليها مباشرة يساعد على إبراز ذلك المعنى الذى هو التشنيع على الرامين وتفظيع حالهم لأن « الإحصان » ينافى مدلول الرمى إذ هو - أى الإحصان - نص فى العفة الثابتة لهن .

---

(١) النور : ٢٣

(٢) النور : ٢٣

ويناسب ذلك عطف « الغافلات » على « المحصنات » إذ المراد من الغفلة نفى أن يكون لهن أدنى شعور بما يُنسب إليهن لأنهن لم يأتينه من أصله . وذلك بخلاف ما لو قدَّم « المؤمنات » لفات ذلك المعنى . لأن المؤمنة قد تخطئ .

فكأن القرآن يقول : إنهم يرمون مَن شأنه ألا يُرمى لوجوده فى الواقع على خلاف ما يدَّعون .

*

٤ - توسط « الظرف » :

ومن روائع ما ذكره العلأمة أبو السعود توجيهه لتوسط بين « لولا » وفعلها فى قوله تعالى : ﴿ لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيراً وَقَالُواْ هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

قال أبو السعود : « وتوسيط الظرف بين « لولا » وفعلها لتخصيص التحضيض بأول زمان سماعهم وقصر التوبيخ على تأخير الإتيان بالمحضض عليه إلى ذلك الأوان ، والتردد فيه . ليفيد أن عدم الإتيان به رأساً فى غاية ما يكون من القباحة والشناعة » .

وهذا فهم صادق لكلام اللّه الجزل ، نرى فيه أبا السعود لم يكتف بإرجاع التوسط الظرفى إلى سبب واحد ، بل أرجعه إلى ثلاثة أسباب .. وهو صائب الرأى فى هذا وهو ينحو هذا المنحى العذب فى تحليله البيانى لكتاب اللّه الكريم .

ونختم جولتنا معه بهذا الموضع :

*

٥ - تقديم المجرورات فى « الشرح » :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (٢) .

---

(١) النور : ١٢ (٢) الشرح : ١ - ٤

يقول أبو السعود : « وزيادة الجار والمجرور مع توسطه بين الفعل ومفعوله ، للإيذان بأن الشرح من منافعه عليه الصلاة والسلام ومصالحه . مسارعة إلى إدخال المسرة في قلبه ، وتشويقاً له إلى ما يعقبه ليتمكن عنده وقت وروده فضل تمكن » [١] .

ويرى الإمام النيسابورى أن الجار والمجرور مقحم فى هذه المواضع وفائدته الإجمال ثم التفصيل . فهو يتفق مع أبى السعود فى تقديره زائداً . ويختلف معه فى التوجيه .

والقول بالزيادة فى القرآن أمر ليس مقبولاً عند التحقيق . فكل ما جاء فى النظم الكريم له معنى دال عليه يزول بزواله . لذلك فقد تصدى للرد على هذه الفرية – عموماً – عالِم ملهم هو المغفور له محمد عبد الله دراز ونفى بالدليل المقنع أن يكون فى القرآن زائد . وفى موضوعنا هذا لم ترض صاحبة التفسير البيانى [٢] ما قال به أبو السعود والنيسابورى وهى ترى فى الجار والمجرور فى المواضع الثلاثة ضرورة بيانية اقتضاها المقام ولكنها لم تبيِّن وجه تلك الضرورة .

وأنا مع الرافضين للقول بالزيادة فى القرآن فى هذه المواضع ، وفى كل موضع يذهب فيه هذا المذهب . والذى أراه فى الجار والمجرور فى المواضع الثلاثة المذكورة أنها واردة لتأكيد المعنى المفهوم من الجملة .

لذلك حرص القرآن الكريم على أن يذكر فى كل موضع من المواضع الثلاثة الجار والمجرور المناسب للمعنى .

ففى الموضع الأول كان : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ . فالشرح خير . فناسبه « لك » وقدِّم اهتماماً به .

وفى الموضع الثانى كان : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ وقدِّم : « عنك » لنفس المعنى الذى قدِّم من أجله « لك » فى الآية السابقة .

---

(١) تفسير أبى السعود : ٧٨١/٤

(٢) التفسير البيانى : عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) .

وفى الثالث كان : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ فالرفع للذكر خير وشرف ولذلك عاد « لك » مرة أخرى ، لأنه مشعر بالنفع .

فلا زيادة ولا إقحام .. ولو تلا تال هذه الآيات محذوفاً منها الجار والمجرور لظهر الفرق من حيث اللفظ ، ومن حيث المعنى . فيما عليه النص الكريم وفيما عليه غيره بعد الحذف .

ويقول أبو السعود فى الموضع الثانى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ وتقديمه على المفعول الصريح مع أن حقه التأخير عنه . لما مَرَّ مراراً من القصد إلى تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر ، ولما أن فى وصفه نوع طول . فتأخير الجار والمجرور عنه مخل لتجاوب أطراف النظم (١) .

ويذهب الشيخ محمد عبده مذهب أبى السعود فى توجيهات هذه الآيات فيقول : « والإتيان بالجار والمجرور - « لك » و « عنك » - وتقديمه على المفعول فى الآيات الثلاث لزيادة التقرير والإسراع بالتبشير » (٢) .

*

٦- سر تقديم المجرورات على « رجال » فى آية النور :

ومما يفيد التقديم فيه أكثر من غرض قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٣) .

قال أبو السعود : « رجال » : فاعل « يسبح » . وتأخيره عن الظروف لما مَرَّ مراراً من الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخر . ولأن فى وصفه نوع طول فيخل تقديمه بحسن النظم » .

---

(١) تفسير أبى السعود : ٨٨٢/٤
(٢) تفسير جزء عم ص ١١٧
(٣) النور : ٣٦ - ٣٧

وهذا التوجيه على قراءة مَنْ بنى الفعل للفاعل . وقد فات أبا السعود أن فى الآية ثلاثة ظروف متجاورة لم يشر إلى سر ترتيبها . وهى : « له فيها بالغدو » .

والذى يبدو أمام الباحث أن تقديم « له » على تالييه : « فيها بالغدو » لأن الضمير المجرور وهو « الهاء » عائد على اسم الجلالة . فقدِّم إذن تعظيماً له . أما تقديم « فيها » فلأن الضمير المجرور ، عائد على « المساجد » أو « البيوت » وقد تقدم ذكرها فى الكلام فكان تقديمها أولى من تقديم « بالغدو » .

هذه مُثل من تفسير أبى السعود ، عالج فيها التقديم بمنهج حر واسع النظرة وتفسيره حافل بمثل هذه الصور وهو - كما رأينا - مولع بتقصى الأسرار التى يفيدها التقديم فتراه يثبت لك فى الموضع الواحد سراً أو سرين أو ثلاثة .وهذه طريقة جديرة بالتقدير لفهم أسرار الكتاب الكريم وفهم مقومات الجمال الفنى فيه .



ثانياً : من كشاف الزمخشرى

لا فرق بين نظرة الزمخشرى ونظرة أبى السعود فى التقديم . فهما جميعاً ينهلان من معين واحد . وأبرز ما يمتاز به منهجهما هو الحرية . وعمق النظرة . وإن كان العلاَّمة أبو السعود أرسخ قدماً من الزمخشرى فى هذا المجال .

وقد سبق لنا أن وقفنا على شئ من توجيه الزمخشرى للتقديم فى قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (١) .

ونذكر من كشافه نموذجاً آخر لمعالجته للتقديم فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ، قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ، فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ، قَالَ إِنَّهُ

---

(١) انظر ص ١١٨ من هذا البحث - والآية من سورة النحل : ٦

يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإنَّا إن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا ، قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ ، فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ * وَإذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ، كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ المَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

يقول الزمخشري : « فما للقصة لم تُقَص على ترتيبها ، وكان حقها أن يُقدَّم ذكر القتيل ، والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها . وأن يقال : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها » .

ويجيب : « كل ما قُصَّ من قصص بني إسرائيل إنما قُصَّ تعديداً لما وُجِدَ منهم من الجنايات . وتقريعاً لهم عليها . ولما جُدِّدَ فيهم من الآيات العظام .. وهاتان قصتان كل منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين .

فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء . وترك المسارعة إلى الامتثال . وما يتبع ذلك .

والثانية للتقريع على قتل النفس المحرَّمة . وما يتبعه من الآية العظيمة . وإنما قُدِّمت قصة الأمر بذبح البقرة ، على ذكر القتيل ، لأنه لو عمل على أصله لكانت قصة واحدة . ولذهب الغرض من تثنية التقريع .

* *

● أبرز ملامح منهج المفسرين :

فالدراسة – هنا – لم تتعلق بتقديم المفردات – فضلاً عن أن تتعلق بمسند إليه أو مسند ، أو ظرف .. وإنما تعلقت بتقديم قصة على قصة . بكل ما تحمله كل

---

(١) البقرة : ٦٧ - ٧٣

من القصتين من ألفاظ وعبارات . وأبانت لنا سر تقديم قصة على أخرى . كما أبانوا - أى البلاغيون - السر فى تقديم خبر على مبتدأ . أو ظرف على معمول آخر .

* *

● اقتراح :

والسؤال الآن : أى هذه الطُرق أجدى فى فهم التقديم فى القرآن ؟

والجواب : هى كلها بعد تهذيب بعضها وإصلاح حواشيها .. أن القرآن كل حرف فيه - فضلاً عن كل كلمة وكل جملة - موضوع بحساب دقيق . وفيه ترتيب مقومات الأداء - أى وحدات الأسلوب - على وجه أحسن وهو ثروة فكرية . ومتعة أدبية . فنحن فى حاجة إلى منهج شامل يُنظر فى أسلوبه من حيث العبارات ومن حيث المعانى . ويُقارَن ويُستخلَص فإن القرآن ما زال بكراً عزيز المنال . .

وهذه المناهج كلها أعون على كشف أسراره ومعانيه .

* * *

الفصل الثالث

التقديم غير الاصطلاحى
أو
اختلاف النظم فى العبارات ذات المعنى الواحد

مرَّ بنا - فيما سبق - نوعان من التقديم ...

أولهما : تقديم ما حقه التأخير وضابط هذا النوع : أن المقدَّم فيه له رتبة معلومة فى التركيب كالخبر رتبته التأخير عن المبتدأ ، والمفعول به رتبته التأخير عن الفعل والفاعل .

وهذا النوع يُعلم حاله بمجرد النظر إلى العبارة ، حيث يُرى ما قُدِّم قد أزيل عن مكانه من الجملة ووُضِعَ فى مكان آخر مقدَّماً على ما كان له ، وقد عنى البلاغيون بهذا النوع ووضعوا له القواعد والأصول . ولم يهتموا بغيره إلا فيما ندر .

ثانيهما : تقديم ما ليس له رتبة معيَّنة فى التركيب ، لكنه قد يقع مصاحباً لشبيه له أو أشباه مقدَّماً عليها فيلحظ البلاغى سراً للمقدم كتقديم الوصية على الدَّيْن . وتقديم حالة المقاتلية على المقتولية فى بعض آى القرآن .

وكتقديم الأموال على الأولاد فى كل موضع اجتمعا فيه مثل : ﴿ المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

---

(١) الكهف : ٤٦

وقوله : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهوداً ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ ﴾ (٤) .

وكثير غير هذه المواضع قُدِّمت فيها الأموال على الأولاد فى القرآن الكريم .. ولعل السر فى تقديم الأموال على الأولاد : أن الإنسان يملك أموالاً قبل أن يكون له أولاد . وأن المال أكثر نفعاً للرجل من ولده . وأكثر شغلاً له . وهذا النوع ليس له نصيب ذو قيمة عند البلاغيين ، وإنما عنى به المفسرون وكان أبرز خصائص منهجهم فى التقديم . وقدَّمنا فيما سبق نبذة من أقوالهم فيه معتمدين أساساً على ما كتبه العلأمة أبو السعود فى تفسيره ، وجار الله الزمخشرى فى كشافه .

* *

● نوع ثالث من التقديم :

ونحن الآن بصدد نوع ثالث من التقديم مختلف تماماً عن النوعين السابقين لأنك إذا نظرت إلى العبارة مجردة لم يظهر لك فيها تقديم أو تأخير إنما ترى كل كلمة وقعت موقعها فى الجملة التى هى فيها .

وإذا قارنتَ هذه العبارة بموضع آخر اتحد معها فى أصل المعنى ظهر لك أن الكلمة قُدِّمت فى موضع ، وأُخِّرت فى آخر .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً ﴾ (٦) .

---

(١) المدثر : ١١ - ١٣ (٢) الشعراء : ٨٨ (٣) الأنفال : ٢٨
(٤) سبأ : ٣٧ (٥) البقرة : ٥٨ (٦) الأعراف : ١٦١

فلو أنك نظرتَ إلى آية البقرة المذكورة وحدها لم يظهر لك شئ من أمر التقديم والتأخير فيها .

لكنك حين تقارنها بآية الأعراف المتفقة معها فى أصل المعنى المختلفة معها فى النظم بان لك أمر التقديم والتأخير واضحاً .

فدخول الباب سُجَّداً مُقدَّم فى البقرة ، والقول بالحطَّة مؤخَّر . وقد عكس ذلك فى الأعراف فجاء القول بالحِطَّة مقدَّماً ودخول الباب سُجَّداً مؤخراً !!

وقد أحصيتُ من هذا النوع واحداً وعشرين موضعاً فى القرآن الكريم . فرحتُ أبتغى توجيهاً لها عند المفسرين فلم أجد إلا عبارات مقتضبة فى مواضع قليلة جداً لم تشف غليل باحث . وبدهى أن البلاغيين لم يعالجوا هذا النوع لا من قريب، ولا من بعيد . إلا فى موضع واحد أو اثنين وسنشير إلى هذا كله فى موطنه .

والحق يقال إن الإمام الزركشى قد سرد هذه الآيات فى باب المتشابه وحلّل القول فى مواضع نادرة منها ، وحتى ما كتبه هو لم يحل المشكلة . وسأنبه عليه فى موضعه كذلك (١) .

أمام هذه الاعتبارات اضطررتُ إلى استئناف البحث فى هذه المواضع جميعاً . معتمداً فى توجيه السر فيها على ما يأتى :

١ - شروح المفسرين وما قاله بعضهم من عبارات مقتضبة لم تشف غليلاً .

٢ - ما كتبه الزركشى فى البرهان عن بعض المواضع منها .

٣ - وهو المعتمد الأهم . هو القرآن نفسه أوازن وأستنتج وأقف فى كل موضع أدرسه على ما اشتمل عليه من دقائق اللفظ والمعنى ، وقرائن الأحوال واختلاف المقامات والسابق واللاحق نزولاً . وكان لهذا فضل توجيهى فى كل المواضع التى تناولتها بالدراسة هنا .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن

وبعد الفراغ من توجيهاتها كلها واستفراغ كل جهدى فى دراستها بعد هذا كله عثرتُ على كتاب « درة التنزيل . وغرة التأويل : فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز » . للشيخ الإمام أبى عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافى المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، رواية الإمام إبراهيم بن على ابن محمد المعروف بابن أبى الفرج [١] .

وفى هذا الكتاب حديث عن أكثر هذه المواضع تناوله المؤلف فى شئ من الإفاضة والتوسع .

وعلى التو قمتُ بمراجعة فاحصة لما كتبته فى توجيهها مقارناً بما جاء فى كتاب الخطيب الإسكافى . وللحق أقول : إننى لم أُغيِّر كثيراً فيما انتهيتُ إليه من نتائج بعد اطلاعى على هذا الكتاب ، وسوف أشير إلى رأيه ملخصاً فيما يأتى عند توجيه كل موضع إن شاء الله .

ونحدد - قبلاً - هذه الآيات :

● إشارة سريعة لنصوص التقديم غيرالاصطلاحى :

الموضع الأول : هو آية البقرة : ٥٨ مع آية الأعراف : ١٦١ ، والثانى : آية البقرة : ٦٢ مع آية الحج : ١٧ ، والثالث : آية البقرة : ١٢٠ مع آية الأنعام : ٧١ ، والرابع : آية البقرة : ١٤٣ مع آية الحج : ٧٨ ، والخامس : آية البقرة : ١٧٣ مع آية المائدة : ٣ والأنعام : ١٤٥ والنحل : ١١٥ ، والسادس : آية البقرة : ٢٦٤ مع آية إبراهيم : ١٨ ، والسابع : آية آل عمران : ١٥٦ مع آية الأنفال : ١٠ ، والثامن : آية النساء : ١٣٥ مع آية المائدة : ٨ ، والتاسع : آية الأنعام : ١٠٢ مع آية غافر : ٦٢ ، والعاشر : آية الأنعام : ١٥١ مع آية الإسراء : ٣١ ، والحادى عشر : آية النمل : ١٤ مع آية فاطر : ١٢ ، والثانى عشر : آية الإسراء : ٨٩ مع آية الكهف : ٥٤ ، والثالث عشر :

---

(١) الطبعة الأولى سنة ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) ويقع فى ٣٩٨ صفحة من القطع الكبير .

آية المؤمنون : ٨٣ مع آية النمل : ٦٨ ، والرابع عشر : آية الآسراء : ٩٦ مع آية العنكبوت : ٥٢ ، والخامس عشر : آية القصص : ٢٠ مع آية يس : ٢٠ ، والسادس عشر : آية آل عمران : ٤٠ مع آية مريم : ٨ ، والسابع عشر : آية البقرة : ١٢٩ مع آية الجمعة : ٢ ، والثامن عشر : آية البقرة : ٣٥ مع آية البقرة : ٥٨ ، والتاسع عشر : آية البقرة : ١٢٣ مع آية البقرة : ٤٨ ، والموضع العشرون : آيات : الأنعام : ٣٢ ومحمد : ٣٦ والحديد : ٢٠ مع آيتى الأعراف : ٥١ والعنكبوت : ٦٤

هذه عشرون موضعاً اتحد فيها أصل المعنى أو كله واختلفت صور النظم من حيث التقديم والتأخير وغيرهما ، وقبل أن نخوض فى التفصيل أرجو أن أوافق على تلك التسمية التى أثبتها فى العنوان وهى : « التقديم غير الاصطلاحى » أو « اختلاف النظم فى العبارات ذات المعنى الواحد » .

● الموضع الأول « دخول الباب والقول بالحطّة » :

﴿ وَادْخُلُواْ البَابَ سُجّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ ﴾ [١] .

﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ البَابَ سُجَّداً ﴾ [٢] .

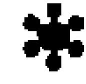
علّل الزمخشرى فى كشافه [٣] . وأبو السعود فى إشاده [٤] التقديم والتأخير فى هذا الموضع بعدم التناقض . وحجتهما أن المأمور به هو الجمع بين الأمرين : القول بالحطّة ، والدخول ساجدين من غير اعتبار الترتيب بينهما . وسواء قدّموا الحِطّة أَو أخّروها فهم جامعون فى الإيجاد بينهما .

أما الخطيب الإسكافى فقد أرجع التقديم والتأخير إلى أن القرآن إنما حكى المعنى دون اللفظ . وما دام الأمر كذلك فلا غرابة [٥] .

---

(١) البقرة : ٥٨
(٢) الأعراف : ١٦١
(٣) الكشاف : ١٣٣/٢
(٤) تفسير أبى السعود : ٣٠٨/٢
(٥) درة التنزيل وغرة التأويل ص ١٠

وأرجع السيوطى هذا الاختلاف فى هاتين الآيتين ، وما شاكلهما إلى التفنن فى الفصاحه وإخراج الكلام على أساليب مختلفة [١] .



● رأينا فى الموضوع

إن الذى ذكروه – وإن كان صحيحاً فى نفسه – فغير كاف لإقناع الباحث فى كتاب اللّه . فهو أقرب إلى التوجيه العام من التحليل الموضوعى الدقيق ، الذى يكشف عن السر فى كل ظاهرة من ظواهر التعبير . لذلك ندير البحث على وجه آخر أرى أنه أقرب إلى الصواب ، والمعروف أن السجود قد يكون شكراً على النعَم ، والاستغفار طلباً للعفو من الذنوب ، والقوم فى الموضعين مُنْعَم عليهم ومخطئون . فتقديم السجود فى البقرة على الاستغفارتغليب لجانب الشكر على جانب الاستغفار وهذا التغليب مبعثه أمران :

الأول : أن اللّه قد حثّهم – صراحة – على الشكر فى معرض الحديث .

الثانى : أن نعمة اللّه عليهم فى البقرة أظهر وأكمل منها فى الأعراف .

وذلك لاشتمال الحديث فى البقرة على بعثهم بعد الموت بالصاعقة [٢] ، وهذه نعمة جليلة . كما وصف « الأكل » بالرغد : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً ﴾ [٣] . وقد فسر « الرغد » بالسعة [٤] ولم يأت هذا الوصف فى الأعراف .

والحديث فى البقرة جار مجرى الخطاب ، بينما هو فى الأعراف آت على أسلوب « الخبر » المحكى . وقد عطف الأكل على الأمر بالدخول بـ « الفاء » . فأفاد أن أكلهم الرغد مترتب على دخولهم ، وأنه سريع الحصول لهم . والعطف فى الأعراف بـ « الواو » وهو لا يفيد سوى مطلق الجمع .

---

(١) الإتقان : ١٦/٢

(٢) فى الآيات السابقة على آيتنا .

(٣) البقرة : ٥٨

(٤) تفسير النسفى : جـ ١

والقول بالأمرين - الدخول ساجدين ، والقول بالحطّة - مسند إلى ضمير اسم الجلالة « اللّه » صراحة « وإذ قلنا » ، أما فى الأعراف فقد جرى الحديث مجرى ما لم يسم فاعله : « وإذ قيل لهم .. » ففى الإسناد الأول من الفخامة والجلال ما ليس فى الإسناد الثانى حسب مقتضيات المقام .

كذلك فإن التعبير فى البقرة مفيد لحدوث النعمة المستوجَب عليها الشكر . أما فى الأعراف فلا يفيد ذلك الحدوث ضرورة لأن : « ادخلوا » غير : « اسكنوا » فالأول يفيد أنهم كانوا خارجها وأتيح لهم دخولها ، والثانى يفيد أنهم كانوا فيها ، والجديد فى الأمر تمكنهم من الاستمرار على ما هم عليه .

فظهور كمال النعمة فى البقرة اقتضى تقديم الأمر بالسجود ، لأن السجود مظهر عظيم من مظاهر شكر النعَم . ثم روعى جانب الخطيئة فى الأعراف فقدّم ما يناسبه وهو القول بالحطّة لزوال ما اقتضى التقديم فى آية البقرة . ومن الخير أن نذكرنصوص القصة فى السورتين كاملة :

أولاً - البقرة : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ، كُلُواْ من طَيِّبَات مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذه القَرْيَةَ فَكُلُواْ منْهَا حَيْثُ شئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ البَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حطَّةٌ نَّغْفرْ لَكُم خَطَايَاكُمْ ، وَسَنَزِيدُ المُحْسنينَ ﴾ (١) .

ثانياً - فى الأعراف : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إذ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أن اضْرب بِّعَصَاكَ الحَجَرَ ، فَانبَجَسَتْ منْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ، قَدْ عَلمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيهمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهمُ المَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ، كُلُواْ من طَيِّبَات مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلمُونَ * وَإِذْ قيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذه القَرْيَةَ وَكُلُواْ منْهَا حَيْثُ شئْتُمْ وَقُولُواْ حطَّةٌ وَادْخُلُواْ البَابَ سُجَّداً نَّغْفرْ لَكُمْ خَطيئَاتكُمْ ، سَنَزِيدُ المُحْسنينَ ﴾ (٢) .

* *

---

(١) البقرة : ٥٦ (٢) الأعراف : ١٦٠ - ١٦١

● الموضع الثانى « هُدَى اللّهِ هُوَ الهُدَى » :

﴿ قُلْ إنَّ هُدَىٰ اللّهِ هُوَ الهُدَىٰ ﴾ . جاء هذا التعبير بتقديم ﴿ هُدَى اللّهِ ﴾ على ﴿ هُوَ الهُدَى ﴾ فى سورة البقرة [١] .

وجاء عكسه . أى تقديم : « الهُدَى » على « هُدَى اللّهِ » حيث قال : ﴿ قُلْ إنَّ الهُدَى اللّهِ ﴾ فى آل عمران [٢] .

ولم يذكر أحد من المفسرين فى توجيهه شيئاً . وأغفلها الخطيب الإسكافى فلم يتحدث عنها بهذا الاعتبار [٣] . بل جاء بآية البقرة لغرض آخر لم يدخل فيما نحن فيه من حيث التقديم والتأخير .

والذى أراه من سياق الآيات نفسها أن لكل تقديم وتأخير فى هذه المواضع سبباً اقتضاه .. فقد جاء فى سورة البقرة : ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ، قُلْ إنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الهُدَى ، وَلَئِن اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مَا لَكَ مِن اللّهِ مِن وَلِىٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [٤] .

وجاء فى الأنعام : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ من دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الهُدَى ائْتِنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الهُدَى ، وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [٥] .

وجاء فى آل عمران : ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ

(١) البقرة : ١٢٠ ، والأنعام : ٧١ (٢) آل عمران : ٧٣

(٣) انظر: درة التنزيل ص ١٨ - ٢٣ (٤) البقرة : ١٢٠ (٥) الأنعام : ٧١

مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ، قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

*

● ما يهدى إليه النظر فى هذا الموضع :

إذا نظرنا فى هذه المواضع نظرة فاحصه وجدنا أن تقديم : « هدى الله » ، له سبب اقتضاه فى الموضعين الأول والثانى . إذ هو آت نصاً من أول الأمر على أن : « هدى الله هو الهدى » فى معرض حديث يُدَّعى فيه أن غير الله له هدى.

ففى البقرة ادعى ذلك الهدى اليهود والنصارى ، ومن أجل مدعاهم هذا لا يرضون إلا عمن اتبعهم وصدَّقهم : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ اليَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ . فكأنهم يرفضون أن يكون هدى غير ما هم عليه منكرون لما سواه . فجاءت الآية مفندة دعواهم : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ ﴾ ، أى : لا هداكم ولا هدى غيركم ، ففى الأسلوب قصر قلب . يقول النسفى : « وهدى الله هو الهدى كله ليس وراءه هدى » (٢) .

وكذلك فى الأنعام : ﴿ لَهُ أَصْحَابٌ يَدعُونَهُ إِلَى الهُدَى ائْتِنَا ﴾ فالأصحاب يدَّعون أن لهم هدى ، فسلك القرآن - هنا - مسلكه فى آية البقرة لوجود السبب فى الموضعين .

أما تقديم « الهدى » فى آل عمران على « هدى الله » فلأن القوم هنا لم يبد منهم إنكار . أو دعوى استئثارهم بالهدى ، بل هم مقرون بذلك وإنما يريدون أن يفتنوا مَنْ هم على هدى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ عما هم عليه ليستأثروا هم بهدى الله حسداً من عند أنفسهم أن يؤتى أحد مثلما أُوتوا . فجاءت الآية الكريمة : ﴿ قُلْ إِنَّ الهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ . اعتراضاً مبيناً لوهمهم فيما حسبوا أنهم

---

(١) آل عمران : ٧٢ - ٧٣

(٢) تفسير النسفى : ٥٧/١

قادرون عليه من إضلال المؤمنين . فتعريف الهدى بـ « الألف واللام » ، وجعله موضوعاً للحديث والحكم عليه بأنه : « هدى الله » هو التعبير الأنسب للمقام لما فى « الـ » من معنى الاستغراق . ففى العبارة قصر أفراد .

* *

● الموضع الثالث « شهادة الرسول وشهادة الأمة » :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبلَتِهِمُ الَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ، قُل لِلَّهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ ، يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَجَاهِدُواْ فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (٢) .

فى هذين النصين نوعان من التقديم . أولهما : تقديم شهادة الأمة على الناس ، على شهادة الرسول على الأمة فى آية البقرة .

وتقديم شهادة الرسول على الأمة . على شهادة الأمة على الناس فى آية الحج ، وهذا من التقديم غير الاصطلاحى .

وثانيهما : تقديم « عليكم » على « شهيداً » فى البقرة ثم الإتيان به على الأصل فى آية الحج : « شهيداً عليكم » وهذا من التقديم الاصطلاحى الذى يعنى به البلاغيون .

---

(١) البقرة : ١٤٢ - ١٤٣

(٢) الحج : ٧٨

وسر التقديم فى النوع الثانى ظاهر . فقوله تعالى : « عليكم شهيداً » فى البقرة أفاد فيه تقديم الجار والمجرور : « عليكم » تخصيص شهادة الرسول على الأمة دون ما غيرها من الأمم .

*

• ماذا قال المفسرون :

وقد قال المفسرون [1] إن المراد بشهادة الرسول – هنا – على الأمة شهادة لها بالعدالة والتزكية ، لأن الله قد وصف الأمة بقوله « وَسَطاً » أى خياراً عدولاً ، وعلى هذا فإن محمداً ﷺ ، لا يزكى غير أمته لقيام هذه الأمة مقام الشاهد على جميع الأمم .

وهذا الفهم الذى فهمه المفسرون من شهادة الرسول على الأمة . يفيدنا إلى أبعد مدى فى فهم السر فى النوع الأول الذى يصوِّره هذا السؤال .

• سؤال وجواب :

لماذا قُدِّمت شهادة الأمة على شهادة الرسول فى البقرة وعكس الأمر فى الحج ؟

والجواب : إن الكلام فى سورة البقرة مسوق لتقرير عدالة الأمة ، وكونها شاهدة على الأمم . أما شهادة الرسول عليها فهى تزكية لها لقبول شهادتها ، والتزكية تكون بعد أداء الشهادة نفسها . إذ هى أصل . والتزكية تابعة لها . ولولا ذلك لما قُدِّمت شهادة الأمة على شهادة الرسول . لتباين المنزلتين .

ووجه آخر للتقديم أن يقال إن الخطاب أصلاً موجَّه إلى الأمة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [2] . وظاهر أن « لَام التعليل » داخلة على مَا منْ أجله كان الجعل . فتقديم شهادة الأمة على شهادة الرسول أمر اقتضاه حُسن النظم ، وتلاؤم المعنى .. هذا فى البقرة .

---

(١) كشاف الزمخشرى : جـ ١ ، تفسير أبى السعود : جـ ١ ، تفسير النسفى : ٦٢/١ - ٦٣

(٢) البقرة : ١٤٣

أما فى سورة الحج فقد جاء الترتيب بين الشهادتين على الأصل بتقديم شهادة الرسول على شهادة الأمة . وذلك لأن المعنى - كما نص عليه المفسرون - أن يشهد الرسول على أمته بأنه بلّغها ما أُنزل إليه من ربه . وأن تشهد الأمة على الأمم السابقة بأن رسلهم قد بلّغتهم ما أُنزِل إليهم من ربهم . فموضوع الشهادتين واحد هو التبليغ .

لذلك قُدِّمت شهادة الرسول ، لأنها الأصل . وأُخِّرت شهادة الأمة ، لأنها الفرع . إذ هى مترتبة عليها ومستقاة منها . فالتقديم هنا من باب ما هو أصل على ما هو فرع .

ولم يذكر الخطيب الإسكافى شيئاً عن هذا الموضع فى كتابه المذكور لا فى البقرة ، ولا فى الحج .

* *

● الموضع الرابع « التوحيد والخَلْق » :

﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ، وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (٢) .

والناظر فى هاتين الصورتين يجد عبارة : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ قُدِّمت فى غافر وأُخِّرت عليها عبارة : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ .

---

(١) غافر : ٦١ - ٦٢ (٢) الأنعام : ١٠٠ - ١٠٢

وفى الأنعام عكس الوضع . فقدِّمت : ﴿ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وأُخِّرت : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ .

*

● توجيه ميسور :

والتوجيه – هنا – سهل ميسور . إذ المقام فى غافر مقام تعدد وتذكر بنعم الله فناسب ذلك تقديم : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، والمقام فى الأنعام مقام يزعم فيه المشركون تعدد الآلهة حيث جعلوا له شركاء الجن . فقدِّمت : ﴿ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ . لأن فيها نصاً على نفى التعدد المزعوم . فالتقديم هنا من باب تقديم الأنسب فالأنسب وقد تحدث عن هذا الموضع الخطيب الإسكافى بما لا يخرج عما قلناه [1] ، وإن جعل المقام فى « غافر » مقام تثبيت خلقه .

* *

● الموضع الخامس : « الَّذِينَ آمَنُواْ ، وَالَّذِينَ هَادُواْ » :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحَاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [2] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [3] .

فى آية البقرة قُدِّمت : « النصارى » معطوفة على « الذين هادوا » على « الصابئين » وفى آية الحج عكس الوضع فقدِّمت : « الصابئين » على « النصارى » .

---

(١) درة التنزيل . وغرة التأويل ص ١٠٨

(٢) البقرة : ٦٢ (٣) الحج : ١٧

وشبيه بآية الحج قوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ آمَنُواْ وَالَّذينَ هَادُواْ وَالصَّابئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ باللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحَاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

فهنا - كذلك - قُدِّمت « الصابئين » لفظاً فى أظهر الآراء على « النصارى » كما جاء فى سورة البقرة .

*

● رأى الإسكافى :

ورأى الخطيب الإسكافى - ملخصاً - فى هذه المواضع الثلاثة أن الترتيب بين هذه الفِرق ملاحَظ فيه أمران :

١ - ترتيب بحسب الكتب السماوية المنزَّلة على كل مَن كان له منها كتاب .

٢ - ترتيب بحسب الأزمنة لا بحسب الكتب .

ففى آية البقرة كان الترتيب بحسب الكتب . فقدَّم الذين آمنوا بما أُنزِل على إبراهيم عليه السلام لأنهم سابقون ، ثم الذين هادوا لأن التوراة سابقة على الإنجيل ، ثم النصارى لأنهم أهل الإنجيل ، ثم أتى بالصابئين لأنهم لا كتاب لهم .

وفى المائدة والحج كان الترتيب بحسب الأزمنة . وقُدِّم « الصابئين » على « النصارى » لأنهم أسبق منهم زمناً . هذا واضح فى سورة الحج لمجئ : « الصابئين » فيها منصوباً ، أما فى المائدة فقدَّم لفظاً ونوى تأخيره معنى بدليل رفعه على الاستئناف .. قال الإسكافى : وإنما قدَّم فى اللفظ ، وأخَّر فى النية ، لأن التقدم الحقيقى التقدم بكتبه المنزَّلة على الأنبياء عليهم السلام .. (٢) .

*

---

(١) المائدة : ٦٩

(٢) درة التنزيل ، وغرة التأويل ص ١٤ - ١٥

● تخريجنا لهذه المواضع :

هذه خلاصة سريعة لما ذكره الإسكافى فى توجيه هذه الأساليب . وكنت قد ذكرت قبله ما يأتى : ويبدو أن فهم السر هنا يتوقف على ملحظين :

الأول : ما هو المراد بالصابئين ؟

الثانى : نوع الحكم الذى حكم به على هذه الأسماء . أو الفِرق الواردة فى المواضع المتقدمة .

فالملحظ الأول يتضح أمره من أقوال المفسرين . فالزمخشرى والنسفى يريان أن الصابئين هم قوم عدلوا عن دين اليهودية ودين النصرانية وعبدوا الملائكة ، ويذهب العلاّمة أبو السعود مذهباً قريباً من هذا .

أما الملحظ الثانى .. فإن نوع الحكم المحكوم به على هذه الفِرق ، وهو خبر « إن » مختلف من موضع إلى آخر .

فهو فى البقرة : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

ومثله فى المائدة : ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وقد تقدَّم على كل من الخبرين ما يمهد ويرشح له ويلوح به ، ففى البقرة جاء قوله تعالى : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ .

وفى المائدة جاء قوله تعالى : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ .

فههنا دعوة إلى الإيمان وحث وإغراء عليه . وهذا لا يكون إلا فى حال الحياة ، فقدَّم النصارى على الصابئين إذ لا يبعد أن يكون المراد بهم صابئى النصارى ، وقُدِّموا لفظاً على نيَّة التأخير معنى ليشمل صابئى المِلَّتين : اليهود والنصارى ، وفى تقديم اليهود والنصارى عليهم لأنهم أفضل إذ هم أهل كتاب .

أما تقديم « الذين آمنوا » فعلى ما يراه الإسكافى أنهم مؤمنو الأمم السابقة ، فتقديمهم من حيث أنهم أفضل هذه الأنواع ، أما على ما يراه الزمخشرى وغيره من المفسرين من أن المراد بهم « المنافقون » فهم وإن كانوا كفاراً من حيث الباطن فإن اطلاق وصف الإيمان عليهم فى الظاهر جعلهم فى المرتبة الأولى من الذكر لا باعتبار أنفسهم ، ولكن باعتبار شرف الإيمان نفسه .

*

• بين المفسرين والإسكافى

وهذا – أعنى رأى الزمخشرى والمفسرين – أقوى من رأى الإسكافى . بدليل نظمهم مع اليهود والنصارى والصابئين وغيرهم فى سلك واحد ، وأنهم – جميعاً – مطالبون بتحقيق الإيمان لعريهم عنه .

أما الخبر فى آية الحج فمختلف عن هذين إذ هو : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ يفصل بينهم فى الجزاء . خيراً وشراً . أو يفصل بينهم فى المكان فلا يجمعهم فى مكان واحد ، وأياً كان نوع الفصل . فهو لا يكون – كما صرّحت الآية – إلا يوم القيامة ، لذلك سلك فى النظم وجهاً آخر .

فكأن القرآن نظر فى سرد هذه الفرق إلى السبق الزمنى . فاليهود وصابئوهم سابقون زمناً على النصارى . لذلك قَدَّم اليهود عاطفاً عليهم صابئيهم ، ثم ذكر النصارى .

ولم يحتج لذكر صابئى النصارى اكتفاءً بذكر صابئى اليهود ، كما لم يذكر فى آية البقرة صابئى اليهود اكتفاءً بذكر صابئى النصارى . وكانت آية المائدة وسطاً بين التعبيرين ، وتلك – إذن – قسم عادلة !! . أما تأخير المجوس والذين أشركوا عن هذه الفرق . فلأنهم ليسوا أهل كتاب !

* *

● الموضع السادس « وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّه بِهِ » :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّه به وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، اليَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ من دينكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْن ، اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خنزيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّه به ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّه به ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّه به ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّه غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

هذه أربعة نصوص ترددت فيها عبارة : ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّه به ﴾ في ثلاثة منها هي : المائدة ، والأنعام ، والنحل بتقديم : « لغير الله » على « به » والأصل تقديم : « به » على « لغير الله » لأن الضمير فيه عائد على « ما » و « لغير الله » متعلق بـ « أهل » وهو صلة الموصول « ما » والموصول مقدَّم

---

(١) المائدة : ٣

(٢) الأنعام : ١٤٥

(٣) النحل : ١١٤ - ١١٥

(٤) البقرة : ١٧٢ - ١٧٣

دائماً على الصلة . فكان حق العائد عليه التقديم على المتعلق بالصلة . لكن خولف هذا الأصل فى المواضع الثلاثه المذكورة وهذه المواضع منها موضعان مكيان هما : الأنعام والنحل . والموضع الثالث - وهو المائدة - مدنى إلا الآية التى فيها هذه العبارة فمكية نزلت فى حجة الوداع كما نص على ذلك العلماء .

وجاءت العبارة على الأصل ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّه بِهِ ﴾ فى موضع واحد ، هو سورة البقرة . وهى مدنية بلا خلاف .

والآن نستطيع أن نفهم السر فى التقديم والتأخير فى هذه النصوص الحكيمة وخلاصة القول فيه :

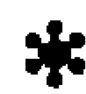
إن ما قُدِّم فيه « لغير اللّه » على « به » خطاب لأهل مكة ، مسارعة إلى نفى الشرك وإبطالاً لاتخاذ الأصنام آلهه تُعبد ، ويُذبح ويُنحر باسمها ، بدليل أن السورتين - الأنعام والنحل - مكيتان . والمائدة - وإن كانت مدنية - فإن الآية الواردة فيها هذه العبارة مكية نزلت فى حجة الوداع .

وكأن القرآن يقول لأهل مكة : لا تظنوا أن الإسلام قد سكت عما أنكر عليكم وقد رحل رسوله ورجاله عن دياركم وغابوا عنكم طيلة عشر سنين . فإن الإسلام باق على دعوته : الحلال حلال ، والحرام حرام ، لأنه مبادئ وأسس ثابتة لا تقبل الإبطال أو التبديل .

أما ما قُدِّم فيه « به » على « لغير اللّه » فهو خطاب لأهل المدينة ، وهم ليسوا عُبَّاد أصنام ولا كافرين حتى يسارع معهم إلى نفى الشرك ، وإبطال الأصنام ، والدليل على تأييد هذه الملاحظة أن الخطاب بدئ بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا .. » فالخطاب إذن مع مؤمنين .

مع أهل مكة يهدف القرآن إلى نفى الشرك أولاً . ثم تحريم ما حَرَّم ثانياً .

ومع أهل المدينة يهدف إلى تحريم ما يُحرِّم أولاً . ثم الثبات على ما هم عليه من الإيمان ثانياً .



● مقامان مختلفان :

مقامان مختلفان . اختلف معهما التعبير اختلافاً روعى فيه دقائق الموقف وخفايا الأحوال .

هذا توجيهى للتقديم والتأخير فى هذه المواضع الأربعة ، وظاهر أن اعتمادى فيه كان بحسب النزول وقرائن الأحوال .

أما الخطيب الإسكافى فقد بحث فيه من جهتين ..

الأولى : لماذا كان التقديم فى البقرة : ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ هو الأصل وأبان أن أصالته من حيث إن الضمير الذى هو الهاء فى « بهِ » مجرور بالباء و « لغير اللّه » معدى باللام . وما جُرَّ بمثل هذه الباء فحقه التقديم على ما عداه . وعبارته فى ذلك : « أما الموضع الأول - يريد البقرة - فإنه جاء على الأصل الذى يقتضيه حكم اللفظ لأن الباء التى يتعدى بها الفعل فى هذا المكان من جملة الباءات التى تجئ كحرف من نفس الفعل . فيجب لذلك أن تكون أحق بالتقديم » (١) .

أما تقديم « لغير اللّه » على « به » فى المواضع الثلاثة المذكورة فقد اكتفى بأنه قُدِّم فيها لأنه الأهم (٢) .

والذى يبدو أن ما اهتديتُ إليه فيه تحليل موضوعى للأسلوب . وكشف للسر على غير الوجه الذى ذكره الإسكافى .



● الموضع السابع « القَوامة والشهادة » :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ ، اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٣٥ (٢) نفس المصدر . (٣) المائدة ٨

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ، إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ ، وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [(١)] .

فى الآية الأولى قدَّم : « قوّامين لله » على : « شهداء بالقسط » ، وفى الثانية قدَّم « قوّامين بالقسط » على : « شهداء لله » .

السورتان فى الأشهر مدنيتان : النساء باتفاق ، والمائدة فيها خلاف ، والذى أجمعوا عليه أن المائدة - أو التوبة - هى آخر ما نزل من القرآن [(٢)] ، والمائدة أرجح فى هذا المجال . وقد نقل صاحب البرهان أن الرسول ﷺ قرأ المائدة فى حجة الوداع ثم قال : « إن آخر القرآن نزولاً المائدة فأحلوا حلالها وحرِّموا حرامها » [(٣)] .

ونقل السيوطى عن أبى عبيد ، عن محمد بن كعب : « قال : نزلت سورة المائدة فى حجة الوداع وفيما بين مكة والمدينة » ونقل أيضاً أقوالاً أخرى تقوى من هذه الوجهة [(٤)] .

ومع هذا فإننا نجد نسبة السورة فى المصاحف إلى المدنى . ولعل هذا أخذ بالرأى القائل أن المدنى هو ما نزل بعد الهجرة وإن نزل بمكة ، وهو أحد أقوال هو أشهرها.

*

• قيمة هذه النقول :

وهذه النقول التى ذكرناها تفيدنا إلى حد بعيد فى توجيه التقديم والتأخير فى هذين الموضعين لأننا نبنى عليها الآتى :

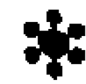
---

(١) النساء : ١٣٥
(٢) البرهان فى علوم القرآن - للزركشى : ١/ ١٩٥
(٣) نفس المصدر .
(٤) الإتقان : ١/ ١٩

١ - أن ما قُدِّم فيه : ﴿ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ . خطاب خالص للمؤمنين لأن القوامة لله عند المؤمنين أمر متحقق ، والمطلوب تحرى العدل فى الشهادة والحكم . وذلك فى سورة النساء .

وقد ذكر الواحدى أن الآية نزلت فى النبى ﷺ وقال : « روى أسباط عن السدى قال : نزلت فى النبى ﷺ » . اختصم إليه غنى وفقير . وكان ضلعه مع الفقير رأى أن الفقير لا يظلم الغنى . فأبى الله تعالى إلا أن يقوم بالقسط فى الغنى والفقير فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾ - حتى بلغ : ﴿ إن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾ [(١)] .

٢ - وأما ما قُدِّم فيه : ﴿ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾ فهو خطاب للمؤمنين والناس عامة . لأن السورة فى كثير من الآراء نزلت بحجه الوداع ، أو هى آخر ما نزل من القرآن ، ولهذا فإن أهل مكة داخلون فى المخاطبين بها ، إذ هى فى مقام الإرشاد العام . لذلك قدِّم فيها : ﴿ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ ﴾ لأن القوامة لله أمر ليس بمتحقق عند جميع المخاطبين . بل متحقق عند بعضهم دون البعض الآخر .



● دلالة النص نفسه :

ولنا من نصوص الآيتين شاهد . فآية المائدة تُشعر بأنها توصى المسلمين عامة بتحرى العدل حتى مع قوم هم عدو لهم : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ ، اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ .

والقوم - هنا - هم المخالفون فى الدين ، وهذا لا يكون إلا حين يختلط المسلمون بهم ، فهم - أى المخالفون - تفترض الآية وجودهم . ولا شك أن أهل مكة مهتمون بما تلاه الرسول ﷺ على الناس فى حجة الوداع ، متناقلون له .

(١) أسباب النزول : الواحدى - ط . البابى الحلبى ص ١٠٦ .

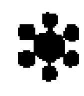
فقُدِّمت القوامه للّه ، لأنها من الأمور الكلية ، والمقاصد العامة فى الدين ، بينما تُشعرنا آية النساء بأن الأمر لا يخرج فيها عن توجيه المسلمين بأن يتحروا العدل فيما يعرض لهم من خصومات بعضهم مع بعض . والقوامة للّه أمر متحقق عندهم ، والجديد المطلوب هو المبالغة فى توخى العدل بين الخصوم : ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ، إن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾ .

كما أن فى فاصلتى الآيتين ما يؤيد ذلك ..

ففى المائدة كانت الفاصلة : ﴿ إنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . وفى النساء كانت الفاصلة : ﴿ إنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ .

حيث قدَّم : « خبير » فى المائدة على : « تعملون » وقدَّم : « تعلمون » على « خبيراً » فى النساء .

لأن الخطاب مع المخالفين ، وفيهم أهل مكة يقتضى إنشاء وإيجاد المأمور به ، لخلو المخاطب منه ، ولو تنزيلاً ، والمؤمنون لا ينكرون علم اللّه بعملهم . بخلاف غيرهم فتقديم : « خبير » فى المائدة على : « تعملون » مع أن المقدَّم متعلق به ، لأنه أهم ، ولعل الفعل : « كان » فى فاصلة السورة : ﴿ إنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ . يشير إلى حصول هذا المعنى عندهم فى الماضى . بينما تخلو فاصلة المائدة من هذه الإشارة !



● رأى الخطيب الإسكافى :

فرَّق الخطيب بين الموضعين بأن ما فى سورة النساء خطاب للناس بالعدل فى الشهادة . أما فى سورة المائدة فالأمر للولاة [1] .. وعلى كل فإن ما ذكره

---

(١) درة التنزيل ، وغرة التأويل ص ١٢

لا يقنع الباحث فى هذا المجال . لذلك أثبتُ ما رأيته تفسيراً أقرب إلى الواقع دون أن أُغيِّر منه شيئاً .

* *

● الموضع الثامن « اطمئنان القلوب » :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] .

﴿ بَلَى ، إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[2] .

فى هاتين السورتين عبارة تكررت فيهما مع اختلاف يسير فى الصياغة فهى فى الأنفال : ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ .

فى الأنفال قدَّم : « به » على : « قلوبكم » ، والأصل تقديم « القلوب » لأنه فاعل . وفى آل عمران جاء الترتيب على الأصل فقدَّم : « قلوبكم » على « به » .

*

● فرقان يوضحان السر :

والسؤال : لماذا قدَّم : « به » فى الأنفال ، وآخَّرَ فى آل عمران ؟ وموضوع الحديث فى الموضعين واحد ؟

والجواب - فيما أرى - إننا نلحظ فى الموضعين فرقين .. أحدهما : مستفاد من النص نفسه . والثانى : خارج عنه ، وكلاهما يقتضيان مجئ النظم فى الموضعين على ما هما عليه .

---

(١) الأنفال : ٩ - ١٠ .　　(٢) آل عمران : ١٢٤ - ١٢٦

فالأمر الذى يُفهم من النص نفسه فى آية الأنفال استغاثة من المؤمنين يوم بدر بربهم . والاستغاثة : طلب الغوث . والمستغيث : متشوِّق لما يُغاث به متطلع إليه فى موطن الخوف وطلب النجدة فجاء قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ المَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ . فقدَّم ضمير الإمداد مع عامله على القلوب لاهتمامهم به ، وشدة حاجتهم إليه ، لأنه موضع رجائهم .

فالمقام هو الذى اقتضى تقديمه ولعل عجز الآية يقوى ذلك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .. عزيز : لا يغلب جنده ، وحكيم : لا يعطى النصر والمدد إلا لمن يستحق ، مؤكداً ذلك بـ « إن » واسمية الجملة .

أما آية آل عمران فقد خلت من هذا الاعتبار ، فأخرج الكلام فيها مخرج الوعد المشروط : ﴿ بَلَى ، إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ المَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ .

ففى الآية حكاية ما حدث يوم « بدر » ، وتذكير لهم بما صنع الله معهم فيها ، واعداً أن يصنعه فى « أُحد » لو صبروا واتقوا .

فلم يصبروا عن الغنائم ، ولم يتقوا حيث خالفوا أمر رسول الله ﷺ . فلذلك لم تنزل الملائكة [1] .

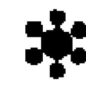
والذى يُفهم من خارج النص : أن « الأنفال » نزلت فى غزوة بدر والدماء لم تجف بعد ، والعهد بها لم يطل فالخطاب فيها مؤسس [2] ، فروعى فيها ما روعى من مقتضيات الأحوال على نحو ما ذكرنا . وآية آل عمران تذكير بما حدث . وحكاية حال مضت إذ هى - أى آل عمران - مدنية متأخرة فى النزول عن وقوع

---

(١) الكشاف - الزمخشرى : ٣١٦/١

(٢) أى الإفادة بمعنى لم يحصل قبل من طريق آخر .

غزوة بدر . وفرق بين ما يُؤسس وما يُحكى . لذلك اقتضى الحال فى آل عمران أن يأتى التعبير فيها على الأصل إذ لا مقتضى للعدول عنه .



● رأى الخطيب الإسكافى :

يتلخص رأى الإسكافى فى عبارته الآتية :

« .. وأما تأخير : « به » بعد قوله : « قلوبكم » فلأنه لما أخَّر الجار والمجرور فى الكلام الأول هو قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُمْ ﴾ . وعطف الكلام الثانى عليه ، وقد وقع فيه جار ومجرور وجب تأخيرها فى اختيار الكلام ليكون الثانى كالأول فى تقديم ما الكلام محتاج إليه وتأخير ما قد يستغنى عنه . وأما تقديم : « به » فى الآية الثانية فلأن الأصل فى كل خبر يصدر بفعل أن يكون الفاعل بعده ثم المفعول والجار والمجرور ، وقد يقدَّم المفعول على الفاعل .. وكذلك الجار والمجرور بمنزلة المفعول فى التقديم والتأخير .. وفى هذا الموضع .. فإن المعتمد تحقيقه عند المخاطبين إنما هو الإمداد بالملائكة ، وهو الذى أخبر اللّه تعالى عنه أنه لم يجعله إلا بُشرى فوجب أن يُقدَّم فى الكلام » [1] .

والذى يُفهم من هذه العبارة أن الخطيب علَّل التأخير فى آل عمران على مناسبة لفظية بحتة ، والواقع أن التأخير فى آل عمران لا يحتاج إلى تعليل لمجيئه على الأصل .

أما فى الموضع الثانى - الأنفال - فقد وفق الخطيب حيث أرجع التقديم إلى ملحظ دقيق هو الحالة النفسية التى كانت تسيطر على فكر المخاطبين فخاطبهم القرآن مراعياً تلك الحالة فقدَّم ما هو أهم عندهم .

وسبق أن ذهبنا هذا المذهب قبل الاطلاع على كتاب الإسكافى المذكور .. وذلك فضل من اللّه وإلهام .



(١) درة التنزيل ، وغرة التأويل ص ٦٢ - ٦٣

● الموضع التاسع « وكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً » :

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ (١) .

﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِالبَاطِلِ وَكَفَرُواْ بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ (٢) .

فى الإسراء قدَّم : « شهيداً » على : « بينى وبينكم » وفى العنكبوت عكس النظم فقدَّم : « بينى وبينكم » على : « شهيداً » فما السر إذن ؟

والجواب : إن المتأمل فى الموضع الأول - الإسراء - يرى القوم قد أوغلوا فى تحديهم للرسول ﷺ . وتفننوا فى مظاهر العناد . فقالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ .. ﴾ (٣) .

*

● التفاوت فى التحدى هو السر :

لقد بلغ التحدى - هنا - غاية بعيدة . انتقلوا فيه من صورة إلى صورة قاصدين من ورائه إعجازه وإفحامه .

أما الموضع الثانى - العنكبوت - فإن القرآن حكى فيه تحدى القوم للنبى ﷺ على وجه الإجمال : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّه ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ

---

(١) الإسراء : ٩٦ (٢) العنكبوت : ٥٢ (٣) الإسراء : ٩٠ - ٩٣

كَفَى باللَّه بَيْنِى وبَيْنَكُم شَهيداً ، يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوات وَالأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالبَاطِلِ وكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ [١] .

والتفنن فى المعارضة ، ولحجج الخصومة فيما حكاه القرآن عن القوم فى الإسراء حال داعية إلى تقديم : « الشهادة » على : « البينة » لأنهم حين لم تثمر فيهم النُذر التى بلغتهم عن ربهم أثاروا فى الداعى شعور الاستياء منهم والأسف عليهم . فكأنه – أى الداعى – كان يردد فى نفسه : ربى .. إن خروج هؤلاء عن الحق . وتماديهم فى الباطل ، ليس عن تقصير منى فقد بلّغتهم ما أمرتنى به . وأنت تعلم أنى قد بلّغت .

ههنا خصومة محتدة ، ولا يفصل فى الخصومات المحتدة أفضل من شهادة حق ، لذلك رجح تقديم : « شهيداً » وهو الأصل . على تأخيره ، وهو جائز . وإنما كان تقديم : « شهيداً » هو الأصل لأنه حال أو تمييز [٢] ، وهو صفة مشبهة باسم الفاعل صالح لأن يتعلق به شئ ، والظرف هنا : « بينى وبينكم » متعلق به فرتبته إذن التأخير حيث لا مقتضى للخروج عن الأصل .

وتأخيره غير مخل بالتعبير لكونه فى الأصل كذلك ولأن الفاصلة : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعَبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ . تشير إلى طرفى موضوع الشهادة . المشهود له ، والمشهود عليه . إذ هى نص صريح فى أن اللّه خبير بصير بالعباد ففيها نوع تخصيص بتعلق العلم والبصر .

وهذا بفيدنا فى توجيه تقديم الظرف : « بينى وبينكم » على : « شهيداً » فى سورة العنكبوت .

ونص الآية مرة أخرى : ﴿ قُلْ كَفَى باللَّه بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهيداً ، يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوات وَالأَرْضِ ..﴾ أى بينى أنا وبينكم أنتم لا بينى وبين أحد غيركم .

---

(١) العنكبوت : ٥٠ – ٥٢ (٢) الكشاف : ٢/٥٤٢

والداعي للتخصيص هنا المستفاد من تقديم الظرف : « بيني وبينكم » على : « شهيداً » وهو العامل فيه أن قوله تعالى بعده : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، يفيد أن تعلق العلم - هنا - عام ، وعلم الله بالعباد أحد أفراده . لذلك رجح - والله أعلم - تقديم الظرف لإفادة التخصيص ، لاحتمال المقام العموم . على خلاف الأول .

وأمر آخر : هو أن تأخير : « شهيداً » ليجاور : « يعلم ما في السموات » من المناسبة في أعلى مكان ، لأن الشهيد عالم لا محالة !!

● ملاحظة : ليس للخطيب الإسكافي توجيه في هذا الموضع لا في الإسراء ، ولا في العنكبوت . فلزمت الإشارة .



● الموضع العاشر « التلاوة وتعليم الكتاب » :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (١) .

﴿ يُسَبِّحُ للَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

في البقرة قدَّم تعليم الكتاب والحكمة ، على التزكية . وفي الجمعة عكس الترتيب فقُدِّمت التزكية على تعليم الكتاب والحكمة !!

فلماذا أوثر في كل موضع ما هو عليه من النظم ؟

---

(١) البقرة : ١٢٩ (٢) الجمعة : ١ - ٢

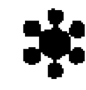
● نظرة فاحصة تكشف السر :

الجواب : إن نظرة فاحصة فى النصين تكشف السر . فتقديم : ﴿ يُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ ﴾ فى البقرة ، وعطفه مباشرة على قوله : ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ لما بين المعنيين من تناسب لدرجة أنهما يبدوان فى قوة المعنى الواحد . إذ من التلاوة يكون حصول تعليم الكتاب والحكمة .

كما أن تأخير : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ فيه تناسب بينه وبين الفاصلة : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ لأن التزكية لا تكون إلا من العزيز الحكيم . إذ هما وصفان موجبان للعظمة والإصابة فى الفعل والقول .

أما تقديم التزكية فى الجمعة فلتقدم : « القدوس » وما عطف عليه إذ بين التزكية والقداسة نسب وصلة .

وتأخير تعليم الكتاب والحكمة لما بينه وبين الفاصلة من تناسب كذلك اقتضاه المعنى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ . فجمع بينهما لكى نظهر نعمة الله عليهم فضلَ ظهور . لأن الضدين إذا اجتمعا وضح الفرق بينهما .



● فهم آخر :

ولنا أن ندير الأمر على اعتبار آخر مؤداه : أن المقام فى سورة البقرة مقام دعاء سلك فيه الداعى الترتيب الطبيعى بين المتعاطفات ، لأن قصده أن تبنى الأمة بحصول وسائل الهداية لها . فالرسول يتلوا آيات ربه على مسامعها فيزيل ما عندها من جهل ، ويعلِّمهم عن طريق التلاوة الكتاب والحكمة ، فإذا حصل لهم ذلك زكت أنفسهم وطهرت قلوبهم حيث هيئت دواعى ذلك لهم فقدَّم ما هو سبب على ما هو مسبب . وأمر ذلك ظاهر .

والمقام فى سورة الجمعة مقام تمجيد لله . وامتنان على عباده بجلائل النِعَم . فقُدِّمت التلاوة لأنها أولى وسائل الهداية . وقُدِّمت « التزكية » على ما بعدها لأنها المقصود الأهم من التربية والإصلاح المنشودين . وأُخِّر تعليم الكتاب والحكمة ليظهر أثر النِعَم واضحاً إذا قُرِنَ بضده ، وهو الضلال المبين الذى كانوا فيه من قبل .

ونظير ذلك : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ (١) . فقرن كل نعمة بما يقابلها مما أزاله الله عنه . ليظهر كمال فضل الله عليه .

● ملاحظة : ليس للخطيب الإسكافى توجيه فى هذا الموضع لا فى البقرة ولا فى الجمعة فلزمت الإشارة .

* *

● الموضع الحادى عشر « لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُواْ » :

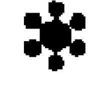
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً ، لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُواْ ، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ، لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَىْءٍ ، ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴾ (٣) .

---

(١) الضحى : ٦ - ٨ (٢) البقرة : ٢٦٤ (٣) إبراهيم : ١٨

في هاتين الآيتين وردت عبارة : ﴿ لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ بتقديم : « شئ » على : « مما كسبوا » فى البقرة . ثم بتقديم : « مما كسبوا » على : « شئ » فى سورة إبراهيم عليه السلام .



● بحث عن السر :

العبارة فى آية البقرة وردت ضمن خطاب للمؤمنين ينهاهم الله أن يكونوا مثل مَنْ يُنفق ماله رئاءً ولا يؤمن بالله واليوم الآخر .

ووردت فى آية إبراهيم عليه السلام فى سياق كلام مبنى من أول الأمر على بيان مصير أعمال الكافرين . وهو شامل لجميع أعمالهم من الطاعات الظاهرة ومنها الإنفاق .

والمثل الأول - فى سورة البقرة - تعليمى إرشادى للمؤمنين . والثانى : إنذارى تقريرى للكافرين . وما سوف تكون عليه أعمالهم يوم القيامة والذى ينفق ماله رئاءً الذى ورد فى آية البقرة هو المنافق [1] المُظْهِر للإيمان المُبْطِن للكفر .

أما المقصود بآية إبراهيم فهم الكافرون المعلنون لكفرهم .

والمنافق حين يُنفق إنما يريد استثمار نفقته لتعود عليه بالنفع . ولما كان يتضاهر بإنفاقها بين الناس . موهماً لهم أنه يبتغى بها وجه الله . ويخفى قصده الحقيقى فإن : « شئ » وهو ما يرجو أن يحصل عليه من « ربح » هو كل أمله الذى يملأ نفسه فقدَّم من أجل ذلك وسُلِّطَ عليه النفى ليكون أبلغ فى قطع آماله . وعقم كسبه .

أما يوم القيامة .. فإن الكافرين تتعلق آمالهم بكسبهم ظانين أنه مُجْدٍ لهم . فكسبهم حينئذ ملء نفوسهم فعمد القرآن من أول الأمر إلى محط رجائهم ونفى قدرتهم عليه : ﴿ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَىْءٍ ﴾ ، وفى ذلك إشارة إلى

---

(١) الكشاف : ٤٢٦/١

عجزهم الشامل فإذا كانوا عاجزين عن كسبهم . فإن عجزهم عما سواه ثابت متحقق .

● ملاحظة : ليس للخطيب الإسكافى توجيه لهذا الموضع - لا فى البقرة ولا فى إبراهيم - لذلك لزم التنويه .

* *

● الموضع الثانى عشر « الكِبَر والعُقْر » :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ، قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (٢) .

فى آل عمران قدَّم بلوغه الكِبَر على عُقْرِ امرأته . وفى مريم عكس الترتيب فقدَّم عُقْر المرأة على بلوغه الكِبَر ..

فما السر إذن ؟

● ملاحظة أمرين :

والجواب : ولا بد - هنا - أن نلحظ أمرين :

أولهما : أن زكريا عليه السلام كان يمنعه من الإنجاب سببان : عُقْر امرأته وتقدم سنِه .

ثانيهما : أن هذين السببين كانا يخطران بباله بدرجات متفاوته أحياناً ... إذا تقرر هذا فإن السبب الذى يمثل فى خاطره أكثر يعمد إلى تقديمه ويؤخِّر ما عداه .

---

(١) آل عمران : ٤٠ .   (٢) مريم : ٨

ففى سورة آل عمران أفاد التعبير نفسه أن الكِبَر هو السبب الأظهر عند زكريا عليه السلام . حيث أسند إليه البلوغ : ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾ فكأن الكِبَر كان يطارده حتى أدركه ..

بخلاف مريم فإن البلوغ فيها مسند إلى ضمير زكريا عليه السلام . لذلك قَدَّم الكِبَر فى آل عمران وأَخَّر عُقْر امرأته .

أما فى مريم فإن تقديم العُقْر على بلوغه الكِبَر .. فلأن العُقْر - على ما شرحناه - كان السبب الأظهر .

*

● وسبب آخر :

أن زكريا عليه السلام قد تقدَّم على قوله هذا فى سورة مريم شكواه إلى ربه من الكِبَر : ﴿ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ (١) ، ومع هذا فقد تلقى البشرى من ربه بأنه وُهِبَ له غلامٌ .. فكأن الله ألهمه ، أو هو فهم من البشرى أن ما شكاه من الكِبر ليس بسبب مانع من الإنجاب .. إذن فالعُقْر ما زال باقياً فى خاطر إبراهيم فقدَّمه على الكِبَر . ثم عطف بلوغه عنه عتياً عليه لأنه لم يشك - قبل - العُقْر . فكان عنده السبب الأظهر .

فالتقديم هنا والتأخير هناك . والتأخير هناك والتقديم هنا . إنما هو بحسب ما هو أظهر . ولم يتحدث الخطيب الإسكافى عن هذا الموضع كذلك .

وكذلك يلاحظ الباحث أن عُقْر امرأة زكريا عليه السلام حين أُخِّر فى كلام آل عمران كانت العبارة الدالة عليه : « وامرأتى عاقر » مبتدأ وخبر مجردان .

ولكن حين قُدِّم فى مريم كانت العبارة الدالة عليه : ﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِراً ﴾ بزيادة « كان » إذا قورنت بموضعها فى آل عمران ، و « كان » تفيد ثبوت النسبة فى الماضى مع الاستمرار هنا .

* *

---

(١) مريم : ٤

● الموضع الثالث عشر « وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فيه » :

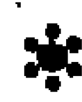
﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى البَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ، وَتَرَى الفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) .

هذان موضعان متماثلان - كما ترى - فى المعنى . وقد تكررت فيهما عبارة : ﴿ وَتَرَى الفُلْكَ مَوَاخِرَ فيه ﴾ بتقديم « مواخر » وهى حال من « الفُلْك » إن كانت الرؤية بصرية ، ومفعولَ ثان لـ « ترى » إن كانت علمية . ثم أُخِّر الظرف : « فيه » عن « مواخر » . وهذا الترتيب أصلى .

هذا فى النحل .. أما فى فاطر فقد عكس الوضع . فقدِّم الظرف « فيه » على : « مواخر » على خلاف الأصل . إذ الظرف من حقه التأخير على ما تقدَّم فما السر إذن ؟

تقدَّم أن تقديم : « مواخر » فى النحل على : « فيه » هو الأصل ولا مقتضى للعدول عنه .



● سرد محكم :

أما تقديم الظرف : « فيه » على : « مواخر » فى فاطر . فسببه فيما أرى هو تعلق « لتبتغوا من فضله » به .

والتقدير : وترى الفُلْكَ فيه تمخر الماء - أى تشقه - لتبتغوا من فضله . لذلك أخر : « مواخر » ليجاور معموله : « لتبتغوا » والأصل عدم الفصل .

---

(١) النحل : ١٤ (٢) فاطر : ١٢

ودليلى على ذلك من القرآن نفسه أن الواو حُذِفت فى هذا الموضع . بينما لم تُحذف فى الموضع الأول .

والسبب : أن الآية الأولى تبدأ بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ ﴾ وما عطف عليه من استخراج الحلية . وجرى السفن . وابتغاء الفضل .

أما الآية الأولى فليس فيها ما يصلح لعطف الابتغاء عليه . فهو إذن متعلق بـ « مواخر » والمعنى - كما بيَّنا - لا يأباه . والله أعلم .

*

● رأى الخطيب الإسكافى :

أطال الإسكافى فى توجيه هذا الموضع واهتم فى حديثه بتقديم : « فيه » فى فاطر وحذف الواو منها .

ويكاد يتفق رأيه مع ما ذكرناه .. إلا أنه زاد أن من جملة ما اقتضى تقديم « فيه » أن حروف الجر فى هذا الموضع جاءت مقدمة فى أكثر من موضع : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ .

والإسكافى موفق فى هذا التوجيه الذى اتفقنا معه فى جوهره وزاد هو المناسبة اللفظية من تقديم نظير ما قدم (١) .

* *

● الموضع الرابع عشر « وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ » :

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ (٢) .

---

(١) درة التأويل ص . ٢١ - ٢١٣
(٢) الإسراء : ٨٨

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فى هَذَا القُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وكَانَ الإنسَانُ أكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً ﴾ (١) .

فى الإسراء قدَّم : « للناس » على : « فى هذا القرآن » وفى الكهف قدَّم : « فى هذا القرآن » على : « للناس » والموضعان متحدا المعنى .

*

● سؤال وجواب :

فما السر إذن ؟ ..

والجواب : المقام فى الإسراء مقام تحد وإعجاز . تحد للناس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن مشروطاً مظاهرة بعضهم لبعض . فما بالهم لو انفردوا .. وهذا التحدى قد بلغ النهاية باشتراط اجتماعهم .

فالمتحدَى - هنا - نوعان : الإنس والجن . والمقصود بالتحدى بالدرجة الأولى هم الإنس أو الناس . لأنهم هم الذين زعموا أن مقدروهم أن يأتوا بمثل القرآن فكان تقديمهم فيه شبه تعريض بهم . حاصله - واللّه أعلم - أن ما زعموا محاكاته - أى القرآن - قد صرفنا فيه من كل مثل . و « صرَّفنا » : أى رددنا وكررنا غرائب الأمثال لهم ليهتدوا فأبوا إلا الإعراض والبطر بدل أن يشكروا هذه النِعَم الموجبة للشكر والداعية إلى الهداية وكيف لهم أن يحاكوه وما هم منه على صدر ، أو ورد .

أما فى سورة الكهف . فقدَّم : « فى هذا القرآن » لأن السورة من أول الأمر أشارت إلى فضل القرآن وأثنت عليه : ﴿ الحَمْدُ للّه الَّذِى أنزلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً * قَيِّماً ... ﴾ (٢) .

ولأن سياق الحديث وارد فى أهوال القيامة : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَائِى الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقاً * وَرَءَا

---

(١) الكهف : ٥٤ (٢) الكهف : ١

الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّواْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفاً * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً .. ﴾ (١) .

والقرآن آخر الكتب نزولاً فكأنه يقول لهم : إن هذا القرآن كان فيه نفعكم . لأنه الحق فجادلتم فيه ولم تؤمنوا به .

ولأن السورة نفسها - الكهف - قد سردت قصة أهل الكهف وقصة الرجلين وضربت مثلاً للحياة الدنيا ، ثم أشارت إلى آدم والملائكة وإباء إبليس السجود لآدم . وذكرت - تفصيلاً - قصة الإسكندر ذى القرنين ويأجوج ومأجوج فهى - إذن - سجل حافل بالمثل والقصة .

لهذه الاعتبارات كلها أرى السر فى تقديم : « فى هذا القرآن » على : « للناس » والله أعلم .

*

● رأى الخطيب الإسكافى :

يكاد ما ذكرته هنا - قبل اطلاعى على رأى الإسكافى كما مرَّ - يتفق مع ما ذكره الخطيب الإسكافى وإن زدتُ عليه فى موضعين :

أولاً : اعتبارى فى تقديم : « للناس » كونهم معرَّضاً بهم إذ هم المقصود بالتحدى أولاً .

ثانياً : ما قُدِّم فيه : « فى هذا القرآن » وارد فى سياق حديث عن أهوال يوم القيامة .

كما زاد هو بعض تفاصيل أسلوبية وتحدث عن آية أخرى وهى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ﴾ (٢) .

* *

---

(١) الكهف : ٥٢ - ٥٤

(٢) الإسراء : ٤١

● الموضع الخامس عشر « رزق الآباء والأبناء » :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾ (٢) ، (٣) .

فى الأنعام قدَّم رزق المخاطَبين على رزق أولادهم المدلول عليه بعطف ضميرهم عليه ، وفى الإسراء قدَّم رزق الأولاد على رزق المخاطَبين . فما السر إذن والمعنى فى الموضعين واحد ؟

الجواب : إن الخطاب فى الأنعام مع قوم فقراء يهمهم رزقهم أولاً ، ثم رزق أولادهم ثانياً فقدَّم رزقهم لأنه عندهم أهم .

وفى الإسراء الخطاب مع غير فقراء لكنهم يخشون وقوع الفقر فى المستقبل فتجوع أولادهم . فرزق أولادهم - لأنه مظنة القلة المتوقعة - أهم عندهم من رزقهم لأنهم حاصلون عليه ، فقدَّم رزق أولادهم على رزقهم لأنه أهم كما بيَّنا .

والدليل أن التعبير فى الأولى هكذا : « من إملاق » أى فقر واقع فعلاً . وفى الثانية : « خشية إملاق » أى فقر متوقع .

هذه لمحات دالة فى الأسلوب تغنى عن كل تخريج . وهكذا تنص كتب التفسير وكتب البلاغة فليس لنا فى هذا الموضع سوى أمانة النقل .

أما رأى الخطيب الإسكافى فمثل ما قرره المفسرون (٤) .

* *

(١) الأنعام : ١٥١

(٢) الإسراء : ٣١

(٣) درة التنزيل ص ١١٢ - ١١٧

(٤) المرجع السابق ص ١١٦ - ١١٧

● الموضع السادس عشر « لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ » :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ (١) .

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ (٢) .

فى الآية الأولى قدَّم اسم الإشارة : « هذا » مراداً به البعث . على : « نحن وآباؤنا » .

وفى الآية الثانية قدَّم : « نحن وآباؤنا » على : « هذا » والمعنى فى الموضعين متحد .. فما السر إذن ؟.

*

● رأى الزمخشرى :

أجاب الزمخشرى فقال : « فإن قلتَ : قدَّم فى هذه الآية : « هذا » على : « نحن وآباؤنا » وفى آية أخرى قدَّم : « نحن وآباؤنا » على : « هذا » ؟

قلتُ : « إن المقدَّم هو الغرض المعتمد بالذِكر . وإن الكلام إنما سيق من أجله .

ففى إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذى تعمد بالكلام ، وفى الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد » (٣) .

هذا ما ذكره الزمخشرى .. وهو توجيه عام قد لا يكتفى به باحث يتطلب سراً أدق وتوجيهاً أعمق . إذ عليه يرد سؤال ؟ : لماذا كان الأصل فى إحدى الآيتين « اتخاذ البعث » ، وفى الأخرى على « اتخاذ المبعوث » وهل هناك مانع أو عكس النظم » ؟

*

(١) النمل : ٦٧ - ٦٨ (٢) المؤمنون : ٨٣ (٣) الكشاف : ٢٩٩/٣

● رأيى فى الموضوع :

والذى أراه – بعد طول تأمل – أن الأمر ينكشف إذا وقفنا على حال منكرى البعث النفسية لحظة نطقهم بكل من العبارتين . كما حكاهما عنهم القرآن . والمرجع فى ذلك إلى القرآن نفسه .

فقد ذكر القرآن قبل الآية الأولى – أعنى آية النمل – قوله تعالى : ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ فصيرورتهم تراباً أبعدت عندهم احتمال وقوع البعث . إذ أصبحوا فى طور مغاير لما كانوا عليه فى الحياة . كذلك فإنهم هنا طووا ذكر الموت الذى يُشعر بسبق الحياة . واكتفوا بقولهم : « كنا تراباً » فكان – على زعمهم – حرياً بالإنكار والاستغراب . لذلك قُدِّم اسم الإشارة الدالة عليه لكونه محل إنكارهم القوى فصار عندهم أسرع حضوراً فى الذهن . فهو من هنا كان أهم بالإنكار فقُدِّم .

أما فى آية « المؤمنون » .. فقد ذكر القرآن الحكيم قبل مقولتهم قوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ * قَالُواْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَءِنَا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ (١) .

فقد أقروا – هنا – بالموت . فهم إذن قد سبقت لهم حياة . ثم ذكروا صيرورتهم تراباً وعظاماً . والعظام أثر باق من آثار الحياة التى كانوا يحيونها . فهم لم يتحولوا إلى طور مغاير تماماً لما كانوا عليه فى الحياة . لذكر العظام . وهذا أضعف من درجة الإنكار عندهم لوجود العظام ولتقدم ذكر الموت المنبئ بتقدم الحياة . وهذا الضعف فى درجة الإنكار كان سبباً – والله أعلم – فى تقديم : « نحن وآباؤنا » وتأخير هذا لأنه موضع الاستغراب والإنكار .

*

---

(١) المؤمنون : ٨١ – ٨٣

● رأى الخطيب الإسكافى :

يرى الإسكافى أن أمر التقديم فى الموضعين راجع إلى المناسبات اللفظية ، فالآية الأولى أُسندت فيها الأفعال إلى فاعليها بدون فصل ، فلما قال : « لقد وعدنا » وجب فى البناء على الأفعال المتقدمة أن يتم حكم الفاعل وهو توكيده والعطف عليه فقدّم : « نحن وآباؤنا » على المفعول الثانى وهو : « هذا » لذلك . وأما الآية الثانية .... فإن الذى تقدمها : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا ﴾ فأخّر المعطوف على « اسم كان » الذى هو كالفاعل لها وهو قوله : « وآباؤنا » عن المنصوب الذى هو كالمفعول لها . وهو قوله : « تراباً » فصار الأصل ما هو كالمفعول مقدّماً على ما هو معطوف على الفاعل . فاقتضى البناء عليه تقديم المفعول ثم العطف على الفاعل المضمر . فجاء : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ لذلك (١) .

والفرق بين توجيهه - هو - وما ذهبتُ إليه أنه يُرجِع التقديم والتأخير إلى المقتضيات اللفظية . ونحن التمسنا مقتضيات نفسية ، اعتمدنا فيها على ما بين الموضعين من فروق لفظية غير ما اعتبره هو . ولا مانع - عندى - أن يُحمل الأمر على كلا الاعتبارين .



● الموضع السابع عشر « وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى » :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٢) .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣) .

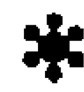
---

(١) درة التنزيل ص ٢٥٩ - ٢٦٠ . (٢) القصص : ٢٠ . (٣) يس : ٢٠ .

فى القصص فى الآية الأولى . جاء ترتيب النظم على وضعه الأصلى فولى الفعل فاعله : « رجل » .

وفى الآية الثانية فى سورة يس ، خولف النظم فجاء الجار والمجرور : « من أقصا المدينة » والياً الفعل . فاصلاً بينه وبين فاعله . على خلاف الأصل . مع ملاحظة أن التشابه بين الموضعين لفظى فقط . لأن ما فى سورة القصص : الرجل هو مؤمن آل فرعون والمدينة هى مصر . أما فى سورة يس .. فإن الرجل هو حبيب بن إسرائيل النجار والمدينة هى أنطاكية (١) .

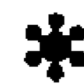
وهذا الاختلاف لا يمنع من البحث عن سر التقديم والتأخير فيهما حيث تشابه الموضعان لفظاً . فما السر إذن ؟



• رأى السكاكى :

والجواب : يرى السكاكى أن تقديم الجار والمجرور فى آية يس .. لأن ما قبل هذه الآية دال على سوء معاملة أهل المدينة للرسل . فكان ذلك مظنة أن يسأل سائل : أكانت هذه المدينة كلها بهذه الصفة أم أن فيها موطناً هو منبت خير؟ ، لذلك قدَّم ما يشتمل على المدينة لأنها أهم عند المخاطب (٢) .

وهذا توجيه حسن نسجل إعجابنا به للسكاكى رحمه الله . أما تقديم : « رجل » على الجار والمجرور فى آية القصص . فقد جاء على الأصل حيث لا مقتضى للعدول عنه .



---

(١) انظر الكشاف : ٤/٧٥٦

(٢) المفتاح ص ١٠٤

● رأى الخطيب الإسكافى :

ويرى الإسكافى أن تقديم الجار والمجرور فى « يس » لأن فيه تبكيتاً للقوم إذ جاء « الناصح » من أقصا مكان فيها وهو لم يحضر ما يحضرون . ولم يشهد ما يشهدون من الآيات والنُذُر .

أما تقديم « رجل » فى القصص فلأنه الأصل ولم يكن ما يدعو إلى التبكيت ، وهذا كلام رائع جداً . ولا مانع من حمل الأسلوب فى الموضعين على ما ذكره السكاكى والإسكافى [١] .



● الموضع الثامن عشر « الأكل الرغد » :

﴿ وكُلاَ منْهَا رَغَداً حَيْثُ شئْتُمَا ﴾ [٢] هذا الخطاب من الله لآدم وحواء مؤذن لهما بدخول الجنه والأكل منها فقدَّم : « رغداً » على : « حيث شئتما » ثم قدَّم : « حيث شئتم » على : « رغداً » فى خطابه – سبحانه – لبنى إسرائيل عند دخولهم قرية أريحاء ، وكلا التعبيرين فى سورة البقرة . الأول فى الآية : (٣٥) ، والثانى فى الآية : (٥٨) – فما السر إذن ؟

الجواب : إن تقديم : « رغداً » على : « حيث شئتما » فى خطاب الله لآدم وحواء لأن طعامهما كان أهم عندهما ، أما المكان المدلول عليه بـ « حيث شئتما » فما كان يعنيهما فى شئ لأنهما اثنان والجنة فسيحة لا تضيق بهما .

وتقديم : « حيث شئتم » فى خطاب بنى إسرائيل لأنه أهم عندهم . إذ كانوا جمعاً من الناس . والمدخول فيه « قرية » فقد يظنون أنها تضيق بهم إذا سعوا فيها ابتغاء الرزق والسكنى . فقدَّم ما هو عندهم أهم . والله أعلم .

---

(١) درة التنزيل : ٣/٧ (٢) البقرة : ٣٥

● ملاحظة : لم يتحدث الخطيب الإسكافى عن هاتين الآيتين من حيث ما فيهما من التقديم والتأخير الذى وجهناه . بل تحدث عن إحداهما من وجه آخر .

* *

● الموضع التاسع عشر « الشفاعة والعدل » :

﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (٢) .

هاتان الآيتان بينهما فروق من وجوه :

١ - فى الأولى قُدِّمت الشفاعة على العدل وجُعِلت الشفاعة نائب فاعل لفعل منفى هو : « لا يقبل » ، أما العدل فجُعِل نائب فاعل لفعل منفى هو : « يؤخذ » .

٢ - وفى الثانية قُدِّم العدل على الشفاعة وجُعِل نائب فاعل لفعل منفى هو : « لا يقبل » وهو نفس الفعل الذى أسندت إلى الشفاعة بنفس الطريقة فى الآية الأولى .

٣ - أما الشفاعة فقد أُخِّرت فيها مع التغاير فى الفعل الذى أُسنِد إلى العدل حين أُخِّر فى الآية الأولى . وكان حقه أن يُسند إليها لتتم المقابلة من كل الوجوه . وهى فى التركيب الجديد : « ولا تنفعها شفاعة » فما السر إذن فى هذا الاختلاف بين الموضعين ؟

*

---

(١) البقرة : ٤٨

(٢) البقرة : ١٢٣

● توجيه الزركشي لهاتين الآيتين :

نقل الزركشي سؤالين حول هاتين الآيتين [1] :

الأول : لماذا قدَّم في الأول نفي قبول الشفاعة على نفي أخذ العدل ؟

الثاني : ولماذا عبَّر في الثانية بنفي قبول العدل ونفي نفع الشفاعة مكان عدم أخذ العدل ، ونفي قبول الشفاعة حيث قدَّم المؤخر وأخَّر المقدَّم في الأولى ؟

نقل هذين السؤالين - ولم يرتض أن يكون هذا التصرف في التعبير من باب التوسع في الكلام . وذكر في توجيه ذلك نقولاً وآراء نوجزها فيما يأتي :

أدار الأمر على النفس مكررة في كل موضع مرتين ، والنفس الأولى غير الثانية ، وكل منهما صالح لأن يرجع الضمير عليه في : « منها » و : « تنفعها » .

وجعل الضمير في : « لا يُقبل منها شفاعة » راجعاً إلى النفس الأولى التي هي الشافعة لغيرها . والغرض من هذا ذِكر الشفاعة للمشفوع له . لذلك قدَّمها وأخبر أنها غير مقبولة وهذا من شأنه حمل السامع على ترك الشفاعة لعلمه بعدم قبولها .

أما : « ولا يؤخذ عنها عدل » فالضمير - عنده - يحتمل العود على كل من النفسين ، فإذا قُدِّر عوده على الأولى « الشافعة » فقد جرت العادة أن الشافع إذا أراد أن يدفع إلى المشفوع عنده شيئاً ليكون مؤكداً لقبول شفاعته . فمن أجل هذا قُدِّم ذكر الشفاعة على دفع العدل » [2] .

وهذا كلام غير واضح - كما يبدو - ولعله أراد أن الشافع يتقدم بعرض شفاعته عند المشفوع عنده أولاً . ثم يعطيه ما يريد أن يؤكد به قبول شفاعته . ويكون التقديم على هذا جارياً على الأصل .

---

(١) البرهان : ١٢٤/١ (٢) نفس المصدر : ١٢٥/١

ثم قال : « وإن جعلنا الضمير راجعاً إلى المشفوع فيه . فهو أحرى بالتأخير ليكون الشافع قد أخبره بأن شفاعته قد قُبلت . فتقديم العدل ليكون ذلك مؤسساً لحصول مقصود الشفاعة وهو ثمرتها للمشفوع فيه » (١) .

وكلامه - هنا - يُفهم منه أن يجوز حصول الأمرين : قبول الشفاعة ودفع العدل ، وليس الأمر كذلك .. لأن المراد من الآية - والله أعلم - أن عدم قبول الشفاعة باعث على تحريك النفس على دفع العدل لتكون الشفاعة مقابل عوض . يعنى أنه يفكر فى تقديم العدل بعد فشل الشفاعة من الشافع .

هذا فى الآية الأولى ...

أما الآية الثانية .. فقد جعل الضمير فى : « منها عدل » راجعاً إلى النفس الثانية التى هى صاحبة الجريمة . وتقديم العدل - هنا - للحاجة إلى الشفاعة عند مَن طلب منه ذلك قال : « .. ولهذا قال فى الأولى : « ولا يُقبل منها شفاعة » ، وفى الثانية : « ولا تنفعها شفاعة » لأن الشفاعة إنما تُقبل من الشافع وإنما تنفع المشفوع له » (٢) .

ثم حكى عن بعض مشايخه - لم يذكر اسمه - إن الله نفى قبول الشفاعة لا نفعها . ونفى أصل العدل الذى هو الفداء ، وبدأ بالشفاعة فى الأولى لتيسيرها على الطالب أكثر من تحصيل العدل على ما هو معروف فى دار الدنيا .

أما فى الثانية .. فإنه لما تقرر زيادة التأكيد بدأ بما هو أعظم الذى هو الخلاص بالعدل وثنَّى بنفى الشفاعة فقال : « ولا تنفعها شفاعة » ولم يقل : لا تُقبل منها شفاعة ، وإن كان نفى الشفاعة يستلزم نفى قبولها . لأن الشفاعة تكون نافعة غير مقبولة فنفى الشفاعة أعم . فلم يكن بين نفى القبول ونفى النفع بالشفاعة تلازم .

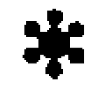
---

(١) البرهان : ١/١٢٥

(٢) نفس المصدر : ١/١٢٦

فنفى قبول العدل ونفى نفع الشفاعة مؤكدان لاستقرار ذلك فى الآية . ونقل عن صاحب المفردات رأياً خلاصته : « وأما تغيير النظم فلما كان قبول العدل وأخذه . وقبولها الشفاعة ونفعها متلازمة لم يكن بين إتفاق هذه العبارات واختلافها فرق فى المعنى » (١) .

ولكن الزركشى لم يرتض هذا الرأى ورده رداً موفقاً (٢) ، ونقل عن الإمام فخر الدين الرازى : إن الناس متفاوتون ، فمنهم مَن يختار أن يشفع فيه أولاً . ومنهم مَن يختار بذل العدل . فذكر الله لكل طائفة ما يلائمها فى الموضعين . وبهذا ينتهى حديث الزركشى عن هاتين الآيتين .



• جولة مع المفسرين :

وقد رجعتُ إلى تفسير الزمخشرى فوجدته يُرجع الضمير فى الموضعين للنفس الثانية العاصية ويجوز عوده على الأولى .

أى لا تُقبل شفاعتها فى غيرها . ولا يؤخذ منها عدل إذا أرادت أن تبذله لخلاص غيرها (٣) .

والإمام النسفى يرجع الضمير فى : « ولا يقبل منها شفاعة » و : « ولا يؤخذ منها عدل .. » للنفس الأولى – المؤمنة – إذا شفعت فى الكافرة (٤) .

أما أبو السعود فيُجَوِّز عود الضمير على أى منهما (٥) . ولم يتعرض منهم أحد للتقديم والتأخير فى هذه المواضع . وشغلهم عنهما مرجع الضمير وتقرير المعنى .

---

(١) المفردات .
(٢) البرهان : ١٢٦/١
(٣) الكشاف : ١٠٢/١
(٤) نفس المصدر : ١٠٢/١
(٥) تفسير النسفى : ٣٧/١ ، تفسير أبى السعود : ١٢١/١

أما الخطيب الإسكافي فقد اقتضب القول اقتضاباً وجاء تخريجه للمسألة توجيهاً عاماً لم يتعرض فيه للتقديم في موضع - والتأخير في آخر [1] .

تلك خلاصة سريعة لما ذكره صاحب البرهان من نقول ، وما يراه هو شخصياً في توجيه التقديم والتأخير في هذا الموضع .

وخلاصة سريعة - أيضاً - لما ذكره ثلاثة من المفسرين وإشارة إلى رأى الخطيب الإسكافي . فهل بقي - بعد - احتمال آخر يتفق مع طبيعة الأسلوب ؟

*

• رأيي في المسألة :

والذي أرجحه في مسألة إرجاع الضمائر هو أن يكون الضميران في الآية الأولى راجعين إلى النفس الأولى . لأنها المتحدث عنها . ولأن الضمير في : « ولا يقبل منها شفاعة » لا يصح رجوعه إلا إليها . لأنه لو أراد النفس الثانية « العاصية » لقال : « ولا يقبل فيها شفاعة » وهذا يرجح عود الضمير في : « ولا يؤخذ منها عدل » إليها هي أيضاً . ويكون المعنى - والله أعلم - : إن النفس المؤمنة لا تجزى عن سواها شيئاً ، وإذا شفعت في غيرها فشفاعتها مردودة ، وإذا استبدلت بالشفاعة المردودة العدل فإنه كذلك لا يؤخذ منها .

ويكون ذلك كله تأكيداً لانفصام الروابط التي كانت بين الناس في الحياة الدنيا من والدية ومولودية وأخوة وصداقة وزوجية : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾ [2] .

وعود الضميرين في هذه الآية على النفس الأولى أولى - عندي - حتى تكون الأفعال المنفية في المواضع التي هي : « لا تجزى » و « لا يُقبل » و : « ولا يؤخذ » حديثاً عن النفس الأولى في سلسلة واحدة تخصها .

---

(1) درة التنزيل ص ٦ - ٧

(2) النجم : ٣٩

أما في الآية الثانية .. فإن الضميرين لا يحسن عودهما إلا على النفس الثانية العاصية .

ويكون المعنى : أن النفس العاصية يوم القيامة لا يجزى عنها أحد شيئاً مهما كانت الروابط ، وإذا أراد أن يفدى نفسه فلا يُقبل منه فدى ، وإذا تشفع بغيره فلا تنفعه شفاعة .

أما تقديم الشفاعة أولاً وتأخيرها ثانياً ، وتأخير العدل أولاً وتقديمه ثانياً ، فإنى أتفق مع ما ذكره الزركشي عن أحد شيوخه في توجيهه لهذا التقديم والتأخير ، إذ المراد به قطع رجائهم رداً لما ذكره بنو إسرائيل من أنهم أبناء الأنبياء وسيشفعون لهم يوم القيامة .

ففى الآية الأولى نفى عنهم نفع الغير بكل وجه من وجوه النفع ، وفى الثانية نفى عنهم نفع أنفسهم مقدِّماً الفداء الذى يدفعه المجرم عن نفسه فى الغالب . وأخَّر الشفاعة لأنها تكون من غيرهم . والله أعلم .



● الموضع العشرون « اللّعب واللّهو » :

فى هذا الموضع تدور المقارنة حول تقديم اللّعب على اللّهو ، ثم تقديم اللّهو على اللّعب . فى مواضع أخرى .

أما تقديم اللّعب على اللّهو ففى المواضع الأربعة الآتية :

١ ، ٢ - الأنعام فى آيتين : ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ (٢) .

---

(١) الأنعام : ٣٢ (٢) الأنعام : ٧٠ .

٣ - محمد فى آية واحدة : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ (١) .

٤ - الحديد فى آية واحدة : ﴿ اعْلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ، وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (٢) .

وقدَّم اللَّهو على اللَّعب فيما يأتى :

١ - الأعراف : ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (٣) .

٢ - العنكبوت : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ، وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

ذكر الزركشى فى البرهان (٥) هذه المواضع وعلَّل تقديم اللَّعب على اللَّهو بأن اللَّعب يكون زمن الصبا . واللَّهو يكون زمن الشباب ، وزمان الصبا متقدم على زمان اللَّهو .

أما تقديم اللَّهو فى « الأعراف » فلأن ذلك يكون يوم القيامة فذكر على ترتيب ما انقضى وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالين .

وأما فى « العنكبوت » فلأن زمان الشباب الذى يكون فيه اللَّهو أكثر من زمان الصبا الذى يكون فيه اللَّعب . وإنما ذكر ذلك هنا لأن المراد زمان الدنيا . وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء .

---

(١) محمد : ٣٦ (٢) الحديد : ٢٠ (٣) الأعراف : ٥١

(٤) العنكبوت : ٦٤ (٥) البرهان : ١٢١/١

هذه خلاصة سريعة لما ذكره الزركشي في توجيه هذه المواضع . لكن الباحث لا يقنع بما ذكره جملة وإن كان بعضه مقبولاً .

ويحسن هنا التفرقة بين اللّعب واللّهو ..

*

● مفهوم اللّعب واللّهو :

« لعب : أصل الكلمة « اللُّعاب » وهو البزاق السائل .. ويلعب فلان : إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً .. » (١) .

« اللّهو : ما يُشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه . يقال : لهوتُ بكذا .. ولهيتُ عن كذا : اشتغلت عنه بلهو ... » (٢) .

هذا ما ذكره الراغب في تحديد معنى اللّعب ومعنى اللّهو . والمتأمل فيهما يجد أنهما غير مترادفين . بل لكل منهما معنى . فاللّعب لا يكون إلا فعلاً لم يتحدد من ورائه قصد مفيد . أما اللّهو فقد يكون فعلاً من أفعال النفس غير مصحوب بحركة ويكون حينئذ أقرب إلى معنى الذهول .

قال الزمخشري : « يقال لمن كان في عمل لا يجدى عليه : إنما أنت لاعب » (٣) .

وقال في موضع آخر : « يشتغلون بما لا يجدى عليهم كأنهم يلعبون » (٤) .

وقال أبو السعود : « اللّعب عمل يثقل النفس ويفترها عما تنتفع به . واللّهو صرفها عن الجد » (٥) . فالفرق - إذن - أن كل لعب يمكن أن يكون لهواً . وقد ينفرد في الذهول النفسي ولو لم يُصحب بعمل .

---

(١) المفردات ص . ٤٥
(٢) نفس المصدر ص ٤٥٥
(٣) الكشاف : ١/٣٥
(٤) نفس المصدر : ٢/١٠٥
(٥) تفسير أبي السعود : ٢/١٤١

ويؤيد تفسير اللّهو بهذا المعنى أن القرآن أسنده إلى القلب فى قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ ، وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

وإسناد اللّهو إلى القلوب دليل على أن اللّهو عمل من أعمال النفس . وليس بلازم أن يُصحب بحركات . وإلا لكان لعباً فيما يبدو .

*

● اللّعب فى القرآن :

وإذا رجعنا إلى القرآن نفسه فى استخدام هاتين المادتين وجدناه كثيراً ما يُطلق اللّعب على سلوك المخالفين للرسل من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ (٨) .

---

(١) الأنبياء : ٢ - ٣ (٢) التوبة : ٦٥

(٣) الزخرف : ٨٣ ، ومثلها فى المعارج : ٤٢

(٤) الأنعام : ٩١ (٥) الأعراف : ٩٨ (٦) الدخان : ٩

(٧) الطور : ١١ - ١٢ (٨) العنكبوت : ٦٤

وقال : ﴿ إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ اعْلَمُواْ أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُم لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ (٥) .

*

● اللعب والخوض :

فى هذه النصوص الكريمة جاء اللَّعب مع الخوض فى خمس آيات . اثنتان منها بلفظ الاسم وثلاثة بلفظ الفعل .

وفى الآيات الخمس جاء الخوض مقدَّماً على اللعب . وقد نص المفسرون على أن المراد بالخوض هو الباطل (٦) . وأنا معهم . واضيف أن إطلاق الخوض على الباطل مجاز فى التعبير لأن الخوض إنما يكون فى الماء . يقال : خاض الماء خوضاً ومخاضة (٧) .

قال الراغب : « الخوض هو الشروع فى الماء والمرور فيه . ويُستعار فى الأمور وأكثر ما ورد فى القرآن ورد فيما يُذَم الشروع فيه » (٨) .

* *

● التوجيه البلاغى للنص :

والمجاز فيه يصلح أن يكون استعارة بالكناية حيث يُشبَّه بالباطل بالماء ثم يحذف ويرمز له بشئ من لوازمه وهو الخوض . والجامع بين المستعار منه

---

(١) محمد : ٣٦ — (٢) الحديد : ٢٠ — (٣) المائدة : ٥٧

(٤) المائدة : ٥٨ — (٥) الأنعام : ٧٠ — (٦) الكشاف : ١٩٣/٤

(٧) مختار الصحاح ص ١٩٣ — (٨) المفردات ص ١٩

والمستعار هو أن كلا منهما مهلك . الباطل يحق بفاعله العقاب . والماء يغرق مَن يخوض فيه .

أو يكون استعارة تبعية تصريحية يُشبَّه فيها اقتراف الباطل بخوض الماء والجامع ما مَرَّ . والاستعارة على هذا استعارة مفردة . ويجوز حملها على التمثيل . وهما أولى من الأول .

ولما كان الخوض بهذا المعنى قُدِّم على اللّعب . وجُعِل محتوياً عليه : ﴿ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (١) ، وكذلك فى إطلاق اللّعب على أعمالهم وسلوكهم مجاز فى التعبير على طريق الاستعارة التصريحية التبعية وفيه تعريض بهم لأن اللّعب لا يكون إلا للصبيان غير الراشدين وفيه رمز إلى حقارة أعمالهم حيث لم يترتب عليها نفع كاللّعب .

ولهذا قدَّم اللّعب - والله أعلم - على اللّهو فى المواضع الأربعة المذكورة . كما قدَّم الهزو على اللّعب لأن الهزو - وهو الاستهزاء والسخرية - أشد شناعة من اللّعب .

* *

● لماذا قدَّم « اللّهو على اللّعب » إذن ؟

أما الموضعان اللذان قَدَّم فيهما اللّهو على اللّعب - وذلك جار على خلاف الغالب فيه - فلأن المقام يقتضى ذلك .

● والبيان :

إنَّ اللّهو - على ما سبق - من شأنه أن يُنسى اللاهى ويُشغله عما ينفعه . ولما كان معناه - كذلك - مدح الله الطائعين من عباده نافياً عنهم اللّهو فقال : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٢) .. أى لا تشغلهم .

---

(١) الأنعام : ٩١ (٢) النور : ٣٦ - ٣٧

وقد نسب اللّه النسيان إلى الكافرين فى سورة الأعراف فى الآية التى قدّم فيها اللّهو على اللعب . فقال : ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَاليَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ (١) .

فهم هنا : ناسون .. لذلك – واللّه أعلم – قدّم اللّهو على اللعب لغلبة صفة النسيان على الموقف ، واللاهى ناس أو قريب منه .

أما فى سورة العنكبوت .. فقد جاء قبل الآية التى قدّم فيها اللّهو على اللّعب قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللّهُ ، فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللّهُ ، قُلِ الحَمْدُ لِلّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

هذه حقائق لو سئلوا عنها لنسبوها لخالقها . وهذا يقتضى أن لا يكفروا إذن فلماذا كفروا ولم ينتفعوا بهذا العلم ؟

مرجع ذلك أنهم ناسون لاهون . متشاغلون عنه بلهو الحياة وغرور الدنيا .

إن جانب اللّهو – هنا – ظاهر . لذلك – واللّه أعلم – قُدِّم اللّهو على اللّعب كما قُدِّم هناك .

* *

● إجمال :

وشبيه لهذه المواضع العشرين أن القرآن يجمع كثيراً بين النفع والضر مُقدِّماً أولهما على ثانيهما فى الأقل – سبعة مواضع – ومُقدِّماً ثانيهما على أولهما فى الأكثر .

---

(١) الأعراف : ٥١

(٢) العنكبوت : ٦١ – ٦٣

وسر ذلك كله راجع - قياساً على ما قدَّمناه من المواضع العشرين - إلى دقائق وأسرار لا يُحرم المتأمل من شئ منها لو أحسن التأمل . وعمق الفكر : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (١) .

* * *

---

(١) هود : ١

الباب الرابع

سحر « البيان » فى القرآن الكريم

- التشبيه والتمثيل .
- المجاز فى القرآن الكريم .
- المجاز القرآنى .

الفصل الأول

التشبيه والتمثيل

فى القرآن الكريم كثير من التشبيهات والتمثيلات الآسرة ، نجد القرآن يتخذ من هذا الفن التعبيرى وسيلة من وسائل الكشف والإيضاح ، والتهذيب والتربية ، والتبشير والإنذار ، والترغيب والترهيب ، والتزيين والتقبيح ، والقوة والضعف ، والهداية والضلال ، والتعظيم والتحقير ... إلى آخر هذه الأغراض .

والهدف الدينى هو الطابع المسيطر على كل ما فى القرآن من تشبيه وتمثيل .

ودراستنا لهذا الفن فى القرآن تعتمد على تقسيم التشبيه والتمثيل فيه إلى مجموعات ، كل مجموعة تخدم غرضاً عاماً موحداً - وإن وُجِدَت بينها فروق وخصائص جزئية - وسنتتبع هذه المجموعات بنظرة عامة نحاول من خلالها تسجيل ما تفرّق فيها من ملاحظات وخصائص هى هدفنا من هذا الفصل .

● مجموعات التشبيه والتمثيل فى القرآن :

وهذه المجموعات يمكن تلخيصها فيما يأتى :

أولا - فى شأن الكافرين ، وتحت هذه المجموعة أربعة أغراض :

١ - ضلال المعتقَد .
٢ - ضعف المعتقَد .
٣ - بطلان الأعمال .
٤ - سوء المصير .

ثانياً - فى شأن المؤمنين ، وتحت هذه المجموعة غرضان رئيسيان تحت كل منهما صور مختلفة وسيأتى الحديث عنها مفصّلاً ، وهما :

١ - الترغيب : سواء أكان فى عقيدة أو سلوك أو حسن مصير .

٢ - الترهيب : سواء أكان من عقيدة ، أو سلوك ، أو سوء مصير .

ثالثاً - مظاهر القُدرة : وهذه المجموعة تنظم كثيراً من الظواهر التى تدل على عِظَم قُدرة اللّه فى السماء والأرض وما بينهما .

رابعاً - باقة من الزهور .

أولاً : فى شأن الكافرين

١ - ضلال المعتقد :

الكافرون والأنعام

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

هذه صورة خلاصتها : ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق . أو : ومثل الذين كفروا كمثل بهائم الذى ينعق . والمعنى : ومثل داعيهم إلى الإيمان - فى أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة . ودوى الصوت . من غير إلقاء أذهان ولا استبصار - كمثل الناعق بالبهائم التى لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذى هو تصويت بها وزجر لها . ولا تفقه شيئاً آخر ولا تعى كما يفهم العقلاء ويعون .

وقيل : معناه مثلهم فى اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم كمثل البهائم التى لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته ، فكذلك هؤلاء يتبعونهم على ظاهر حالهم ولا يفقهون أهم على حق أم على باطل .

وقيل : معناه مثلهم فى دعائهم الأصنام كمثل الناعق بما لا يسمع . ولكن هذا التوجيه لا يساعد عليه قوله تعالى : ﴿ إلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ . لأن الأصنام لا تسمع شيئاً .

---

(١) البقرة : ١٧١

والوجه الأول هو الأظهر لأن المراد بيان إعراضهم عن دعوة الحق . فسواء عندهم الإنذار وعدم الإنذار . لأنهم فى الضلال سادرون . وقد آثر القرآن كلمة : « ينعق » لما فيها من مناسبة للمعنى . والنعيق : التصويت . يقال : نعق المؤذن ، ونعق الراعى بالضأن قال الأخطل :

فَانْعِقْ بِضَأْنِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّما مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الخَلاَءِ ضَلاَلاَ (١)

والقوم - هنا - مشبَّهون بالأنعام فهى تسمع الصوت دوياً ولا تميز ما فيه من معان وقيم مدعو إليها .

والقرآن كثيراً ما يُشبِّه الكافرين - فى الضلال - بـ « الأنعام » ، بل هم أكثر منها ضلالا : ﴿ أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (٢) .

وهذا التعبير من قبيل التمثيل المركَّب . شبَّه فيه هيئة إعراضهم عن دعوة الهدى بهيئة قطيع من الأغنام ينعق بها راعيها فلا تعى ولا تسمع . ووجه الشبه بين كل من الطرفين هو الضلال وسلب الإدراك .

*

● صورة ثانية - حالهم مع كل ما يجب فهمه :

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾ (٣) .

هذا تصوير ثان لبيان ضلالهم هدف التشبيه منه مثل الأول . والفرق بينهما أن التمثيل السابق ملحوظ فيه حالهم مع الداعى لهم إلى الحق . وهنا طوى ذلك الجانب مع تقديره بدلالة الالتزام . فخرج الكلام معه - أى التصوير الثانى

---

(١) انظر الكشاف : جـ ١ ، وتفسير أبى السعود : ١/٢٢٥

(٢) الأعراف : ١٧٩ (٣) الأعراف : ١٧٩

- مخرج بيان حالهم مع كل ما يجب فهمه ، ومع كل ما يجب رؤيته ، ومع كل ما يجب سماعه .

في هذه الصورة خبر أو حكم هو : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالإنسِ ﴾ .

وهذا الخبر أو الحكم ذكرت بعده مبرراته : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ .

وهذه الصفات الثلاث مقتضية لذلك المصير . ولكنها في نفس الوقت ممهدة لحكم آخر . بل تكاد تدل عليه : ﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾ .

إنهم أشد ضلالاً من الأنعام . لأنها تنقاد إلى أربابها التي تعلفها وتتعهدها ، وتعرف مَن يحسن إليها ممن يسئ إليها . وتهتدي لمراعيها ومشاربها . وهؤلاء لا ينقادون لربهم . لا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان لهم الذي هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع . ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك . ولا يهتدون للحق الذي هو المصدر الهنئ والعزب الروى . لذلك كانوا الكاملين في الغفلة [١] .

وجاء تشبيههم بالأنعام كذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [٢] .

*

● صورة ثالثة - أكلهم كأكل الأنعام :

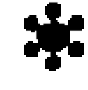
كذلك شبّه أكلهم بأكل الأنعام حتى تتم الصورة من كل الوجوه الممكنة فقال سبحانه : ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [٣] .

---

(١) انظر الكشاف : ٤/٢٥٤ (٢) الفرقان : ٤٤ (٣) محمد : ١٢

أى يأكلون غافلين غير مفكرين فى العاقبة كما تأكل الأنعام فى المسارح والمعالف غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح » [1] .

والآن .. قد كملت الصورة التى رسمها القرآن من حيث تشبيه الكافرين بالأنعام حتى لا يكادوا يمتازون عنها إلا فى الهيكل العام .



● صورة رابعة – الكافرون وسلب الإحساس :

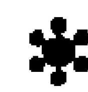
﴿ مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ، أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [2] .

وهذه صورة مقررة لما سبق ، شُبِّهَ فيها فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وقابل ذلك تشبيه المؤمنين بالبصير والسميع .

قال الزمخشرى : « وهو من اللف والطباق ، وفيه معنيان : أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب [3] . وأن يشبهه بالذى جمع بين العمى والصم والذى جمع بين البصر والسمع . على أن تكون الواو فى « الأصم » و « السميع » لعطف الصفة على الصفة كقول الشاعر :

يَا لهفَ زيابـــةَ لِلْحَـــارثِ السابحِ فالغانمِ فالآيبِ [4]

لكن الأولى إبقاء حرف العطف على أصله من عطف ذات على ذات فيكون التشبيه متعدداً ولا ضير فى ذلك . ولا حاجة إلى التخريج الذى ذكره الزمخشرى فهو مجرد احتمال .



(١) انظر الكشاف : ٢٥٤/٤

(٢) هود : ٢٤

(٣) يريد قوله : كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

(٤) الكشاف : ٣٢/١

● صورة خامسة - قسوة قلوبهم وتحجرها :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْد ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ، وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وفى هذه الصورة وصف لتحجر قلوبهم التى لا يفقهون بها . شبّهها فى عدم تأثرها بالحق واستجابتها لداعى الهدى بالحجارة . ووجه الشبه القسوة ، وهنا نلمح خاصة فريدة فى تشبيه القرآن . فقد سبق عندما شبّه القوم بالأنعام فى الضلال . أنه ترقى فى التشبيه ولم يرض مساواتهم بالأنعام فقال : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ . وقال : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ .

مع ملاحظة أن هذا الترقى فى التشبيه مقترن بظواهر تعبيرية هى إذا ذكر نفى العقل عنهم ، أو نفى الفقه . أو وردت كلمة القلوب ، ففى « الأعراف » كان التعبير : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (٢) .

وفى « الفرقان » : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (٣) .

وكذلك فى موضعنا هذا : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ .

فترقى فى التشبيه هنا . كما ترقى فى الموضعين السابقين . وليس هذا الترقى مبالغة مكذوبة . بل هو حقيقة واقعة فالحجارة أنواع : نوع يتفجر منه الأنهار . ونوع يشقق فيخرج منه الماء . ونوع يحس ويتأثر ويهبط من خشية الله .

وقلوب هؤلاء ذاهبة فى التجمد والتحجر مذهباً فقدت فيه وظائفها ففاقت الصخور فى قساوتها وهى كتلة من لحم ودم .

---

(١) البقرة : ٧٤ (٢) الأعراف : ١٧٩ (٣) الفرقان : ٤٤

ولبلوغ قلوبهم فى القسوة درجة عظيمه عدل القرآن عن الإتيان بأفعل التفضيل من الفعل نفسه : فلم يقل : « أقسى » بل : ﴿ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ، لأن هذا التعبير أوضح فى دلالته على المراد هنا » [1] .

*

● صورة سادسة – الكافرون والظلمات :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِه فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ * أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ [2] .

وقفنا فى التشبيهات السابقه على تشبيه الكافر فى الضلال بالأعمى والأصم ، كما شبّه المؤمن فى الهداية بالبصير والسميع . وهنا فى هذه الصورة الجديدة طائفة من التشبيهات ..

منها تشبيه الكفر والضلال بالظلمات . وتشبيه الإيمان والهدى بالنور .. والمتأمل يجد لهذه المعانى روعة ودقة انسجام .

ففى جانب الكافر : عمى وظلمات .. والأعمى لا يبصر فهو دائماً فى ظلام ، وفى جانب المؤمن : إبصار ونور . والمبصر دائماً فى نور .

*

---

(١) تفسير أبى السعود : ١/١٣٩ ، الكشاف : ١/١١٥

(٢) الرعد : ١٦ - ١٧

● ومعنى آخر نلمحه :

فقد استعار القرآن لفظ « الأعمى » للكافر .. ثم استعار لفظ « الظلمات » للكفر ، وهنا تتحدد الصلة الوثيقة بين الكفر والعمى . وتتحدد كذلك شدة ضلال الكافر فهو أعمى فى ظلام . والعمى وحده حاجب لرؤيته شيئاً . فكيف إذا كان هذا الأعمى فى ظلام أنه أشد عرضة للهلاك حيث لا يتقى بنفسه الشر . ولا يتقيه سواه لأنهم لا يرونه ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ (١) .. هكذا يقول القرآن .

والمؤمن بصير . والإيمان نور . وهنا كذلك تتحدد الصلة القوية بين الإبصار والنور بمعنى الإيمان .

وتتحدد كذلك درجة هداية المؤمن لأنه مبصر فى نور : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (٢) .. وهكذا يقول القرآن .

يقول إمام البيان عبد القاهر الجرجانى : « النور فى القرآن مستعار للبيان والحُجَّة ، ويُستعار للعلم نفسه أيضاً وللإيمان . وكذلك حكم الظلمة إذا استعيرت للشُبهة والجهل والكفر . وإذا استعيرت للضلالة والكفر فلأن صاحبهما كمن يسعى فى الظلمة فيذهب فى غير الطريق وربما دُفِعَ إلى هلك وتردى فى أهوية » (٣) .

والأعمى الذى يتخبط فى الظلام يحكم على الأشياء أحكاماً خاطئة . وكذلك حال الكافرين فقد سوّل لهم ضلالهم أن يجعلوا للّه - سبحانه - شركاء لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون .. ثم ضرب اللّه مثلاً لحقه . ومثلاً لباطلهم ..

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ،

---

(١) النور : ٤٠ . (٢) النور : ٣٥

(٣) أسرار البلاغة ص ٤٦ (بتصرف) .

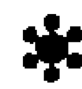
كَذَلكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ (١) .

مثَّل الحق وأهله بالماء الذى ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس . فيحيون به وينفعهم جم المنافع . وبالفلز الذى ينتفعون به فى صوغ الحلى والأوانى المختلفة ، وأن ذلك ماكث فى الأرض . باق ظاهراً : الماء تبقى آثاره ، والجواهر تبقى أزمنة متطاولة .

ومثَّل الباطل فى سرعة اضمحلاله ووشك زواله . وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذى يرمى به به وبزبد الفلز الذى يطفو فوقه إذا أذيب (٢) .

فالحق ثابت . وهو كثير النفع . والباطل زائل ليس له قرار . ضَلَّ مَنْ تمسك به ، وكذلك يضرب الله الأمثال .

وضرب المثل : اعتماده وذكره . وعبَّر عنه بـ « الضرب » لأن المثل له من التأثير القوى فى النفوس مثل ما للضرب فيها من الإحساس (٣) .



● صورة سابعة - الكافرون والموت :

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشى به فى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

هذه الصورة تحمل كثيراً من ملامح الصور المتقدمة . فقد ضربت النور مثلاً للهداية ، كما ضربت الظلمات مثلاً للكفر والضلال . ونفت أن يكون بين الفريقين شبه .

---

(١) الرعد : ١٧ (٢) الكشاف : ٦/٢

(٣) المناهج الجديدة فى تفسير آيات الله المجيدة - عبد الغنى الراجحى .

(٤) الأنعام : ١٢٢

ضربت الموت مثلاً للكفر والضلال ، والحياة مثلاً للإيمان والهدى ، فالكافر الضال ميت .. والجامع بينهما عدم النفع . والمؤمن حى .. والجامع بينهما الانتفاع بكل .

وقد روعى فى جانب تشبيه الكافر ما روعي فى جانب تشبيه المؤمن ، فقد قال سبحانه فى تشبيه المؤمن : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ . فقوله : « يمشى به فى الناس » . زيادة تقرير وإيضاح .

وقال فى جانب الكافر : ﴿ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ فقوله : « ليس بخارج منها » زيادة تقرير وإيضاح ، لما روعيت هناك روعيت هنا . فتعادلت كفّتا الميزان .

*

● إجمال :

هذه مُثُل وتشبيهات بيّن القرآن بها ضعف عقيدة الكفر ، وقد رأينا الكافر فيها أعمى مرة وأصم أخرى ، وميتاً ثالثة ، وكالأنعام بل هو أضل رابعة . يعيش فى عزلة عن المجتمع الإنسانى الصالح كما تعيش البهائم . يأكل مثل أكلها .. ويهيم على وجهه مثلها ، يسوم كما تسوم ، هى مصيرها أن تذبح لكنها غافلة . وهو مصيره النار .

ثم تراه - بعد - متحجراً ، بليد الإحساس وباطله الذى عليه زائل لا ينفع كرغاوى السيل وإفرازات المعادن إذا صُهِرَت بالنار . فما أضله وما أضل مسعاه ... ؟ ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (١) .

* *

٢ - ضعف المعتقد :

● مثله كمثل الكلب :

وقد صوّر القرآن هذا الجانب فى صورة مختلفة من التشبيه والتمثيل فها هو يمثل لهم حالهم بحال الكلب . ذلك المخلوق الحقير . فيقول سبحانه :

---

(١) النور : ٤٠ .

﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ منْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ منَ الغَاوِينَ * وَلَوْ شئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْه يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

مثله كمثل الكلب ..

أى صفته التى هى مثل الخسة والضعة كصفة الكلب فى أخس أحواله وأذلها . وهى حال دوام اللهث به واتصاله سواء حُمِلَ عليه - أى شُدَّ عليه وهيج وطُرِد - أو تُرِكَ غير معترَض له بشئ ، وهذا المثل يتضمن وصفهم بالحقارة والضعة .

*

● ومثلان آخران - رجلان لا يستويان :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ منَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ منْهُ سراً وَجَهْراً ، هَلْ يَسْتَوُونَ ، الحَمْدُ لِلَّه ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

هذان المثلان ينفيان عن الأصنام - التى هى معتمد عقيدة الكفر - صفة الكسب فهم لا يقدرون على شئ .. أى شئ

ويلاحَظ أنه عندما نفى عنها هذه الصفة المهمة . فإنه يثبت لها صفة أخرى تتم بها الصورة ويتحقق الضعف فى أجلى أوضاعه .

---

(١) الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦

(٢) النحل : ٧٥ - ٧٦

ففى المثل الأول حين نفى عن العبد قُدرته على شئ أثبت له الرق . والرق نفسه عجز ، وقد مهّد لهذه الصفة بذكر العبد مقدّماً عليها : ﴿ عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ ﴾ ، وقارن صفته هذه المتناهية فى الضعف بمن مَنَّ اللّه عليه بجلائل النعَم من حرية تجعله حر التصرف محرر الإرادة . ورزق حسن ينفقه على المحتاجين وهو لا يخاف مالكاً يحجر عليه . فهو يُنفق منه سراً وجهراً . ثم ينفى المساواة بينهما من كل الوجوه ، وهل تستوى العبودية مع الحرية ، والعجز مع القُدرة ، والغنى مع الفقر ؟

وفى المثل الثانى .. حين نفى عن أحد الرجلين قُدرته على الكسب مطلقاً أثبت له صفة البكم . ثم قارنَ بينه وبين مَنْ هو طلق اللسان يأمر بالمعروف وهو على صراط مستقيم .. ثم نفى أن يكون بين الرجلين شبه .

ويرى الزمخشرى أن المقابل للمثلين فى الموضعين : مثل مضروب للّه تعالى ، فما كان فى غاية العجز فهو الأصنام ، وما كان فى غاية القوة فهو اللّه (١) .

وقريب منه قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فيه شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ، الحَمْدُ للّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

هذا المثل ضربه اللّه لمن يُثبت آلهة شتّى . وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدّعى كل واحد منهم عبوديته . ويتشاكسوا فى ذلك ويتغالبوا ويبقى هو متحيراً ضائعاً لا يدرى أيهم يعبد ؟ وعلى ربوبية أيهم يعتمد ؟ . وممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفده . فهمُّه مشاع وقلبه أوزاع .

فهل يستوى حال هذا الحائر مع حال مَن يُثبت إلهاً واحداً . فهو قائم بما كلّفه به ، عارف بما أرضاه وما أسخطه ، متفضل عليه فى عاجله وآجله (٣) .

---

(١) انظر الكشاف : ٢٨٤/٢

(٢) الكشاف : ٩٨/٤ - والآية من سورة الزمر : ٢٩

(٣) الكشاف : ٩٨/٤

فههنا اضطراب وقلق وحيرة وتشتت . وضعف وعجز . وذلك مثل الكافر عقيدة ومعتمد عقيده .

*

● ومثال آخر - قياس من الواقع :

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أنفسكُمْ ، هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيه سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أنفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

هذا المثل مضروب لضعف الأصنام . وقد ساق الله بهذا المثل قياساً لا ينكرونه ، لأنه مضروب لهم من أنفسهم . وحاصله :

قاس حال الأصنام مع خالقها وخالق مادتها . بحال المملوكين مع مالكيهم . وهم هنا المخاطَبون ، فالله يقول لهم : هل لكم ممن تملكون من الأرقاء شركاء فيما رزقناكم وملكته أيمانكم ، فأنتم وهم متساوون الملكية والتصرف فيه ، وإذا تصرفتم في شئ منه دون إذنهم خفتم من مساءلتهم لكم على هذا التصرف كما يخاف بعضكم بعضاً - معاشر الأحرار - إذا تصرف واحد منكم فيما يملكه غيره ؟

هم لا شك منكرون أن يكون هذا حالهم مع حال مملوكيهم . وإذا تقرر ذلك فكيف يثبتون لله - سبحانه - شركاء فيما خلق ؟

وهذا المثل محتوٍ على تشبيه ضمنى شُبِّه فيه هيئة بهيئة . وهم معه أحد رجلين : إما أن ينكروا أن يكون لمملوكيهم هذا الحق ، فيلزمهم نفيه عن الأصنام وتبطل قضية التعدد المزعومة .

وإما ألا ينكروا - وهذا مستبعد - فيكونوا متناقضين مع الواقع ومع أنفسهم .

---

(١) الروم : ٢٨

والأصنام – هنا – أيضاً ضعيفة كالمملوك مع المالك . بل هى أشد ضعفاً لأنها لا تملك حياة ولا موتاً ولا نشوراً .

*

● وصورة أخرى – الذباب هو المنتصر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (١) .

بلغت الأصنام فى هذا المثل حالة من الضعف المزرى ليس وراءها زيادة فهم – أى الذين يدعونهم من دون الله « لن يخلقوا ذباباً » والذباب مخلوق حقير وضيع لن يخلقوه مجتمعين ، فأولى متفرقين . وليت الأمر يقف عند هذا الحد . – إذن لهان الخطب – ولكن هذا المخلوق الحقير « الذباب » لو استلبهم شيئاً عجزوا عن استنقاذه منه : ضعف الطالب الذى هو الأصنام ، وضعف المطلوب الذى هو الذباب .

وهذه الصورة وإن لم تأت على طريق التشبيه فى الظاهر . فهى متضمنة له فى المعنى ، يقول صاحب الكشاف : « قد سميت الصفة أو القصة الرائعة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب « مثلاً » تشبيهاً لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم » (٢) .

*

● بَلَهٌ مضحك :

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ (٣) .

---

(١) الحج : ٧٣ (٢) الكشاف : ٣/١٣٤ (٣) الرعد : ١٤

العابد يرفع حاجاته إلى معبوده راجياً منه العطاء . والكافرون مخدوعون إذا رجوا من أصنامهم خيراً . فهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يفقهون شيئاً . ولا هم يملكون شيئاً فيعطوه لهم .

هذه حقيقة .. فكيف أخرجها القرآن ؟

﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ .. نفى أن يستجيبوا لهم بشئ .. فأقنطهم . ثم ذكر أداة الاستثناء . ومن شأن المستثنى أن يكون مغايراً للمستثنى منه فقال : ﴿ إلاَّ ﴾ .. فتعلقت آمالهم بالآلهة من جديد ، وانتظروا فكان المستثنى أوقع فى اليأس من المستثنى منه .. ﴿ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ .

صورة مرسومة بالألفاظ المشعة - ليست ذات ألوان - ولكنها فاقت ما يُرسم بالألوان : رجل منحن على سطح ماء مصاب بعجز يمنع يده أن تغترف منه . وهو ظامئ يكاد يقتله العطش ، ولكنه فى بلاهة يبسط يده إلى الماء راجياً أن يصعد إلى كفيه ليرتوى . فلا الماء صاعد ولا هو مرتو مع قرب الماء وشدة الحاجة إليه .

وفى التشبيه لون بديعى هو تأكيد الذم بما يشبه المدح . فما أضعف ما يطلبون منه العون ، وما أشد عذابهم وآلامهم .

فالضعف شامل لآلهتهم ولهم أنفسهم .

*

وهناك صورتان أخريان يمثل القرآن الكريم فيهما كيفية مواجهة هؤلاء الكفار لعظائم الأمور [1] :

● هلع قاتل :

أما إحداهما فقوله تعالى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ ، أُوْلَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾[2] .

---

(١) المراد بالكفار هنا ما يشملهم ويشمل المنافقين .

(٢) الأحزاب : ١٩

وأما ثانيتهما فقوله تعالى : ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (١) .

فهم عند الخوف رعاديد تضطرب نفوسهم اضطراباً يظهر أثره على العيون . فتدور فى مكانها . لقد بلغ الخوف مداه . حتى إن حالهم هذه تشبه حال المحتضر عندما يأتيه الخطر من كل مكان . ويستسلم بكل ما فيه من ضعف للقدر المحتوم بكل ما فيه من قوة باطشة وسلطان عظيم - فليست هناك حالة معروفة للخوف أفزع من حالة المحتضر - لذلك لم يرض القرآن لهم مثلاً فى ضعفهم وجبنهم . إلا أن يمثل لهم بتلك الحال التى لا يجهلها أحد .

هكذا يُسهم التشبيه والتمثيل مع شقيقهما المجاز - كما سنرى - فى رسم صورة صادقة لضعف الكفر فى نفسه من حيث الأصنام التى كانوا يعبدونها . ومن حيث الكافر نفسه فليسوا هم على شئ من دين . وما هم بدافعى عن أنفسهم ضراً يُراد بهم . ولا أصنامهم وآلهتهم بمحققى آمالهم . وإن عاداهم أحقر المخلوقات - كالذباب - لم يستطيعوا مصاولته .

● وضعف بالغ :

وهذه آية نختم بها هذه الجولة .. جولة القرآن مشبهاً وممثلاً لضعف معتقد الكافرين فى كل مظهر من مظاهره : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ من دُون اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوت ، اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوت لَبَيْتُ الْعَنكَبُوت ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

هذا مثلهم فى اعتمادهم على آلهتهم : مثل رجل أوى إلى بيت العنكبوت ليحميه من خطر متوقع . وإنهم ليعلمون ما هو بيت العنكبوت ؟ خيوط واهنة لو مرَّ عليها نسيم هادئ لخرقها ومزقها : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوت لَبَيْتُ الْعَنكَبُوت ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ ، والقرآن - كما نرى - إنما خاطبهم بما يحسون ويشاهدون فى حديث واضح وضوح الشمس لعلهم يتذكرون .



---

(١) محمد : ٢٠ . (٢) العنكبوت : ٤١

٣ - بطلان الأعمال :

كما تحدَّث القرآن عن ضلال معتقد الكافرين ، وعن ضعف آلهتهم وعن ضعفهم فى أنفسهم . تحدَّث عن بطلان أعمالهم التى يقدمونها ويحسبون أنها نافعة لهم .

● صورة أولى - صفوان ووابل :

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ .. كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً ، لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ، وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

الصفوان : الحجر الأملس . والوابل : المطر العظيم . والصلد : الآجر النقى .. والآية تمثل أعمال الكافرين الصالحة - بحسب الظاهر - كصلة القُربَى والعطف على الفقراء.وإغاثة الملهوف .

وهذا المثل صورة أدبية مستوفية العناصر والأركان . موفية بالغرض أحكم وفاء . هى تشبيه تمثيلى مُثِّلت فيه أعمال الكافرين بتراب منثور على حجر من الصوان الأملس . فهطلت عليه الأمطار فحملته وذهبت به كل مذهب فلم يبق منه فوق الحجر شئ .

التشبيه تمثيلى مركب - كما سبق - شُبِّهت فيه هيئة بأخرى . ويجوز أن يكون من قبيل المفرد ..

فيُراد بـ « الصفوان » : الكفر والرياء - إشارة إلى عقم الكفر والرياء - شبَّه كل منهما بالصفوان الذى لا ينبت ولا يمسك ماءً .

---

(١) البقرة : ٢٦٤

ويُراد بـ « التراب المنثور فوق الصفوان » - خاصة : عمل الكافرين ، لا مطلق تراب ، فالقيد لازم ، لأن مطلق تراب مظنة الإنبات . وليست كذلك أعمال الكافرين .

ويراد بـ « الوابل » : الإسلام لأنه حكم ببطلان الكفر وما يصدر عنه من عمل .

وإذا قارنا بين « الصفوان » الذى هو الكفر والنفاق . و « الوابل » الذى هو الإسلام أدركنا الفرق واضحاً بين العقيم الماحل . والمثمر النضير .

ولهذا نظائر ...

فقد شبَّه الله قلوب الكافرين بالحجارة فى القسوة فقال : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (١) .

كما شبَّه أعمالهم بالرماد - وسيأتى - فقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ (٢) .

والرماد قريب من التراب ، أما تشبيه الإسلام بالوابل فمنه تشبيهه بالصيِّب - على رأى - فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ... ﴾ (٣) .

*

● وصورة أخرى - ريح ورماد :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴾ (٤) .

كانت أعمال الكافرين فى المثل السابق : تراباً منثوراً على سطح وفى جوانب حجر أملس .

---

(١) البقرة : ٧٤
(٢) إبراهيم : ١٨
(٣) البقرة : ١٩
(٤) إبراهيم : ١٨

وهى – هنا – « رماد محترق » لا تتعلق به آمال ، وحتى مع هذا الوضع الحقير لأعمالهم : « رماد » لم يقر له قرار . فقد اشتدت به الريح وهذا كاف لتبديده وتطييره .

ولكن زيادة فى تقنيطهم ومحو أى أثر لأعمالهم أضيفت إلى ما سبق أمور يكاد معها عمل الكافر يكون عدماً . وتلك الأمور هى : ﴿ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ – ﴿ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَىْءٍ ﴾ – ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ﴾ .

فاشتداد الريح كان فى يوم عاصف ، وإسناد العصف إلى ضمير اليوم ، مع أن الأصل : معصوف فيه ، مبالغة فى شدة العصف ، وهو مجاز عقلى علاقته الزمانية .

وأنهم فى هذا اليوم ، لا يقدرون على الانتفاع بكسبهم أو شئ منه ، فقد ضلُّوا ضلالاً بعيداً .

كما نلاحظ وصف الضلال بـ « البعيد » . ولم يقل : المبين – مثلاً . ولعل السر فى هذا التعبير أن الريح لما طيَّرت الرماد المضروب مثلاً لأعمالهم . واشتد عصفها به فى يوم اشتد عصفه . المعنى إذن : أن الريح طيَّرت الرماد إلى مسافات نائية جداً لو تعقبوها فى تلك المسافات لوقعوا فى حيرة وضلال بعيد . والمسافات – كما نعلم – يناسبها البُعد الذى جُعِلَ الوصف منه وصفاً لضلالهم فى هذا المكان

*

● وصورة أخرى – ريح وصرّ :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١) .

---

(١) آل عمران : ١١٧

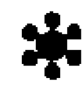
وخلاصة هذه الصورة : أن مثل إنفاقهم كمثل حرث أهلكته ريح فيها برد فلم يبق منه شئ ، والتشبيه - هنا - تمثيلى مركّب . فمن حق الأداة فيه أن تدخل على أى جزء من أجزائه لا على أنه المشبّه به . بل مجموع الأجزاء أو الصورة هى المشبّه بها . فلماذا - إذن - أوثر دخول الأداة على « الريح » . فلم تدخل - مثلاً - على « الحرث » . وهو صالح لدخولها عليه . بل أولى لأنه فى الحقيقة أقرب ما يكون مشبّهاً به ؟

لذلك أرى أن فى دخول الأداة على : ﴿ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ إشعاراً بأن أعمالهم شبيهة بالريح فى عدم استقرارها وثباتها . هذا معنى يلحظه الحس من مجرد دخول الأداة على « ريح » قبل أن تحكم المعنى مصطلحات الفن . وقواعد أهل البيان .

وقد بولغ فى وصف الريح بالبرودة فجرد [١] منها صفتها فقال : ﴿ فِيهَا صِرٌّ ﴾ ولم يقل : ريح باردة . فكأن البرودة عامل آخر مستقل خارج عن الريح . لأن ذلك هو مؤدى التجريد .

قال صاحب الكشاف : « المراد تشبيه ما أنفقوا فى ضياعه وذهابه بالكلية . من غير أن يعود عليهم نفع ما ، بحرث قوم كفار ضربته صر فاستأصلته . ولم يبق لهم فيه منفعة ما بوجه من الوجوه وهو من التشبيه المركّب » [٢] .

وقد بيّن الله فى غضون هذا المثل أن ما حاق بهم كانوا هم سبباً فيه .. وذلك فى موضعين : ﴿ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .. فذكر ظلمهم لأنفسهم ونفى أن يكون الله ظالماً لهم .



(١) تفسير أبى السعود : ٤٠٤/١ . (٢) الكشاف للزمخشرى : ٥١/١ وما بعدها .

● وصورة أخرى – سراب وظلمات :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ، وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (١) .

شُبِّهت أعمال الكافرين فى هاتين الآيتين بصورتين :

الصورة الأولى : شُبِّهت فيها بالسراب الذى يراه الناظر . فيحسبه ماءً . لأنه كالماء يبدو من بعيد .

فإذا علّق عليه الآمال وأراد أن يروى ظمأه فأقبل مسرعاً إليه لم يجده شيئاً .

وليت الأمر يقف عند خيبة الرجاء هذه ، بل إنه بعد أن تنكشف له حقيقة السراب الذى خدعه فأقدمه إلى حيث هو واقف الآن ، أسلمه إلى مواطن الهلاك والضياع ، كأن أسداً فى انتظاره فيفترسه .

وكذلك الكافر يقدم نحو عمله راجياً أن ينفعه فلا يجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه وأدخله النار ، ولقى هلاك أمثاله فى مقام كان يتوقع منه النجاة !

وإذا كان عملهم سبباً فى إهلاكهم فما أحرى أن يسمى ظلمات . وهذا المعنى تكفلت به الآية الثانية : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ .

---

(١) النور : ٣٩ – ٤٠ .

البحر وحده خطر على مَن يركبه ، فما بالك إذا كان هذا البحر ملفوفاً بالظلمات من كل جانب ، وهذه الظلمات لا سبيل إلى الخلاص منها ، والبحر هائج ثائر ، الموج فيه طبقات بعضها فوق بعض ، وفوق الموج سحاب يملأ الأفق ويسد منافذ الضوء .

وفى مطلع الآية الأولى نجد التعبير : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ .. ﴾ (١) .

وقبلها وجدنا التعبير : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ .. ﴾ (٢) .

وكان حق التعبير أن يقال فى الموضعين : « ومثل أعمال الذين كفروا كرماد » . و « وأعمال الذين كفروا كسراب » .

لكن القرآن خالف هذا النسق ، وجعل المثل فى الأولى : مثل الذين كفروا ، ثم أبدل منهم أعمالهم بدل اشتمال .

كما أبدل نفس الأعمال من الذين كفروا فى الآية الثانية ، فما السر إذن فى هذا التعبير ؟

إن السر – فيما يظهر – واضح ، لأن الناس جميعاً يوم القيامة مجرَّدون من جميع الاعتبارات إلا اعتبار العمل صالحاً كان أو غير صالح .

ففى تصديرهم وإبدال أعمالهم منهم إشعار بهذا المعنى ، فالإنسان يقاس بعمله فحسب لا بماله ، ولا ولده ، ولا جاهه ، ولا سلطانه ، فمثل عمل الإنسان مثل للإنسان نفسه .

*

(١) النور : ٣٩ (٢) إبراهيم : ١٨

● وصورة أخرى - هباء منثور :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ﴾ (١) .

فههنا تشبيه مؤكد حيث حُذفت أداته ، ويُلاحَظ أنه لم يجعله « هباءً » حتى جعله « منثوراً » مفيداً بذلك ذهاب عملهم من الأساس .

قال الزمخشرى : « مُثِّلت حال هؤلاء القوم وأعمالهم التى عملوها فى كفرهم من صلة رحم وإغاثة ملهوف .. بحال قوم خالفوا سلطانهم ، واستعصوا عليه فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزقها شر ممزق ، ولم يترك لها أثراً ولا اعتباراً ، وشبَّه عملهم بالهباء فى قلته وحقارته وعدم جدواه ، ثم بالمنثور منه لأنك تراه منتظماً مع الضوء ، فإذا حركته الريح رأيته قد تناثر كل مذهب (٢) .

﴿ إِنَّ هَؤُلاَءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .



٤ - سوء المصير :

الضلال فى المعتقد يؤدى إلى ضعف الموقف الذى يتخذه صاحب العقيدة ، وهذا يسلمه إلى بطلان السلوك الذى يبنيه عليه ، وبطلان السلوك أو الأعمال يؤدى به فى النهاية إلى سوء المصير .

وعلى هذا النسق كانت تشبيهات القرآن وتمثيله فى جانب الكافرين ، فأنت ترى سوء المصير واضحاً فى الصور الآتية :

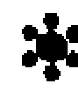
---

(١) الفرقان : ٢٣ (٢) الكشاف : جـ ٣ (٣) الأعراف : ١٣٩

● صوة أولى – ترهقهم ذلّة :

﴿ والّذينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ، مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [1] .

هنا وجوه أرهقها الذل فأظلمت كأنها مغشاة بقطع من ليل اشتد ظلامه وليس لهم من عذاب اللّه من عاصم .



● صوة ثانية – تَرَدٍّ مهلك :

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [2] .

المشرك باللّه فاقد كل سند يعتمد عليه فى حياته الأولى والثانية ، وهو صائر بلا محالة إلى أسوأ ألوان الهلاك .

والآية ترسم لنا خطوط هذه النهاية المؤلمة .. إنسان هوى من السماء – من السماء هكذا – هوى ساقطاً على الأرض ، وهنا يفترق الطريق شُعبتين كل واحدة منهما تؤدى إلى خطر ماحق ..

﴿ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾ لقد تمزق هو – إذن – قبل أن يصل إلى الأرض ، لأن المسافة بين الأرض والسماء بعيدة بعيدة ، لذلك فإن الطير تتوزعه فى حواصلها فيصير غذاءً لها وقد هلك وتمزق شر ممزق .. هذه شُعبة .

﴿ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ تهوى به تسير سيراً سريعاً . إلى أين ؟ إلى مكان سحيق سحيق .. وهنا تكمن بواعث الخوف والرهبة فالمكان – هنا – منكَّر ، لأنه مكان غير معروف – وهذا هو سر الرهبة والخوف .

---

(١) يونس : ٢٧ (٢) الحج : ٣١

وقد آثر القرآن كلمة « خَرَّ » بدل : سقط ، ليشترك جرس اللفظ فى الدلالة على المعنى مع المعنى نفسه ، فالساقط من عَلٍ يشق الهواء بجسمه فتسمع لهويه صوتاً يشبه خرير الماء ، ويحدث هذا فى الأجسام الساقطة من مسافات عالية بدرجة ملحوظة .

وهذا التشبيه محتمل عندهم - علماء البلاغة - التركيب والإفراد . وأمر التركيب فيه ظاهر ، أما الإفراد فقد خرَّجوه على النحو الآتى :

أن يُشبِّه الإيمان فى علوه بـ « السماء » ، والذى أشرك بالله وترك الإيمان بـ « الخار من السماء » ، والأهواء التى تتوزع أفكاره بـ « الطير المختطفة » .. والشيطان الذى يضله بـ « الريح » التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المهلكة » (١) .

وجمال الصورة التى رسمها القرآن - هنا - وفى كل موضع مماثل لا يتوقف على اعتبار التركيب أو الإفراد. فهو أمر ثابت محسوس ، وإن كنت أرى أن التركيب فى مثل هذه الصورة أولى من الإفراد . لأنه لا يخلو - أحياناً - من التكلف فى التخريج وقد يكون ليس مقصوداً لله .

*

● وتصعَّد منهك :

وصورة أخرى مقابلة للسابقة : ﴿ وَمَن يُرِدِ أن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

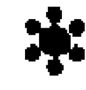
هذا مثل مَن آثر الكفر على الإيمان . تتسلمه الأوهام الضالة . ويغتاله الشيطان بوساوسه فيضيق صدره وتختنق أنفاسه . ويصبح أمره عسراً . كأنما

---

(١) الكشاف : ٢١٧/٣ (٢) الأنعام : ١٢٥

يصعَّد فى السماء وهو ضارب بقدميه على الأرض ، لأن صعوده فى السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة وتضيق عنه المقدرة [١] .

قال الراغب : « والصعد والصعيد والصعود واحد . لكن الصعود والصعد يقال للعقبة . ويُستعار لكل شئ شاق - قال - : ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ﴾ [٢] ، وقال : ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾ [٣] أى : عقبة شاقة [٤] ولا يبعد أن يكون هذا التجاذب إلى أعلى مرة ثم إلى أسفل أخرى دليلاً على قلق الكافر وتنازع أفكاره بين مهاوى الضلال والفتنة . ونسمات الهدى والإيمان .



● وصورة رابعة - صيحات وصواعق :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ [٥] .

هذه عاقبة قوم ضلُّوا أخذتهم الصيحة فهلكوا . فصوَّر لنا القرآن صيرورتهم بعد هلاكهم بأنهم كانوا مثل « هشيم المحتظر » . هكذا ..

ومادة « هشم » تدور حول تكسر المادة وصيرورتها أجزاء [٦] - وهذا كافٍ فى هلاكهم - ولكنه يصف الهشيم بأنه « هشيم المحتظر » ، وهذا يفيدنا معنيين :

أن الكوارث حلّت بهم جميعاً فتساقطوا بعضهم فوق بعض . هكذا يكون الهشيم فى الحظيرة .

وأنهم أصبحوا وقوداً للنار تسرع فيه إذا أُشعلت لأن « هشيم المحتظر » أكثر جفافاً من الهشيم الأخضر .

---

(١) الكشاف : ٢/ ٥٠ .
(٢) الجن : ١٧
(٣) المدثر : ١٧
(٤) المفردات ص ٢٨ .
(٥) القمر : ٣١
(٦) انظر المفردات للراغب ص ٥٤٣

ومعنى آخر نلحظه : هو أن الهشيم يصبح قليل القيمة . أو هباءً تذروه الرياح كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ (١) .

وصورة مماثلة : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ، أَلاَ إِنَّ ثَمُوداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ، أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ ﴾ (٢) .

وأخرى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ، أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ (٣) .

وأخرى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ﴾ (٤) .

هذه ثلاث صور قريبة فيما بينها إذ تشترك الثلاث فى أن الصيحة هى آخذة الذين كفروا .. وهذا إسناد مجازى علاقته السببية . لأن الآخذ الحقيقى هو الله .

وعقب كل مرة تأخذهم فيها الصيحة يصبحون جاثمين لا حراك لهم . ويصيرون بعد هلاكهم كأنهم لم يسبق لهم وجود فى الحياة . استؤصلوا من جذورهم . فقد شبّه وجودهم بالعدم لانعدام آثارهم . يقال : غنى بالمكان - أى أقام به - يعنى : « كأن لم يقيموا فى ديارهم أحياء متصرفين مترددين » (٥) .

وفى الصورة الثالثة جاء تشبيههم بـ « الغثاء » .. والغثاء يُضرب به المثل فى الضياع (٦) . ومصداق هذا فى قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِى أَخْرَجَ المَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ (٧) .

---

(١) الكهف : ٤٥ — (٢) هود : ٦٧ - ٦٨ — (٣) هود : ٩٤ - ٩٥

(٤) المؤمنون : ٤١ — (٥) الكشاف : ٣٣٢/٢ — (٦) مفردات الراغب ص ٣٦٧

(٧) الأعلى : ٤ - ٥

وصورة أخرى : ﴿ فَإِن أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (١) .

لقد أهلك الله عاداً وثمود فأصبح هلاكهم أمراً مشهوراً وأصلاً يُقاس عليه . لذلك أمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يُخوِّف أهل مكة إذا استمروا فى إعراضهم أن يرسل الله عليهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فيحل عليهم عذاب بئيس .

صورتان أخريان : لقد شبَّه القرآن الكافرين حين أخذهم الله بعقابه العاجل بأنهم « أعجاز نخل » . وذلك فى موضعين :

أحدهما قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى القَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (٢) .

وثانيهما قوله تعالى : ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ (٣) .

فتشبيههم بأعجاز النخل دون غيرها من الأطراف للإشعار بأنهم أُبيروا من أصلهم فلم تبق لهم باقية . وقد حرص القرآن فى الموضعين أن يصف الإعجاز بوصف متمم للصورة .

فالأعجاز « خاوية » فى آية الحاقة . والنخل « منقعر » فى آية القمر ، ولك أن تسمى هذا من باب تحقيق التشبيه . كقول الشاعر :

حَمَلْتُ رُدَيْنِياً كَـأَنَّ سِنَانَـه ... سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ

وذلك لأن أعجاز النخل قد تكون لها قوة إذا لم تكن خاوية . وإذا لم يكن النخل منقعراً .

* *

(١) فصلت : ١٣ (٢) الحاقة : ٧ (٣) القمر : ٢٠ .

● مآل الكافرين :

وقد آثر القرآن وضع كل كلمة فى مكانها لأنها تؤدى المعنى مع موافقة رؤوس الآى .

ومما يتصل بسوء مصيرهم حديث القرآن عن مآلهم وطعامهم وشرابهم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي البُطُونِ * كَغَلْيِ الحَمِيمِ ﴾ (١) .

فى هذه الآيات يُشبِّه اللّه طعام الأثيم بـ « المُهْلِ » . والمُهْل : دردى الزيت . وهذا تشبيه له باعتبار الذات . ثم وصفه بأنه : « يغلى فى البطون » . ثم شبَّه غليه بـ « غلى الحميم » . والحميم : الماء الحار الشديد الحرارة .

وقد ورد الحميم فى شأن أصحاب النار كثيراً : ﴿ وَسُقُواْ مَاءً حَمِيماً ﴾ (٢) ، و ﴿ إلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً ﴾ (٣) ، و ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ (٤) ، و ﴿ يُصَبُّ من فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الحَمِيمُ ﴾ (٥) ، و ﴿ ثُمَّ إنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ (٦) ، و ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ (٧) .

ويطلق الحميم على العَرَق المتصبب .. فبئس قوم هذا طعامهم .

وقريبٌ من هذا قوله تعالى : ﴿ وَإن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ (٨) .

المستغيث : طالب الغوث . ومن سوء مصير أهل النار أنهم طلبوا النجاة منها فأجيبوا بما يزيدهم حسرة وندامة .. أجيبوا بماء كدردى الزيت حار ساخن يشوى وجوههم . وما هم بخارجين من النار .

---

(١) الدخان : ٤٣ - ٤٦ (٢) محمد : ١٥ (٣) النبأ : ٢٥
(٤) يونس : ٤ (٥) الحج : ١٩ (٦) الصافات : ٦٧
(٧) سورة ص : ٥٧ (٨) الكهف : ٢٩

ففى « يُغَاثوا » استعارة تهكمية مثل : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وهذا أنسب للمعنى من جعله من باب المشكلة اللفظية .

*

● وصورة ثانية :

علمنا أن « الزقُّوم » هى طعام الأثيم . فكيف صوَّرها القرآن إذن ؟

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (١) .

يا للهول .. حتى شكل الطعام مخيف . ومذاقه علقم . فيالسوء المنقلب ، وإذا كان هذا طعامهم . شربوا عليه « شرب الهيم » والهيم : الإبل تصاب بداء تشرب مه فلا تروى . فشبهوا بها أحط تشبيه (٢) .

قال ذو الرمة :

فَأَصْبَحْتُ كَالهَيْمَاءِ لاَ المَاءُ مُبْرِدٌ صَدَاهَا وَلاَ يقْضِى عَلَيْهَا هُيَامُهَا

أى : أصبح كالإبل المريضة تشرب فلا تروى . وتتعذب فلا تموت وتستريح .. وبدهى أننا لم نتناول هذه الجوانب الأربعة . إلا ما جاء منها فى أسلوب التشبيه والتمثيل . وإلا ففى القرآن الكريم كثير من المواضع أفاضت فى الحديث عنها . ولم تدخل فى اعتبارنا بحسب المنهج الذى اتبعناه .

* *

● وقفة جامعة :

وفيما قدَّمناه من نماذج رسم القرآن عن طريق التشبيه والتمثيل صورة واضحة لهذا الفريق من الناس . صورة كاملة الملامح واضحة العبارة آسرة البيان .

ونماذج كل مجموعة من المجموعات الأربع السابقة يقوى بعضها بعضاً فى دقة وإحكام ، وتكاد ملامح نماذج المجموعة الواحدة منها تتشابه منها وتتأصر حتى إنك لتستطيع أن تصوغ عنها صورة واحدة لها خصائص ومميزات .

---

(١) الصافات : ٦٥ (٢) الكشاف : جـ ٤

خذ - مثلاً - ظاهرة بطلان أعمالهم . حتى النهاية واحدة فى كل نموذج من نماذجها وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز البيانى لا ينكره منصف .

وفى كل الصور التى ذكرناها يخاطب القرآن كل القُوَى المدركة فى الإنسان . العقل بما له من سلطان . والعواطف بما لها من تأثرات . والحواس على اختلاف ما بينها من طبائع ... والنفس والوجدان .

ولهذا كانت تشبيهات القرآن وتمثيله صوراً حيَّة لا تتأثر بتقادم دهر ولا يسمو فوقها بيان .

ولنعرض - بعد - لتشبيهات القرآن وتمثيله فى شأن المؤمنين حسب الخطة .

* * *

ثانياً : فى شأن المؤمنين

(١) فى مجالات الترغيب وردت الصور الآتية :

١ - مضاعفة الأعمال :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(١) .

الغرض من التمثيل ترغيب المؤمنين فى الإنفاق فى سبيل اللّه . وهذا عمل محمود .

لذلك نرى المثل يضع أمام المنفقين فى سبيل اللّه كل وسائل الترغيب والإغراء المحمود .

فوحدة المال المنفَق - درهماً أو ديناراً - كحبَّة وُضعتَ فى الأرض .. ثم أنبتت سبع سنابل . السنبلة الواحدة تحمل مائة حبة . فيكون مجموع ما ينتج عن الحبَّة الواحدة سبعمائة حبَّة . وهذا حد أدنى يحصل عليه المنفقون .

* *

---

(١) البقرة : ٢٦١

٢ - مقاييس البِّر :

وأعمال البِّر لها مقاييس تزكو بها . كشدة الحاجة عند المنفق لما بذل من مال .. قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ لَن تَنَالُواْ البِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (٢) .. أى لن تنالوا كمال البِّر .

وقال : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ (٣) - فى رأى مَن يقول على حُبِّ الطعام .

أو شدة الحاجة عند المنفق إليه . فإن حاجات المحتاجين تتفاوت .

قال تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (٤) .

وكالإخلاص فى الإنفاق .. هذه الاعتبارات تضاعف الجزاء أضعافاً كثيرة . ولذلك ترقّى المثل فى درجات الجزاء فقال : ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥) .. فباب الزيادة فى الجزاء مفتوح . ولن يقف عند حد السبعمائة المذكورة .

قال الزمخشرى : « هذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها ماثلة بين عينى الناظر . ولا يقدح فيه أن المُمَثَّل به غير موجود فى الواقع . لأن التمثيل على سبيل الفرض . والتقدير » .



---

(١) الحشر : ٩ (٢) آل عمران : ٩٢ (٣) الإنسان : ٨
(٤) البلد : ١٤ - ١٦ (٥) البقرة : ٢٦١

٣ - وصورة أخرى « مثل للتكثير » :

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١) .

« الجنّة » : البستان . و « الرَبوة » : المكان المرتفع . و « الوابل » : المطر العظيم . و « الطل » : المطر القليل .

وخصّها بالذكر - أى خصّ هذه الجنّة التى هذه صفتها - لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمراً وقليل الماء يكفى لإروائها ككثرته لكرم منبتها وخصوبة تربتها . وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر سواء أكانت الأموال المنفَقة كثيرة كالوابل . أو قليلة كالطل ..

قال الزمخشرى : « مثل حالهم عند اللّه بالجنّة على الربوة . ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل وكلتاهما زاكية عند اللّه . زائدة فى زلفاهم وحسن حالهم عنده » .



٤ - الترغيب فى الجهاد :

المثلان السابقان يهدفان إلى الترغيب في الإنفاق فى سبيل اللّه . وهناك مثل آخر يُرغِّب فى الجهاد : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (٢) .

فقد شبّه المقاتلين فى سبيله فى تماسكهم وقوة إيمانهم وصلابتهم للعدو وتصديهم له بالبنيان الذى رُصّ بعضه إلى بعض ورُصِف (٣) .

---

(١) الكشاف : ٢٤١/٢ ، والآية من سورة البقرة : ٢٦٥

(٢) الصف : ٤ (٣) انظر الكشاف : ٤١٨/٤

وقد وصف المشبَّه به « بنيان » بقوله تعالى : ﴿ مَّرْصُوصٌ ﴾ أى قائم . ولولا هذا الوصف لما جاء التشبيه بهذه المنزلة من الدقة والقوة . لأن البنيان قد يكون - إذا لم يوصف بوصف يفيد الإحتراس « آيلاً للسقوط » أو ساقطاً ، فجاء الوصف فى الآية الكريمة مانعاً لإرادة شئ من هذا . مفيداً لقوة البنيان . وشدة تماسكه .

قال الراغب : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ أى : محكم كأنما بنى بالرصاص » [1] .



٥ - الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة :

وقال تعالى مُرغِّباً فى الكلمة الطيبة ومُحذِّراً من الخبيثة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ * تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [2] .

ههنا شجرتان .. إحداهما ضُربت مثلاً للكلمة الطيبة - أىُّ كلمة طيبة [3] وهذه الشجرة قد تهيأت لها أسباب النمو والرواء فالتربة خصبة والسقى منتظم ، لذلك ضربت جذورها فى أرضها الطاهرة فنمت أصولها وطالت فروعها حتى كادت تلامس السماء . ودام ثمرها فهى تؤتيه - بإذن ربها - كل حين .

والثانية أبيدت بمجرد ظهورها فوق الأرض فلم تنم ولم تضرب جذورها فى الأرض .. وشتَّان بين هاتين الشجرتين .

---

(١) المفردات ص ١٩٦ (٢) إبراهيم : ٢٤ - ٢٥

(٣) يرى بعض المفسرين تخصيص الكلمة الطيبة : بالتوحيد - والخبيثة : بالكفر . انظر الكشاف للزمخشرى : ٢/ ٤٢.

والأولى حمل الكلمة الطيبة على جنس الكلام الطيب . والكلمة الخبيثة على جنس الكلام الخبيث لا أن تخص الأولى بكلمة التوحيد . والثانية بكلمة الكفر . ولا مانع أن تكون كلمة التوحيد أصلاً فى الكلمة الطيبة . وكلمة الكفر أصلاً فى كل كلام خبيث .

والتشبيه فى الصورتين تشبيه مفرد - وهو « الكلمة الطيبة » فى الأولى ، و « الكلمة الخبيثة » فى الثانية - بمركب . وهذا ظاهر .

ووجه الشبه فى الأولى ما يترتب على كُلٍّ من الآثار النافعة . والمنافع الجمّة .

أما فى الثانية فالوجه عدم ترتب آثار نافعة فى كُلٍّ ، وإن كان أثر الكلمة الخبيثة هو إدخال قائلها النار .

ويتصل بمبدأ الترغيب أمور هى :

١ - المدح والثناء .
٢ - وصف النساء والحور والولدان .
٣ - وصف الجنّة .

ونورد أمثلة ذلك من التشبيه والتمثيل القرآنى على نفس الترتيب المذكور .

١ - المدح والثناء :

ويأتى فى مقدمة هذا الجانب مدح القرآن للرسول وأصحابه . قال سبحانه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّه ، وَالَّذينَ مَعَهُ أَشدَّاءُ عَلَى الكُفَّار رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهَ وَرضْوَاناً سيمَاهُمْ فى وُجُوههم مِّنْ أَثَر السُّجُود ، ذَلكَ مَثَلُهُمْ فى التَّوْرَاة ، وَمَثَلُهُمْ فى الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَى سُوقه يُعْجبُ الزُّرَّاعَ ليَغيظَ بهمُ الكُفَّارَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات منْهُم مَّغْفرَةً وَأَجْراً عَظيماً ﴾ (١) .

---

(١) الفتح : ٢٩

إنها لصورة غنية عن كل شرح ، ومثل واضح لا يحتاج إلى بيان ، فالزرع يخرج غضاً طرياً ، وهكذا كان الإسلام متمثلاً فى محمد عليه السلام ، ثم يخرج شطأه فيقويه ويناصره حتى يستغلظ ويقوى ويستوى قائماً على سوقه ، وزرعٌ هذه صفته من شأنه أن يُعجب الزرّاع ويأخذهم بروائه .

فمحمد عليه السلام – أو الإسلام متمثلاً فيه – شبيه بالزرع ، والزرع تحيا به النفوس ، ويبهج النظر بخضرته وبهائه .

وفى هذا التشبيه كثير من اللطائف والأسرار ، منها ما تقدَّم ، ومنها كذلك أن الإسلام كان سريع الانتشار والاستقرار ، يدل على ذلك العطف بالفاء فى قوله : ﴿ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ ﴾ .

ومنها أن الإسلام كان يتم كماله فى صورة دقيقة وحكمة وتدبير حيث شُبِّهت أطوار نموه بأطوار نمو الزرع ، وهى مراحل طبيعية لا ارتجال فيها ولا مخالفة لسُنَن النشوء والارتقاء .

ثم كان هذا الزرع لقوته وحُسن روائه باعثاً على حالتين : إعجاب الزُرَّاع به ، ثم غيظه الكافرين .

« إنه زرع من نوع خاص ينمو ولا يذبل .. يقوى ولا يضعف .. وهكذا كان محمد ﷺ وصحبه »(١) .

ووجه الشبه شئ يبدو صغيراً ثم ينمو ويقوى ويكتمل فيعجب الأحباء . ويغيظ الأعداء .

ومن ذلك : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِى الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ، وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾(٢) .

---

(١) انظر الكشاف : ٩٤/٢

(٢) البقرة : ٢٧٣

فى هذه الآية مدح وثناء للفقراء الزاهدين فيما فى أيدى الناس . وهم لشدة زهدهم وتظاهرهم بالغنى أشبهوا الأغنياء عند الجاهل بحالهم . ولأن الغنى نوعان : غنى عن المال بالمال . وغنى عن المال بالقناعة والتعفف . والثانى فضيلة من فضائل النفس يستحق أصحابها المدح والثناء .. ولهذا مدحهم القرآن .

* * *

٢ - وصف النساء والحور والولْدَان :

وصف القرآن النساء لغاية دينية إذ بها يحفظ الرجل نفسه ودينه من الوقوع فى المحظور . والقرآن فى وصفه للمرأة لم يصف جمالها الحسى . وإنما وصف جمالها النفسى المعنوى . وبذلك يفارق وصف المرأة فى القرآن ما دأب عليه الشِعر الجاهلى من الأوصاف الحِسِّية . والالتذاذ المادى الوضيع .

وعليه جاء قول الشاعر :

إذَا مَا الضَجِيعُ ثَنَى جِيْدَهَا   تَثَنَّتْ عَلَيْـــه فَكَـــانَتْ لِبَاسًا

فقد شبههن - القرآن - باللباس مرة فقال : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (١) .

واللباس فيه معنى الحفظ والوقاية من الأخطار ، وفيه معنى التجمل والزينة فى أعين الناس ، وفيه معنى حفظ العورات وما لا يحب أحد أن يطلع عليه الناس .

والفرق بين التعبير القرآنى وبين قول الشاعر أن المراد باللباس فى القرآن معناه المجازى بكل ما يحمل اللفظ . أما فى قول الشاعر فإن اللباس مراد به معنى حسى مكشوف .

لهذه المعانى شبَّه القرآن النساء باللباس للرجال ، ثم شبَّه الرجال باللباس لهن . لأن كُلاًّ منهما يحفظ الآخر ويحميه ويزينه .

---

(١) البقرة : ١٨٧

لذلك امتن به على خلقه فقال : ﴿ قَدْ أنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ﴾ (١) .

ويرى ابن الأثير أن تشبيه المرأة باللباس لم يُعرف قبل وروده فى القرآن الكريم (٢) .

وهذا الوصف من شأنه أن يُرَغِّب الرجال فى البناء بالنساء . والنساء فى الحفاظ على روابط الأسرة واستمرار سعادتها .

وشبههن مرة بالحَرْث فقال : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ (٣) .

وتشبيه المرأة بالحرث من حيث أن كُلاًّ منهما - المرأة والحَرْث - موضع أمل ... فالأرض تنبت ما به قوام الحياة . والنساء ما به يحيا النوع الإنسانى . ويستمر فى عمارة الأرض . فبين المعنيين تعانق .

* *

● وصف الحور والوِلْدَان :

فى وصف الحور جاء الحديث فى القرآن عن الجمالين : الحسى والمعنوى . لا تكاد صورة من صور التشبيه والتمثيل لهن تخرج عن هذا الهدف .

قال سبحانه : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالمَرْجَانُ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ ﴾ (٦) .

---

(١) الأعراف : ٢٦ — (٢) المثل السائر : ١٣٣/٢ — (٣) البقرة : ٢٢٣

(٤) الصافات : ٤٨ - ٤٩ — (٥) الرحمن : ٥٨ — (٦) الواقعة : ٢٣

وقال فى وصف الولْدَان : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ (١) .

فى هذه النصوص الكريمة شُبِّهت الحور بالبَيْض المكنون فى الأداحى . وبه تُشَبَّه العرب النساء وتسميهن « بيضات الخدور » (٢) .

ونلمح فى هذا التشبيه معنيين هما : الرقة والبياض . وهذان وصفان راجعان إلى جمال الأنثى الحسى . وإن كانت الرقة أقرب إلى الجمال النفسى منها إلى الحسى . ولأنهما راجعان إلى ما ذكرنا . فهما لا يكفيان وحدهما فى المدح والثناء . بل لا بد من وصف آخر يكمل النعمة . وصف آخر خُلُقى لأن المرأة لا تُمدح لجمالها وحده فجمالها قد يرديها كما جاء ذلك فى الحديث الشريف (٢) .

وقد تكفَّل بهذا الوصف الخُلُقى قوله تعالى : ﴿ مَّكْنُونٌ ﴾ أى محفوظ مصون ، وهذا معناه العفة وقصر استمتاعهن على أزواجهن . وقد أكدَّ هذا قوله تعالى : ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ ﴾ (٤) .. وهذا أقصى ما يتطلبه الحر فى المرأة .

وكما نلمح فى تشبيههن بالياقوت والمرجان معنى النفاسة والزكاوة . لأن مَن يملك شيئاً من هذين النوعين فهو عليه حريص وبه معتز (٥) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ ﴾ (٦) .. لأن اللؤلؤ قسيم الياقوت والمرجان فيما ثبت لهما من المعانى الشريفة والنضارة واللمعان . وهو لؤلؤ مكنون لم تعبث به يد عابثة .

---

(١) الإنسان : ١٩

(٢) انظر الكشاف : ٣٣/٤

(٣) الصافات : ٤٨

(٤) الرحمن : ٧٢

(٥) انظر : من بلاغة القرآن – لأحمد أحمد بدوى .

(٦) الواقعة : ٢٢

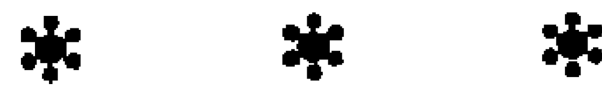
﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ (١) .. فالعفة والحصانة أبرز ما توصف به الحور العين فضلاً عن الجمال الحسى والاكتمال الخُلُقى .

أما الوِلْدَان . فقد شُبِّهوا - أيضاً - باللؤلؤ فأفاد هذا التشبيه جمال النظر ونفاسة الذات .

ثم وصفه بأنه « منثوراً » فالوصف هنا مغاير للوصف فى جانب الحور العين .. هناك يثبت العفة والحصانة والطهارة لإناث الحور . والعفة والطهارة أكرم أوصاف الإناث على الإطلاق ولا يضر الأنثى ما فاتها بعدهما .

أما الوِلْدَان فإن القصد إلى كثرتهم وإنتشارهم لخدمة أهل الجنّة أمر مطلوب ، وليسوا هم بحاجة إلى إثبات العفة لأنهم ليسوا مظنة التبذل .. ولهذا جاء الوصف - هنا - كما كان - هناك - وافياً بالغرض : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ﴾ (٢) .

فهم فى صفاء اللؤلؤ وانتشار الكواكب . وصدق اللّه العظيم . ما أحسن قوله وأحكم كتابه .



٣ - وصف الجنة :

قال سبحانه : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ سَابِقُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٤) .

---

(١) الرحمن : ٥٦
(٢) الإنسان : ١٩
(٣) آل عمران : ١٣٣
(٤) الحديد : ٢١

« فى الآيتين حديث عن عرض الجنَّة دون الطول . لأن ما له عرض وطول فإن عرضه أقل من طوله . فإذا عُرِف عرضه بالبسطة عُرِف أن طوله أبسط وأمد » [1] .

ويرى السعدى - كما يذكر الزمخشرى [2] - أن العرض قد يُراد به البسطة وليس ما يقابل الطول . كقوله تعالى : ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [3] ويكون المعنى : بسطتها كبسطة السماء والأرض .. والآيتان تصفان الجنة من حيث الاتساع أو المساحة . وهذا ظاهر .

وقال سبحانه : ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ المُتَّقُونَ ، تَجْرِى من تَحْتِهَا الأنْهَارُ ، أُكُلُهَا دائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ ، وَعُقْبَى الكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ [4] .

وقال سبحانه : ﴿ مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ المُتَّقُونَ ، فيهَا أنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسنٍ وَأنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا من كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَسُقُواْ مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أمْعَاءَهُمْ ﴾ [5] .

وهاتان تتحدثان عن نعيم الجنَّة لا عن عرضها وطولها . وهما تدخلان فى باب التشبيه من حيث أن المراد بالمثل فيهما الصفة الشبيهة بالمثل فى غرابتها [6] .

وآية « محمد » كالتفصيل لآية « الرعد » .

ففى آية « الرعد » إشارة مجملة إلى نعيم الجنَّة . وفى آية « محمد » تفصيل وتسمية لألوان ذلك النعيم .

---

(١) نقله الزمخشرى عن السدى فى الكشاف : ٤/٣٨٢

(٢) نفس المصدر . (٣) فصلت : ٥١ (٤) الرعد : ٣٥

(٥) محمد : ١٥ (٦) الكشاف : ٤/٢٢٤

وفى « الرعد » إشارة إلى دوام الأكل وإن انفردت بذكر الظل . وفى « محمد » تعيين لذلك الأكل : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (١) .

والآيتان تثبتان للجنَّة الموعود بها المتقون كل أسباب البهجة والنعيم الخالد ، وقد اشتملت آية « محمد » على زيادة لا بد لها من توجيه . وهى قوله تعالى : ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَسُقُواْ مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (٢) .

وقد تطوَّع الزمخشرى بهذا التوجيه فقال : « فإن قلتَ : ما معنى قوله تعالى : « مثل الجنة التى وُعِدَ المتقون فيها أنهار .. كمن هو خالد فى النار ... » ؟

قلت : هو كلام فى صورة الإثبات ومعناه النفى والإنكار . لانطوائه تحت كلام مصدَّر بحرف الإنكار ودخوله فى حيزه . وإنخراطه فى سلكه . وهو قوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ (٣) ، فكأنه قيل : « أمثل الجنة التى وعد المتقون .. كمن هو خالد فى النار » ؟

فإن قلتَ : فلِمَ عرى من حرف الإنكار . وما فائدة التعرية ؟

قلت : تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة مَن يسوى بين المتمسك بالبيِّنة . والتابع لهواه وأنه بمنزلة مَن يسوى بين الجنَّة التى تجرى تحتها الأنهار وبين النار التى يُسقى أهلها الحميم » (٤) .

والحق أن ما ذكره الزمخشرى كلام فى منتهى الجودة . وكذلك يرى العلاَّمة أبو السعود فى تفسيره . وقد زاد كثرة التقديرات إذ أورد الوجوه الآتية :

﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ ﴾ : خبر لمبتدأ محذوف تقديره : أمَّنْ هو خالد فى الجنَّة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد فى النار ؟

وقيل : معناه أمثل الجنة كمثل جزاء مَن هو خالد فى النار ؟

ففى الكلام حذف متضايفين .

---

(١) محمد : ١٥
(٢) محمد : ١٥
(٣) محمد : ١٤
(٤) نفس المصدر ص ٢٢٥

أو : أمثل أهل الجنة كمثل مَن هو خالد في النار ؟

قال : « وعرى عن حرف الإنكار وحذف ما حذف تصويراً لمكابرة مَن يسوى بين المتمسك بالبيِّنة وبين التابع للهوى بمكابرة مَن يسوى بين الجنَّة الموصوفة بما فصل من الآيات الجليلة وبين النار » (١) .

* * *

(٢) في التخويف والتحذير :

الترغيب والترهيب وسيلتان من وسائل تربية الجماعات والأمم ، وقد تقدَّم دور التشبيه القرآني في مجال الترغيب والوصف المحبِّب للموصوف ، ونتناول فيما يأتي دوره في الترهيب وما يتصل به من معان .

١ - وصف الدنيا :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاة الدُّنْيَا كَمَاء أنزلْنَاهُ منَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ به نَبَاتُ الأرْضِ فَأصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ، وكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ إنَّمَا مَثَلُ الحَيَاة الدُّنْيَا كَمَاء أنزلْنَاهُ منَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ به نَبَاتُ الأرْضِ ممَّا يَأكُلُ النَّاسُ وَالأنْعَامُ حَتَّى إذَا أخَذَتَ الأرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أهْلُهَا أنَّهُمْ قَادرُونَ عَلَيْهَا أتَاهَا أمْرُنَا لَيْلاً أوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأن لَّمْ تَغْنَ بِالأمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ اعْلَمُواْ أنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأمْوَالِ وَالأوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ

(١) الكشاف : ٥٨٨/٤ (٢) الكهف : ٤٥ (٣) يونس : ٢٤

فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ، وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ (١) .

* *

● ملامح مشتركة بين الصور الثلاث :

هذه الصور الثلاث اشتركت فى معنى عام لم تخل منه واحدة منها وهو تشبيه الدنيا بماء أنزله اللّه من السماء . فأحيا الأرض بعد موتها . وأنبتت واخضرت واكتملت صورة الأرض بالأشجار والزروع المختلفة الطعوم والألوان والحجوم فدبت على ظهرها الحياة مرحة نشيطة . وحالف الحظ أقواماً فملكوا من حطامها وعروضها الكثير . وسخّروها لخدمتهم وتوّصلوا إلى بعض من أسرارها وقد بدت فى أعينهم عروساً فاتنة . وظنوا أنهم قادرون على إخضاعها لأغراضهم فركنوا إليها واثقين ، وبينما هم كذلك جاءها أمر اللّه فدمرها تدميراً وأصبحت أثراً بعد عين كأن لم يكن لها وجود سابق .

والصور فى المواضع الثلاثة من الصور المركّبة شبّهت فيها الحياة الدنيا فى زهوها وسرعة فنائها بصورة الزرع فى نموه وازدهاره . وصيرورته هشيماً جافاً وأعواداً متهشمة متكسرة لا يتعلق بها أمل . ولا تغنى عن شئ ؛ فجدير ألا يطمئن إليها عاقل ولا يغتر بها إنسان .

أو الوجه – كما يقول الزمخشرى – : « سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال » (٢) .

وقد برزت فى ثنايا التشبيهات الرئيسية صور بيانية تدور حول التشبيه والمجاز والقصر .

ففى آية « يونس » وردت التعبيرات الآتية : ﴿ حَتَّى إذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ .. وهذا مجاز طريقه الاستعارة التمثيلية . قالَ صاحب

---

(١) الحديد : ٢٠ .

(٢) الكشاف : ٢/٢٦٧

الكشاف : « جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها . وتزيّنت بغيرها من ألوان الزين » [1] .

ووردت عبارة : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾ فـ « أتاها أمرنا » مجاز حكمى علاقته المفعولية والتقدير : آتيناها أمرنا ، وفى الإسناد إلى الأمر من المبالغة والفخامة ما فيه . و « جعلناها حصيداً » تشبيه مؤكد محذوف الأداة أى كحصيد . و « حصيد » بمعنى مفعول ووضع « فعيل » مكان « مفعول » لما يشعر به من المبالغة فى المعنى .

و « كأن لم تغن بالأمس » . تشبيه مرسل لذكر الأداة فحواه تنزيل وجود الدنيا حيث كانت بمنزلة العدم لسرعة فنائها وذهاب أثرها .

كما اشتملت الفاصلة على تشبيه : ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ [2] .. أى مثل هذا التفصيل الواضح تفسيرنا لكل الآيات .

وآية « الكهف » اختصرت المسافة من أقصر طريق . وقد وصفت الهشيم الذى شُبِّهت به الدنيا بأنه « تذروه الرياح » لدقة أجزائه وجفافه .

وحقَّرت آية « الحديد » الدنيا ووصفتها عن طريق التشبيه المؤكد بأنها : « لعب ولهو » وهما لا يجديان على صاحبهما غير الألم والحسرة .

ثم قصرت : « آثر الحياة الدنيا » عند الراكنين إليها بأنه « متاع الغرور » قصر موصوف على صفة وطريقه النفى والإثبات .

وترى التئاماً ساحراً بين مطلع الآية وفاصلتها .

* *

٢ - وصف الأعمال المخالفة للتوجيه الإلهى :

من ذلك وصف الغيبة فى قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [3] .

---

(١) الكشاف : ٢٦٧/٢ (٢) الأعراف : ٣٢ (٣) الحجرات : ١٢

فقد شبَّه المغتاب بمن يأكل لحم أخيه ميتاً . وهذه صورة تعافها النفوس .. وتنفر عنها الطباع .

قال الزمخشرى : « تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من المغتاب على أفظع وجه وأفحشه . وفيه مبالغات شتَّى : منها الاستفهام الذى معناه التقرير ، ومنها جعل ما هو فى الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة . ومنها إسناد الفعل إلى « أحدكم » والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك . ومنها لأنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً ، ومنها أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتاً » (١) .

وهذه اعتبارات دقيقة لحظها الزمخشرى تُسجَّل له . ولكن جعله الاستفهام للتقرير لا يرتاح إليه الفكر . والأولى حمل الاستفهام على الإنكار كقوله تعالى : ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ (٢) .. وذلك لأن الاستفهام التقريرى يكون مدخوله مثبتاً كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (٣) .

ومدخول الاستفهام فى آية الغيبة منفى ؛ فكيف للزمخشرى أن يجعل الاستفهام معه للتقرير ؟

ومنها أيضاً قوله تعالى محذراً من نقض الأيمان والعهود : ﴿ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً ﴾ (٤) .

خاطَب اللّه العرب بما هو مألوف لهم . من ذلك الصورة المشبَّه بها فى الآية الكريمة ، و « نقض الغزل » يؤدى إلى إفساده حيث يُراد الانتفاع به ، ولا يحب أحد أن يبطل عملاً بدأه أو أكمله خاصة إن كان هذا العمل موضع أمل .

---

(١) الكشاف : ٢٩٧/٤
(٢) آل عمران : ١٠٦
(٣) الشرح : ١
(٤) النحل : ٩١ - ٩٢

والتى تنقض غزلها خرقاء لا عقل لها ولا رشاد .. هى كمن يحرث فى البحر يكد ويتعب فيما لا يعود عليه بنفع .

والنقض فى جميع استعمالاته يدور حول الإفساد والإبطال .

قال الراغب : « النقض انتشار العقد من البناء . والحبل والعقد وهو ضد الإبرام . ومن نقض الحبل والعقد استعير نقض العهد .. » (١) .

لذلك وقع التحذير بهذه الصورة لتكون أوقع فى النفس . وأحرى بالالتزام .

ومنه التحذير من الإنفاق على غير الصفات المطلوبة .

قال سبحانه : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

جاءت هذه الآية بعد ثناء على المنفقين فى سبيل الله ، ولا ينفقون إلا عن إيمان به ورضا نفس وحب فيه ، فكان فيها ترغيب لهم فيما استحقوا عليه الثناء .

أما هذه الآية فجاءت مُحذِّرة من مخالفة الأصول الشرعية فى الإنفاق .

قال الزمخشرى : « وهذا مثل للذى يعمل الأعمال الحسنة لا يبتغى بها وجه الله . فإذا كان يوم القيامة وجدها محبَطة فيتحسر حسرة مَن كانت له جنَّة من أبهى الجنان وأجمعها للثمار فبلغه الكِبَرُ . وله ذُرِّية ضعفاء - والجنَّة معاشهم - فهلكت بالصاعقة » (٣) .

وإذا كانت هذه الآية مسوقة لتنفير الناس من الإنفاق على غير وجه الشرع فقد حفلت الصورة الأدبية فيها بعبارات أدت المعنى على وجه حكيم .

---

(١) المفردات ص ٥٠٤ (٢) البقرة : ٢٦٦ (٣) الكشاف : ١/ ٢٤٠ .

فالرجل صاحب الجنّة المذكورة التى فيها النخيل والأعناب . والأنهار تجرى من تحتها وله فيها من كل ثمر نصيب ، ذلك الرجل قد حلّت به الشيخوخة فأضعفته فهو غير قادر على الكسب مما سواها . وله أولاد ضعاف فى حاجة إلى ثمارها . أصابها إعصار مدمر فيه نار فاحترقت فى غمضة عين .

فلو كان هو شاباً لهان الخَطْب . ولو كان أولاده أقوياء لهان الخَطْب . ولكن كيف وهو وأولاده بتلك الصفة .

ومما يزيد من الحسرة : أن الواقعة كانت مفاجئة فلم تكن هناك فرصة للاحتياط ، والاحتراق أعقب الإصابة فلم تكن هناك فرصة للإنقاذ .

﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ وهل تنكير الإعصار والنار إلا لإرادة التهويل من شأنها .

ومثل هذه الآية التحذير من أكل الربا فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ﴾ (١) .

فصورة الإنسان الذى يتخبطه الشيطان من المس صورة بغيضة إلى النفس . فمَنْ أراد أن يكون كذلك لا يتورع أن يأكل الربا !

وهل يرضى عاقل هذا المصير لنفسه ؟

ومنه التحذير من أذى الأبرياء كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ آذَوْاْ مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ، وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ (٢) .

* *

---

(١) البقرة : ٢٧٥ (٢) الأحزاب : ٦٩

٣ - التخويف من أهوال المحشر :

للتشبيه فى القرآن الكريم دور هام فى الحديث عن يوم القيامة ، وحديث القرآن عن يوم القيامة على أنواع :

أولاً - إمكان وقوعه :

أى أنه ليس كما يقول المنكرون أنه مستحيل الوقوع ، وفى هذا الجانب وردت النصوص الآتية :

قال سبحانه : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ، كَذَلِكَ يُحْيِى اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ، وَعْداً عَلَيْنَا ، إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (٦) .

*

---

(١) البقرة : ٧٣ — (٢) الأنبياء : ١٠٤ — (٣) الروم : ١٩

(٤) لقمان : ٢٨ — (٥) فاطر : ٩ — (٦) الأعراف : ٢٩

● قياس واضح يُلزمهم بالتصديق :

فى النصوص المتقدمة يهدف القرآن إلى إثبات صحة وقوع البعث ففند تلك الشُبهة الواهية التى بنى عليها المنكرون مذهبهم فيه . حيث استبعدوا وقوع البعث بعد الموت وصيرورتهم تراباً وعِظاماً .

والحقيقة التى اعتمد عليها القرآن فى هذا المجال حقيقة بدهية لا تحتاج إلى جدل طويل ، وقد ساق لهم القضية فى أسلوب منطقى واضح لا يخرج عن التسليم به إلا مكابر .

فالله خلق الكون كله على غير مثال سابق ومن غير مادة تقدمت فى الوجود عليه .. خلق مادته وشكل تلك المادة فيما نراه ونشاهده .. أرض وسماء .. أفلاك وأنهار .. صحارى وجبال .. إنسان وحيوان .

وبدهى أن الذى خلق الحياة أولاً فإن الإعادة - وإن استوى عنده أمرها مع أمر البداية - فهى أهون عليه .

وقياساً عليه فإن البعث أمر ممكن فى نفسه . وإن كان من حيث الوعد به واجباً شرعياً . جاء هذا القياس فى أسلوب تشبيهى أدبى .

فالمشبَّه به هنا هو المقيس عليه من حيث أنه أمر واقع .. والمشبَّه هو المقيس وهو أمر متوقع .

وما دام نظيره قد ثبت وقوعه علماً وعقلاً . فإن ما قيس عليه أدخل فى مجال الوقوع :

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (١) .

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ (٢) .

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (٣) .

---

(١) الأعراف : ٢٩ (٢) الأنبياء : ١٠٤ (٣) لقمان : ٢٨

وجه الشبه فى هذه النصوص - وما أشبهها - هو الإمكان واليُسر والسهولة .

.. وقد كان تحدى القرآن لهم واضحاً فى القصة الآتية :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَن يُحْيِى العِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَى وَهُوَ الخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١) .

فى هذا النص الكريم رد مفحم على دعواهم التى صدَّرها القرآن النص . ثم أخذ فى الرد عليها فلم يتركها شيئاً ذا قيمة .

قاس أمراً متوقَعاً على ما هو واقع فعلاً ، ليستوى معه فى إمكان الوقوع . وبذلك تندحض شُبهتهم .

* *

ثانياً - قرب وقوع يوم القيامة :

وفى ذلك وردت النصوص الآتية :

قال سبحانه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ، بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القَوْمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (٣) .

فى آية « الأحقاف » شبَّه مدة لبثهم قبل القيامة بكونها ساعة من نهار . هكذا : ساعة من نهار .. لم تزد عليه . والساعة الملبوثة « نكرة » من يوم « نكرة » كذلك ، ولعل التنكير هنا مقصود به التقليل ، ولتلك القِلّة لم يحفظوا

---

(١) يس : ٧٨ - ٨٢ (٢) الأحقاف : ٣٥ (٣) النازعات : ٤٦ .

لهما صورة فى الذاكرة فصارتا عندهم وقتاً مبهماً . ووجه الشبه بين الطرفين : قصر المدة .

وقد جاء قصر هذه المدة عن طريق المجاز الاستعارى فى قوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ (١) . حيث شبَّه مدة لبثهم فى القبور بالزيارة .

ويروى أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال : لقد بُعِثَ الناس (٢) .

والتشبيه فى آية الأحقاف ذو غرضين :

أحدهما : تثبيت النبى ﷺ حتى لا يستعجل لهم العذاب ، لأنهم حين يرونه لم يشعروا إلا بقصر عيشهم الذى كانوا فيه .

وثانيهما : تهديد المنكرين بقرب ما يوعَدون .

وفى آية « النازعات » شُبِّهت المدة الملبوثة قبل القيامة بعشية يوم أو ضحاه ، وهذا تفسير للساعة فى آية « الأحقاف » ، وهى هنا جزء من اليوم لم تتعده ، وقد أضيف الضحى إلى ضمير « العشية » ولم يقل : أو ضحىً ؛ ليكون الجزءان من يوم واحد ، ولو قطع « الضحى » عن هذه الإضافة لجاز وقوع « العشية » فى يوم والضحى فى يوم آخر ، وهذا يؤذن بتعدد أيام الدنيا فى موقف يُراد فيه بيان القصر الواقع فيها فهو لا يخدم المعنى ولذلك عُدِلَ عنه .

وإضافة « الضحى » إلى ضمير « العشية » لمحة بيانية لتحقيق التشبيه (٣) .

وقد جاء عن غير طريق التشبيه : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

* *

(١) التكاثر : ١ - ٢

(٢) التفسير البيانى جـ ١ - بنت الشاطئ .

(٣) انظر الكشاف : ٤/٥٥٩

(٤) المؤمنون : ١١٢ - ١١٤

ثالثاً – طول يوم القيامة :

ويقابل قصر المدة السابقة على يوم القيامة . طول اليوم نفسه ، أى طول يوم القيامة ، وفى هذا وردت النصوص الآتية :

قال سبحانه : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٣) .

هذه ثلاث آيات تصف يوماً يتبادر إلى الذهن وشاع عند الناس أنه يوم القيامة ، ولذلك آثرنا تسجيل هذه الآيات الثلاث هنا لندرسها من خلال آراء العلماء فيها وما يبدو للنظر من توجيه .

وأول ما يُلاحَظ على هذه الآيات أن اثنتين منها تصف اليوم فى الطول بألف سنة ، والأخرى تصفه – فى الطول أيضاً – بخمسين ألف سنة .

وهذا الاختلاف فى الوصف يحمل على الاعتقاد بأن اليوم الوارد فى الآيات الثلاث ليس المراد به يوماً واحداً ، بل يومان على الأقل .

لذلك اهتم العلماء بالبحث فى هذا الإشكال .

ويتلخص رأى الخطيب الإسكافى فى التمييز بين اليوم الموصوف بألف سنة وهو الوارد فى سورتى الحج والسجدة ، وبين اليوم الموصوف بخمسين ألف سنة وهو الوارد فى سورة المعارج .

---

(١) المعارج : ٤ (٢) الحج : ٤٧ (٣) السجدة : ٥

فما وُصِفَ فى « المعارج » بأن طوله خمسون ألف سنة فهو يوم القيامة ، أما ما فى آيةَ « الحج » فإن المراد به عنده مضاعفة العذاب ومضاعفة النعيم ، يعنى أن يوم العذاب ينال فيه العاصى من العذاب ما يناله فى ألف سنة لشدة الهول .. ويوم النعيم ينال فيه المُنَعَّم خيراً كثيراً ينال مثله فى ألف سنة من أيام الدنيا .

أما ما فى « السجدة » فإن المراد به وقت نزول وعروج الملائكة بأمر اللّه . إذ يكون نزولهم وصعودهم فى يوم واحد . وما بين السماء والأرض خمسمائة سنة ، فيكون مجموع الصعود والنزول ألف سنة (١) .

وللخطيب الإسكافى رأيان آخران :

أحدهما : أن يكون اليومان فى « الحج » و « السجدة » من أيام اللّه التى خلق فيها السموات والأرض . ويوم « المعارج » هو يوم القيامة .

ثانيهما : أن يكون الحديث فى المواضع الثلاثة عن يوم القيامة . والمعنى أنه لا آخر له .

وفيه أوقات مختلفة طولاً وقصراً (٢) .

والعلاَّمة أبو السعود المختار عنده أن اليومين اللذين فى « الحج » و « السجدة » يومان آخران غير يوم القيامة . فيوم « الحج » من أيام الدنيا . والعذاب المستعجَل هو العذاب الذى نزل بهم فى الدنيا وطال اليوم لشدته عليهم (٣) . ويوم « السجدة » هو يوم صعود وهبوط الملائكة بتدبير الأمر . وهو يوم القيامة ، ولكن أبا السعود لم يرتح لهذا الرأى (٤) . ولم يقطع فى اليوم الوارد فى آية « المعارج » برأى واضح بل اكتفى بأن يراد به يوم القيامة أو هو عبارة عن بُعد المعارج والعرش (٥) .

---

(١) انظر : غرة التنزيل ودرة التأويل ص ٢١٢

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٠.

(٣) تفسير أبى السعود : ٢٢٥/٤

(٤) نفس المصدر : ٢٩٧/٤

(٥) المصدر نفسه : ٧٦٦/٤

ولم يخرج الزمخشرى عما فصّله أبو السعود . فاليومان فى « الحج » و « السجدة » الأرجح عندهما أنهما غير يوم القيامة . ويوم « المعارج » الأظهر أنه يوم القيامة عند الزمخشرى ، أما أبو السعود فهو عنده مجرد احتمال .

*

● والخلاصة :

أن النظم القرآنى فى المواضع الثلاثة ليس فيه دلالة قطع على أن المراد باليوم فيه هو يوم القيامة أو غيره من أيام يعلمها الله . والذى يبدو من ظاهر الآيات وسياق الكلام الذى وردت فيه أن اليوم المذكور فى آية « الحج » هو يوم من أيام عذاب الله الكافرين . والمعنى : أن يوماً واحداً منها عظيم فى شدة وقعه عليهم لدرجة أن ما ينالهم فيه من عذاب لا ينال مثله إلا فى ألف سنة من أيامنا المعهودة . لأن أيام الشدائد تطول على حد قول الشاعر (١) :

كِلِينِى لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ قَاتِلِى ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِئِ الْكَوَاكِبِ

وقول الآخر :

فِى لَيْلِ صَوْلٍ تَنَاهَى العَرْضُ وَالطُّولُ ... كَأَنَّمَا لَيْلُهُ بِالحَشْرِ مَوْصُولُ

أما اليومان اللذان فى « السجدة » و « المعارج » فيتبادر تعلقهما بالعروج ، وعلى ذلك فإن العروج نوعان :

نوع يتم فى يوم يعادل ألف سنة من دورة الفلك . وقد سبق تفسير ذلك عند الخطيب الإسكافى .

ونوع يتم فيما يعادل خمسين ألف سنة . وحقيقة ذلك مما يعلم الله وحده .

إما إرادة يوم القيامة بيوم آية « الحج » فبعيدة . وكذلك آية « السجدة » وإن كان احتمال إرادة يوم القيامة فيه - أى اليوم المذكور فى آية « السجدة » - قوياً بخلاف ما فى آية « الحج » .

---

(١) النابغة الذبيانى .

أما آية « المعارج » فإن حمل اليوم فيها على يوم القيامة رأى تؤيده القرائن ويكفى أن ننظر إلى الآيات التى جاءت آيتنا فى سياقها ليتأكد لنا ذلك التأييد .

قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً * يُبَصَّرُونَهُمْ ، يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ * وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ .. ﴾ (١) .

فهذه الظواهر لا تكون إلا يوم القيامة . وهذا يُرجِّح أن يكون المقصود هنا يوم القيامة . ما لم نعتبر إرجاع الضمائر على العذاب الوارد فى قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ (٢) لأن كُلاًّ من العذاب ، واليوم المذكور فى قوله : ﴿ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (٣) . صالح لإرجاع الضمير عليه فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ (٤) . أى يرون العذاب أو اليوم الطويل .

وأيّاً كان اليوم المذكور فى هذه الآيات الثلاث فإن التشبيه قد أفاد طوله غير المعهود لأنه يوم تحدث فيه من الأعمال أو الأهوال ما لا يحدث مثله إلا فى الزمن المشبَّه به . والله أعلم .

* *

● أهوال القيامة :

وتحدَّث القرآن - كذلك عن طريق التشبيه عن الأهوال الجسام التى تقع يوم القيامة والظواهر التى ليس للناس بها عهد .

---

(١) المعارج : ٦ - ١٥
(٢) المعارج : ١
(٣) المعارج : ٤
(٤) المعارج : ٦ - ٧

وفى هذا الجانب وردت النصوص الآتية :

﴿ وَعُرِضُواْ عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ * بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً ﴾ (١) .

وقال : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ (٥) .

فهذه أهوال وظواهر غير معهودة تحدث يوم القيامة ساقها القرآن عن طريق التشبيه .

ففى آية « الكهف » شبَّه بعثهم وعرضهم على الله بهيئتهم وحالهم عند النشأة الأولى : ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، ووجه الشبه هنا أنهم مجرَّدون من كل حَول وقوة ، لا مال لهم ولا ولد ، حفاة عراة إلا مَن اكتسى بلباس التقوى ، ولا يبعد أن يدخل فى وجه الشبه اعتبار الجمع كما فى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾ (٦) .

والزمخشرى يُرجِّح أن وجه الشبه كونهم حفاة عراة ، لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً (٧) .

---

(١) الكهف : ٤٨ (٢) الحج : ٢ (٣) المعارج : ٨ - ٩

(٤) القمر : ٧ (٥) القارعة : ٤ - ٥ (٦) هود : ١٠٣

(٧) الكشاف : ٦٢٩/٤

وفى آية « الحج » جاء تمثيلهم بالسكارى . وقد مهّد لهذا التشبيه بأهوال تسلم مَن شاهدها إلى ما يشبه السُكر من الذهول والهذيان وفقد الإدراك .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ ، إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَئْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

و ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ كناية عن صفة هى الفزع من شدة الهول وانشغال كل امرئ بما كسب : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ (٢) .

وآية « المعارج » أبانت الأطوار التى ستئول إليها السماء إذ تكون كالمهل وهو دردى الزيت كما سبق .

أما الجبال فستكون مثل الصوف المصبوغ المتفرّق . إذا طيّرته الريح (٣) .

وجاء تشبيههم فى « القمر » بالجراد المنتشر فى الكثرة والانتشار ، كما جاء تشبيههم فى « القارعة » بالفراش المبثوث ، ووجه الشبه الكثرة والضعف والتموج والاضطراب .

وقال فى « المعارج » : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ (٤) ، الإيفاض : السرعة . والنُصب : كل ما نُصِبَ وعُبِدَ من دون اللّه . وهذا التشبيه مقصود به الكافرون . ففى التشبيه بإيفاضهم إلى النُصب تهكم بهم . وتوبيخ لهم . كأنهم يسرعون نحو أصنامهم التى كانوا يعبدونها لتنجيهم مما هو واقع .

---

(١) الحج : ١- ٢
(٢) عبس : ٣٤ - ٣٥
(٣) الكشاف : ٥٦٧/٢ ، وتفسير النسفى : ١٦/٣
(٤) المعارج : ٤٣

وجاء فى « الرحمن » : ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ (١) .

« وردة » : أى حمراء . و « الدهان » : الزيت .

هذه معان جد رائعة عرفناها فى القرآن الكريم عن طريق التشبيه فى أسلوب جزل واضح ، والآن ننتقل إلى مجموعة أخرى وهي :

١ - فى مجال القدرة الإلهية :

وفى هذا المجال وردت النصوص الآتية : ﴿ وَهِيَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَابُنَىَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

شبّه الموج بالجبال فى الضخامة والامتداد الشامخ . ومع هذا فإن السفينة - سفينة نوح - ظلت تمخر الماء فى سلام . وتشبيه « الموج » بالجبال ضرورة بيانية لأن المقام يقتضى إبراز نعمة الله وكيف نجى المؤمنين وسط الطوفان وتلاطم الأمواج .

ومن ذلك تشبيه السفن نفسها بالجبال فى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِى الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٣) .

والوجه - هنا ليس مجرد الضخامة - بل هو ملاحظة الاستقرار مع كونها تجرى فى البحر . لا تضطرب ولا تميد ميداً يؤدى بها إلى الهلاك . وآثر هنا « الأعلام » مكان « الجبال » لأن العَلَم هو الجبل الطويل (٤) لا مطلق جبل . ولا شك أن السفن أضخم وأكثر شموخاً من الموج .

وهذا ملحظ دقيق لاستعمال أحد المترادفين فيما هو به أولى . لم يُعرف ذلك على دقته وروعته فى غير القرآن .

---

(١) الرحمن : ٣٧ (٢) هود : ٤٣ (٣) الرحمن : ٢٤

(٤) الكشاف : ٣٤٤/٤ ، تفسير أبى السعود : ٦٦٣/٤

وكما شبَّه الموج بالجبال شبَّه بالظلل . وهى القطع من السحاب فقال : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعُواْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (١) .

وفى تشبيه الموج بـ « الظلل » التى هى سحاب ملحظ دقيق وجدة ظاهرة ، وليس فيه تشبيه الشئ بنفسه وإن كان كل منهما ماء ، لأن وجه الشبه الضخامة وأوثر لفظ « الظلل » على « السُحُب » لأنه يشعر بأن الموج ارتفع فوق ظهر الماء حتى صار له ظل . وهذا أنسب من حيث المقام .

وجاء تشبيه الجبل بالسحابة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ (٢) .

وهذا مثل من قُدرة اللّه لما صدَّ بنو إسرائيل عن العمل بما شرعه اللّه لهم قلع جبل « الطور » ورفعه فوق رءوسهم كأنه سحابة مظلة وهددهم إذا لم يمتثلوا أمره بأن يسقط عليهم الجبل (٣) .

ووجه الشبه الارتفاع والإظلال ، والغرض بيان قُدرة اللّه وتهديد بنى إسرائيل ليتعظ مَن عداهم .

وجاء فى مبدأ خلق الإنسان قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ (٤) .

« الصلصال » : الطين اليابس الذى له صلصة ، و « الفخار » : الخزف ، ووجه الشبه الجفاف واليبوسة .

وأصل الصلصلة تردد الصوت من الشئ اليابس (٥) ، والغرض من هذا التشبيه تذكير الإنسان بمبدأ خلقه وكيف أن قُدرة اللّه قد أخرجته من هذا المبدأ

---

(١) لقمان : ٣٢ (٢) الأعراف : ١٧١
(٣) الكشاف : ٣٤٤/٤ ، تفسير أبى السعود : ٦٦٣/٤
(٤) الرحمن : ١٤ (٥) المفردات للراغب ص ٢٨٤

إلى ما هو عليه إنساناً سوياً . وذلك أدعى للشكر . فهو مسوق للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النِعَم [١] .

وجاء فى تشبيه السرعة : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إلا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [٢] .

وقد جاء هذا التشبيه فى أسلوب قصرى محكم البناء . ويهدف إلى تحقيق غرضين : السرعة الفائقة . واليُسر .

وقد أوفى التشبيه بالغرضين أيما وفاء . وأين منه قول الشاعر :

ظَلَلْنَا عِنْدَ بَابِ أَبِى نَعِيمٍ ... بِيَوْمٍ مِثْلِ سَالِفَةِ الذُّبَابِ

وأين منه قول الآخر :

ويَوْمٍ كَظِلِّ الرُّمْحِ قَصَّرَ طُولَهُ ... دَمُ الزِّقِّ عَنَّا وَاصْطِكَاكُ المَزَاهِرِ

قوة وجزالة فى التشبيه القرآنى . وعفة ألفاظ . لا نجد لها مماثلاً فيما سواه . مع أن التشبيه القرآنى - هنا - وفى كل موضع مختص ، بالتفوق والدقة فى تصوير المعانى وتقريبها للفهم .

* *

٢ - باقة من زهور :

تقدمت الإشارة إلى هذا فى صدر هذا الفصل . ونستعرض فيه أنماطاً من التشبيه والتمثيل لا تخضع لغرض واحد . وإن أمكن توزيعها على بعض الفروع السابقة .

من ذلك قوله تعالى فى تشبيه اليهود : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ، بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللّهِ ، وَاللّهُ لَا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [٣] .

---

(١) تفسير أبى السعود : ٦٦٣/٤ (٢) القمر : ٥٠ . (٣) الجمعة : ٥

أراد الله أن يصف اليهود بترك العمل بما علموا . فاختار لهم هذا المثل : « حمار » يحمل أسفار العلم ونفائس المعارف . فهو يحملها على ظهره ويصطك بها جنباه ويعانى من تعبها والكد فى معاناة السير بها دون أن يعى شيئاً مما حوته .

فقد نزّل علمهم بها - أى بالتوراة - منزلة الجهل بما فيها من حيث أنهم لم يعملوا بمقتضاها . فلم يكن لهم مثل أقرب من مثل الحمار الذى تلك صفته .

فالتركيب ظاهر فى جهة المشبَّه به . لأنه ليس المراد تشبيههم بالحمار مجرد حمار ، بل الحمار على الهيئة المخصوصة .

وكذلك المشبه مركب أيضاً . لأن المراد تشبيه اليهود بتلك الهيئة المخصوصة لا مجرد يهود .

والوجه شقاء كل باستصحاب ما يتضمن النفع العظيم . والفوائد الشريفة من غير أن يحصل على شئ مع معاناة الكد والمتاعب فى حمله [١] .

وقد سار هذا التمثيل مثلاً على أفواه المتأدبين والبلغاء .

وقال سبحانه فى شأن المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [٢] .

قال الزمخشرى فى توجيه هذا التشبيه : « شُبِّهوا فى استنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير - بـ « الخُشُب المسندة » ، ولأن الخُشُب إذا انتُفِعَ به كان فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما دام غير منتفَع به أُسند إلى الحائط فشُبِّهوا به فى عدم الانتفاع » [٣] .

---

(١) البلاغة التطبيقية - أحمد إبراهيم موسى ص ٣٩

(٢) المنافقون : ٤ (٣) الكشاف : ٤/٤٣٣

ولا يجوز أن يكون المشبه الأصنام لا المنافقين . وهذا بعيد لأن الأصنام لا قول لها . وصياغة الآية تُشعر بمعان دقيقة .

* *

● **معان دقيقة :**

ذلك أن فيها شرطين ، أحدهما : الأداة فيه « إذا » وهو : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ .

وثانيهما : الأداة فيه « إنْ » وهو : ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ .

وقد وقع الشرط الثانى قبيل التشبيه مباشرة فجاء التشبيه فى حيزه .

إذن - فلماذا أوثرت « إذا » فى الشرط الأول و « إن » فى الثانى ؟

ولماذا أولى التشبيه الشرط الثانى وكان الأولى من حيث الظاهر أن يلى الشرط الأول ما دام التشبيه منصباً على الأجسام حسبما تقدَّم عند الزمخشرى ؟

وفى الإجابة عن هذه الأسئلة أُرجِّح الآتى :

إيثار « إذا » فى جانب الشرط الأول لعله - واللّه أعلم - لبيان حرصهم على غشيان مجالس رسول اللّه ﷺ طمعاً فى الحظوة عنده . ودفعاً للشك فيهم . ورجاء أن يصيبوا بعض ما يفتح اللّه عليه من مال . يبتغون من هذا الوجود إظهار الولاء والطاعة .

فلكثرة وقوعه منهم ، وحرصهم عليه ، صُدِّر بأداة الشرط المفيدة لتحقق مدخولها وهى « إذا » خاصة .

أما إيثار « إن » فى جانب القول فلعله - واللّه أعلم - لحرصهم - كذلك على عدم القول عنده إلا بحساب خشية أن يفلت منهم لفظ يكشف نواياهم وينم عما تخفى صدورهم من الكفر والنفاق . فلم يكونوا ينطلقون فى الحديث عنده

لعدم ثقتهم فى أن يقولوا كلاماً كله رائع عنده . فكانوا لا يقولون إلا بحساب ولا يقولون إلا المنمق من القول .

ولهذه الاعتبارات صدر الشرط بـ « إن » المفيدة للشك فى حصول مدخولها لأن « إن » وظيفتها ذلك الشك .

وأما إيلاء التشبيه الشرط الثانى فلأن له مدخلاً فيه ولو ولى الأول مباشرة لنبا المعنى .

وذلك لأن معنى الشرط الأول – منفصلاً – لا ينسجم معه معنى التشبيه لو حُمِلَ عليه فكان لا بد من توسط الشرط الثانى .

فقولهم – إذن – هو سر افتضاحهم وإن حرصوا على تنميقه وتهذيبه .

لذلك أشبهوا « الخُشُب المسندة » التى عفا عليها الدهر فلم تصبح موضع أمل أو مورد نفع .

وبقى معنى دقيق لم أر مَن تنبَّه له وهو مستفاد من إيلاء التشبيه الشرط الثانى الذى فعل الشرط فيه : « يقولوا » .

وهذا المعنى هو إيهام أن المشبه هو القول . على أن يكون المشبَّه به هو صوت الخُشُب المسندة لأنها لو أزيلت عن أماكنها سمعت لها دوياً وطنطنة ليس تحتها معنى وليس لها مدلول .

وهذا يعنى أن قولهم هراء لأن كل ما يصدر عنهم فى حضرة الرسول إنما هو مبعثه النفاق والمخادعة .

ومن روائع تشبيهات القرآن : تشبيه المؤمنين بالإخوة مع اختلاف أنسابهم قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) وهو تشبيه بليغ حسب مصطلح أهل الفن نزل فيه وصف الإيمان الصادق بمنزلة القرابة من الأب والأم .

---

(١) الحجرات : ١٠ .

وقال : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ (١) .. أى بنعمة الهداية .

وزوجات النبى أمهات المؤمنين ، قال : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (٢) . أى فى رعاية الحُرمة ، مع ملاحظة أنه لم يقل : النبى أبو المؤمنين ليتشاكل المعنى . لأن القرآن نفى ذلك فى سورة الأحزاب : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٣) ، فما كان له أن ينفى هناك . ويثبت هنا وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ (٤) .

ومنها - كذلك - تشبيه ضوء الفجر فى أول عهده وظلام الليل فى آخر عهده بالخيط الأبيض . والخيط الأسود فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (٥) . لأنهما يكونان دقيقين فى هذه اللحظة .

ومنهما تشبيه « الجفان » بالجواب فى الاتساع وذلك فى وقوله تعالى : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴾ (٦) . والجابية الحوض الذى يُجمع فيه الماء .

ومنها تشبيه كراهية بعض المؤمنين للقتال بالسوق إلى الموت فى قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ من بَيْتكَ بالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِى الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ (٧) .

ومنها تشبيه الزوج غير مرغوب فيها ولا مُطَلقة بالمعلَّقة فى قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ (٨) .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ (٢) الأحزاب : ٦ (٣) الأحزاب : ٤٠.
(٤) النساء : ٨٢ (٥) البقرة : ١٨٧ (٦) سبأ : ١٣
(٧) الأنفال : ٥ - ٦ (٨) النساء : ١٢٩

ولعل وجه الشبه هنا الاضطراب والتحير والقلق النفسى الذى ينتاب هذه الزوج .

ومن التشبيات الضمنية قوله تعالى : ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾ (١) .

جاء التشبيه الضمنى فى هذه الآية فى استئناف تعليلى مبيِّن لسبب الأمر بخفض الصوت . فرفع الصوت ليس فضيلة إذا كان لغير الحاجة .. والدليل أن صوت الحمير مع أنه أرفع الأصوات هو أنكرها ..

فكأنه شبَّه رافع الصوت بالحمار ، وشبَّه صوته بصوت الحمار .

ومنه كذلك قوله : ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ (٢) . ناهياً عن التكبر ، والصعر : ميل فى العنق . والتصعير : إمالته عن النظر كبراً .

وأصل الصعر داء يصيب الإبل فتميل عنقها من أجله . وهذه صورة قبيحة وكأن القرآن يُشبِّه المتكبر بالناقة المئوفة بالصعر قال الشاعر الجاهلى :

إِذَا المَلِكُ الجَبَّارُ صَعَّـرَ خَدَّهُ مَشَيْنا إِلَيْهِ بِالسُّيُوفِ نُعَاتِبُه

* *

٣ - التشبيه السلبى فى القرآن الكريم :

أداة التشبيه فى كل أسلوب تشبيهى تعقد صلة بين طرفيه ، وتنبئك بأن المشبه تربطه بالمشبَّه به رابطة هى الصفة المشتركة بينهما . لأن التشبيه فى أبسط تعاريفه هو إلحاق أمر بأمر فى صفة مشتركة بينهما بأداة تشبيه مذكورة أو مقدَّرة !

ولكنك تجد فى القرآن الكريم - أحياناً - هذه الأداة لا تعقد تلك الصلة بين طرفى التشبيه ، فهى تتوسطهما ، وليس بين ذينك الطرفين شبه ما ، فقد يكونان ضدين أو كالضدين أو غيرهما .

---

(١) لقمان : ١٩   (٢) لقمان : ١٨

ويكثر هذا النوع من التشبيه والذى يمكن أن نصطلح على تسميته - من الآن - بالتشبيه السلبى كما جاء فى العنوان . عندما يتحدث القرآن عن الهدى والضلال ، والكفر والإيمان ، والطاعة والمعصية .

وإليك النماذج :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ .. ﴾ (١) .

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣) .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٤) .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٥) .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٦) .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ، لا يَسْتَوُونَ ﴾ (٧) .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٨) .

---

(١) التوبة : ١٩ (٢) الأنعام : ١٢٢ (٣) الزمر : ٢٢
(٤) سورة ص : ٢٨ (٥) الزمر : ٩ (٦) الرعد : ١٩
(٧) السجدة : ١٨ (٨) الجاثية : ٢١

﴿ أفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُم ﴾ (١) .

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٢) .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ، بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (٣) .

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُواْ مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (٤) .

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٦) .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ (٧) .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى ﴾ (٨) .

*

(١) محمد : ١٤ — (٢) فاطر : ٨ — (٣) الرعد : ٣٣

(٤) محمد : ١٥ — (٥) النحل : ١٧ — (٦) الرعد : ١٦

(٧) البقرة : ٢٧٥ — (٨) آل عمران : ٣٦

● وقفة تأمل :

هذه نصوص برزت فيها التشبيهات السلبية حسبما اتفقنا من قبل على هذه التسمية .

وما هو حقيق بالملاحظة والتسجيل أن هذا النوع من التشبيه ذو خصائص مميزة يحسن بنا أن ننظر فيها .

أولاً : أنها صيغت على أسلوب التشبيه وليس بين الطرفين أدنى صلة . والأداة إما مذكوره فيها - وهذا هو الغالب - وإما مقدرة - وهذا قليل - وقد ينصب النفى فيها على فعل فيه معنى التشابه مثل : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ ؟ (١) .

ثانياً : أن هذه التشبيهات تكون حين يجرى القرآن الكريم مقارنة بين معنيين ضدين أو كالضدين . وهذا الأسلوب غير معثور عليه خارج القرآن إلا نادراً . وهو مع نُدرته ليس على طريقة هذه النصوص القرآنية . لما فيها من جدة وجزالة . ومن النادر لهم قول داود الأنطاكى :

فَقُلْ لِمَنْ يَرْغَبُ فِى أَسْمَرٍ ... مَا الفِضَّةُ البَيْضَاءُ مِثْلُ النُّحَاسِ (٢)

وقال المتنبى (٣) :

مَا الَّذِى عِنْدَهُ تُدَارُ المَنَايَا ... كَالَّذِى عِنْدَهُ تُدَارُ الشَّمُولُ

ومن شواهد النحاة :

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ المَرْءُ يُولَدُ عَالِماً ... وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ

وأثر الاقتباس من القرآن ظاهر فى البيت الأخير . أما قول الأنطاكى السابق فمعناه : بارد لا عاطفة فيه . وقريب منه بيت المتنبى .

---

(١) فن التشبيه - الأستاذ على الجندى : ١٠٧/١

(٢) الرعد : ١٦ (٣) نفس المصدر : ١٠٧/١

ثالثاً : أن فى كل أسلوب تشبيهى من هذا النوع استفهاماً إنكارياً هو سر السلب فيه ... وقد تخلو بعض هذه المواضع من ذلك الاستفهام الإنكارى لفظاً ويستفاد السلب حينئذ من أمر خارج عن الأسلوب ويكون الأمر المفيد للسلب : إما الشرع وحده كنفى التشبيه بين البيع والربا ، أو الشرع والعقل كنفى التشبيه بين من يَخلُق ومن لا يَخلُق ، أو العادة والواقع كنفى التشبيه بين الذكر والأنثى.

رابعاً : إن أداة التشبيه فى بعضها قد حُذِفَت مع حذف المشبَّه به ولم يبق من أطراف التشبيه الأربعة إلا المشبه . لأن الوجه محذوف . كذلك .

وهذا ورد فى أربعة مواضع :

موضع فى « الرعد » فى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ (١) .

وموضعان فى « الزمر » أحدهما : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ .. ﴾ (٢) .

وثانيهما : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ .. ﴾ (٣) .

والرابع فى « فاطر » فى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ .. ﴾ (٤) .

ومع هذا الحذف لثلاثة من أركان التشبيه . لم يسم الباقى بعد الحذف استعارة .. والبيانيون يطلقون على ما كان شأنه كذلك : استعارة بالكناية .

لكنهم لم يقولوا هذا فيها ، أى فى هذه الأساليب ، بل أبقوا التعبير على أصله من التشبيه .

---

(١) الرعد : ٣٣
(٢) الزمر : ٢٢
(٣) الزمر : ٩
(٤) فاطر : ٨

والمانع من جعل هذه الأساليب استعارة مكنية أمران :

أحدهما : أن المحذوف - هنا - منوى التقدير وملاحظ وجوده لقوة الدليل عليه . ولا بد من تقديره لأنه جواب استفهام مذكور أو مقدَّر . ففى الكلام - إذن - إيجاز بالحذف .

ثانيهما : أن حمله على الاستعارة المكنية غير صالح لأن فيها لا بد من وجود رمز ينوب مناب المشبَّه به . وليس فى هذه الأساليب وجود لذلك الرمز .

وهذا لون من التشبيه لم نجده إلا فى القرآن الكريم . فهو خاصة من خصائصه لا جدال فيها .

ففى الآية التاسعة من الزمر : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ يقول الزمخشرى : « من : مبتدأ خبره محذوف . تقديره أفمن هو قانت كغيره. وإنما حذف لدلالة الكلام عليه . وقيل : معناه أَمَّنْ هو قانت أفضل أو مَن هو كافر » [1] .

وقال فى الآية الثانية والعشرين منها . وهى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴾ : « أفمن عرف اللَّه أنه من أهل اللطف فلطف به حتى شرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له » [2] .

وقال فى آية فاطر وهى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً .. ﴾ : « يعنى أفمن زُيِّنَ له سوء عمله من الفريقين كمن لم يزيَّن لَه .. » [3] .

وقد حذا أبو السعود [4] والإمام النسفى [5] حذو الزمخشرى مع الاختلاف فى الصياغة بداهة .

---

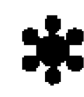
(١) الكشاف : ٤/٩٠ (٢) نفس المصدر : ٤/٩٥ (٣) الكشاف : ٣/٤٧٢

(٤) تفسير أبى السعود : ٤/٣٦٢ ، ٤٦٠ ، ٤٦٥

(٥) تفسير النسفى : ٤/٢٤٩ ، ٣/٣٣٦

وكذلك خرَّجوا آية الرعد على أسلوب التشبيه . يقول النسفى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ : « يعلم خيره وشره ويعد لكلٍّ جزاءه كمن ليس كذلك » ؟ (١) .

وكذلك ذهب الإمامان الزمخشرى (٢) وأبو السعود (٣) .. فقد أجمعوا على أن هذه الأساليب باقية على أسلوب التشبيه وإن كان المحذوف منها ثلاثة من أركانه .



خامساً - سر مجيئها على التشبيه :

إن مسوغ مجئ هذه الأساليب على طريقة التشبيه السلبى فيها واقع خارج القرآن . والذى فى القرآن هو نفى ذلك التشبيه هو سلب أن يكون بين ما عدوه خارج دائرة القرآن متشابهاً تشبيه ما . فذلك خطأ فى الحسبان جاء تصحيحه بسلب التشبيه بين الطرفين فى القرآن الكريم .

فليس مَن أحياه الله بالهدى كمن مات بالضلال . وليس مَن هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن ليس كذلك . وليس من اتقى الله وخافه كمن عصاه وفجر .



• التشبيه المقلوب :

بقيت صورتان اختلف فيهما .. إحداهما هو قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ (٤) .

فقد عدَّ هذا الموضع من التشبيه المقلوب وأصله : أفمن لا يخلق كمن يخلق .

---

(١) تفسير النسفى : ٢/١٩٣

(٢) تفسير الزمخشرى : ٢/٤١٤

(٣) تفسير أبى السعود : جـ ٢

(٤) النحل : ١٧

والثانية هى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ (١) ، والأصل : إنما الربا مثل البيع . فهو كذلك من التشبيه المقلوب وإنما كان الأصل كذلك فى الآية الأولى . لأن الكلام مسوق للإنكار . أى إنكار أن يسوى ما لا يخلق بمن يخلق . فيكون إلزاماً لهم بالحُجَّة حيث عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله سبحانه وجعلوا غير الخالق مثل الخالق (٢) .

وأجاب الشيخ حمزة فتح الله (٣) بأن الخطاب لعُبَّاد الأوثان ، وهم بالغوا فى عبادتها حتى صارت عندهم أصلاً . فجاء الإنكار على وفق ذلك .

ويقول السكاكى : « عندى أن الذى تقتضيه بلاغة القرآن هو أن يكون المراد بـ « مَنْ لا يخلق » الحى القادر من الخَلْق لا الأصنام . وأن يكون الإنكار موجها إلى توهم تشبيه الحى العالم القادر من الخلق به - تعالى وتقدَّس عن ذلك علواً كبيراً - تعريضاً عن أبلغ الإنكار لتشبيه ما ليس بحى عالم قادر به تعالى ، ويكون قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ تنبيه توبيخ على مكان التعريض » (٤) .

*

● فكرة للدرس :

وأقول : إن ما ذهب إليه السكاكى لا ترتاح إليه النفس ، كما أن فكرة التشبيه المقلوب فى الآية قد يمكن الاستغناء عنها .

لأن المتأمل فى المعانى التى تحدثت عنها سورة النحل قبل الآية المذكورة يجد أن تلك المعانى تأتى على الترتيب الآتى :

أن الله خلق الكون أرضاً وسموات ، وخلق الإنسان وخلق الأنعام ، وسخَّر الأنهار والبحار والكواكب لخدمة الإنسان ، وأنزل الماء من السماء لرى الأرض

---

(١) البقرة : ٢٧٥

(٢) انظر : فن التشبيه - لعلى الجندى .

(٣) المواهب الفتحية : ١/١٨٤

(٤) مفتاح العلوم ص ١٨٤

وإنبات الزرع والأشجار والثمار ، وأنه تعالى خلق أشياء كثيرة يعلمها الناس، وخلق غير ذلك مما لا يدخل تحت علمهم فى الماضى أو الحال أو الاستقبال .

فالطابع الغالب على هذه المعانى هو الخلق والإيجاد والتسخير (١) . بعد هذا قال : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ .

ولعل المعنى منها : أفمن خلق هذه الأشياء - ويخلق ما يشاء - وهو حى قادر على كل شئ دلت على ذلك آثاره - كمن لا يخلق شيئاً - وهو يُخلق ويُصنع وهو أعجز ما يكون أن يفعل شيئاً ؟

ويكون - على هذا التقدير - وجه الشبه المنفى هو العجز والضعف .. يعنى أن القُدرة الفائقة ثابتة لله . والعجز المُقْعِد ثابت لما سواه أصناماً وغيرها من المخلوقات .

وعلى هذا - والله أعلم - لا قلب فى التشبيه هنا .



● البيع ، والربا :

أما الآية الثانية : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ فقد نزلت فى شأن أهل مكة وكانوا يستحلون الربا ويالغوا فى حِلِّيته حتى جعلوه أصلاً قاسوا عليه البيع (٢) فأمر القلب فيها ظاهر والداعى إليه معلوم .

وهذا التقديم ينبئ عن مغالطة فاحشة ركن إليها مستحلو الربا . شأنهم فى ذلك شأنهم فى كل مسائل العقيدة والسلوك والأخلاق .

قالوا (٣) : ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ (٤) .. وهذا يلزم عليه أمران :

---

(١) أوائل سورة النحل : ١ - ١٦

(٢) فن التشبيه - على الجندى : ٣٢٩/١

(٣) نفس المصدر .

(٤) الجاثية : ٢٣

أولهما : كون الآية على أسلوب التشبيه الذى أداته مُقدَّرة .

ثانيهما : أنه من التشبيه المؤكد المجمل لحذف الوجه مع الأداة .

والذى يبدو أن فى عَدِّ هذه الآية من باب التشبيه - سواء أكانت من التشبيه المعدول أو المقلوب - مجافاة للصواب . لأن الآية تبالغ فى شأن من اتبع الهوى ونسى واجبات الخالق . وليس المغنى أنه ساوى بين واجبات الخالق . ومغريات الهوى . إذن فليس له - من ظاهر حاله - إله غير الهوى .

وقد سبق عن ابن عباس أن فى الآية تقديماً وتأخيراً .. والتقدير : « اتخذ هواه إلٰهه » (١) .

فعدها - إذن - من التشبيه ليس بمسلَّم .

وعدوا من المقلوب قوله تعالى حكاية عن ابنة عمران : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ ﴾ (٢) .. والأصل : وليس الأُنثى كالذكر . ولعل سر التقديم هنا أن نفسها كانت تمتلئ رغبة فى الذكر الذى طلبته .

* *

● خصائص تشبيهات القرآن :

أولاً - إن القرآن الكريم قد اشتمل على قدر كبير من التشبيهات ومن التمثيل لا تكاد تخلو منها واحدة من سوره الطوال . بل قد حفلت قصاره بكثير منه . وهو يتخذ من الأسلوب التشبيهى والتمثيلى وسيل للبيان والتهذيب ، والتربية والإصلاح والمدح والذم ، والإرشاد والتوجيه .

ثانياً - إن الغرض الدينى هو السمة الظاهرة فى جميع تشبيهات القرآن وتمثيله وليس بينها ما يخلو من هذه السمة .

---

(١) انظر ص ١٠٣ من هذا البحث : الفصل الثانى من الباب الثالث .

(٢) آل عمران : ٣٦

ثالثاً - إن الفائدة فى التشبيه القرآنى تعود دائماً على المشبه [١] لأن المشبَّه به أقوى صلة بالصفة المشتركة بين الطرفين . وهذا هو الغالب فيه .

« ومن غير الغالب أن يتساوى الطرفان فى الصفة . أو يكون المشبه أقوى من المشبَّه به كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [٢] ، وليس هناك داع للاحتجاج على مشروعية هذا التشبيه وصحة معناه بأمثلة من الشعر أو غيره . لأن المراد الإيضاح والبيان وليس المراد بيان المقدار » [٣] .

والتشبيه الإيضاحى لا يُشترط فيه قوة الصفة فى المشبه به دون المشبه ، والأولى أن يقاس على القرآن أقوال الشعراء لا أن يقاس هو عليها سواء فى ذلك مسائل هذا الفن وغيره من الفنون كالنحو والصرف .

رابعاً - مادة التشبيه والتمثيل القرآنى :

إن القرآن يتخذ من الطبيعة وظواهرها من سُحب وأمطار . ورعد وبرق . وبحور وأنهار . وزروع وأشجار . وجبال وصواعق . وزوابع وأعاصير . يتخذ من كل ذلك مادة حية فى تشبيهاته وتمثيلاته .. كما يتخذ من الحيوانات والآفات التى تصيب الإنسان كالعمى والبُكم والصم ... وما أشبه ذلك ، يتخذ منه كذلك مادة لتشبيهاته وتمثيلاته . ويتخذ من أحوال الحياة من غير هذه العناصر مادة يُشكِّل فيها التشبيه والتمثيل على نمط فريد . واتخذ كذلك من المعادن النفيسة مادة لتلك التشبيهات .

كما اتخذ من صفات البَشر من الرق والحرية وما أشبههما مادة لتشبيهاته ، وقد تكون الصورة المشبَّه بها مفروضة غير مدركة كتشبيه الإنفاق الخالص بسنبلة

(١) من بلاغة القرآن - أحمد أحمد بدوى . . (٢) النور : ٣٥

(٣) نفس المصدر وكذلك . البيان القرآنى - د . رجب البيومى .

أنبتت سبع سنابل ، وكتشبيه طلع شجرة الزقوم برؤوس الشياطين ، وكتشبيه اهتزاز العصا باهتزاز الجان .

ولذلك كانت تشبيهات القرآن خالدة حية مستمرة الجدة والطرافة ، والرقة والجزالة ، لأنها مصنوعة من مادة حية متجددة الرواء والنماء .

خامساً - غناء التشبيه والتمثيل القرآنى :

إن جملة التشبيه والتمثيل فى القرآن غنية بالمعانى الإضافية التى تقوى من المعنى الذى من أجله صيغ التشبيه أو التمثيل ولم يُكتَف فيها بمجرد وجود التشبيه بين الطرفين نفياً أو إثباتاً ، ذماً أو مدحاً ، وتقوم فواصل الآى فى هذا المجال بنصيب كبير .

ففى تمثيل الإنفاق الخالص بالسنبلة التى أنبتت سبع سنابل تجد وجه الشبه هو الكثرة والنماء . فجاءت الفاصلة مع قرينتها وافية بهذا المعنى أيما وفاء ، ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) ، وفى تمثيل الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة جاءت الفاصلة مؤكدة لهذا المعنى : ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٢) .

كما أكدت فاصلة تشبيه الكلمة الخبيثة المعنى حيث كانت : ﴿ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (٣) .

ثم تأمل المقابلة الساحرة بين الموضعين : « أصلها ثابت » مع « اجتثت من فوق الأرضِ » ، و « فرعها فى السماء » مع « ما لها من قرار » .

وإيثار لفظ مكان آخر يؤدى هذا الدور أيضاً ، فقد جاء تشبيه الموج بالجبال ، وتشبيه السفن بها كذلك . ولكنه فى جانب تشبيه الموج آثر كلمة : « الجبال » ، وفى جانب تشبيه السفن بها آثر كلمة : « الأعلام » وأصل المعنى واحد .

---

(١) البقرة : ٢٦١ (٢) إبراهيم : ٢٤ (٣) البقرة : ٢٦

ولعل السر فى هذه التفرقة أن السفن أضخم عادة من الموج والمراد بالجبل مطلق الجنس ، أما الأعلام فلا يراد بها إلا الجبال العظيمة ، فلذلك جاءت كل كلمة فى الموضع المناسب لها من حيث الوفاء بحق المعنى فى دقة وإحكام .

وقد ينمى القرآن المعنى المراد من التشبيه بزيادات لا تخلو من دلالة مهمة كقوله تعالى : ﴿ وإنْ يَسْتَغيثُواْ يُغَاثُواْ بمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ (١) ، وإلى هنا يكمل المعنى .. ثم يأخذ القرآن بعد ذلك فى إضافة زيادات مهمة تزيد المعنى الأصلى قوة وسلطاناً . فيقول : ﴿ يَشْوِى الوُجُوهُ ﴾ ، ويقول : ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ ، ويقول : ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ .

ومثله قوله تعالى : ﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى البُطُونِ * كَغَلْىِ الحَمِيمِ ﴾ (٢) ، فقد وصف « المهل » بأنه : « يغلى فى البطون » .

ثم أخذ « الغلى » المفهوم من الفعل : « يغلى » وأدخله فى تشبيه آخر : « كغلى الحميم » فخطا بالمعنى نحو القوة خطوة لها شأنها من حيث المقام . مقام التهديد والإنذار .. وغير ذلك كثير .

فأنت ترى - إذن - أن جملة التشبيه أو التمثيل فى القرآن مرنة لها من الحرية أن تدخل من المعانى الإضافية واستبدال لفظ مكان آخر أو أن تأتى فى الفاصلة بما يقوى المعنى ويؤكده . فى غير ما سرف ولا فضول .

سادساً - إن الأداة الغالبة فى تشبيهات القرآن هى « الكاف » ثم « كأن » ، وغالباً ما تدخل الكاف على كلمة « مثل » فتشبه مثلاً بمثل . وقلّ حذف الأداة فى تشبيهات القرآن على عكس ما يرى ابن الأثير فى المثل السائر .

وقد تدخل « الكاف » على « ما » المصدرية . وهى هنا تفيد التساوى بين الطرفين كما فى قوله تعالى : ﴿ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ (٣) .

---

(١) الكهف : ٢٩ (٢) الدخان : ٤٥ - ٤٦

(٣) البقرة : ١٣

وقوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ .. ﴾ (٢) .

*

● صورتان فيهما دقة :

وقد يكون المشبه مع « كما » محذوفاً كقوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (٣) .

فقد قال النسفى : « كما أخرجك ربك » فى محل نصب على أنه صفة الفعل المقدَّر . والتقدير : « قل الأنفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك » (٤) .

وأورد الزمخشرى هذا الرأى بلفظه ومعناه ، ثم أورد رأياً آخر ، قال : أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : « هذه الحال كحال إخراجك ، يعنى أن حالهم فى كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة مثل حالهم فى كراهة خروجك للحرب » (٥) .

وتابع العلاَّمة أبو السعود ما ذكره الزمخشرى فى الوجهين (٦) .

ومن هذا يتضح أن « كما » لم تدخل على المشبَّه به . بل دخلت على ما هو معمول فى المعنى للمشبَّه به . وهو : « لكارهون » .

ومثله فى كون الأداة غير داخلة على المشبَّه به - وهى : « كما » ، أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى

---

(١) المزمل : ١٥
(٢) النساء : ١٦٣
(٣) الأنفال : ٥
(٤) تفسير النسفى : ٧٢/٢
(٥) الكشاف : ١٥٤/٢
(٦) تفسير أبو السعود : ٣٤٢/٢

ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصَارِى إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللَّهِ ﴾ (١) .

قال الزمخشرى : « فإن قلتَ : ما وجه صحة التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصاراً لله بقول عيسى صلوات الله عليه : ﴿ مَنْ أنصَارِى إِلَى اللَّهِ ﴾ ؟ قلت: التشبيه محمول على المعنى ، وعليه يصح والمراد : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم : ﴿ مَنْ أنصَارِى إِلَى اللَّهِ ﴾ (٢) .

*

● سر آسر :

وهذا التصرف البديع لم يُعرف فى غير القرآن . ولعل السر فى إيلاء أداة التشبيه غير المشبه به - كما رأينا - الإيماء إلى عقد تشبيه بين القولين وهما : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ أَنْصَارَ اللَّهِ ﴾ ، و ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصَارِى إِلَى اللَّهِ ﴾ .

والوجه : أن كُلاً من القولين يجب أن يُطاع ويُمتثل . أما قول عيسى عليه السلام فقد أجيب . فعلى الذين آمنوا - كذلك - أن يجيبوا هذا القول ويمتثلوه.

وقد تدخل « الكاف » على اسم الإشارة - وهو كثير جداً فى القرآن : وهو على كثرته نوعان :

نوع يتضح فيه أمر التشبيه . مثل : ﴿ وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (٣) بعد قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً .. ﴾ (٤) .

---

(١) الصف : ١٤

(٢) الكشاف : ٤/٤٢٢

(٣) الشورى : ٥٢

(٤) الشورى : ٥١

وهذا النوع - أعنى وضوح التشبيه معها - هو الغالب فى استعمالها فى القرآن الكريم .

والنوع الثاني : ألا يكون أمر التشبيه فيها ظاهراً . مثل قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ ، قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [1] .

لذلك يرى بعض الباحثين [2] : أن يحمل معناها على التوكيد وإن صح معها تقدير التشبيه . وهذا الرأى لا يخلو من الوجاهة .

هذا .. وقد تتصدر أداة التشبيه فى القرآن كلاماً جديداً يكون مشبَّهاً به . أما المشبه فغير مذكور صراحة ، بل هو أمر منتزع من كلام سابق وذلك كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَاللَّهُ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ [3] .

قال الزمخشرى : « دأب هؤلاء كدأب الذين من قبلهم من آل فرعون وغيرهم » [4] .

ولهذه الآية نظائر هى : آية : ٥٤ من نفس السورة وآيتا : ٥٠ - ٥١ من الأنفال ، وآية : ٣١ من غافر .

فالمشبه - هنا - محذوف ، والذى سوَّغ حذفه دلالة المقام عليه . وفى كل موضع من هذه المواضع التى حُذِفَ فيها المشبه حرص القرآن الكريم على ذكر أداة التشبيه للإشعار به لأنها لو حُذِفت مع حذف المشبه لكان الحمل على التشبيه بعيد التصور نوعاً .

---

(١) آل عمران : ٤٠ .

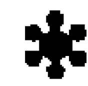
(٢) هو أحمد أحمد بدوى فى كتابه : « من بلاغة القرآن » .

(٣) آل عمران : ١٠ - ١١ (٤) الكشاف : ١/ ٢٦٠ .

ولا أظن أن هذا النوع من التشبيه معروف خارج دائرة القرآن . فهو كذلك سمة من سماته الفريدة .

سابعاً – تجمع تشبيهات القرآن بين أقسام التشبيه الأربعة المعروفة من حيث الطرفان .

ففيه تشبيه المحسوس بالمحسوس وتشبيه المعقول بالمحسوس وهذا القسم هو الغالب فيه . كتشبيه الإنفاق الخالص بسنبله أنبتت سبع سنابل . وكتشبيه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة ... وغير ذلك كثير .



● وهم مدفوع :

وقد وَهِمَ بعض المعاصرين [1] فقال إن تشبيهات القرآن تقف عند هذين القسمين [2] . لأن تشبيه المعقول بالمعقول وارد فى القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ [3] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ [4] .

وقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [5] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [6] .

فلا يشك أحد أن التشبيه فى هذه الآيات واقع بين معقول ومعقول ، فكيف ساغ إذن أن يقال إن التشبيهات فى القرآن لم تخرج عن ذينك القسمين ؟

---

(١) هو الدكتور أحمد أحمد بدوى فى كتابه : من بلاغة القرآن ص ١٩٤

(٢) أى تشبيه المعقول بالمحسوس ، والمحسوس بالمحسوس .

(٣) البقرة : ١٣

(٤) النساء : ١٦٣

(٥) الأحقاف : ٣٥

(٦) الحج : ٤٧

ولم تقف تشبيهات القرآن عندما ذكرنا ، بل هو مليء بأمثلة أخرى .

وفيه - كذلك - تشبيه المحسوس بالمعقول . ومثاله قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٢) .

والآن فهل لقول مَن يرى أن تشبيهات القرآن محصورة بين تشبيه المحسوس بالمحسوس والمعقول بالمحسوس نصيب من الصحة ؟

*

● وجه الشبه فى تشبيهات القرآن :

أما وجه الشبه فيأتى مفرداً ومركباً ، وكل منهما عقلى وحسى . فما الوجه فيه مفرد عقلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾ (٣) . والوجه ثبوت كون الوحيين من عند الله .

وما الوجه فيه مفرد حسى قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ (٤) . والوجه هو الاتساع والبسطة .

وما الوجه فيه مركب عقلى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ (٥) .

وما الوجه فيه مركب حسى قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ ﴾ (٦) .

وقد جمعت تشبيهات القرآن بين تشبيه المفرد بالمفرد كما فى قوله تعالى : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالجِبَالِ ﴾ (٧) ، وقوله : ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ (٨) .

---

(١) النمل : ١٠ . (٢) الصافات : ٦٥ (٣) النساء : ١٦٣
(٤) آل عمران : ١٣٣ (٥) الجمعة : ٥ (٦) النور : ٤٠ .
(٧) هود : ٤٢ (٨) الرحمن : ١٤

والمركب بالمركب كما فى قوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ﴾ (١) .

وتشبيه المفرد بالمركب كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ (٢) .

ولا رابع لهذه الأقسام إذ لم يرد فيه تشبيه المركب بالمفرد .

*

● ووهم آخر مدفوع :

ولست مع الأستاذ على الجندى إذ يرى « أن التشبيه المتعدد لم يرد فى القرآن لما فيه من أثر الصنعة والتكلف » (٣) .

والواقع أن التشبيه المتعدد وارد فى القرآن . وقد خلا من أثر الصنعة والتكلف وهو على أنواع :

١ - التعدد فى الوجه والطرفان مفردان . مثل قوله تعالى : ﴿ وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ ﴾ (٤) .. فقد شبَّه القمر بالعرجون - وهما مفردان - من ثلاثة وجوه . هى : الدقة والانحناء والاصفرار (٥) .

ومثله : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ المَبْثُوثِ ﴾ (٦) .. أى فى الكثرة والضعف والتموج .

٢ - وقد يكون المشبه مفرداً ، والمشبَّه به متعدداً كقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالمَرْجَانُ ﴾ (٧) .

---

(١) العنكبوت : ٤١
(٢) النور : ٣٥
(٣) فن التشبيه .
(٤) يس : ٣٩
(٥) الكشاف .
(٦) القارعة : ٤
(٧) الرحمن : ٥٨

ومنه أيضاً – أى من المتعدد – قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ (١) .. فقد تعدد المشبه به والمشبَّه مفرد .

وبهذا يندفع ما ذهب إليه الأستاذ على الجندى من نفى التعدد عن تشبيهات القرآن الكريم مع خلوها – متعددة ، وغير متعددة – من أثر للتكلف والصنعة .

*

● مدخول الأداة فى التشبيه المركب :

ثامناً – أن أداة التشبيه فى القرآن الكريم حين تدخل على أحد أجزاء الصورة التشبيهية فى التشبيه المركب فإن الجزء الذى تدخل عليه هو أعظم تلك الأجزاء فى رسم الصورة . لذلك أوثر دخولها عليه من بين بقية الأجزاء .

يظهر هذا جلياً فى المواضع الثلاثة التى شبَّه فيها القرآن الدنيا فى سرعة فنائها بعد ازدهارها . فإن الأداة فى تلك المواضع الثلاثة لم تدخل إلا على الماء ، والماء ليس مشبَّهاً به بل مجموع الأجزاء مع ملاحظة الصورة المكوَّنة منها هى المشبَّه بها .

وما ذلك إلا لأن الماء هو أهم عنصر من عناصر تلك الصورة التى أريد التشبيه بها . فليس فى بقية الأجزاء جزء ليس للماء مدخل فيه .

وكذلك عندما ضرب الله مثل اليهود فى حفظهم للتوراة . وترك العمل بها ، فإن الأداة دخلت غلى أحد أجزاء الصورة وهو الحمار ، والحمار فى تلك الصورة هو أهم جزء من أجزائها كلها لذلك أوثر الدخول عليه .

وكذلك عندما شبَّه الله أعمال الذين كفروا ، فإن الأداة دخلت على أهم جزء من أجزاء الصورة وهو الرماد .

---

(١) هود : ٢٤

ولعل هذا الأسلوب للإيمان بأن مدخول الأداة يمكن أن يستقل بأن يكون الطرف المقابل للمشبه فى قوته وأهميته فى البيان والإيضاح ، ولو حاولتَ مخالفة ما صنعه القرآن فى هذه المواضع وما أشبهها فأدخلت الأداة على جزء آخر لوجدتَ مخالفة بين المعنيين ، وهذا العمل - أى تبديل الجزء المدخول عليه بآخر - قد لا يكون له فرق فى المعنى إذا نحن أجريناه خارج دائرة القرآن كبيت بشار مثلاً :

كَـأنَّ مَثَارُ النَقْعُ فَوْقَ رُؤُوسِنا وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهاوَى كَوَاكِبُه

*

● عود للتشبيه المسلوب :

تاسعاً - ومن خصائص التشبيه القرآنى تلك التشبيهات السلبية بما تحتوى عليه هى نفسها من خصائص وذلك حين يقارن القرآن بين أمرين ليس بينهما وجه للمقارنة فينفى القرآن أن يكون بينهما وجه من وجوه الشبه ، ويغلب على هذا النوع دخول الاستفهام الإنكارى ، وقد يؤكد ذلك الإنكار بلفظ مذكور فى الفاصلة .

كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً ، لا يَسْتَوُونَ ﴾ (١) .

وقد يأتى الإنكار قبيل الفاصلة كقوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِراً وَجَهْراً ، هَلْ يَسْتَوُونَ ، الحَمْدُ لِلَّه ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

---

(١) السجدة : ١٨ (٢) النحل : ٧٥ - ٧٦

وقد يُبدَّل من هذا التشبيه تشبيه آخر منكر فيه تخصيص لعموم إفادة الأول وذلك كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (١) .

ويمكن أن يدمج هذا الملحظ إلى ما أسميناه بغنى جملة التشبيه فى القرآن الكريم .

*

● نوع فريد من التشبيه فى القرآن :

عاشراً – وفى التشبيه القرآنى نهج فريد لم يُعهد فى سواه ذلك أن الناظر فى تشبيهات القرآن يرى أداة التشبيه تأتى عقب جمل من الكلام لها معنى قد أدَّته . فتدخل أداة التشبيه على اسم إشارة مشار به إلى مجموع تلك الجمل باعتبار المعانى التى أدَّتها فيكون اسم الإشارة مشبَّهاً به ملحوظاً فيه معانى تلك الجمل ، ويأتى بعد ذلك المشبه مؤخراً اسماً أو فعلاً . والمعهود أن المشبه رتبته التقديم على المشبَّه به وعلى الأداة . ومن ذلك قوله تعالى بعد ذكر قصة أصحاب الجنَّة وقد فصَّل القرآن الحديث فيها : ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

فالمشبه العذاب – وهو هنا – اسم وقد أُخِّرَ على المشبَّه به والأداة لفظاً لأن رتبته التقديم إذ هو مبتدأ . و « الكاف » وما دخلت عليه خبره . والمعنى : « العذاب كذلك » ، ولعل السر فى التقديم هنا لأن المشبَّه به لم يستقل بالمعنى لأنه مشار به إلى معانى الجمل التى سبقته . فقُدِّم لتقدمها .

---

(١) الجاثية : ٢١ (٢) القلم : ٣٣

ومعنى آخر - أن البدء بأداة التشبيه هنا والياً لها المشبَّه به تُشعر باتصال الكلام ، أما لو بدئ بـ « العذاب » لتوهم زوال ذلك الاتصال .

ومنه أيضاً : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ (١) .

والمشبه - هنا - فعل كما ترى .

كما تأتي أداة التشبيه في بدء كلام فترتبط بينه وبين كلام سابق من حيث أنهما متشابهان - لتؤذن - مع هذا بتفصيل المشبَّه به فيما يستأنف من الكلام . ومثاله أيضاً من قصة أصحاب الجنة : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ (٢)

ويتوالى الحديث بعد ذلك في تفصيل قصة أصحاب الجنة التي هي مشبَّه بها .

*

● التشبيه والتمثيل أصيلان في أسلوب القرآن :

حادي عشر - لذلك كانت جملة التشبيه في القرآن تمثل عنصراً أساسياً في إيضاح المعاني وتقريرها . وليست ثانوية في الأسلوب .

لذلك استخدمها القرآن الكريم في الأغراض الهامة من المدح إلى الذم . ومن الترغيب إلى الترهيب . ومن التهذيب والإصلاح إلى التشريع والأحكام إلى الجدل والإفحام إلى آخر مقاصد الكتاب الحكيم .

ثاني عشر - إن الباحث في تشبيهات القرآن يراه محذوف الوجه دائماً فهي - إذن - من التشبيهات المجملة التي تقتضي التماثل التام بين الطرفين . وفي هذا نوع من تأكيد الصلة بين ذينك الطرفين .

* * *

---

(١) الروم : ٢٨　　　　(٢) القلم : ١٧

الفصل الثانى

١ - المجاز فى القرآن الكريم

دراسة تحليلية حول نص مختار من سورة البقرة

● النص :

قال اللّه تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِى الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ

السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

* *

● عرض سريع :

فى هذه الآيات يتحدث القرآن عن طائفتين من الناس : طائفة كافرة ، وأخرى جمعت إلى الكفر النفاق . وفى حديثه عن كل من الطائفتين ذكر أوصافها ، وأسباب تلك الأوصاف وجزاءها المدخر لها فى الآخرة .

ففى الآية الأولى من النص الحكيم إجمال للحديث عن الكافرين . وفى الآية الثانية تفصيل موجز لقصتهم . وفى الآية الثانية عشرة مثل مضروب لهم . ثم حكم عليهم فى الآية الثالثة عشرة .

أما قصة المنافقين فتبدأ بالآية الثالثة من النص الحكيم . حتى الحادية عشرة . وعندها يُسدل الستار قليلاً ليبرز أمامنا مثل الكافرين فى الآية الثانية عشرة وما بعدها وبهما ينتهى الحديث عن الكافرين . ويُرفع الستار مرة أخرى عن طائفة المنافقين . ليضرب لهم - أيضاً - مثلاً موضحاً وكاشفاً لحقيقتهم وبهذا ينتهى الحديث عن الطائفتين (٢) .

وفى كلا الموضعين - الكافرين والمنافقين - كان حديث القرآن مفصّلاً بحكمة . ومقدّراً بمقدار .

أولاً - فى شأن الكافرين :

وقد حصر القرآن شأنهم فى البقاء على الكفر والعناد مهما دعوا وأنذروا .

---

(١) البقرة : ٦ - ٢٠ .

(٢) فى جعل المثل الأول للكافرين والثانى للمنافقين مسايرة منا للدكتور محمد عبد الله دراز إذ هو صاحب هذا الرأى . وقد خالف به ما أجمع عليه المفسرون وسنفصل هذا بعد قليل .

هذا الشأن يصوره القرآن فى عبارات وجيزة ذات براعة فى التصوير ، وقوة فى التأثير :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

فقد جاء الحكم مؤكداً بـ « إن » . وآثر التعبير عنهم بالموصول ليمكن وصفهم بالذى استحقوا عليه العقاب فى الصلة . كما أن اسمية الجملة مفيدة أيضاً للتأكيد . وعبَّر عن الإنذار بالفعل ليفيد فائدة لم يكن لتحصل لو عبَّر عنها بالاسم . لأن الأصل : سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك . أو إنذارك وعدم إنذارك سواء عليهم .

* *

● لماذا يستخدم القرآن المصدر المؤول :

والجواب : إن المصدر المؤول أو الفعل يتيح صلاحية الكلام لإفادة اعتبارات من شأنها أن تقوى المعنى أو تجعله أنسب المقام . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا ﴾ (٢) ، والتقدير : أو لم يكفهم إنزالنا . وقد رأينا أن المصدر المؤول جعل الكلام صالحاً لدخول حرف التوكيد على الجملة . كما أن اعتبار التجدد والحدوث المستفاد من الفعل هنا مطلوب .

وقال فى سورة البقرة : ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٣) . بدل : « صيامكم » . لأن الاستقبال مع التجدد والحدوث داخل فى الاعتبار هنا : إذ المقام مقام بيان حكم شرعى إنما يطاع ويمتثل بعد ثبوت التشريع .

وقال فى سورة يوسف : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ (٤) فإن الذوق يحكم بأن فاعل « بدا » هنا . هو المصدر المتصيَّد من الفعل وتقديره : بدا لهم سجنه . وإنما وضع الفعل : « ليسجننه » بدله لأنه

---

(١) البقرة : ٦ - ٧
(٢) العنكبوت : ٥١
(٣) البقرة : ١٨٤
(٤) يوسف : ٣٥

أتاح دخول التوكيد القسمى والتوكيد بـ « النون » على الفعل وهذا يكشف لنا أن أمر سجن يوسف قد بدا لهم بداءً مؤكداً لا بديل له . ولو وُضِع الاسم بدل الفعل لفاتت هذه الاعتبارات .

وقد عبَّر عن فساد القلوب بالختم عليها . وكذلك الأسماع . أما الأبصار فحيث لم يهتدوا إلى الصواب عن طريقها وعموا عن الدلائل والآيات . فقد عبَّر عن هذا بالغشاء الذى يُجعل على الأبصار فيحجب عنها الرؤية الصحيحة .

يقول الزمخشرى موجهاً ذلك : « فالختم والكتم أخوان . لأن فى الاستيثاق من الشئ بضرب الخاتم عليه . كتمانه وتغطيه لئلا يتوصل إليه ولا يطلع عليه » [(١)] .

« والغشاوة : الغطاء - فعالة من غشاة إذا غطاه - فإن قلت : ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار ؟ . قلت : لا ختم ولا تغشية ثَمَّ على الحقيقة . وإنما هو من باب المجاز . ويُحتمل أن يكون من كِلا نوعيه . وهما الاستعارة والتمثيل » .

وحاصل كلامه أن لنا اعتبارين فى تحليل هذا المجاز .

إما أن نعتبر الختم والتغشية كُلاً منهما استعارة مفرد لمفرد . على طريق التصريحية التبعية فى الختم والتصريحية الأصلية فى التغشية .

وإما أن نعتبر الكلام كله . استعارة تمثيلية لهيئة بهيئة . وكلا المعنيين حسن . وإن كان الذوق يميل إلى اعتبار المجاز المفرد فيها دون المركب .

وقد أبى الزمخشرى إسناد الختم إلى « اللّه » على الحقيقة . متأثراً بمذهبه الاعتزالى الذى لا يجيز إسناد أفعال القُبح إلى اللّه . ولذلك جعله من المجاز العقلى . والفاعل الأصلى هو الشيطان ، أما إسناده إلى « اللّه » فلأنه أقدر

---

(١) الكشاف : جـ ١

الشيطان عليه . والعلاقة – إذن – هى السببية [١] . وقد رأى هذا الرأى فى غير هذا الموضع .

وقد تناول القرآن هذه الحواس الثلاث : « القلوب – الأسماع – الأبصار » عند حديثه عن الكافرين فى أساليب متنوعة . ومواضع مختلفة تفيد فى جملتها: أن وجود هذه الوسائل لانعدام أثرها النافع فيهم كعدم وجودها . وكثرت فى هذه الأساليب استعارة « ختم » للدلالة على هذا المعنى . قال فى الجاثية : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ [٢] .



● مقارنة سريعة :

ولنا أن نقارن بين صورة المجاز فى هذه الآية . وبين صوره فى آية « البقرة » . فالحال هنا هو الحال هناك : كفر وعناد ، وهناك ختم على القلوب والأسماع ، وغشاوة على الأبصار ، وهنا – كذلك ختم وغشاوة . فالآيتان متفقتان فى رسم الإطار العام للمعنى مختلفتان فى دقائق التعبير .

ففى آية « البقرة » القلوب مقدَّمة على السمع . وهنا السمع مقدَّم على القلب . وهنا أيضاً تصريح بنسبة جعل الغشاوة على البصر ، وهناك ترك لذلك التصريح اكتفاءً بذِكر الجار والمجرور .

فما السر إذن ؟

لعل السر فى ذلك أن فى آية « البقرة » مجرد إخبار عن حال الكافرين عامة فهم لا تثمر فيهم بشارة ولا يخيفهم إنذار .. من أجل ذلك لم يهئ اللّه لهم أسباب الهداية . لعدم استعدادهم لذلك .

---

(١) الكشاف : جـ ١

(٢) الجاثية : ٢٣

أما فى آية « الجاثية » فعرض لنموذج معيَّن فريد من جنسه ، وقصد إلى نوع ألد خصومة وأبعد ضلالاً ، يشعر بذلك أن صدر الآية فيه لفت قوى إلى تأمل حال هذا النوع : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ .. هذه واحدة .

﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ .. وهذه ثانية .

﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾ .. وهذه ثالثة .

﴿ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ .. وهذه رابعة .

فهو لانغماسه فى هواه لم يعر دعوة الحق أدنى اهتمام ، فهو عنها فى صمم، فجدير بقلبه أن يُختم ما دام لم يصل إليه عن طريق السمع توجيه مفيد ، فلم يسمع ، ولم يع ، ولم ير شيئاً غير شهواته وملاهيه .

وقال فى سورة الأنعام : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ (١) .. وظاهر أن هذه الآية مسوقة فى مقام التهديد والوعيد وهو مقام قوة وعنف ، ولهذا جاءت الاستعارة هنا مناسبة للمقام لما فيها من قوة وعنف ، ففى الآيات السابقة كان كل من السمع والبصر موجوداً ، لكنهما مئوفان ، وفى هذه الآية السمع والبصر مأخوذان من أصلهما ، حتى ليخيل إلى المتأمل فى هذه الصورة أنها تمثل أناساً غريبى الخِلْقة ليس لهم حاسة سمع ولا حاسة بصر !

والقلوب مع هذه مختوم عليها ، فماذا بقى فيهم من وسائل النفع ؟

لا شئ .. إذن فلا خير فى بقائهم ولا أسف على هلاكهم .

* *

---

(١) الأنعام : ٤٦

● صمت . وكلام :

وصورة أخرى من صور الحشر ، يحكيها القرآن عن الكافرين حينما يأتون يوم القيامة يريدون أن يجادلوا عن أنفسهم ، فإذا هموا بالاعتذار فقدوا النطق وهنا نرى كلمة « ختم » تفارق مكانها السابق - القلوب والأسماع - وتقفز قفزة سريعة لتجثم فوق الأفواه : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ (١) .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٢) .

الأفواه هنا أُحكم ختمها . لماذا ؟ لأنهم همُّوا بالكلام مجادلين ومعتذرين . فدحضوا وفقدوا كل حُجَّة للدفاع عن أنفسهم ، وهنا تأتى مفاجأة لم تكن فى الحسبان لحظة : ﴿ .. وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٣) .

يا سبحان الله .. أرادوا الكلام من حيث عهدوا ليدفعوا عن أنفسهم العذاب فما استطاعوا . وتكلم منهم ما ليس بمتكلم لإحلال العذاب عليهم ..

من هذه النصوص نرى أن القرآن يستعير كلمة « ختم » إذا كانت فعلاً ماضياً أو مضارعاً ، ويجعلها صفة لقلوب الذين كفروا فلم يفقهوا شيئاً .

* *

● « طبع » و « ختم » أختان :

وقد فسَّر المفسِّرون ومنهم الزمخشرى « ختم » : بطبع لإفادة نفس المعنى . ومن العجيب أن كلمة « طبع » قد استخدمها القرآن مستعارة لهذا المعنى . وجاءت كذلك فى إحدى عشرة آية . وهى :

---

(١) يس : ٦٥ (٢) يس : ٦٣ - ٦٤ (٣) يس : ٦٥

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (١) .

﴿ .. رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، رَضُواْ بِأَنْ يَكُونُواْ مَعَ الخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ، وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ (٤) .

﴿ تِلْكَ القُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الكَافِرِينَ ﴾ (٥) .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾ (٦) .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ، كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ المُعْتَدِينَ ﴾ (٧) .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٨) .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (٩) .

---

(١) النساء : ١٥٥ (٢) التوبة : ٨٧ (٣) التوبة : ٩٣
(٤) الأعراف : ١٠٠ (٥) الأعراف : ١٠١ (٦) النحل : ١٠٨
(٧) يونس : ٧٤ (٨) الروم : ٥٩ (٩) غافر : ٣٥

﴿ أولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١) .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) .

* *

● وصف جامع :

وبالنظر فى هذه الآيات جميعاً يتضح لنا أن القرآن استخدم مادتى : « ختم » و « طبع » . فى مواضع متعددة يشملها وصف واحد هو أن هاتين الكلمتين تفيدان فى هذه النصوص إعراض مَن وقعت فى سياق الحديث عنهم عن قبول الإيمان . وأن القرآن يقرن بهما فى كل موضع جاءتا فيه وصفاً يفيد نفى العلم النافع عنهم . أو وصفاً يُشعر بذمهم وسوء مصيرهم . وهذا المعنى يؤدى بنفى العلم صراحة فى بعض المواضع ، وفى بعضها يؤدى بنفى ما يُفهم منه نفى العلم .

هذا قياس مطرد نجده فى كل النصوص الواردة فى هذا الشأن . لِمَ لَمْ يتخلف منها واحد ؟

ففى آية « البقرة » خُتمت الآية بوصف صريح فى ذمهم ومصيرهم السئ : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣) .

وآية « الجاثية » قرنت الآية بعدة أوصاف لإفادة معنى الذم . وفى آية « الأعراف » كذلك : ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ (٤) .

* *

● تفرقة عجيبة :

وباستقراء استعمال القرآن لهذه المادة : « ختم » نجد استعمالاتها إذا كانت فعلاً مقصورة على مواضع الذم . متضمناً السياق الذى هى فيه وصفاً يُشعر بذلك الذم متقدماً عليها أو متأخراً عنها . وقد سبق شرح هذه الظاهرة العجيبة .

---

(١) محمد : ١٦ — (٢) المنافقون : ٣

(٣) البقرة : ١٠ — (٤) الأنعام : ٤٦

أما إذا كانت اسماً فإنها تختص فى هذه الحالة بمواضع المدح ، وقد جاءت – كذلك – فى سورتين ، إحداهما : سورة الأحزاب فى قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (١) ، وقد أجمع العلماء على أن ختم الرسل بمحمد عليه السلام وصف شامل لفضائل التعظيم اختص الله به محمداً عليه السلام .

والثانية – سورة المطففين : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (٢) .

وهذه خاصة من خصائص الأسلوب القرآنى إذ يفرِّق بين استعمالات الكلمة الواحدة فيطرد استعمالها على صورة معينة فى موضع ويطرد صورة أو صوراً أخرى من استعمالاتها أيضاً فى موضع آخر .

أما مادة « طبع » فقد استعملت كذلك فى معنى الذم . وقرن استعمالها فى كل موضع بوصف مشعر بذلك الذم . على أن الغالب فى الوصف هنا أن يكون بنفى العلم أو الإيمان . أو ما يؤدى إلى نفى العلم بطريق التجوز فى الكلام .

فآيتا « التوبة » اللتان ذكرناهما آنفاً . إحداهما فيها نفى العلم صراحة : ﴿ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، والثانية تنفى عنهم « الفقه » الذى هو أخص من العلم : ﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ ، وآية « النساء » تنفى عنهم العلم صراحة ...

أما آيتا سورة « الأعراف » فإحداهما تصريح بنفى « السمع : ﴿ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ وهذا يتضمن نفى العلم عن طريق المجاز المرسل الذى علاقته السببية . لأن السمع سبب فى « العلم » إذ هو وسيلته ، والثانية تُصرِّح بنفى الإيمان : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ ، وفى نفى الإيمان نفى للعلم النافع عن طريق المجاز المرسل الذى علاقته السببية ، لأن السمع سبب فى

---

(١) الأحزاب : ٤٠ – وختم النبوة : أى تممها بختمه (المفردات) .

(٢) المطففين : ٢٥ – ٢٦

العِلم إذ هو وسيلته ، ولأن الإيمان سبب عن العِلم الذى يهدى إلى النظر والتأمل وينتهى إلى الإيمان المدعم بالدليل .

وتدل آية سورة « يونس » على نفى الإيمان كذلك : ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ .

أما آية سورة « الروم » فتنص على نفى العلم صراحة : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وفى آية « النحل » إثبات الغفلة لهم أمر يستدعى - بداهة - سلب العلم عنهم : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾ مع تقرير المعنى بتعريف الطرفين وتوسط ضمير الفصل بينهما . وهذا يفيد القصر والتوكيد .

وتعود آية « المنافقين » إلى نفى الفقه ، كما سبق فى إحدى آيتى « التوبة » : ﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ ، وفى « غافر » نجد ذلك الوصف : ﴿ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ وهما خلتان ذميمتان . لا يتصف بهما إلا جاهل أو من فى حكمه . وفى آية « محمد » كان اتباع الهوى هو الوصف اللازم لهذا الفريق والمتبع الهوى حقير ذليل .

* *

● منهج القرآن فى « طبع » و « ختم » :

فهذه سُنَّة القرآن فقد اتبع كل تصوير مجازى لمادة « طبع » - بعد إلتزامه ورودها فى مواضع الذم - وصفاً مؤكداً للمعنى ومشعراً به . وهذه الأوصاف مهما تباينت طرقها فإنها لا تخرج عن تسجيل أشنع ألوان الذم لهؤلاء المذكورين .

ولنا أن نسجل - هنا - فى اطمئنان . أن هاتين المادين « ختم » و « طبع » مادتا مجاز فى القرآن . مع التزام « طبع » فى مواضع الذم . و « ختم » كذلك إذا كانت فعلاً . فإن كانت اسماً فهى للمدح لا غير .

* *

● « ربط » تنافى « ختم » و « طبع » :

من بديع القول أن القرآن حين التزم – على النحو الذى أبناه – استخدام مادتى « ختم » و « طبع » للدلالة على فساد القلوب . فإنه التزم مادة « ربط » للدلالة على صيانة القلوب من الفساد . وذلك فى مواضع ثلاثة :

الأول فى أهل بدر : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ (١) .

وقال فى شأن أهل الكهف مادحاً : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَهاً .. ﴾ (٢) .

وقال فى شأن أم موسى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً ، إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

فى المواضع الثلاثة السابقة استخدم القرآن مادة « ربط « فعلاً فى معنى المدح ، على العكس من « ختم » و « طبع » .

وكذلك إذا كانت اسماً .. قال سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (٤) .

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٥) .

فى المواضع الثلاثة الأولى جاءت الكلمة – فعلاً – فأفادت حفظ القلوب من الفساد وبقاءها على الإيمان والثبات .

وفى الموضعين الرابع والخامس وردت المادة فى مقام الجهاد . اسماً فى الأولى ، وفعلاً فى الثانية . وذلك كله فى مقام المدح والثناء .

---

(١) الأنفال : ١١ (٢) الكهف : ١٤ (٣) القصص : ١٠

(٤) الأنفال : ٦٠ (٥) آل عمران : ٢٠٠

وهى فى المواضع الثلاثة الأولى جاءت على طريق المجاز ، استعارة تصريحية تبعية ، ويمكن حملها على المجاز المركب - كما سبق - عن الزمخشرى فى توجيه المجاز فى « ختم » .

كما يلاحَظ أن الاستعمال المجازى هنا - بل وغير المجازى - مصحوب بوصف يؤكد المعنى ويقويه وقد سبق نظيره فى مادتى « طبع » و « ختم » .



ثانياً - فى شأن المنافقين :

أما المنافقون .. فقد بدأ الله قصتهم بمطلع مجمل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وطائفة المنافقين معقدة الأحوال . لها ظاهر طيب . وباطن خبيث .

ولهذا سلك القرآن فى حديثه عنهم مسلكاً فيه شئ من تفصيل إذا ما قيس بحديثه عن طائفة الكافرين . فقد جاء حديثهم فى إحدى عشرة آية من نص بلغت جملة آياته خمس عشرة آية .

وقد اشتمل حديث القرآن عنهم على صور من المجاز والمعانى والبديع ..

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

تشتمل هذه الآية على صغرها على إجمال قصة الكافرين . وتحتوى على أصول القضية وفروعها وإثبات الإيمان فى صدر الآية حسب مدعاهم ونفيه عنهم فى عجزها . حسب علم الله بهم . يمثل عند البلغاء ما يسمونه طباق السلب، وأثره فى جمال الأسلوب واضح :

وقد ذكر الله فى الرد عليهم : ﴿ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ غير معد الوصف بـ « مؤمنين » إلى معمول . فما هم بمؤمنين بالله ولا باليوم الآخر . وذكرهما فى

---

(١) البقرة : ٨

الدعوى أغنى عن ذكرهما فى الرد عليها . كما نلاحظ دخول حرف الجر على الوصف وحقه ألا يدخل عليه . وذكره مفيد لتأكيد النسبة . لينفى عنهم - نفياً مؤكداً - ما أرادوا أن يروجوه عنهم رواجاً مؤكداً . وبهذا تعادلت كفتا الميزان .

ثم لننظر إلى دقة التعبير القرآنى . إنه قال : ﴿ مَن يَقُولُ آمَنَّا ﴾ ولم يقل : « ومن الناس من آمن الله » لأن القول غير الإيمان . ولو كان كذلك لما جاز نفيه وإلا أدى إلى تناقض يحتاج إلى تحرج بعيد . فكل لفظة فيه موضوعة بحساب .

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١) .

هذا شروع فى تفصيل قصة المنافقين و « الخدع » أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه من قولهم : ضب خادع ، إذا أَمَرَّ الحارس يده على باب جحره أوهمه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر (٢) .

فكيف جاز - إذن - إطلاقه على الله . وهو العليم الخبير ؟

*

● الخداع فى جانب الله :

يجيب على ذلك صاحب المفردات فيذكر قوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾ ثم قال : « أى يخادعون رسول الله وأولياءه » . ونسب ذلك إلى الله تعالى من حيث أن معاملة الرسول كمعاملته . ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ (٣) ، وجعل ذلك خداعاً تفظيعاً لفعلهم وتنبيهاً على عِظَم الرسول وعِظَم أوليائه ، وقول أهل اللغة : إن هذا على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه فيجب أن يُعلم أن المقصود بمثله فى الحذف لا يحصل لو أتى بالمضاف المحذوف لما ذكرنا من التنبيه على أمرين :

(١) البقرة : ٩ (٢) المفردات : ١٤٣/١ - ١٤٤ (٣) الفتح : ١٠

أحدهما : فظاعة فعلهم فيما تحروه من اللفظ معه . وأنهم بمخادعتهم إياه يخادعون الله .

وثانيهما : التنبيه على عظمة المقصود بالخداع وأن معاملته كمعاملة الله » .

ويرى الزمخشري (١) أن هذا مجاز عند البيانيين لأنهم تعاطوا - أي المنافقين حسب ظنهم - أفعال المخادع ، والدليل عليه صدق نفيه في عجز الآية : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إلا أَنفُسَهُمْ ﴾ .. مجاز استعاري كذلك لأن المراء لا يخدع نفسه ، وإنما سمى إضرارهم أنفسهم « خداعاً » حيث كانوا لا يشعرون بأن في عملهم هذا ما يعود عليهم بالضرر ، وقد حسن من موقع المجاز هنا مشاكلته للمجاز الأول بلفظه ومعناه .

وليس ضرر المنافقين بواقع على أحد ، وإنما هو واقع بهم ، وهذا المعنى أفاده القصر في الآية الذى طريقه النفي والإثبات .

ولهذه المادة « خدع » مواضع في القرآن جاءت في واحد منها على معناها اللغوى ، وجاءت في بقية المواضع على طريق المجاز منها الاثنان اللذان في آيتنا هذه ، وقد وضح المجاز فيهما ، أما المواضع الأخرى فهي : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ (٢) .

فخداعهم لله مجاز تقدّم الوجه فيه ، أما خداع الله لهم فمجاز - كذلك - لأن الخداع الحقيقى يوهم - هنا - أن المخادع يعجز عن المكافحة وإظهار المكتوم ، مع أن الله تعالى قادر على هتك سترهم وإنزال العذاب بهم ولا حَرَج عليه . ولكن حيث وضع فعل الله بهم مقابلاً لما توهموه خداعاً لله . سمى جزاؤه لهم خداعاً ، فهو كقوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (٣) .

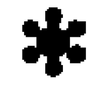
*

(١) الكشاف : ١/١٤٤ (بتصرف) . (٢) النساء : ١٤٣ (٣) البقرة : ١٣٨

● ولكن ما خداع الله لهم ؟

رأى يقول : إن ذلك من حيث تجرى عليهم أحكام المسلمين من حيث الظاهر مع أن الله توعدهم وعيداً شديداً .. وهذا رأى صائب .

ولكن لماذا لا يراد بذلك إنعام الله عليهم وتقلبهم فى مظاهر النعيم يسومون فيها كما تسوم الأنعام ، ومصيرهم فى الآخرة النار : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [1] .



● توجيه جديد للآية :

ولنا فى الآية ملحظ .. ذلك أن الله عبَّر فى جانب المنافقين بفعل رباعى : « يخادعون » إذ أصله : خادع ، وهذا يقتضى مفاعلة بين طرفين مخادِع ومخادَع [2] .

وفى جانب الذات العلية عبَّر بوصف من فعل ثلاثى لا مفاعلة فيه : « خادعهم » من خدع .. فما السر إذن ؟

أرى - والله أعلم - أن الفعل : « يخادعون » . على حسب تصورهم أن الله مخادع أمام ألاعيبهم - فهنا طرفان من حيث الظاهر .

أما فى جانب الله ، فإن فعله سبحانه موجَّه إليهم لا على سبيل الخداع وإنما هو فعل واقع من قوى لا يخشى شيئاً ، على ضعيف يخشى كل شئ .

فليس - هنا - مخادعة كاملة الأطراف ، ولذلك خولف فى الموضعين بين صيغ العبارة ... ودليلى على ذلك القرآن نفسه .

---

(١) النساء : ١٤٥

(٢) مخادِع ومخادَع : بكسر الدال فى الأولى ، وفتحها فى الثانية .

فإنه فى آية « البقرة » قال : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ (١) .. فهنا طرفان : مخادِع – وهم المنافقون – ومخادَع – وهم الذين آمنوا ، فجاء الفعل « يخادعون » من « خادع » المقتضى للمفاعلة بين طرفين .

وعندما بيَّن أن هذا الخداع غير موجَّه إلا إليهم أنفسهم جاء الفعل : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إلا أنفُسَهُمْ ﴾ ، من « خدع » الثلاثى الذى لا مفاعلة فيه ، لأنه ليس هنا طرفان بل طرف واحد ، وإن صح هذا فذلك من دقة التعبير فى هذا الكتاب المعجز .

قال الراغب فى : ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ : معناه مجازيهم بالخداع (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .. ﴾ (٣) .. والكلمة هنا واردة على المعنى اللغوى لا مجاز فيها .. وقال : « يخدعوك » دون « يخادعوك » لأن الله حسبه فهو ليس موضع مخادعة – أعنى محمداً ﷺ – فلم يكن للخداع طرفان فجئ به من فعل لا يقتضى المفاعلة ، وهذا جار على النهج الذى أبناه آنفاً .



● « النفاق » .. كلمة مدنية :

والخلاصة : أن هذه المادة « خدع » لم يستعملها القرآن إلا فى سياق الحديث عن المنافقين .

فهى – إذن – كلمة مدنية لا عهد للقرآن بها فى مكة ، فالبقرة والنساء والأنفال سور مدنية ، وهى السور التى وردت فيها هذه المادة (٤) .

---

(١) البقرة : ٩

(٢) المفردات ص ٤٦٩

(٣) الأنفال : ٦٢

(٤) يمكن أن تضاف هذه السمة إلى القرآن المدنى .

وهى أيضاً فى القرآن مادة مجاز . لأنها لم ترد على وجه الحقيقة إلا فى موضع واحد وهو آية « الأنفال » ، أما فى آيتى البقرة والنساء فقد جاءت على طريق المجاز الاستعارى .

* *

● دور المرض فى المجاز :

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ (١) .

استعمال المرض فى القلوب يكون حقيقة . ويكون مجازاً . فيكون حقيقة إذا أصابها مرض جعلها عاجزة عن أداء واجبها نحو الجسم من تغذيته بالدم وتنقيته من الشوائب .

ويكون مجازاً للدلالة على فساد المعتقَد والحقد والحسد وما أشبه ذلك من الأمراض التى لا تعلق لها بصحة الأجسام .

والقلب الخالى من هذه الأمراض المجازية قد استعار له القرآن كلمة « سليم » من « السلامة » ضد المعنى الأول . فقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (٢) .

قال الراغب : المرض الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان وذلك ضربان :

الأول : مرض جسمى وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (٣) .

الثانى : عبارة عن الرذائل كالجهل والجُبن والبخل والنفاق .. وغيرها من الرذائل الخلقية نحو قوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ١٠ .
(٢) الشعراء : ٨٨ - ٨٩
(٣) الفتح : ١٧
(٤) المفردات ص ٤٦٩

فالمراد بالمرض الذى فى القلوب هو الكفر والنفاق ، وهذا على سبيل المجاز الاستعارى ، والاستعارة فيه تصريحية أصلية . ويذكر الراغب سبب تشبيه الكفر وغيرهما بالمرض ويرجع ذلك لما يأتى :

إما لأنها مانعة من إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن من التصرف الكامل .

وإما لأنها مانعة من تحصيل الحياة الأخروية .

وإما لميل النفس بها إلى الاعتقادات الرديئة .. ميل البدن المريض إلى الأشياء المضرة [1] .

ومعنى : ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ﴾ أى : كفراً ونفاقاً .. مجاز كذلك جاء مشاكلاً للمجاز الأول .

وإسناد زيادة المرض إلى الله مجاز عقلى عند صاحب الكشاف ، وقد تقدم وجهه فيما سبق .

أما : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . ففى إسناد « الأليم » إلى ضمير العذاب مجاز عقلى عند الجميع . حيث أسند الإيلام إلى ضمير العذاب . ونظيره قول الشاعر :

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِخَيْلٍ ... تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

حيث أسند الوصف : « وجيع » إلى ضمير الضرب . لأن الضرب سبب الإيجاع كما أن العذاب سبب الإيلام . فالعلاقة فيهما السببية . والقرينة حالية .

وقد استعار القرآن هذه المادة : « مرض » من دلالتها الوضعية إلى معان مجازية فى إحدى عشرة آية هى :

---

(١) انظر المفردات ص ٤٦٩

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ... ﴾ (١) .

﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ (٢) .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٤) .

﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُواْ ... ﴾ (٥) .

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً ﴾ (٦) .

﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ (٧) .

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ (٨) .

﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ (٩) .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾ (١٠) .

---

(١) المائدة : ٥٢ (٢) الأنفال : ٤٩ (٣) التوبة : ١٢٥
(٤) الحج : ٥٣ (٥) النور : ٥٠ (٦) الأحزاب : ١٢
(٧) الأحزاب : ٣٢ (٨) الأحزاب : ٦٠ (٩) محمد : ٢٠
(١٠) محمد : ٢٩

﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ (١) .

*

● المرض .. حقيقة ومجازاً :

وهذه المواضع الأحد عشرة إذا أضفنا إليها الموضعين السابقين فى آية البقرة يكون مجموعها ثلاثة عشر موضعاً . استعمل القرآن فيها هذه الكلمة استعمالاً مجازياً على طريق الاستعارة التصريحية التبعية . وقد استعمل القرآن هذه المادة فى معانيها اللغوية فى المواضع الآتية :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٢) .. حكاية عن إبراهيم عليه السلام .

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ (٣) .

﴿ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (٤) .

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (٥) .

﴿ وَمَن كَانَ مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ (٦) .

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِّن رَّأْسِهِ ﴾ (٧) .

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ .. ﴾ (٨) .

﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذىً مِّن مَطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى ﴾ (٩) .

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ (١٠) .

---

(١) المدثر : ٣١ (٢) الشعراء : ٨٠ (٣) التوبة : ٩١
(٤) الفتح : ١٧ (٥) البقرة : ١٨٤ (٦) البقرة : ١٨٥
(٧) البقرة : ١٩٦ (٨) النساء : ٤٣ (٩) النساء : ١٠٢
(١٠) التوبة : ٩١

﴿ وَإِن كُنتُمْ مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغَائِطِ ﴾ (١) .

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى ﴾ (٢) .

* *

● موازنة ضرورية :

وهذه هى مواضع استعمال المادة فى معناها اللغوى . إذ لا مجاز فى واحد منها وقد ذكرتها تمهيداً لإجراء موازنة بين الاستعمالين المجازى والحقيقى أراها – ضرورية فى هذا المجال .

وهذه الموازنة تعتمد على الحقائق الآتية :

أولاً : أن القرآن يقصر استعمال هذه المادة استعمالاً مجازياً إذا كانت اسماً– وإن شئت فتتبّع مواضع استعمالها اسماً حيث جاءت وصفاً للقلوب فلا تجد واحداً منها خرج عن نطاق الإسمية .

وهو فى استعماله لها استعمالاً مجازياً ما فارقت وصف القلب فى أى موضع كذلك . وقد جاءت جزءاً من صلة الموصول الإسمى « الذى » ولم تخرج عن هذه الحال إلا فى موضع واحد هو آية « النور » : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُواْ ﴾ (٣) ، وهى كذلك واردة فى شأن المنافقين . بدليل عطف « الكافرين » عليها فى قوله تعالى : ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالكَافِرُونَ ﴾ (٤) .. أما عطفه على « المنافقون » فى مثل قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ ﴾ (٥) فلا يبعد أن يكون عطف تفسير .

ثانياً : أما استعمال القرآن لها فى معانيها اللغوية فذلك مقصور على حالتين :

---

(١) المائدة : ٦ (٢) المزمل : ٢٠ (٣) النور : ٥٠ .

(٤) المدثر : ٣١ (٥) الأنفال : ٤٩

(أ) إذا كانت فعلاً . وهى كذلك فى موضع واحد . وهو آية الشعراء حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (١) .

(ب) إذا كان وصفاً مشتقاً - مفرداً كان أو مجموعاً - وهى فى هذه الحالة لا ترد إلا فى مقام التشريع وتيسير الأحكام .

والمتتبع لمواضعها التى أثبتناها - قبلاً - يجد المادة موزعة حسب المنهج الذى شرحناه .

وهذه سمة من سمات الأسلوب القرآنى ودعامة من دعامات إعجازه مثيرة مدهشة ، فيها دقة وعمق نظر .

أما الدقة .. فلالتزام هذا المنهج الفريد وما كان هناك حَرَج لو خولف لا فى واقع اللغة ولا فى طبيعة الأسلوب .

وأما عمق النظر .. فللبحث عن سر هذا الالتزام وما روعى فيه من لطائف ودقائق يعز فهمها وتوجيهها .

* * *

﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٢) .

دعوى الإيمان من المنافقين غير رائجة . أما نسبتهم الكفر إلى أنفسهم فرائجة ما فى ذلك شك . والخطاب فى الشق الأول من الآية مع مؤمنين ينكرون كل الإنكار أن يؤمن أهل النفاق .

والخطاب فى الشق الثانى منها موجَّه إلى شياطينهم . وهم لا ينكرون أنهم معهم باقون على الكفر والنفاق .

* *

---

(١) الشعراء : ٨٠ .

(٢) البقرة : ١٤ - ١٥

● مقتضى الظاهر ومخالفته :

واختلاف المقام يقتضى المخالفة بين كيفيات الكلام فيهما . والظاهر يقتضى أن يؤكدوا دعوى إيمانهم مع المؤمنين . لأنهم منكرون لما يقولون شاكون فيه

وألا يؤكدوا مع شياطينهم لأنهم مصدقون لهم لا يحتاجون إلى تأكيد ولكنّا نرى الوضع هنا مختلفاً .

إلقاء الخطاب مجرداً من كل توكيد مع المؤمنين ومؤكداً مع الشياطين والظاهر يقتضى العكس .

يرى السعد أن سر المخالفة فى الموضعين : أنهم تركوا التوكيد مع خطاب المؤمنين . لأن دعوى الإيمان لا تروج من المنافقين . وهم يعلمون ذلك فأنفسهم - إذن - لم تساعدهم عليه .

أما توكيدهم له مع الشياطين فلأن هذا رائج منهم عند شياطينهم . ولتوافر الرغبة فيه وكمال العناية به .

فالتوكيد وعدم التوكيد جار على مراعاة الحالة النفسية عند المتكلم لا المخاطَب وهذه لفتة حسنة من لفتات السعد . ومَن تبعه فى هذا المذهب الجزل . الذى هو وثيق الصلة بعلم النفس وأصول البلاغة الحية .

وقد جاء فى خطابهم شياطينهم : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ ، ففسروا قولهم مع المؤمنين : « آمنا » بأنه ليس إلا استهزاء ، فكان الرد عليهم فيه قوة وتوكيد . على غرار ما أثبتوه هم : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ فأكد ذلك بإسمية الجملة . وبأن الله هو الذى يستهزئ بهم .

والاستهزاء من الله مجاز إذ لا يصح ذلك منه على وجه الحقيقة . ولهذا فسَّروا هذه الآية بأن الله يجازيهم على الهزء .. ومعناه : أنه أمهلهم مدة ثم أخذهم مغامضة ، فسمى إمهاله إياهم استهزاءً من حيث أنهم اغتروا به اغترارهم بالهزء فيكون ذلك كالاستدراج من حيث لا يعلمون [1] .

---

(١) انظر المفردات ص ٥٤٣

﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

مادة « مدّ » تدور فى المعاجم اللغوية حول معنى الزيادة والتكثير .. من مَدَّ الجيش وأمدَّه : إذا زاده بما يقويه ويكثره . ويقال : مدَّه الشيطان فى الغى والضلال وأمدَّه : إذا واصله بالوساوس حتى يتصل غيه . ويزداد إنهماكاً فى المعاصى .

وإسناد المدّ إلى الله مجاز عقلى عند الزمخشرى .. لأن فاعل المد عنده هو الشيطان . وأُسْنِدَ إلى الله لأنه سببه المُقدر عليه . وقد علمنا فيما سبق وجهه عنده .

على أنه يجوز - عنده - أن يكون مجازاً عن عدم القسر والإلجاء وإن لم يُصرِّح هو بمجازيته [١] .

وقد أنكر الزمخشرى أن يراد به الإمهال - وهو رأى المفسِّرين - وحُجَّته أنه يعدى بنفسه إذا كان بمعنى الزيادة - كما فى الآية - ويعدى بـ « اللام » إذا كان بمعنى الإمهال .. قال :« فإن قلتَ : ما حملهم - يعنى المفسِّرين - على تفسير المد فى الطغيان بالإمهال وموضوع اللغة - كما ذكرت - لا يطاوع عليه ؟ قلت : استجرهم إلى ذلك خوف الإقدام على أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشيطان ، ولكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد لصحته .. وإلا كان بمنزلة الأروى من النعام . ومن حق مفسِّر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد فى مذاهبه بقاء النظم على حسنه . والبلاغة على كمالها . وما وقع به التحدى سليماً من القادح . فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل » [٢] .

*

---

(١) انظر الكشاف : ١/ ٥٧١

(٢) الكشاف : ١/ ٥٢

● المعانى التى أفادتها « مَدَّ » فى القرآن :

والناظر فى مواضع « مد » فى القرآن يخرج بالنتائج الآتية :

أولاً : أن هذه المادة يتجاذبها فيه جانبا حقيقة ومجاز . فالحقيقة فى نحو قوله تعالى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ (١) إذ المراد بالسبب : الحبل ، والحبل يُمَد حقيقة .

وقوله تعالى : ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ ﴾ (٢) لأن الإمداد هنا بمعنى الزيادة وهو من معانى الكلمة فى اللغة .

والمجاز فى نحو قوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَداً ﴾ (٤) .

ثانياً : إذا استعمل القرآن هذه المادة فى المحبوب فالغالب فيها أن تكون من الإمداد . قال : ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم ﴾ ، وقال : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (٥) .

أما إذا استعملها فى المكروه فالغالب فيه أن تكون من المد . قال : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَداً ﴾ (٦) ، وقال : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَىِّ ﴾ (٧) .

ثالثاً : أن استعمالها فى جانب الأرض والظل والمال .. يفيد معنى البسطة والتوسع تجوزاً . فإن مد المال فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ (٨) فى معرض الامتنان يشبه فيه المال على سبيل المجاز بشئ ممدود قد شغل جانباً كبيراً من المساحة لكثرته .

رابعاً : واستعمالها فى جانب العين يفيد معنى الإطلاق والإرسال تجوزاً ، كذلك فإن معنى : ﴿ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ (٩) أى ترسل النظر وتطلقه إلى مظاهر النعيم عند الآخرين .

---

(١) الحج : ١٥ — (٢) آل عمران : ١٢٥ — (٣) البقرة : ١٥
(٤) مريم : ٧٥ — (٥) الطور : ٢٢ — (٦) مريم : ٧٩
(٧) الأعراف : ٢٠٢ — (٨) المدثر : ١٢ — (٩) الحجر : ٨٨

والذى أراه : أن جانب المجاز فيما أسند إلى الله من معان يرى الزمخشرى فيها أن الإسناد فيها جار على المجاز العقلى ، أو يذهب المفسرون إلى تفسيرها بالإمهال .. أن جانب المجاز فى مثل هذه كقوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أن الله يمنع عنهم ألطافه ولا ييسر لهم سبل الهداية . لأنه علم أنهم اختاروا الغى على الرشد .

ووجهه : أن يشبه منع أسباب الهداية عنهم بإمدادهم بوسائل الضلال والطغيان .. والجامع أن كلا من الأمرين - المنع والإمداد - يترتب عليه إغراقهم فى الضلال ولجوهم فيه .

*

● العَمَه .. العمى :

و« العَمَه » مثل « العمى » ، إلا أن العمى يشمل فقد البصر . وخطل الرأى ، بينما العَمَه خاص بضلال الرأى ومنه قولهم : سلك أرضاً عمهاء : أى لا منار فيها [(١)] .

وكذلك فرّق الراغب بين العمى والعَمَه فقال : العَمَه : التردد فى الأمر من التحير ؛ يقال : عمه وعامه . والعمى يقال فى افتقاد البصر والبصيرة ، ويقال فى الأول : أعمى ، وفى الثانى : أعمى وعم [(٢)] .

والمادة تدور حول الحجب والتغشية ، والمتتبع لمادة « عَمَه » فى القرآن يجدها قد استعملت فى معنى الضلال مطلقاً . وذلك فى المواضع الآتية :

﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [(٣)] .

﴿ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [(٤)] .

---

(١) الكشاف (بتصرف) .

(٢) المفردات ص ٣٤٨

(٣) البقرة : ١٥

(٤) الأنعام : ١١٠ .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ فِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١) .

﴿ لَلَجُّواْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٣) .

تلك هى مواضع استعمال مادة « عَمَه » .. وليس المراد بها المعنى اللغوى الذى هو التردد والحيرة ، لأن هذا قد يكون وصفاً لبعض المؤمنين ، ولذلك أرى أن الكلمة هنا مراد بها أنهم سادرون فى ضلالهم لا يفيقون منه . ودليلى على ذلك القرآن نفسه حيث يقول : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ فِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .. فهم سكارى لا رُشد معهم ، ولا هدى ينير لهم الطريق .

* *

● طريق المجاز فيهما :

إذا استقر ما ذهبتُ إليه فإن طريق التجوز فيه أنه من المجاز المرسل ، والعلاقة هى الإطلاق والتقييد . فقد استعمل فى مطلق ضلال بعد اختصاصه فى اللغة بضلال التردد فى الرأى والحيرة فيه .

أما مادة « عمى » فقد جاءت فى القرآن حقيقة ومجازاً لغوياً على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية أو التبعية التصريحية ، على أن فى مواضعها موضعين قد دَقّ تقدير المجاز فيهما .

فتكون « حقيقة » إذا أريد بها معيَّن كقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الأَعْمَى ﴾ (٤) لأن المراد بالأعمى هنا شخص معيَّن هو عبد الله بن أم مكتوم كما جاء ذلك فى كتب التفسير .

---

(١) الحجر : ٧٢ (٢) المؤمنون : ٧٥

(٣) النمل : ٤ (٤) عبس : ١ - ٢

أو تكون فى مجال التشريع كما فى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ﴾ (١) .

وتكون « مجازاً » إذا استُعْملت فى شأن الكفر والضلال ، والكافرين والضالين ، وقد مرَّ بنا كثير من أمثلتها فى فصل « التشبيه والتمثيل » ولنذكر ما لم نذكره هناك :

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ (٢) .

﴿ وَحَسِبُواْ أَلا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ (٣) .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ (٤) .

والآيات لم تخرج عن طريق المجاز كذلك ، فقد شبَّه ضلال القلوب بعمى الأبصار ، والجامع أن كُلاً منهما يحول بين صاحبه وبين المنافع الشريفة ، ففى المجاز استعارة محسوس لمعقول لقصد الإيضاح والتقرير .

وفيما تقدَّم مواضع حملت على عمى البصر وعلى عمى البصيرة ، وضابطهما أن المفرد فيها « عمٍ » والجمع : عمين أو عمون ، لأنه حينئذ من العَمَه الشامل لعمى البصر وعمى البصيرة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ (٥) .

*

● صورتان دقيقتان :

وقد ورد من هذه موضعان آخران هما : ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (٦) .

وقوله : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٧) .

---

(١) النور : ٦١ ، الفتح : ١٧ (٢) الأنعام : ١٠٤ (٣) المائدة : ٧١
(٤) محمد : ٢٣ (٥) الأعراف : ٦٤ (٦) هود : ٢٨
(٧) القصص : ٦٦

قال الراغب فى توجيه معنى الآيتين : « وعمى عليه : أى اشتبه حتى صار بالإضافة إليه كالأعمى قال : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، ﴿ وَآتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ »(١) .

وقال الزمخشرى : « ... ومعنى « عَمِيَتْ » : خفيت ، فإن قلتَ : ما حقيقته ؟ قلتُ : حقيقته أن الحُجَّة كما جُعِلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء . لأن الأعمى لا يهتدى ولا يهدى غيره .. فمعنى : فعميت عليكم البيِّنة : لم تهدكم كما لو عمى على القوم دليلهم فى المفازة بقوا بغير هاد »(٢) .

وما ذكره الراغب والزمخشرى ليس بمقنع . بل إن ما ذكراه لا يخلو من مآخذ وهى - فيما ذكره الراغب - يسيرة . لأنه قال : حتى صار بالإضافة إليه كالأعمى . وهذا لا يحل الإشكال ، لأن القوم لم يبصروا الأنباء ، ولم يهتدوا إلى الرحمة ، فهم العُمْىُ وليست الأنباء أو الرحمة .

وما ذكره الزمخشرى فيه مجافاة للأولَى . لأنه فسَّر الرحمة بالنبوَّة . ثم جعلها - أى النبوَّة - عمياء من حيث لم تهدهم كما لو ضَلَّ دليل قوم فى مفازة بقوا بغير هاد . وكما جُعِلت الحُجَّة بصيرة ومبصرة جُعِلت عمياء .

هذا مُحصَّل كلامه .. ولو كان الأمر كذلك لكان للقوم أكبر حُجَّة يتمسكون بها على البقاء على الكفر . ما دامت حُجَّتهم عمياء .

*

● محاولة لتوجيه المعنى فى الموضعين :

والذى أراه أن المسألة فى الموضعين تُفهم على المجاز المرسل . الذى علاقته الجزئية لأن القوم عُمْىٌ لا يبصرون شيئاً .. والحُجَّة أو الأنباء بعض أفراد ما لا يبصرونه ، فكما يقال : رعت الإبلُ الغيثَ - ويراد به النبات المتسبب عن

(١) المفردات ص ٣٤٨ - ٣٤٩

(٢) الكشاف : ٢/٣٤ ، وما بعدها .

الغيث يقال هنا على الأنباء إذا لم تُبْصَر بأنها عمياء .. لأنها جزء ما لا يبصره القوم .

وأولى من هذا عندى أن يُقال إن فى العبارة قلباً على حد قول الشاعر :

* وَلاَ يَكُ مَوْقِف مِنَ الوداعَا *

أما ما ذكره الراغب والزمخشرى فلا يسلم من المآخذ كما رأينا . وبعد هذا يمكن أن يقال : إن هاتين المادتين « عَمَه » و « عمى » فى القرآن مادتا مجاز .

* * *

● الاشتراء والضلالة :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُواْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ (١)

عبَّر عنهم باسم الإشارة الموضوع للبعيد . إشارة إلى بُعدهم عن الحق الذى باعوه فكان فى هذا التعبير براعة استهلال من أول مطلع .

و « الاشتراء » افتعال من الشراء . وهو هنا مستعار من معناه اللغوى المعروف لاستبدالهم الضلالة بالهدى .

لأنه يفيد اختيارهم للضلالة على الهدى ، والاستعارة فيه تصريحية تبعية لجريانها فى المشتق .

ولعل السر البلاغى الذى عدل من أجله عن أصل التعبير - الذى هو الاستبدال - لأن المشترى يكون راغباً فى الشئ المشترَى . باذلاً للثمن فيه . لأنه غير راغب فيه إذا قورن بما اشتراه .

هذا غرض ..

وغرض آخر : إن الشئ المشترى ملازم لمن اشتراه . أما الثمن المبذول فيه فمفارق له متى وقع البيع بين الطرفين صحيحاً .

---

(١) البقرة : ١٦

وهؤلاء كانوا زاهدين فى الهدى ، ولذلك بذلوه ثمناً فيما يحبونه - وهو الضلالة.فبين هذا المجاز معانٍ وخفايا مستورة لم يكن للوقوف عليها سبيل لو عبِّر عنها بأسلوب الحقيقة اللغوية .

*

● استعمالات « شَرَى » وقانونها :

وهذه المادة - مادة « شَرَى » - وردت فى القرآن خمساً وعشرين مرة جاءت على صور المجاز فى ثلاث وعشرين مرة منها . وعلى المعنى الحقيقى فى مرتين فحسب ، ولها فى القرآن منهج وقانون . فلنذكره مطبقين عليه بالأمثلة :

١ - إذا خلت من تاء الافتعال كانت بمعنى « باع » ، وجاءت على هذه الصورة فى أربعة مواضع . ثلاثة منها على المعنى المجازى . وواحد بالمعنى الحقيقى وهى على الترتيب :

﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ (٢) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ (٣) .

وهذه هى المواضع الثلاثة التى استُعْمِلت فيها المادة استعمالاً مجازياً كما هو ظاهر من السياق .

أما الموضع الرابع .. فهو قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (٤) .

« شروه » : باعوه . فالاستعمال هنا حقيقى وليس مجازياً .. لأن البيع وقع بمعناه المعروف .

---

(١) البقرة : ١٠٢

(٢) النساء : ٧٤

(٣) البقرة : ٢٠٧

(٤) يوسف : ٢٠

٢ - وإذا لم تخل من تاء الافتعال . كانت بمعنى « الشراء » لا البيع ، إلا في موضع واحد جاءت فيه بمعنى « البيع » وسنشير إليه عند وروده . وهي في هذه الحالة في جميع الصور مستعملة استعمالاً مجازياً إلا في موضع واحد جاءت فيه على المعنى الحقيقي . وهو قوله تعالى حكاية عن عزيز مصر :

﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ من مِّصْرَ لامْرَأَتِه أكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أن يَنفَعَنَا أوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ (١) .

فالشراء هنا حقيقة وليس مجازاً . وقد مضى إخبار القرآن عن إخوة يوسف . وأن « شَرَوه » هناك بمعنى باعوه حقيقة لا مجازاً ، وكذلك فإن « اشترى » هنا من بين أخواته وقع بمعنى الشراء حقيقة لا مجازاً . وهذه معادلة تدعو إلى الدهش والاستغراب .

*

● المجاز اللغوى فى « شَرَى » :

أما مجئ المادة على المجاز اللغوى فيتمثل فى العشرين موضعاً الآتية :

﴿ إنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ ﴾ (٢) .

لما كان المجاهد يبذل نفسه فى سبيل الله ويدفع بها إلى الأخطار . والنفس أغلى شئ يمتلكه الإنسان والجود بها أسمى مراتب الجود .

ولما كان يبذل ماله مع روحه فى سبيل الله ، وللمال عند الناس شأن عظيم . والمجاهد يتحمل من المشقات فى المرابطة والسهر ، وهجر المال والزوجة والولد مقبلاً على ربه . حاملاً روحه فى كفه .. فإن الله يثيبه على هذه الأعمال الجليلة أجراً عظيماً فليس له مأوى إلا الجنَّة .

فهنا نفس مبذولة . ومال مبذول . يقابلهما رضا الله وفضله لمن صحت نيَّته فى الجهاد وأكرمه الله بالاستشهاد .

---

(١) يوسف : ٢١

(٢) التوبة : ١١١

صوّر القرآن هذه الحالة بما فيها من طرفين متقابلين بصورة البيع والشراء ، فالمجاهد بائع نفسه وماله لله . والله مشتر تلك النفس الطاهرة وذلك المال الزكى . المؤمن المجاهد يقدِّم نفسه وماله عروضاً مبيعة . والله ينعم بالرضوان والجنة ثمناً مبذولاً .

وهذه عملية رابحة .. فالنفس لا شك ميتة . والمال زائل أو مُفارَق . أما الجنَّة فلا تُنال إلا لمن عمل لها كالمجاهدين . فالتعبير يحتمل المجاز المركَّب . وهو فيه أظهر ، كما يحتمل الإفراد ، وفى إسناد الشراء إلى الله إشعار بضمان الثمن ووفرته . وقد صرَّحت بهذا نفس الآية إذ جاء فيها : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ (١) .

.. لا أحد .

وإذا أخذنا باعتبار أن المجاز فيها مفرد . ففى « اشترى » استعارة تصريحية تبعية . وقد مهَّدت ورشَّحت لاستعارة أخرى من جنسها وهى قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ ﴾ (٢) ... فاكتمل بذلك شطرا الحسن وإن هاتين الاستعارتين لتتعانقان . فما دام الله مشترياً لنفس ومال المجاهدين . فهم – إذن – بائعون . فليستبشروا ببيعهم هذا .. ومَن أوفى بعهده من الله ؟

وتلك بقية المواضع : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى ﴾ .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ (٣) .

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَواْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً ﴾ (٤) .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ (٥) .

والموضع الثالث هو الموضع الذى لم تخل فيه المادة من تاء الافتعال . ودلت مع ذلك على البيع دون الشراء مخالفة بذلك سنن أخواتها حسبما ذكرنا آنفاً .

---

(١) التوبة : ١١١ (٢) التوبة : ١١١ (٣) البقرة : ٨٦

(٤) البقرة : ٩٠ (٥) البقرة : ١٠٢

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ (١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئاً ﴾ (٢) .

﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ (٣) .

﴿ اشْتَرَواْ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (٤) .

﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ (٥) .

﴿ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ (٦) .

﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً ﴾ (٧) .

﴿ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ (٨) .

﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ (٩) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ ﴾ (١٠) .

﴿ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (١١) .

﴿ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ (١٢) .

﴿ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ ﴾ (١٣) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١٤) .

وبهذا اكتملت مواضعها الخمسة والعشرون .

---

(١) البقرة : ١٧٥ (٢) آل عمران : ١٧٧ (٣) آل عمران : ١٨٧

(٤) التوبة : ٩ (٥) البقرة : ٤١ ، المائدة : ٤٤ (٦) النحل : ٩٥

(٧) المائدة : ١٠٦ (٨) البقرة : ٧٩ (٩) البقرة : ١٧٤

(١٠) آل عمران : ٧٧ (١١) آل عمران : ١٨٧ (١٢) آل عمران : ١٩٩

(١٣) النساء : ٤٤ (١٤) لقمان : ٦

وقانون هذه المادة فى القرآن يتلخص فيما يأتى :

أولاً : إذا خلت من تاء الافتعال كانت بمعنى « باع » واستعمالها حينئذ يأتى على طريق المجاز الاستعارى إلا فى موضع واحد فإنها تكون فيه حقيقة وليست مجازاً ، وجملة هذا النوع أربعة مواضع .

ثانياً : إذا لم تخل من تاء الافتعال كانت بمعنى « الشراء » المعروف واستعمالها حينئذ مجازى إلا فى موضع واحد فإنها جاءت فيه على المعنى الحقيقى .

ثالثاً : أن هذه المادة يتجاذبها طرفا البيع والشراء ، والحقيقة والمجاز ، فهى بمعنى « البيع » فى أربعة مواضع . وبمعنى « الشراء » فى بقية المواضع ، وهى بمعنى الحقيقة فى موضعين وبمعنى المجاز فى ثلاثة وعشرين موضعاً ، ولهذا يمكن أن نطلق عليها – فى القرآن – أنها مادة مجاز .. لأنه الغالب على استعمالها.

رابعاً : إذا أريد استعمالها فى جانب المدح جاءت منفية إلا فى موضع واحد جاءت فيه مثبتة . وهو : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) لأن شرف المعنى فيها كان من حيث إسناد الشراء إلى اللّه تعالى فأفادت كفالته بإثابة المجاهدين ، وتكون فى هذه الحال حديثاً عن المؤمنين .

أما إذا أريد استعمالها فى مواضع الذم فإنها تأتى مثبتة ولا تكون حينئذ إلا فى سياق حديث عن الكافرين .

*

● التجارة والربح :

﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ (٢) .

تقدَّم أن القرآن سمى تمسك الكافرين بالضلالة : « شراء » على طريق الاستعارة التصريحية التبعية . ولذلك ناسب أن يسمى عملهم هذا : « تجارة »،

---

(١) التوبة : ١١١ (٢) البقرة : ١٦

ولما كان العرض المبيع « الهدى » ليس متعادلاً مع الثمن المبذول « الضلالة » كانت التجارة خاسرة .

وفى إطلاق معنى « التجارة » عليه مجاز استعارى أيضاً لكنها استعارة تصريحية أصلية لجريانها فى غير المشتق .

وإسناد نفى الربح عنها مجاز عقلى حقيقته : فما ربحوا فى تجارتهم . وسره البلاغى أن إثبات الخسارة لتجارتهم مفيد لبطلانها أساساً . وإذا خسرت تجارتهم كانوا هم خاسرين من باب أولى .

فهذا المجاز حقق غرضين دفعة واحدة . وفيه فوق ذلك تخييل لا تخفى عذوبته .

وإذا تأملنا صور المجاز فى هذه الآية فى مواطنه الثلاثة : « اشتروا » ، « ربحت » ، « تجارة » ، ثم الإسناد إلى ضميرها .. وجدنا المجاز فيها يتضام ويتعانق فى أُلفة وإخاء .

وللزمخشرى إطراء رائع فى هذا .. يقول فيه : « فإن قلتَ : هَبْ أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً فى معنى الاستبدال ، فما معنى ذِكر الربح والتجارة . كأن ثمة مبايعة على الحقيقة ؟ . قلتُ : هذا من الصنعة البديعية التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا . وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقفى بأشكال لها وأخوات . وإذا تلاحقن لم نر كلاماً أحسن منه ديباجة وأكثر ماءً ورونقاً وهو المجاز المرشح . وذلك نحو قول العرب فى البليد : كأن فى أذنى قلبه خطلاً . وأن جعلوه كالحمار . ثم رشحوا ذلك دوماً لتحقيق البلادة . فادّعوا لقلبه أذنين . وادّعوا لهما الخطل ليمثلوا البلادة تمثيلاً يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة ومعاينة » [1] .

*   *

---

(١) الكشاف : ٥٣/١

● المجاز فى « التجارة » عقلى :

وقد أسند القرآن الحكيم أحداثاً للتجارة على سبيل المجاز العقلى فى أربعة مواضع غير هذا الموضع . واحد منها الإسناد فيه إلى صريح لفظها ، والثلاثة الأخرى الإسناد فيها إلى ضميرها . وهى على الترتيب :

١ - ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١) .

٢ - ﴿ إِلا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ (٢) .

٣ - ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (٣) .

٤ - ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٤) .

والنظر فى هذه الآيات يكشف عن عدة أمور :

١ - أن الإسناد فى المثال الأول إلى صريح لفظ التجارة ، وفى الأربعة الأخرى إلى ضميرها . وفى كُلٍّ الإسناد مجازى وسره المبالغة . فى تقرير المعنى وتأكيده .

٢ - أن المواضع الخمسة - اثنين منها استعملت كلمة « التجارة » فيها فى المعنى الحقيقى وهما آية النور ، وآية البقرة الثانية . أما الثلاثة الباقية فإن «التجارة» فيها مجاز لغوى على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية . وسره إبراز المعقول فى صورة المحسوس .

٣ - أن المواضع الثلاثة التى استعملت فيها « التجارة » فى المعنى المجازى تحتوى على مجازين فى كل مثال : الاستعارى اللغوى الذى شرحناه ، والإسنادى العقلى الذى سبقت الإشارة إليه .

وعليه .. فإن استعمال هذه المادة فى القرآن لم يخل من صور المجاز فهى إذن مادة مجاز فيه .



---

(١) النور : ٣٧ (٢) البقرة : ٢٨٢

(٢) فاطر : ٢٩ (٤) الصف : ١٠

● الكافرون واستيقاد النار :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

المفسِّرون على أن هذا المثل ، والذى بعده بيان - معاً - لحال المنافقين ، وقد رأينا أن الدكتور محمد عبد الله دراز يجعل هذا المثل لبيان حال الكافرين ، والذى بعده لبيان حال المنافقين ، على طريقة اللف والنشر المرتب .. وقد جارينا الدكتور دراز فى هذا التقسيم لسبب ذكره هو هناك (٢) .. ولسبب آخر نذكره نحن وهو أن عرض القرآن لقصة الكافرين كان موجزاً إذ لم يتعد الآيتين - كما سبق آنفاً - أما عرضه لقصة المنافقين فقد كان مفصَّلاً إذا ما قيس بقصة الكافرين .

وهذان المثلان - كذلك - أولهما موجز بالقياس إلى ثانيهما ، وهذا يمكن الاستئناس به بل التمسك به عندما يقال إن المثل الأول وارد لبيان حال الكافرين .

وأياً كان الخلاف فإن هذا لا يؤثر على جوهر الموضوع . فلنأخذ فى البيان :

« مثلهم » : أى قصتهم العجيبة الشأن . ويرى الزمخشرى أن المثل - هنا - مستعار استعارة الأسد للمقدام . يريد بذلك الاستعارة التصريحية الأصلية للحالة أو القصة أو الصفة إذا كان لها شأن أو فيها غرابة كأنه قال : إن حالهم العجيبة الشأن كحال الذى استوقد ناراً (٣) .

وهذا التشبيه معقود بين صورة معقولة - وهى المشبه - وصورة محسوسة هى المشبَّه به . والفائدة فيها عائدة على المشبه شأن كل تشبيهات القرآن ، ووجه الشبه هو الحيرة والشك والتخبط . والتورط فى الظلام .

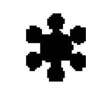
---

(١) البقرة : ١٧ - ١٨ (٢) النبأ العظيم . (٣) انظر الكشاف : ٥٣/١

وقد عبَّر القرآن فى ثنايا هذا التشبيه بـ « الإضاءة » فى حال الإثبات، وبـ « النور » فى حال النفى دون الإضاءة ، ليفيد الذهاب بكل ما حصل لهم من نور . وإحلال الظلام محله . ولو عبَّر بنفى الإضاءة لأفاد ذلك نفى الزيادة فى النور مع بقاء أصل النور لأن « إضاءة » فرط النور .

وفى : « ذهب الله بنورهم » إستعارة تمثيلية . لأن الواقع أن لا نور حقيقة ولا ظلمات . وفى إسناد الذهاب والترك إلى « الله » تسجيل عليهم بالضلال الذى ليس بعده هدى لأن الذاهب بالنور ، والتارك لهم فى الظلمات ، هو الله الذى لا معطى لما منع . ولا مانع لما أعطى .

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (١) .



● بين التشبيه والاستعارة :

أما قوله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ .

فالزمخشرى يرى فيه وجهين : أن يكون تشبيهاً – وعليه المحققون . أو يكون إستعارة . وهذا مختَلف فيه . وجعله تشبيهاً أولى لذكر المشبه وهم المنافقون . وهذا بناء على أن المحذوف – المنوى ذكره – كالمذكور (٢) .

« وهذا عند مفلقى البيان من باب التمثيل البليغ المؤسس على تناسى التشبيه » (٣) .

وهنا ظاهرة جديرة بالتسجيل هى أن المشبه فى القرآن الكريم قد يكون محذوفاً مع حذف الوجه والأداة وبقاء المشبَّه به فحسب . ومع هذا يعتبر الأسلوب تشبيهاً . والبيانيون يسمون هذا « استعارة تصريحية أصلية » ، والقول ببقاء التشبيه مع هذا الحذف لم يقولوا به خارج دائرة القرآن . والذى

---

(١) النور : ٤٠ .   (٢) الكشاف : ٥٧/١   (٣) تفسير أبى السعود : ٦٣/١

حملهم على ذلك قوة ملاحظة المحذوف . وهذه خاصة من خصائص التشبيه القرآنى . تضاف إلى ما ذكرناه من خصائص فى الفصل السابق .

وقد مهّد القرآن لهذا الحكم بقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

* *

● الكافرون .. والصيِّب :

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فيه ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فى آذانهم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالكَافِرِينَ * يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فيه وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

وهذان المثلان – فضلاً عما فيهما من دقة تصوير وإصابة مرمى – يشتملان على صور جزلة من المجاز اللغوى والعقلى . وضروب من التشبيه ازدان بها الأسلوب . وقوى المعنى . فقد قال : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ (٣) ولم يقل : ذهب نورهم .. لأن الذهاب المجرد ليس مثل أن يذهب اللّه به .

فنحن نلمس الفرق بين أن يقال : شرب الخمر حتى ذهب عقله . وأن يقال : شرب الخمر حتى ذهبت الخمر بعقله .

فالعبارة الثانية أقوى من الأولى . لأن الخمر ذهبت بالعقل وانتبذت به مكاناً قصياً . فهنا ذاهب ومذهوب به .

وكذلك : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ أقوى من أن يقال : ذهب نورهم .

ومنه قولهم فى المبالغة : ذهبت به الخيلاء . وذهب السلطان بماله .

*

---

(١) البقرة : ١٧ - ١٨ (٢) البقرة : ١٩ - ٢٠ . (٣) البقرة : ١٧

● عبارة تنبئ عن إحساس نفسى :

وفى المثل الثانى صور من المجاز ترجمت عن مشاعر الخوف والقلق والحيرة عند المنافقين .

فهم لفرط فزعهم يجعلون أصابعهم فى آذانهم . وهذه لقطة مثيرة للانتباه فى قصة هذا الفريق . والواقع أنهم جعلوا أطراف أصابعهم فى آذانهم لأن الأُذن لا تتسع لجعل الأصابع فيها . وطريق هذا التعبير هو المجاز المرسل . وعلاقته هنا الكلية لأن أطراف الأصابع جزؤها .

والسر البلاغى فيه أن قصف الرعد قد أطار أحلامهم . فأخذوا يتقونه بسد الأُذن حتى لا يسمعوه . وهم إزاء هذا القصف لم يكتفوا بوضع أطراف الأصابع . بل كانوا يحاولون غرزها كلها فى كل آذانهم اجتهاداً منهم ألا يسمعوه . وكان للصواعق المصاحبة للبرق والرعد أثر كبير فى بلوغ خوفهم المدى . ولم يكونوا يخافون خطراً يسيراً . وإنما كانوا يخافون الموت .

وقد جاء هذا المجاز فى موضع آخر من القرآن حكاية قول عن نوح يشكو قومه إلى ربه : ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُواْ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَاراً ﴾ (١) .

بَيْدَ أن المقام مختلف . فما فى سورة البقرة كان المقام مقام خوف وفرار من الهلاك المتوقَع . وقد بيَّن ذلك الخوف قوله تعالى : ﴿ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ .

والمقام فى « نوح » مقام عناد ونفور عن سماع دعوة الحق . وقد بيَّن هذا العناد والنفور قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَاسْتَكْبَرُواْ اسْتِكْبَاراً ﴾ .

---

(١) نوح : ٧

وفى قوله : ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ كناية عن صرف أبصارهم عنه حتى لا يبصروه ، فكما وضعوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوه . جعلوا ثيابهم أغشية على أعينهم لئلا يبصروه . وهو كناية عن صفة .

كما جعلوا أصابعهم فى آذانهم كناية عن صرف أسماعهم عنه حتى لا يسمعوه وكان المجاز المرسل فيها من حيث إطلاق الأصابع على البعض . وكذلك يمكن حمل الكناية الثانية على المجاز المرسل لأنهم استغشوا جزء ثيابهم لا كلها ، فقد اجتمع فى هذين التعبيرين الكناية - وهى واسطة بين الحقيقة والمجاز - ثم المجاز المرسل .



● إحاطة علم اللّه :

﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (١) أى لا يفوتونه كما لا يفوت المُحَاط به المحيط . وفى هذا التعبير مجاز . قال العلامة أبو السعود : « شبه شمول قدرته تعالى لهم ، وانطواء ملكوته عليهم ، بإحاطة المحيط بما أحاط به فى استحالة الفوت » .

وشبه الهيئة المنتزعة من شئونه تعالى معهم بالهيئة المنتزعة من أحوال المحيط مع المحاط .

فالمجاز هنا على ما بيَّنه العلاَّمة أبو السعود محتمل الإفراد والتركيب . صُوِّرَ فيه المعقول بالمحسوس لتقريره وسرعة تصوره .

وقد استعمل القرآن هذه المادة : « أحاط » مترددة بين الحقيقة والمجاز فى صور شتَّى . وجانب المجاز فيها أكثر من جانب الحقيقة . وقد تشتمل بعض المواضع على مجازين لغوى وعقلى . وتلك أمثلتها :

---

(١) البقرة : ١٩

أولاً - الصور الحقيقية :

(أ) ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

(ب) ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

(جـ) ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ (٣) .

هذه المواضع الثلاثة التى استخدم القرآن فيها مادة « أحاط » فى معانيها اللغوية لا رابع لها . لأن جهنم محيطة بالكافرين على الحقيقة . وكذلك سرادقها .

ثانياً - الصور المجازية :

(أ) ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤) .

يقول الراغب فى هذا المجاز : فذلك أبلغ استعارة ، وذلك أن الإنسان إذا ارتكب ذنباً واستمر عليه استجره إلى ما هو أعظم منه فلا يزال يرتقى حتى يُطبع على قلبه فلا يمكنه أن يخرج عن تعاطيه .

(ب) ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ (٥) .

(جـ) ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٦) .

(د) ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ﴾ (٧) .

---

(١) التوبة : ٤٩ (٢) العنكبوت : ٥٤ (٣) الكهف : ٢٩
(٤) البقرة : ٨١ (٥) البقرة : ٢٥٥ (٦) آل عمران : ١٢٠
(٧) النساء : ١٠٨

(هـ) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوات وَمَا فِى الأَرْضِ ، وكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطاً ﴾ (١) .

(و) ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٢) .

(ز) ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ (٣) .

(ح) ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ﴾ (٤) .

(ط) ﴿ إِنِّى أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ (٥) .

(ى) ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٦) .

(ك) ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ إِلا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ (٧) .

(ل) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ (٨) .

(م) ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا ﴾ (٩) .

(ن) ﴿ وكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ (١٠) .

(س) ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ (١١) .

(ع) ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ (١٢) .

(ف) ﴿ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً ﴾ (١٣) .

---

(١) النساء : ١٢٦ (٢) الأنفال : ٤٧ (٣) يونس : ٢٢
(٤) يونس : ٣٩ (٥) هود : ٨٤ (٦) هود : ٩٢
(٧) يوسف : ٦٦ (٨) الإسراء : ٦٠ (٩) الكهف : ٤٢
(١٠) الكهف : ٦٨ (١١) الكهف : ١١ (١٢) طه : ١١٠
(١٣) النمل : ٨٤

(ص) ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحطْ بِهِ ﴾ [١] .

(ق) ﴿ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ [٢] .

(ر) ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ [٣] .

(ش) ﴿ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ [٤] .

(ت) ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ﴾ [٥] .

(ث) ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ [٦] .

*

● صياغة القرآن لمادة « أحاط » :

تلك هى المواضع التى استخدم القرآن فيها مادة « أحاط » استعمالاً مجازياً ، وقد بلغت خمسة وعشرين موضعاً باعتبار أن آية « النمل » فيها موضعان : « تحيطوا » ، و « لم تحط » . وقد ترددت هذه الصور من حيث الصياغة بين الفعل الماضى والمضارع واسم الفاعل . وهذا أكثرها إذ بلغت صوره عشراً وكذلك الفعل الماضى . أما المضارع فأقل الأنواع إذ لم تزد صوره عن سبع .

*

● المعانى الواردة فيها :

أما من حيث المعنى فإن هذه المادة قد استعملت - مجازاً - فى الأغراض الآتية :

١ - العلم . وهو أكثر مواضع استعمالها مثل : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ [٧] .

---

(١) النمل : ٢٢ (٢) فصلت : ٥٤ (٣) الفتح : ٢١
(٤) الطلاق : ١٢ (٥) الجن : ٢٨ (٦) البروج : ٢٠ .
(٧) البقرة : ٢٥٥

ومثل : ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ (١) .

ومثل : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ (٢) .

٢ - القدرة مثل : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ (٣) .

ومثل : ﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾ (٤) .

ومثل : ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ (٥) .

٣ - المنع : مثل : ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ (٦) .. أى إلا أن تمنعوا وتغلبوا (٧) .

٤ - الحفظ : مثل : ﴿ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ (٨) .. أى حافظ له من جميع جهاته (٩) .

٥ - الحصر والشمول مثل : ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ (١٠) إذ هو من إحاطة العدو (١١) وهو صفة لليوم لا للعذاب ، والمراد : محيط بهلاكه وعذابه (١٢) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ (١٣) .. أى أهلك كله .

قال الزمخشرى : « وأحيط به : عبارة عن إهلاكه وأصله من : أحاط به العدو. لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه . ثم استعمل فى كل إهلاك . ومنه قوله تعالى : ﴿ إلا أن يُحَاطَ بكم ﴾ (١٤) .

---

(١) الكهف : ٩١ (٢) الطلاق : ١٢ (٣) الإسراء : ٦٠ .

(٤) البروج : ٢٠ . (٥) يونس : ٢٢ (٦) يوسف : ٦٦

(٧) الكشاف : ٣٧٩/٢ ، مفردات الراغب ص ١٣٦ (٨) فصلت : ٥٤

(٩) المفردات ص ١٣٦ ، وحفظ الشئ يقتضى العلم به فكان الأولى الحمل عليه .

(١٠) هود : ٨٤ (١١) الكشاف : ٣٢٦/٢ (١٢) نفس المرجع .

(١٣) الكهف : ٤٢ (١٤) الكشاف : ٥٦٥/٢

قلت فيما سبق : « أن بعض هذه المواضع قد يحوى مجازين : لغوياً وعقلياً.

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ .. فقد أسند اسم الفاعل : « محيط » إلى ضمير اليوم . وفاعل الإحاطة في الواقع هو اللّه تعالى ، إذن ففى هذا الإسناد مجاز عقلى علاقته الزمانية . وسره البلاغى المبالغة فى شدة هوله حتى كأن اليوم نفسه أصبحت له إرادة الهلاك والقصاص العادل منهم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [1] .

*

● مواضع الحقيقة والمجاز فيها :

ومن هذا كله نستنتج :

١ - إن القرآن لم يستعمل هذه المادة فى معانيها الحقيقية اللغوية إلا فى سياق الحديث عن جهنم .

فإذا ما خرج الحديث عن جهنم فإن الاستعمال المجازى لازم لها فى جميع صورها .

٢ - إن المجاز يغلب على هذه المادة إذ جاء فى أربع وعشرين صورة تقدم الحديث عنها . أما الاستعمال الحقيقى فقد اقتصر على مواضع ثلاثة . هى التى تحدثت عن جهنم وسرادقها .

ولذلك يمكن القول بأن مادة « أحاط » فى القرآن مادة مجاز .

*

---

(١) البقرة : ٨١

● الكافرون والبرق :

﴿ يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [١] .

تقدَّم مثلهم بـ « الصيِّب » الذى فيه ظلمات ورعد وبرق . وكان من أثر الرعد مع الصواعق - المصاحبة له - أن جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوه . وهناك كان البرق بعد الرعد فجاء حديث القرآن هنا عن البرق . وبعد أن بيَّن هناك أثر الرعد . والبرق كان ساطعاً قوياً حال دون أبصارهم ودون الإبصار بها . لأنه طاقة هائلة من الضوء .

والضوء إذا كان قوياً لم تستطع معه العين الرؤية .. يحدث هذا لو حلَّق أحد ببصره نحو قرص الشمس فإنه يكل بصره .

ولما كان البرق غير دائم الظهور وإنما هو يلمع ثم يختفى فيعود لامعاً . كان المسند إليه : « يخطف » . مناسباً أيما مناسبة لظهوره السريع واختفائه الأسرع، لأن الخاطف دأبه دائماً أن يقفز فيخطف ثم يسرع مدبراً .

ولا خطف هنا على الحقيقة ، ولذلك كانت : « يكاد » مفتاح تصور الحَدَث كما هو فى الواقع . نافية عنه كل مظنات الغلو البغيض .

والتعبير - بعد - من المجاز ؛ إذ هو استعارة تصريحية تبعية شبه فيها أثر البرق على أبصارهم من الضعف والكلال بـ « الخطف » . والجامع ما يترتب على كل من إزالة ما يترتب على الشئ موجوداً . والقرينة استحالة وقوع الخطف من البرق .

وإسناد الخطف إلى البرق مجاز عقلى علاقته السببية لأن المزيل الحقيقى لأبصارهم هو « اللّه » والبرق سبب .

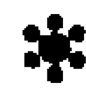
---

(١) البقرة : ٢٠ .

وسره البلاغى فى الموضعين : إبراز المعنوى فى صورة المحسوس للإيضاح والتقرير . هذا فى تشبيه الإزالة بالخطف .. لأن الخطف يفيد نزع الأبصار نفسها من أماكنها وتركها بلا آلة بصر .

أما الإزالة فقد يقف معناها عند سلب الأثر وهو الإبصار دون آلته .

وفى المجاز العقلى صار البرق عدواً لهذا الفريق . ذا إرادة وتدبير وتربص .. يتحين الفرص ثم يقفز فى حركة سريعة وينزع أبصارهم من أماكنها ثم يولى . وأين لهم أن يطلبوه وهم لا يبصرونه ولا يعرفون طريقه . هو فى السماء وهم على الأرض !



● منهج القرآن فى مادة « خطف » :

وقد ذكرت مادة « خطف » فى القرآن على سبيل المجاز فى الصور الآتية :

١ - ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ ﴾ (١) .

٢ - ﴿ وَقَالُواْ إِن نَّتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ (٢) .

٣ - ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾ (٣) .

٤ - ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (٤) .

٥ - ﴿ إِلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ (٥) .

يقول الراغب فى توجيه هذه الاستعمالات : الخطف والاختطاف : الاختلاس بالسرعة يقال : خَطَفَ - يَخْطِفُ - وخُطِفَ يُخْطَفُ .

---

(١) الأنفال : ٢٦ (٢) القصص : ٥٧ (٣) الحج : ٣١
(٤) العنكبوت : ٦٧ (٥) الصافات : ١٠ .

يعنى ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ : أى يُقتلون ويُسلبون [1] .. وعلى هذا فإن المجاز ظاهر فيما عدا : « فتخطفه الطير » لأن الاستعمال الحقيقى هنا أقرب إلى التصوير لأن الطير يخطف الهاوى جزءاً جزءاً . وعلى هذا أيضاً يمكن أن نقول :

أولاً : إن هذه المادة فى القرآن الكريم يغلب عليها جانب المجاز إذ هو ظاهر فى كل أمثلتها - ما عدا موضعاً واحداً - فإن الحمل على المعنى الحقيقى فيه أقرب إلى التصور .

ثانياً : إن هذه المادة لم تستعمل فيه إلا فى مقام الامتنان . وذلك فى موضعين:
أحدهما : ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ ﴾ [2] .
وثانيهما : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [3] .

أو مقام الخوف والهلاك وذلك فى بقية مواضعها :

﴿ يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [4] .

﴿ إن نَّتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ [5] .

﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾ [6] .

﴿ إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [7] .

وعلى هذا - أيضاً - يمكن القول بأن هذه المادة فى القرآن مادة مجاز .

وقد أسند القرآن إلى البرق فى هذه الآية فعلين آخرين غير الخطف :

---

(١) المفردات ص ١٥٠ (٢) الأنفال ٢٦ (٣) العنكبوت : ٦٧
(٤) البقرة : ٢٠ (٥) القصص : ٥٧ (٦) الحج : ٣١
(٧) الصافات : ١٠

﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾ (١) .

والإسناد فى كليهما مجازى علاقته السببية . وفى الآية مقابلة بين ثلاث وثلاث : أضاء وأظلم ، لهم وعليهم ، مشوا وقاموا ، لأن المراد بـ « قاموا » وقفوا ولم يمشوا لشدة الظلام .

وقد عدى « أظلم » بـ « عليهم » لأن الإظلام مضر . والإضاءة بـ « لهم » لأنها مفيدة . فقرن كلا منهما بما يناسبه .

* *

● ذهب وخطف :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

﴿ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ ﴾ مجاز لغوى حقيقته : لأزال سمعهم وأبصارهم . وسره البلاغى فوق إبراز المعقول فى صورة المحسوس . لتسجيل الشقاء عليهم واستمرارهم فى تلك الخطوب الأليمة . لأن الذهاب هنا فيه معنى الإمساك بالشئ المذهوب به ، وفيه معنى المصاحبة على حد قولهم : ذهب السلطان بماله- لأنه أبلغ من أذهب السلطان ماله ، ومن : ذهب ماله - لما فى الصورة الأولى من الإمساك والاستصحاب وهذا المجاز صنو المجاز السابق : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ (٣) .. ولكننا إذا قارنا بينهما ظهرت لنا دقة التعبير فى القرآن الكريم عجيبة عاجبة :

فى جانب « البرق » كان اللفظ المستعار « الخطف » المفهوم من الفعل «يخطف » ، وفى جانب « الله » كان المستعار « الذهاب » المفهوم من الفعل « لذهب » والسر فى اختلاف لفظى المستعار عجيب .

---

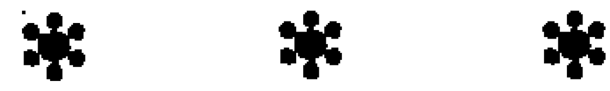
(١) البقرة : ٢ . (٢) البقرة : ٢ . (٣) البقرة : ٢ .

لأن مفهوم الخطف أن يكون هناك تربص وترقب للفرصة . فإذا ما سنحت كانت الحركة السريعة فى الانقضاض للخطف . ولا بد للخاطف من التولى السريع ناجياً بنفسه وبما خطف . والخاطف خائف وجل .

أما الذهاب فى : « لذهب » فلا يقتضى شيئاً من ذلك ، فالآخذ الذاهب قد يكون أخذه على سبيل القوة والاستعلاء - كما هنا - فلا تربص ولا ترقب ، ولا تَحيُّن فرصة ولا انقضاض ولا فرار خشية اللحاق ولا طلب يُتوقع من المأخوذ منه لأن الآخذ قادر قوى . والمأخوذ منه عاجز ضعيف ، ولأنه لا حَوْل له ولا قوة يعصمانه من حَوْل وقوة الله .

لهذه الاعتبارات - والله أعلم - كان اختلاف لفظى المجاز كل واقع موقعه لا نابٍ ولا مستكره ولا وقوع فى مخالفة حس أو شرع .

وهذه خاصة من خصائص التعبير القرآنى . تنتظم الأسلوب كله من « الحمد » فى افتتاح فاتحة الكتاب ... إلى « الناس » فى اختتام خاتمته .



الفصل الثالث

٢ - المجاز القرآنى

دراسة تحليلية حول نص مختار من سورة الأعراف

قال الله تعالى يحكى طرفاً من قصة موسى عليه السلام :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ ، وَفِى نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ * وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّاىَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنْ هِىَ إِلا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِى مَن تَشَاءُ ، أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، وَأَنتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ، وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

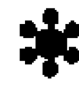
---

(١) الأعراف : ١٥٤ - ١٥٧

● موضوع هذه الآيات :

حكت هذه الآيات طرفاً من قصة موسى عليه السلام . وهو طرف مثير من تلك القصة وقد اشتملت هذه الآيات على صور شتَّى من المجاز والمعانى والبديع . إذ هى نص محكم متماسك يطالعك بمطلع مثير : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾

فقد أسند السكوت إلى الغضب ، وصار الغضب فاعلاً للسكوت . وهذا العمل يدعو إلى التأمل والتفكير . فليس الغضب ممن يتكلم حتى يُسند إليه السكوت . وليس السكوت من الأحداث التى تثبت للغضب أو تنفى عنه . الغضب عن ذلك بمعزل .



● مجاز على وجوه ثلاثة :

إذن فإن فى التعبير تجوزاً . وهو محتمل لثلاثة وجوه :

١ - أن يكون استعارة تصريحية تبعية . بأن يشبه زوال الغضب . بـ « السكوت » بجامع إنعدام الأثر فى كل . والقرينة - إذن - هى إسناد السكوت إلى الغضب .

٢ - أن يكون استعارة بالكناية . ووجهه أن تشبه الغضب بإنسان ثائر يقذف الحمم من لسانه ويضرب ويبطش ويصول ويجول . ثم تحذف المشبه به . وترمز له بشئ من خواصه وهو - هنا - السكوت . وإلى هذا الرأى يميل الزمخشرى فيقول : « كأن الغضب كان يغريه على ما فعل . ويقول له : قل لقومك كذا . وألق الألواح وجر برأس أخيك إليك . وتُرِك النطق بذلك . وقطع الإغراء . ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم . وذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبيل شعب البلاغة » [1] .

---

(١) الكشاف : (ح هـ ص) .

ويميل إليه العلامة أبو السعود فيقول : « وفى هذا النظم الكريم من المبالغة والبلاغة بتنزيل الغضب الحامل له على ما صدر عنه من الفعل والقول منزل الآمر بذلك المغرى ، ثم استعير التركيب الدال على المشبَّه به للمشبه وفى التعبير عن سكونه بالسكوت ما لا يخفى » (١) .

ويذهب الإمام النسفى مذهبهما فيقول موجزاً : ولما كان الغضب لشدته كأنه هو الآمر لموسى بما فعل قيل : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾ .

٣ - أن تكون استعارة تمثيلية بأن تشبه الهيئة الناشئة عن الغضب بهيئة إغراء مغر . فإذا انقطع عنه الإغراء سكن المغرى ثم استعير التركيب الدال على المشبَّه به وهو « سكت » للمشبه .

هذه توجيهات ثلاثة لتحديد نوع المجاز فى الآية . والواقع أن روعة التعبير فيها لا تتوقف على معرفة ما هو نوع مجازها . والذى أميل إليه ما اختاره المفسرون من حمل المجاز على الاستعارة المكنية لأن الغرض وصف الغضب بأنه كان حاداً قد بلغ مداه من نفس موسى عليه السلام ، حتى أصبح هو الذى يقول ويفعل ، وهذا لا يتأتى على أكمل وجه إلا فى الاستعارة المكنية .

وبهذا يبدو ذوق المفسرين وكونهم أقرب إلى طبيعة الأسلوب القرآنى وجزالته .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ ﴾ مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون لأن الوصايا التى فيها إذا تمسك به قوم موسى هدتهم إلى الحق . وجعلتهم أهلاً لأن يرحمهم الله . والقرينة اعتبار أن يكون الهدى والرحمة ملتبسين بالنسخة تلبساً حقيقياً وقائمين بها .

أو العلاقة اللزومية .. لأن مَن يتمسك بتلك الوصايا لزم أن يكون مهتدياً مرحوماً .



(١) تفسير أبى السعود : ٣٠١/٢

● بنو إسرائيل والرجفة :

﴿ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ .

« الرجفة » من الرجف ، والرجيف : هو شدة الحركة والاضطراب . ويقال : بحر رجاف . والإرجاف : إيقاع الرجفة إما بالفعل وإما بالقول [1] .

والمقصود بها في الآية حركة الجبل الشديد ، واضطرابه وعليه المختارون من قوم موسى . والمراد معنى الأخذ المجازى الذى هو : الهلاك والموت . يقال : أخذته الحمى [2] – إذا أماتته . وفاعل الأخذ بالمعنى الحقيقى الذى شرحناه هو الله تعالى . وإسناده إلى الرجفة مجاز عقلى علاقته السببية . والقرينة استحالة وقوع الهلاك من الرجفة بغير إذن الله وإرادته وقدرته .

وسره البلاغى هو المبالغة فى تصوير الهلاك حتى صارت الرجفة عدواً لهؤلاء الناس فصرعتهم لما كفروا .

وفى إطلاق الأخذ على الهلاك مجاز لغوى على طريق الاستعارة التصريحية التبعية والجامع ما يترتب على كل من اختفاء الميت والمأخوذ . والقرينة استحالة أن تأخذهم الرجفة أخذاً . كما يأخذ صاحب المتاع متاعه .

واجتماع المجازين فى هذه العبارة شبيهه من كلامهم قول الشاعر :

وَتُحْيِى لَهُ المَالَ الصَّوارِمُ وَالقَنَا وَيَقْتُلُ مَا تُحْيِى التَّبَسُّمُ وَالجَدَا

حيث استعار الإحياء والقتل لجمع المال وتفريقه . وأسند كلا من « تحيى » و « يقتل » إلى غير ما هو له . وهو « الصوارم » فى الأول . و « التبسم » فى الثانى . وسره البلاغى المبالغة فى تصوير المعنى . والبيت كناية عن الشجاعة والكرم أو استعارة تمثيلية وهو الأظهر .

*

(١) مفردات الراغب ص ١٨٩

(٢) نفس المصدر ص ٨٢

● الحقيقة والمجاز فى مادة « أخذ » :

ومادة « أخذ » فى القرآن استعملت فى المعنيين - الحقيقى والمجازى - والمعنى المجازى لها فيه عدة صور :

١ - فأحياناً يأتى بمعنى الهلاك والدمار . ويغلب فى هذا النوع أن يكون إسنادها إلى اللّه تعالى . أو إلى ظواهر طبيعية كالرجفة والصيحة والصاعقة والطوفان . والإسناد إلى اللّه حقيقى بداهة . أما الإسناد إلى الظواهر الطبيعية فعلى طريق المجاز العقلى . وعلاقته - دائماً - السببية .. ومن أمثلة هذا النوع :

(١) ﴿ وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [١] .

(٢) ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [٢] .

(٣) ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [٣] .

(٤) ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [٤] .

(٥) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [٥] .

٢ - وأحياناً يكون بمعنى الابتلاء والاختبار . والإسناد فى هذا النوع لا يكون إلا للّه ومن أمثلته :

(١) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [٦] .

---

(١) هود : ١٠٢ (٢) هود : ٦٧ (٣) البقرة : ٥٥

(٤) العنكبوت : ٣٧ (٥) العنكبوت : ١٤ (٦) الأنعام : ٤٢

(٢) ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (١) .

(٣) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ (٢) .

ولعل معنى الابتلاء والاختبار واضح فى هذه الآيات الثلاث .

٣ - وأحياناً يكون بمعنى العقاب والمجازاة . ومن أمثلته :

(١) ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴾ (٣) .

(٢) ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّه أن نَأْخُذَ إلا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ ﴾ (٤) .

(٣) ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ ﴾ (٥) .

وإنما كان الأخذ هنا بمعنى العقاب - أعنى آيتى يوسف - لما ذكره الزمخشرى من أن السارق فى شريعة يعقوب يغرم مثل ما أخذ وإلا استرق سنة . ولهذا كان حمل الأخذ على معنى العقاب أظهر وأولى . بل على معنى الاسترقاق .

٤ - ومرة يكون بمعنى الهيمنة والسلطان . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّه رَبِّى وَرَبِّكُم ، مَّا مِن دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٦) .

٥ - وأخرى تكون بمعنى الإمساك . ومنه قوله تعالى :

(١) ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ﴾ (٧) .

(٢) ﴿ يَبْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلا بِرَأْسِى ﴾ (٨) .

---

(١) المؤمنون : ٧٦ — (٢) الأعراف : ٩٤ — (٣) المزمل : ١٥ - ١٦

(٤) يوسف : ٧٩ — (٥) يوسف : ٧٦ — (٦) هود : ٥٦

(٧) الحاقة : ٤٥ - ٤٦ — (٨) طه : ٩٤

٦ - وحيناً بمعنى التقبل . ومثاله : ﴿ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ (١) .

٧ - وآخر بمعنى الغلبة ومثاله : ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ (٢) ..

لأن الذى ينام يغلبه النوم فيمتثل له . والله سبحانه منزّه عن هذا .

٨ - وبمعنى الإعداد . ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ (٣) .

٩ - وتأتى كذلك بمعنى التوثق والعهد . ومن أمثلته :

(١) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ ﴾ (٤) .

(٢) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ (٥) .

(٣) ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ (٦) .

١٠ - وتأتى بمعنى اللبس والتزين . ومن أمثلته :

(١) ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ (٧) .

(٢) ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (٨) .

١١ - وتأتى معنى الاستحضار والاستصحاب ، ومن أمثلته :

(١) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ ﴾ (٩) .

---

(١) التوبة : ١٠٤ (٢) البقرة : ٢٥٥ (٣) التوبة : ٥٠

(٤) آل عمران : ١٨٧ (٥) آل عمران : ٨١ (٦) النساء : ٢١ .

(٧) يونس : ٢٤ (٨) الأعراف : ٣١ (٩) النساء : ٧١

(٢) ﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ﴾ (١) .

(٣) ﴿ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ (٢) .

١٢ - وتأتى بمعنى العمل . ومن أمثلته قوله تعالى :

(١) ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ (٣) .

(٢) ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ ﴾ (٤) .

١٣ - وتأتى بمعنى التخلق والانتهاج . ومن أمثلته :

(١) ﴿ خُذِ العَفْوَ ﴾ (٥) .

(٢) ﴿ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ (٦) .

١٤ - وبمعنى الإزالة والإذهاب . مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾ (٧) .

*

● صيغ مادة « أخذ » :

والحق أن هذه المادة وردت كثيراً فى القرآن فى صورة الثلاثى المجرد : « أخذ » أو « يأخذ » أو « خذ » ، وفى صورة اسم الفاعل منها « آخذ » وهما الصورتان اللتان عرضت بعض أمثلتهما مما وردت فيه مجازاً .. وقد وردت كذلك فى صورتين أخريين هما :

إحداهما : أن تدخل عليها تاء الافتعال « اتخذ » أو « يتخذ » أو « متخذ » وهى هنا تفيد الجعل مع اختصاص المتخذ بالولاء . أو الاستئثار به . مثال الأول

---

(١) النساء : ١٠٢ (٢) النساء : ١٠٢ (٣) الأعراف : ١٤٥

(٤) الحشر : ٧ (٥) الأعراف : ١٤٩ (٦) الذاريات : ١٦

(٧) الأنعام : ٤٦

قوله تعالى : ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً ، إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

ومثال الثانى قوله تعالى حكاية عن زعم الكفار : ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى فى التسامى بغريزة الجنس : ﴿ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ (٤) .

وثانيتهما : أن يزاد ألف فى أولها وتصبح حينئذ رباعية مختصة بالمجازاة والعقاب .

مثل قوله تعالى : ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (٦) .

*

● نتائج مهمة :

إن الدارس لمادة « أخذ » فى القرآن يخرج بالنتائج الآتية :

أولاً : أنها تستعمل ثلاثية فى المعنى الحقيقى والمجازى . والاستعمال المجازى فيها أكثر وروداً . وهى فى هذه الحالة تقع مجازاً عن معان كثيرة قد أحصينا منها خمس عشرة حالة تردد بين المجاز المفرد هو الغالب عليها . وبين المجاز المركب .. مثل قوله تعالى : ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ (٧) لأنه تمثيل لقدرة الله .

---

(١) الأنعام : ٧٤ — (٢) مريم : ٨٨ — (٣) الممتحنة : ١

(٤) النساء : ٢٥ — (٥) البقرة : ٢٢٥ — (٦) البقرة : ٢٨٦

(٧) الحاقة : ٤٥

ومثل : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ (١) .

ثانياً : إذا لم تكن ثلاثية مجردة – بأن زيدت الألف فى أولها ، أو دخل عليها تاء الافتعال – فإن المعنى يصبح مع الأول محصوراً فى المجازاة والمعاقبة سواء أكانت اسماً أم فعلاً ، والمعنى مع الثانية يصبح محصوراً فى الجعل مع إضافة هذا الجعل إلى نفس المتخذ بأن يخص هو الشئ المتخذ بالولاء . أو الاستئثار به .

ولا يخلو الاستعمال فى الصورتين من المجاز . لأن أصل المادة موضوعة لتناول الشئ المأخوذ أخذاً حسياً .

والمجاز فى الأولى مرسل علاقته الإطلاق والتقييد . فيقال : آخذه – بمعنى لامه أو عاقبه . وسره البلاغى ما يُشعر به أصل الفعل من التناول والإمساك .

والمجاز فى الثانية تمثيلى مركب وسره البلاغى ما يشعر به أصل الفعل من تعظيم الشئ المأخوذ ومنزلته عند الآخذ .

ثالثاً : وبعد هذا يمكن القول بأن هذه المادة – فى القرآن الكريم – مادة مجاز وإن كان المجاز فى بعض صورها لا يكاد يظهر لشيوع استعمال المعنى المجازى حتى صار كالحقيقة .

*

• الإسناد المجازى لمادة « رجف » :

أما مادة « رجف » فقد أسند الله إليها أحداثاً غير ما تقدَّم . وذلك فى ثلاثة مواضع هى :

١ – ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ (٢) .

---

(١) يونس : ٢٤ (٢) النازعات : ٦

٢ - ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ [١] .

٣ - ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ [٢] .

وفى إسناد الأخذ إلى الرجفة تهويل لما أنزله بالكافرين . ومبالغة فى تصوير المعنى لا يخفى أثرها .

* *

● الدعاء :

﴿ واكْتُبْ لَنَا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ إنَّا هُدْنَا إلَيْكَ ﴾ [٣] .

دعاء وتضرع من موسى عليه السلام . وتوبة وإنابة إلى اللّه ورغبة قوية فى توفيقه ، والمراد بالكتابة : التقدير والإثبات . فمعنى « اكتب » : قَدِّر وأثبت واقسم لنا هذه الأشياء .

فالتعبير عن التقدير والقسم بالكتابة مجاز لغوى على طريق الاستعارة التصريحية التبعية شبه فيها القسم - وهو معنوى - بالكتابة ، وهى أمر حسى . والجامع التوثق فى كل والعلاقة امتناع أن تكتب الحسنة .

واستعمال « كتب » فى الدعاء مجاز مرسل علاقته الإطلاق والتقييد . حيث أطلق الأمر وأراد به الدعاء . والقرينة امتناع أن يأمر اللّه آمر .

*

● مادة « كتب » فى القرآن :

وقد استخدم القرآن مادة « كتب » كثيراً ويغلب المجاز على استعمالها فيه إذا كانت فعلاً . وقد استخدمها مجازاً فى أغراض شتَّى . نذكر منها ما يلى :

---

(١) الأعراف : ٧٨ (٢) العنكبوت : ٣٧ (٣) الأعراف : ١٥٦

١ – بمعنى الفرض .. ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (١) .

٢ – وبمعنى الحلال .. ومنه قوله تعالى : ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ ﴾ (٢) .

٣ – وبمعنى التثبيت .. ومنه قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ (٣) .

٤ – وبمعنى التقدير .. ومنه قوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا ﴾ (٤) .

٥ – وبمعنى الجعل .. ومنه قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٥) .

٦ – وبمعنى التخصيص .. ومنه قوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ (٦) .

٧ – وبمعنى التملي .. ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (٧) .

٨ – وبمعنى الإحصاء .. كقوله تعالى : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَآثَارَهُمْ ، وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨) .

*

---

(١) البقرة : ١٨٣ (٢) البقرة : ١٨٧ (٣) المجادلة : ٢٢
(٤) التوبة : ٥١ (٥) المائدة : ٨٣ (٦) الأعراف : ١٥٦
(٧) الفرقان : ٥ (٨) يس : ١٢

● ملاحظات مهمة :

ويلاحَظ - هنا - أن المجاز مقصور على استعمالها فعلاً . أما إذا استعملت صفة فإنها لا تخرج عن المعنى الوضعى . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾ (٢) .

ويلاحَظ - كذلك - أن استعمالها فعلاً ليس دائماً بمعنى المجاز . بل قد تأتى فى المعانى الوضعية كالآية المتقدمة ، وكقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ (٣) .

ويلاحظ - كذلك - أن المجاز فيها متردد بين الاستعارة والمجاز المرسل ، وقد بينا وجه الاستعارة فى صدر هذه الآية التى نحن بصدد الحديث عنها .. أما المجاز المرسل فظاهر فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ .

وقد قلنا : إن معنى المجاز هنا هو التملى - حسب زعمهم - والتملى صائر إلى الكتابة فعلاقته اعتبار ما سيكون ، والقرينة امتناع إيقاع الكتابة دون مصدر يمد بما سموه : أساطير الأولين .

*

● التوبة والرجوع الحسى :

و ﴿ هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ : أى تبنا . من هاد يهود - إذا رجع . أو هاد يهيد . والمعنى حركنا إليك أنفسنا وأملناها نحوك ، ويجوز على ما ذكره الزمخشرى أن يكون الفعل مبنياً للمفعول .. أى : حركت إليك أنفسنا وأميلت .

---

(١) الانفطار : ١١ (٢) البقرة : ٢٨٢ (٣) البقرة : ٧٩

وفى التعبير عن التوبة بالرجوع الذى هو عدول السائر عن وجهة كان يريدها إلى أخرى عرضت له مجاز يجوز حمله على وجهين :

الأول : أن يكون تمثيلاً شبهت فيه هيئة التائب - وهى أمر معنوى - بهيئة الراجع ، وهى أمر حسى . وسره التقرير والإيضاح . والجامع بين الأمرين رجوع التائب عن المعاصى والإقبال على الطاعات ورجوع السائر عن وجهته إلى أخرى . فالعدول هو الأمر الجامع بين الأمرين .

والقرينة استحالة الرجوع المحسوس إلى الله . لأنه غير حال فى مكان دون آخر يرجع إليه فيه .

الثانى : أن يكون استعارة مفردة شبهت فيه التوبة بالرجوع - مطلق رجوع - والجامع والقرينة كما سبق ، فهى استعارة تصريحية أصلية .



● التعميم والتخصيص فى الرحمة :

﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ .

رحمة الله : نعمه وألطافه . والرحمة فى الأصل : الشفقة والحنان . مشتقة من « الرحم » الذى هو موضع نمو الجنين لما يلقاه فيه من أسباب الراحة ووجوه الإنعام .

ويراد بها فى جانب الله لازمها . وهو ما يترتب عليها من الإكرام والتنعيم والإلطاف .

ولما كانت الرحمة هيئة من هيئات النفس وشعوراً وجدانياً .. فإن وصفها بالوسع ضرب من المجاز ومعنى : « أن رحمة الله وسعت كل شئ » أن من شأنها أن تشمل جميع الموجودات لكثرتها وسعة فضلها .

وعلى هذا فالمجاز فيها محتمل لوجهين :

الأول : أن تكون استعارة تمثيلية شبهت فيها هيئة الرحمة وما يمكن أن تظله فيها من المخلوقات بشئ محيط متسع ذى طاقة هائلة من الوسع . فالهيئة الأولى تخيلية والهيئة الثانية واقعية حسية .. وسره البلاغى إبراز المتخيل المعنوى فى صورة الواقع الحسى .. والقرينة امتناع أن تتصف الرحمة بالوسع لأنها ليست ذات مساحة .. فتخيل إسناد الوسع إلى الرحمة هو قرينة المجاز .

الثانى : أن تكون استعارة بالكناية . شبهت فيها الرحمة بشئ ذى وسع ثم حذف المشَّبه به ورُمِزَ له بخاصة من خواصه وهى « الوسع » . ومعنى التمثيل فيها أظهر .

والمعنى لا يتغير بتغيير التوجيه الاصطلاحى . فرحمة الله غير متناهية تكفى أهل السموات والأرض وما بينهما . وتزيد لتشمل كل شئ حتى الجمادات .

وقد استعمل القرآن هذه المادة « وسع » تمثيلاً لبيان مقدار الرحمة أو العلم فى المواضع الآتية :

أولاً – فى جانب الرحمة :

١ – ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (١) .

٢ – ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ (٢) .

٣ – ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً ﴾ (٣) .

٤ – ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ (٤) .

وقد قامت المغفرة فى هذا المثال مقام الرحمة ، لأن المغفرة جزء من الرحمة فى معناها الشامل .

---

(١) الأعراف : ١٥٦
(٢) الأنعام : ١٤٧
(٣) غافر : ٧
(٤) النجم : ٣٢

ثانياً - فى جانب العلم :

١ - ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوات وَالأَرْضَ ﴾ (١) .

٢ - ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

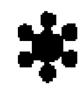
٣ - ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (٣) .

٤ - ﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ (٤) .

٥ - ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ (٥) .

وهذا الموضع مشترك بين العلم والرحمة . ولذلك أثبتناه فى جانب الرحمة باعتبار .. وفى جانب العلم باعتبار .

ومن النظر الفاحص فى هذه النصوص يتضح أن كُلاً من رحمة اللّه وعلمه يتخذ القرآن الكريم منهجاً واحداً للكشف عنهما وبيان مقدارهما فهما محيطان كل فى موضوعة إحاطة شاملة تكاد تدرَك بالحواس لشدة ظهور آثارها الدالة عليها .



● « واسع » .. وصفاً للّه سبحانه :

وجاءت هذه المادة على صورة اسم الفاعل وصفاً للّه على سبيل المجاز كذلك متلوة بلفظ الحكمة مرة وبلفظ العلم سبع مرات .

وهذه مواضعها على الترتيب :

١ - ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاً مِّن سَعَتِهِ ، وكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً ﴾ (٦) .

---

(١) على القول بأن المراد من « الكرسى » هنا العلم . وفى رأى : أن المراد به العظمة - والآية من سورة البقرة : ٢٥٥

(٢) الأنعام : ٨٠ .

(٣) الأعراف : ٨٩

(٤) طه : ٩٨

(٥) غافر : ٧

(٦) النساء : ١٣٠ .

٢ - ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

٣ - ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

٤ - ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

٥ - ﴿ قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

٦ - ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥) .

٧ - ﴿ إِن يَكُونُواْ فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٦) .

٨ - ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٧) .

*

● مسوغات الوصف :

تلك هى مواضع استعمال هذه المادة وصفا لله سبحانه على التمثيل المجازى وقد حرص القرآن الكريم على أن يقرن إلى وصف الله بهذه الصفة : « واسع » كلمات وأوصافاً أخرى تمهد لهذا الوصف المجازى وتشير إلى جهة مسوغ هذا الوصف .

وهذا المسوغ نوعان :

١ - وصف يُذكر بعده - أى بعد الوصف المجازى - وكاد ينحصر هذا الوصف فى « عليم » إلا فى موضع واحد كان هذا الوصف « حكيماً » .

ولا شك أن العلم يوصف بالسعة وكذلك الحكمة لأنها بمعناه .

---

(١) البقرة : ٢٤٧ (٢) البقرة : ٢٦١ (٣) البقرة : ٢٦٨

(٤) آل عمران : ٧٣ (٥) المائدة : ٥٤ (٦) النور : ٣٢

(٧) البقرة : ١١٥

٢ - كلمات تتقدم عليه وكادت تنحصر هذه الكلمات فى الفضل . والفضل يوصف بالسعة فإن لم تكن « الفضل » فهى السعة والمغفرة والحكمة والمضاعفة . هذه المعانى متقدمة أو متأخرة مهّدت لوصف اللّه بالوسع . فلم يكن هذا الوصف مستغرباً أو نابياً وإن كان يستخدم فى وصف المساحات . وشتّان ما بين المساحات وبين اسم « الجلالة » الموصوف فى هذه الآيات .

*

● وصورتان أخريان :

هذا وقد بقى من معانيها المجازية فى القرآن الكريم - أو معان كالمجازية لأن أصلها المجاز وقد شاع استعمالها حتى أصبحت كالحقيقة اللغوية فيما استعملت فيه من هذا النوع - بقى صورتان . إحداهما بمعنى الطاقة ، والثانية بمعنى الفضل والسعة فى الرزق .

واستعمالها فى المعنى الأول : « الطاقة » جاء فى خمس آيات هى :

١ - ﴿ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا ﴾ (١) .

٢ - ﴿ لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا ﴾ (٢) .

٣ - ﴿ وَأَوْفُواْ الكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا ﴾ (٣) .

٤ - ﴿ وَالّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا ﴾ (٤) .

٥ - ﴿ ولا نُكَلِّفُ نفساً إلا وُسْعَهَا ، وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالحَقِّ ﴾ (٥) .

---

(١) البقرة : ٢٣٣ (٢) البقرة : ٢٨٦ (٣) الأنعام : ١٥٢

(٤) الأعراف : ٤٢ (٥) المؤمنون : ٦٢

وإنما كانت كانت هنا بمعنى الطاقة لأنها وقعت فى حَيِّز التكليف . والتكليف منوط بما كان فى قُدرة الإنسان وطاقته .

وفى تشبيه الطاقة بالوسع تصوير أيضاً للمعنوى بالمحسوس والمجاز فيها يصح حمله على المركب والمفرد .

أما استعمالها فى الفضل وسعة الرزق فتلك هى مواضعه وهى خمسة أيضاً:

١ - ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ (١) .

٢ - ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ﴾ (٢) .

٣ - ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُواْ الفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ (٣) .

٤ - ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ (٤) .

٥ - ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ﴾ (٥) .

تدل الكلمة فى هذه المواضع الخمسة على الفضل والتوسعة فى الرزق ، ويؤيد هذا عطف السعة على الفضل فى الآية وهو عطف تفسير . والفضل إنما يوصف بالقِلّة والكثرة ، أما وصفه بالضيق والوسع فعلى طريق المجاز لا غير .

*

● الوسع وصفاً للأرض :

ولهذا لم تأت الكلمة فى القرآن - أى كلمة وسع - فى المعنى الحقيقى إلا وصفاً للأرض فى قوله تعالى :

١ - ﴿ قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ (٦) .

---

(١) البقرة : ٢٤٧ — (٢) النساء : ١٠٠ — (٣) النور : ٢٢

(٤) الطلاق : ٧ — (٥) البقرة : ٢٣٦ — (٦) النساء : ٩٧

٢ - ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ (١) .

٣ - ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ (٢) .

فإجراء - الوسع - فى الآيات الثلاث وصفاً للأرض جار مجرى الحقيقة اللغوية لأن الوسع أصيل فى الأرض .

*

• موضع آخر بين الحقيقة والمجاز :

وبقى مثال واحد لاستعمال هذه المادة فى القرآن الكريم يتجاذبه جانبا حقيقة ومجاز . وهو قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (٣) .

قال فى مختار الصحاح : « أى أغنياء قادرون ، ويقال : أوسع الله عليك - أى أغناك » (٤) .

وعلى هذا التفسير فإن جانب المجاز ظاهر فى الآية .

ويمكن حمل العبارة على معنى الوسع الحقيقى - أى موسعون فى البناء - وهو الأفضل لما هو واقع مشاهَد .

وهذا هو جانب الحقيقة فى التعبير .

*

• حصيلة هذه الجولة :

إذا تقرر هذا فإن النتائج التى يمكن تسجيلها حول استعمال القرآن لهذه المادة تتلخص فيما يأتى :

أولاً : أن الاستعمال المجازى غالب عليها . أما الاستعمال فى المعنى الحقيقى فحظه فيها قليل لم يأت إلا فى ثلاث آيات كانت فى سياق الحديث عن الأرض .

---

(١) العنكبوت : ٥٦

(٢) الزمر : ١٠ .

(٣) الذاريات : ٤٧

(٤) مادة « وسع » ص ٧٢١

وموضع رابع يتردد التعبير فيه بين الحقيقة والمجاز .

ثانياً : يمكن أن يطلق على هذه المادة بأنها فى القرآن مادة مجاز وأن المجاز ظاهر فى بعض مواضعها . ويحتاج إلى روية فى البعض الآخر .

* *

● مادة « تبع فى القرآن » :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ ﴾ (١) ..

فى هذه الآية شروع فى بيان صفات أخرى لمستحقى رحمة الله . وأول هذه الأوصاف إتباع الرسول ﷺ .

و « تبعه » فى اللغة : سار خلفه أو مرَّ به فمضى معه . وكذا « أتبعه » . والمعنى اللغوى ليس مقصوداً للآية بل المراد العمل بالشريعة التى جاء بها عليه الصلاة والسلام والاقتداء به فى قوله وفعله .

وإنما عبَّر عنه بالاتباع لتصوير المعقول بالمحسوس لأن النفس حين تتأمل هذه الصورة ترى أن التابع ملازم للمتبوع متحر للسير معه فى نفس الاتجاه الذى يبغيه .

كما يدرك أن المتبوع رائد يسير أمام جنوده يسلك بهم أحسن الطُرق إلى أشرف الغايات .

وقد جاءت هذه المادة فى القرآن الكريم - مادة تبع - فيما يزيد عن مائة وخمسين آية ، وكثرة ورودها لا تحول دون أن نقف معها وقفة تكشف لنا عن منهج القرآن فى استعمالها . وليكن ذلك مع بعض أمثلتها لا على سبيل الاستقصاء .

والباحث يرى استعمالات القرآن لها تجرى على المنهج التالى :

---

(١) الأعراف : ١٥٧

أولاً – فى مقام المدح :

١ – ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) .

٢ – ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (٢) .

٣ – ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٣) .

٤ – ﴿ يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ﴾ (٤) .

٥ – ﴿ وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ (٥) .

٦ – ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ (٦) .

ثانياً – فى مواطن الذم :

١ – ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً ﴾ (٧) .

٢ – ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٨) .

٣ – ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ (٩) .

٤ – ﴿ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ (١٠) .

٥ – ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ (١١) .

---

(١) البقرة : ٣٨ (٢) آل عمران : ١٦٢ (٣) النساء : ١٢٥

(٤) المائدة : ١٦ (٥) طه : ٤٧ (٦) الجاثية : ١٨

(٧) الإسراء : ٦٣ (٨) سورة ص : ٨٥ (٩) الكهف : ٢٨

(١٠) طه : ١٦ (١١) البقرة : ١٠٢

٦ - ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلاةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ ﴾ (١) .

٧ - ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ (٢) .

*

● وقفة مع هذه المادة :

هذه النصوص المختارة فى الموضعين .. استعملت فيها المادة « تبع » استعمالاً مجازياً . ويختلف تقدير المجاز باختلاف الاعتبارات .

فمثلاً قوله تعالى : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ﴾ يمكن حمله على الاستعارة التصريحية التبعية حيث شبّه الامتثال والانقياد لما جاء به الوحى بالسير المعلوم .

ويجوز حمله على الاستعارة بالكناية . بأن يُشبَّه الهدى برائد يتقدم الركْب على غاية شريفة . ثم حذف ورمز له بالاتباع .

ويمكن حمله على المجاز التمثيلى بأن تشبه هيئة المؤمنين فى اقتدائهم بالرسول عليه السلام من امتثال الأمر واجتناب النهى بهيئة ركب يسيرون وراء هاد لهم . ناصح أمين .

وهذا التوجيه صالح لتطبيقه على الآية الثالثة والآية الرابعة والآية السادسة من الطائفة الثانية .. وموطن المجاز فيها :

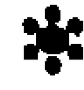
﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ عبارة مشتركة بين الثالثة والرابعة .

﴿ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ ﴾ وهى عبارة الآية السادسة .

---

(١) مريم : ٥٩ (٢) الحج : ٣

فالهوى والشهوات صنوان ، ومَنْ يتبعهما واقع فى أسرهما . يصرفانه كيف يشاءان . لذلك فإن حمل المجاز فى هذه المواضع على المفرد بنوعيه - التصريحية والمكنية - أو التمثيلى منه رأى سديد .



● ملاحظات مهمة :

وهنا ملاحظات هامة تبدو أمام النظر :

أولاً : أن الاستعمال المجازى يغلب على هذه المادة حتى لا تكاد تجد من بينها ما استعملت فيه فى معناها الوضعى إلا نادراً .

وأن المجاز فيها يتردد بين المفرد والمركب .

ثانياً : إذا كان متعلق المادة أمراً محموداً استعملت حينئذ فى مقام المدح إخباراً عن المؤمنين . أو خطاباً لهم . أو فى سياق الحديث عما ينبغى أن يكون .

وفى هذا المقام لا تجئ إلا مثبتة .

أما فى سياق الحديث عن العصاة والكافرين . فإنها لا تجئ إلا منفية ما دام متعلقها أمراً محموداً . تحقيقاً لذمهم لما هم عليه من ضلال وكفر .

ثالثاً : إذا كان متعلقها أمراً مذموماً . فإن كان سياق الحديث عن المؤمنين فإنها تجئ منفية . حفاظاً على صفة الكرامة والنزاهة لهم . وإن كان فى سياق الحديث عن العصاة والكافرين . فبقاؤها على الإثبات أمر مطرد . تحقيقاً لصفة الذم والتحقير .

رابعاً : وإذا كانت مخاطبة بين الكافرين فيما بينهم بعضهم لبعض . أو فيما بينهم وبين المؤمنين . فالحال مختلف تبعاً لاختلاف معايير الفضيلة عندهم . وهى تجرى على النحو الآتى :

١ – إذ خوطبوا ليتبعوا ما أنزل الله من البيِّنات والهدى تمسكوا بما وجدوا عليه آباءهم من عقائد ضالة ونحل فاسدة قائلين : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (١) .

٢ – وإذا تدارسوا الوضع فيما بينهم بُغية الوصول إلى موقف يتخذونه قالوا : ﴿ أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾ (٢) .

أو قالوا : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ الغَالِبِينَ ﴾ (٣) .

٣ – وإذا خاطبوا الرسل أو أشياعهم المؤمنين قالوا : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ (٤) .

أو قالوا : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ (٥) .

٤ – وإذا مثلوا أمام ربهم لم يستطيعوا تمويه وجه الحقيقة تمنوا لو تعاد لهم الكَّرة فيؤمنوا ويتبعوا الرسل قائلين : ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ (٦) .

فهنا – كما قلنا – معايير للفضيلة مختلفة . ولذلك إذا أرادوا إثباتها لأنفسهم جاءت الكلمة مثبتة . والغرض من إثباتها حينئذ إثبات الفضيلة – حسب زعمهم – إلى أنفسهم .

أما حين يخاطبون المؤمنين فإثبات هذه الكلمة دليل الذم – فى نظرهم – فهم مثلاً لا يتبعون الهدى لأنهم لو اتبعوه شردوا فى الأرض . ومزقوا كل ممزق ، فالعزة عندهم فى البقاء على الضلال . والهوان فى الدخول فى الدين وإتباع تعاليمه . ألا ساء ما يحكمون .

(١) البقرة : ١٧٠ . (٢) القمر : ٢٤ (٣) الشعراء : ٤٠ .
(٤) القصص : ٥٧ (٥) الإسراء : ٤٧ ، الفرقان : ٨ (٦) إبراهيم : ٤٤

وهم لا يتبعون الرسول ، لأنه – عندهم – رجل مسحور . أو لأن الذين اتبعوه من الناس ما هم إلا أرازلهم وضعفاؤهم . ولا يفيقون من سكرتهم إلا ساعة العرض على اللّه . وحينئذ يتمنون العودة إلى الحياة ليتبعوا الرُسل .

٥ – وإذا لم يكن متعلقها مما يُحمد أو يُذم . وليس جارياً فى مخاطبات بين الكافرين بعضهم بعضاً . أو بينهم وبين المؤمنين . فهى – إذن – تفيد ترتب أحداث تاريخية وقعت أو ستقع .

فمن الأول .. قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ (١) .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَمْسِ ﴾ (٢) .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً * حَتَّى إذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ (٣) .

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (٤) .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ ﴾ (٥) .

ومن الثانى .. قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ (٦) .

ويلاحَظ هنا أن المعنى باق على مجازيته . إذ ليس المراد بالاتباع المعنى اللغوى الذى هو : سار خلفه . إلا فى قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ فالاستعمال حقيقى فيه . ذلك هو قانون هذه المادة فى القرآن الكريم . أو نهجها الذى تأتى عليه .. والمجاز غالب فيها .

* *

---

(١) الكهف : ٨٤ – ٨٥ (٢) الكهف : ٨٩ – ٩٠ (٣) الكهف : ٩٢ – ٩٣

(٤) طه : ٧٨ (٥) المرسلات : ١٧ – ١٨ (٦) النازعات : ٦ – ٧

● الرسول فى التوراة والإنجيل :

﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ [1] .

الضمير المنصوب فى « يجدونه » - وهو « هاء » الغائب - راجع إلى الرسول المذكور قبل هذه العبارة ولمرجعه عليه اعتباران :

أن يرجع عليه باعتبار الذات : أى يجدون ذاته . وهو المعنى المتبادر إلى الذهن من قوله تعالى : « يجدونه » .. وهذا غير مقصود .

أن يرجع عليه باعتبار آخر غير الذات - الاسم أو الصفة مثلاً - وهو المعنى المراد . لأن « مكتوباً » يخصص عود الضمير على الاعتبار الثانى . ولأن الذات لا توجد بين ضفاف الكتب عن طريق الكتابة . وهذا يسلمنا إلى القول بالتجوز فى التعبير . وأنها من المجاز المرسل لأن المعنى كما نص عليه الزمخشرى : يجدون صفته .

والصفة جزء الذات .. فالعلاقة الكلية لأنه أطلق الكل وأراد الجزء ، والقرينة استحالة أن توجد الذات بين الكتب .

وقد فسَّر القرآن نفس الصفات التى وجدوها مكتوبة فيما بين أيديهم من الكتب السماوية وهى كونه آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر . مبيحاً لكل الطيبات . مانعاً لكل الخبائث . واضعاً عنهم ما كانوا ينوؤون به من أثقال وأغلال .

وهنا نسأل سؤالاً : لماذا عبَّر القرآن الكريم عن الصفات بما يصح حمله على وجود الذات ؟

وما مغزى هذا التعبير وسمته البلاغية ؟

---

(1) الأعراف : ١٥٧

والجواب : لعل السر فى ذلك - والله أعلم - أن الأوصاف التى ذكرت فى الكتب السماوية السابقة قبل القرآن بالغة الدقة فى التصوير . حتى إن القارئ عندما يتلو نصاً فيه تلك الأوصاف يحس - وهو يتلو - بأن ذات الموصوف قد مثلت أمامه نموذجاً واضحاً . وإن كان سراً فى ضمير الغيب .

وهذا منحى له وزنه فى بلاغة القول ، وفنون التعبير . فنحن نعد الكاتب الذى يخط قصة . أو يصف واقعة وصفاً دقيقاً . ويرسم الأشخاص رسماً صادقاً . حتى يسلب القارئ حدود الزمان والمكان ، فتجئ قصته عملاً فنياً محكماً ووصفه شاملاً .

نعد هذا الكاتب أو الواصف قد ملك من البيان قدراً كبيراً ومن البلاغة حظاً وفيراً .

وفوق هذا وذاك بيان القرآن وبلاغة القرآن .

* *

● الطيبات والخبائث :

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ (١) .

هذان وصفان للرسول ذكرا بعد وصفين آخرين هما : ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٢) .

وأصل الحل حل العقدة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ (٣).

واستعماله هنا فى الحل - الذى هو ضد المنع - ففى أصل هذا التعبير مجاز ولكنه كثر استعماله حتى صار كالحقائق اللغوية . فكأن المحلل كان معقوداً ففك عقده وحل . والطيب ما لَذَّ حساً . فعبَّر به عن الحلال ترغيباً فيه . والتحريم : المنع. والمراد به هنا المنع الشرعى .

---

(١) الأعراف : ١٥٧ (٢) الأعراف : ١٥٧ (٣) طه : ٢٧

والأصل فى الخبيث : القبيح وما لا يوافق النفس حساً أو عقلاً . سمى الحرام خبيثاً من باب المجاز تشبيهاً له بالقبيح الذى تعافه النفس وتمجه الطباع . تنفيراً منه ، وتزهيداً فيه .

فقد وضع كل لفظ فى موضعه اللائق به . واستعير للحلال ما يُرغِّب فيه ، وللحرام ما يُنفِّر عنه .



● « حل » فى القرآن :

واستعمال مادة « حل » فى القرآن له ثلاثة أنواع :

أولاً : أن يكون بمعنى الإزالة والفك ، ومثاله قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام داعياً متضرعاً : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (١) .. أى أزل وفك .

ثانياً : أن يكون بمعنى الإباحة والجواز . وهذا المعنى هو الغالب عليها وله أمثلة كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ (٢) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً ﴾ (٤).

وقوله : ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ (٥) .

---

(١) طه : ٢٧ – ٢٨ (٢) البقرة : ٢٣٠. (٣) البقرة : ٢٢٨

(٤) النساء : ١٩ (٥) البقرة : ٢٧٥

ثالثاً : أن يكون بمعنى الحلول . وهذا المعنى كثير فيها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ، وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ (٣) .

وقد احتمل قوله تعالى : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ (٤) وجهين :

أحدهما : وأنت حلال مستباح لهم يؤذونك ويناوئونك .

وثانيهما : وأت حال نازل بهذا البلد (٥) .

*

● ملحظ عجيب :

ومن الملاحظات العجيبة أن القرآن استعمل « حلال » من الحل وله فيه طريقتان :

إحداهما : أن ترد فى مقام الحث . وقد اطرد القرآن وصفها بكلمة « طيب » فى جميع صورها وهى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً ﴾ (٦) .

وقوله : ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً ﴾ (٧) .

---

(١) طه : ٨١ (٢) طه : ٨٦ (٣) إبراهيم : ٢٨

(٤) البلد : ٢ (٥) الكشاف : ٦٠١/٤ (٦) البقرة : ١٦٨

(٧) المائدة : ٨٨

وقوله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً ﴾ (٢) .

ثانيتهما : أن ترد فى مقام الإنكار والزجر . فتقطع عن ذلك الوصف . وذلك فى موضعين :

الأول : قوله تعالى : ﴿ وَلا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ (٣) .

الثانى : ﴿ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ (٤) .

*

● والسر :

ولعل سر هذا الاختلاف أن الحلال فى المواضع الأولى التى حثت الناس على الأكل مما رزقهم الله هو حلال أصيل فى موضوعه فآثر القرآن وصفه بالطيِّب ترغيباً فيه وطلباً له .

أما الحلال فى المواضع الأخرى . فحلال مزعوم . والإنكار مسلَّط عليه أن يكون ، فضلاً عن أن يوصف بالطيب .

* *

● « طاب » فى القرآن :

أما مادة « طاب » فإن استعمالها فى القرآن الكريم يختلف باختلاف نوع اللفظ المستعمل فعلاً أو غير فعل .

فإن كانت فعلاً – ولم ترد فيه كذلك إلا بلفظ الفعل الماضى فى ثلاثة مواضع – فإن المعنى يختلف من موضع إلى آخر وتلك هى مواضعها فعلاً :

---

(١) الأنفال : ٦٩
(٢) النحل : ١١٤
(٣) النحل : ١١٦
(٤) يونس : ٥٩

١ - ﴿ فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ (١) .

ومعناها هنا : ما حل لكم (٢) .

٢ - ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٣) .

ومعناها هنا : طهرتم من خبث الخطايا (٤) .

٣ - ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً ﴾ (٥) .

ومعناها هنا : سمحن أو وهبن . وعبَّر عن السماح بالطيب لأن المُرَاعَى تَجافي أنفسهِنّ عما وهبنه وسمحن به فلا هن مكرهات عليه (٦) .

أما إذا كان اللفظ المستعمل منها غير فعل . فهو على نوعين :

أولاً : أن يكون مصدراً بمعنى الطيب . وله مثال واحد هو قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ (٧) .

فـ « طوبى » مصدر كبُشرى ، ومعنى طوبى (٨) لك : أصبتَ خيراً وطيباً (٩) .

ثانياً : ألا تكون مصدراً ولا تكون حينئذ إلا صفة فى المعنى أو المعنى والإعراب معاً .

وهذا الاستعمال يستبد بكل أمثلتها . وتقع صفة بالمعنى المذكور لعدة أمور هى :

١ - أن تكون صفة للرزق وذلك كثير متعدد .. منه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً ﴾ (١٠) .

---

(١) النساء : ٣

(٢) انظر الكشاف : ١/ ٢٦٠ ، وتفسير النسفى : ١/ ١٦٠

(٣) الزمر : ٧٣

(٤) انظر الكشاف : ٤/ ١١٤

(٥) النساء : ٤

(٦) انظر الكشاف : ١/ ٣٦٢

(٧) الرعد : ٢٩

(٨) أصلها : طُيْبَة قلبت الياء واواً لسكونها قبلها وضم ما .

(٩) تفسير النسفى : ٢/ ١٩٣

(١٠) البقرة : ١٦٨

وقوله تعالى : ﴿ وكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً ﴾ (١) .

٢ - أن تكون صفة لـ « بلد » .. ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَاشْكُرُواْ لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (٣) .

٣ - أن تكون صفة لكلام .. ومنه قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٤) .

٤ - أو تكون وصفاً لمساكن .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (٥) .

٥ - أو وصفاً للريح .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (٦) .

٦ - أو وصفاً لما يعلو الأرض من تراب .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم ﴾ (٧) .

٧ - أو وصفاً للشجر .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٨) .

٨ - أو وصفاً للحياة .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ (٩) .

٩ - أو وصفاً للتحية .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ (١٠) .

---

(١) المائدة : ٨٨ (٢) الأعراف : ٥٨ (٣) سبأ : ١٥
(٤) فاطر : ١٠ (٥) التوبة : ٧٢ (٦) يونس : ٢٢
(٧) النساء : ٤٣ (٨) إبراهيم : ٢٤ (٩) النحل : ٩٧
(١٠) النور : ٦١

. ١ - أو وصفاً للناس - مذكورين أو غير مذكورين - بأن تقوم الصفة مقامهم ، وذلك كثير . ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ (٢) .

هذا وقد بقى من استعماله - غير فعل - صورة واحدة تجرى مجرى الاسم مراداً بها الحلال ويقابلها فى ذلك الخبيث بمعنى الحرام والباطل . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (٤)

*

● منهج القرآن فى « طاب » :

أولاً : أن القرآن يُفرِّق بين استعمال هذه المادة فعلاً أو اسماً . وفى استعماله لها فعلاً فإن كل موضع فيه قد أريد به معنى خاص غير ما يراد بغيره منها .

أما استعماله لها غير اسم . فهى إما مصدر بمعنى الطيب ، وإما صفة فى المعنى أو المعنى والإعراب وتقع كذلك لموصوفات متعددة .

ثانيا : أن المجاز غالب على استعمالاتها فى القرآن ما دام المراد بـ « الطيب » فى اللغة ما لَذَّ حساً ، ولا يمكن حملها على معانيها الحقيقية إلا إذا وردت صفة لما يوصف باللَّذة الحسيَّة كالرزق لأن منه المأكول والمشروب .

أما مادة « حرم » فإن معناها اللغوى : المنع ، وعلى هذا الفهم تدور صور المادة فى القرآن الكريم مراداً بها المنع الشرعى أو القهرى ، ومن معانيها أيضاً التعظيم والحرمان .

---

(١) آل عمران : ٣٨ — (٢) النور : ٢٦

(٣) النساء : ٢ — (٤) الأنفال : ٣٧

ولما كانت هذه المعانى قريبة جداً من المعنى اللغوى للكلمة فلنكتف بهذه الإشارة إليها دون الخوض فى ذكر الأمثلة . فذلك لا يؤدى إلى جديد .

* *

● المعانى المرادة من « خبث » :

وأما مادة « خبث » فقد مرَّت أمثلتها مع مادة « طاب » لأنها لم ترد منفردة . ولو رجعنا إلى تلك الأمثلة لبان أن القرآن يستعمل تلك المادة مجازاً فى الأغراض الآتية :

١ - أن يُطلقها على الحرام والباطل .

٢ - أن تأتى وصفاً لبلد .

٣ - أن تكون صفة لفريق من الناس .

٤ - أن تكون وصفاً لكلمة .

٥ - أن تكون وصفاً لشجرة .

وإلى هنا ينتهى دور هذه المادة فى القرآن الكريم . وتفترق عن مادة « طاب » بأن « طاب » إذا جرى وصف منها على الرزق فلا يمنع ما منع من إرادة المعنى الحقيقى . أما « خبث » إذا جاءت وصفاً للكسب أو الرزق فإنه مجاز دائماً لأن الحرام قد يلذ حساً .

* *

● الإصر والأغلال :

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

وهذه صفة من صفات الرسول . فهو بعد أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإحلال الطيِّبات لهم وتحريم الخبائث . يضع عنهم الأمور الشاقة التى كانت

---

(١) الأعراف : ١٥٧

تأصرهم وتثقل كواهلهم والأغلال التى كانت تكبلهم من الحركة وحرية التصرف . تلك صفة من صفات الرسول يجدونها مكتوبة عندهم فى التوراة والإنجيل . فهى إذن نعمة عظيمة لأن فيها تحرير الإنسان .

وقد نصَّ المفسِّرون على أن المراد بـ « الإصر والأغلال » هو التكاليف الشاقة . قال الإمام النسفى فى تفسير « الإصر » : « المراد التكاليف الصعبة كقتل النفس فى توبتهم وقطع الأعضاء الخاطئة » .

وقال فى تفسير « الأغلال » : « هى الأحكام الشاقة نحو بت القضاء بالقصاص عمداً كان أو خطأً من غير شرع الدية وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب وإحراق الغنائم وظهور الذنوب على أبواب البيوت . شبهت بالغل للزومها لزوم الغل »[(١)] .

ويتابع النسفى كثير من المفسرين .

وفى العبارة مجاز تمثيلى شُبِّهت فيه هيئة القوم وما هم فيه من تكاليف شاقة بهيئة قوم ينوؤون بأثقال وأحمال وقد قُيِّدوا فى السلاسل والأغلال فجاء رجل وخلَّصهم مما هم فيه ففك أغلالهم . وأنزل أحمالهم . فذلك هو هو إنسان النور والخلاص .

هذا من حيث النظر إلى التعبير جملة . فإذا نظرنا إليه نظرة تفصيلية فإننا نحصل على ثلاثة مواضع فيه للمجاز المفرد . وهى : « يضع » لأن الوضع فى أخص معانيه الحط . ولا يقال إلا لحامل شىء قد أنزله . و « الإصر » هو الحمل الثقيل حساً . واستعماله هنا فى المعنويات مجاز ، وكذلك « الأغلال » لأن الأغلال هى السلاسل والقيود الحسيَّة .

* *

---

(١) تفسير النسفى : ٢/ ٦٠.

● « وضع » بين الحقيقة والمجاز :

أما « وضع » فقد استعملت فيه حقيقة ومجازاً . ومن استعمالها حقيقة قوله تعالى : ﴿ وَأُولَاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ (٢) .

والوضع في هذين الموضعين مراد به الإنجاب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ (٤) .

أما استعمالها مجازاً فيأتي مراداً به عدة معان :

١ - أن يكون بمعنى الجعل . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ (٦) .

ويفيد هذا الموضع - مع الجعل والإيجاد - معنى البسطة والتهيئة .

٢ - أن تكون بمعنى الخلع والإلقاء . ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ ﴾ (٧) لأن الثياب - هنا - ملبوسة وليست محمولة حتى توضع .

٣ - أن تكون بمعنى البناء والإشادة .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٨) .

---

(١) الطلاق : ٤ — (٢) آل عمران : ٣٦ — (٣) النساء : ١٠٢

(٤) فصلت : ٤٧ — (٥) الرحمن : ٧ — (٦) الرحمن : ١٠

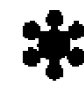
(٧) النور : ٥٨ — (٨) آل عمران : ٩٦

٤ - أن تكون بمعنى الإزالة .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ (١) يعنى أزلنا همومك التى كانت تثقلك .

٥ - أن تكون بمعنى الظهور والبروز .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ (٢)

٦ - أن تكون بمعنى التهيئة .. ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ (٣)

وكلمة « يضع » فى آياتنا استعارة تصريحية تبعية حيث شبه إزالة الإصر والأغلال وإعفاءهم من كثير من الأعمال الشاقة بالوضع ، والجامع ما يترتب على كل من الراحة وإلغاء العناء . والقرينة حالية .



● استنتاجات :

إن القرآن استعمل مادة « وضع » فى الحقيقة والمجاز . واستعمالها المجازى فيه يفيد عدة أغراض متباينة فيما بينها وإن شملها هدف عام كان سبباً فى التجوز والمشابهة .

أما الإصر فهو فى اللغة عقد الشىء وحبسه وقهره . يقال : أصرته فهو مأصور . والمأصر والمآصير : محبس السفينة (٤) . ومن معانيه . الحمل الثقيل .

واستعماله هنا فى الأمور الشاقة مجاز على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية ، والجامع ما يترتب على كل من المشقات وقهر النفس بالعناء . وقد زاد من روعة المجازالترشيح له بمجاز آخر هو « يضع » والترشيح مهيىء للنفس لتبعد بالمستعار عن معناه الحقيقى . لأن الحمل يوضع حقيقة فهو من ملائمات المعنى المجازى . المفيد للتقوية والتأكيد .

---

(١) الشرح : ٢ — (٢) الكهف : ٤٩

(٣) الغاشية : ١٤ — (٤) المفردات ص ١٨ - ١٩

والمتتبع لاستعمال القرآن لمادة « إصر » يصل إلى الحقائق الآتية :

١ - أن تكون بمعنى المشقة والعناء وذلك فى موضعين :

أحدهما : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ (١) .

ثانيهما : ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً ﴾ (٢) .

والإصر فيهما استعارة أصلية تصريحية - كما سبق - وقد سبقه استعارة مرشحة فى الموضعين فالترشيح فى الأولى « يضع » . والترشيح فى الثانية «تحمل » .. وكلاهما من ملائمات المشبه على القول بأن الإصر من معانيه: الحمل الثقيل (٣) .

٢ - أن تكون بمعنى العهد الموثق . ومثاله قوله تعالى : ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى ﴾ (٤) .

وتشبيه العهد بالإصر - على ما يرى الراغب - أنه يؤدى بناقضه إلى الحرمان من الخيرات ويثبطه عنها .

والأولى أن يشبه العهد المؤكد بالإصر بمعنى الحمل الثقيل من حيث التزام المعاهد بالوفاء بالعهد . ويكون المعنى - هنا - عظم العهد نفسه وخطورة المسئولية فيه .

والخلاصة : أن هذه المادة لم تُستعمل فى القرآن إلا مجازاً ولم تأت فيه إلا اسماً منكّراً فى موضع ومعرّفاً فى موضعين .

أما الأغلال فهى - كذلك - استعارة تصريحية أصلية . وتكاد تصوّر بجرسها وموسيقاها المعنى المراد منها .

* *

---

(١) الأعراف : ١٥٧ (٢) البقرة : ٢٨٦

(٣) أورد هذا الرأى الراغب فى المفردات ولم يرضه ، وهو غير مستبعد لأن الحمل الثقيل فيه مشقة وعناء .

(٤) آل عمران : ٨١

● معانى « غل » :

١ - « أن تأتى بمعنى القيد .. ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ (٣) .

ومنه كذلك : ﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (٤)

٢ - أن تكون بمعنى الخيانة .. ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٥) .

٣ - أن يأتى بمعنى الضغائن والأمراض النفسيه الحاقدة .. ومنه قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ ﴾ (٦) .

ومنه أيضاً : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ (٧) .

٤ - أن تأتى بمعنى البخل .. ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ (٨) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (٩)

والخلاصة : أن القرآن استعمل مادة « غل » فى الحقيقه والمجاز . فإذا كانت مستعملة فى معناها الحقيقى دلّت على معنى القيد والتكبيل . وأظهر ما يكون ذلك فى شأن أهل النار بدليل قرن الأغلال فيها بالسلاسل والسحب فى قوله تعالى : ﴿ إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (١٠) .

---

(١) الأعراف : ١٥٧ (٢) الحاقة : ٣٠ (٣) يس : ٨
(٤) سبأ : ٣٣ (٥) آل عمران : ١٦١ (٦) الاعراف : ٤٣
(٧) الحشر : ١٠ (٨) الاسراء : ٢٩ (٩) المائدة : ٦٤
(١٠) غافر : ٧١

فالأغلال بالنسبة لأهل النار أغلال حقيقية .. أما المجاز ففيما عدا ذلك .

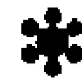
فإن كان الكلام وارد فى وصف عام كالكفر .. فالمجاز المركب التمثيلى هو أظهر ما يكون فى توجيه العبارة ..

فمثلاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ (١) .

يقول الزمخشرى فيه (٢) : « مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين فى أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه » .

فهذه استعارة تمثيلية شُبِّهت فيها صورة القوم فى كفرهم بصورة مَنْ غُلَّ وقُيِّدَ وسبغ « الغل » جسمه حتى ذقنه فلم يستطع حركة .

ويكون قوله تعالى : ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ .. ترشيحاً للمجاز والقرينة حالية .



● ثلاث كنايات :

وإن كان الكلام فى وصف خاص كالبخل فالكناية أظهر فى توجيه العبارة .. فمثلاً قوله تعالى حكاية عن اليهود لعنهم الله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ (٣) .. فقولهم : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ، وقوله فى الرد عليهم : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ وقوله أيضاً : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ الأظهر فى هذه العبارات أن يكون قولهم : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ ، وقوله : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ كنايتين عن البخل . وأن يكون قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ كناية عن الكرم الواسع .

---

(١) يس : ٨ (٢) الكشاف : ٣/٤ - ٤ (٣) المائدة : ٦٤

والخلاصة : أن هذه العبارات يجوز اعتبارها مجازاً مركباً أو مفرداً بأن يكون المجاز فيها استعارة بالكناية فيما يصح فيه ذلك . ويجوز جعلها من باب الكناية حتى فى عبارة اليهود : ﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّه مَغْلُولَةٌ ﴾ ، ولا يمنع من إيراد الكناية عليه أنه يجوز فيها حمل الكلام على المعنى الحقيقى – وهذا قول فيه خلاف – لأنَّا نقول : إن اللّه قد صرَّح فى القرآن بأن له يداً فى غير هذا الموضع . وعلى ما بين السَلَف والخَلَف من خلاف فى هذا المجال فإن العبارة محكية عن اليهود وهم لا يراعون مثل ما نراعيه نحن المسلمين من هذه الاعتبارات الدقيقة فى مجال الاعتقاد .

هذا .. وقد بقى توجيه واحد للزمخشرى فى عبارة الرد التى ذكرها اللّه رداً على مقولة اليهود حيث قال : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

والزمخشرى يُجَوِّز أن تكون العبارة من الاستعمال الحقيقى بأن تُحمَل على الوعيد أى أنه توعَّدهم بصيرورة حالهم إلى تلك الحال يوم يلقونه فى الآخرة .

والأولى بالاعتبار حملها على المجاز وإنَّا لنرى اليهود مضرب المثل فى البخل بين العامة والخاصة فحق عليهم القول فبخلوا .

* *

● « النور » فى القرآن :

﴿ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ (١) .

وهذه صورة مجازية رائعة .. شُبِّه فيها القرآن بـ « النور » على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية والجامع : الهداية والإرشاد ، والقرينة لفظية هى قوله : ﴿ أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ .

وعبد القاهر الجرجانى يجعل هذه الاستعارة أبلغ أنواع الاستعارات ويسميها الضرب الصميم الخالص من الاستعارة . وضابطها عنده أن يكون الشبه مأخوذاً

---

(١) الأعراف : ١٥٧

من الصور العقلية . وذلك كاستعارة النور للبيان والحُجَّة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافيه للريب كما جاء فى التنزيل من نحو قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ ، وكاستعارة الصراط للدين فى قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [1] .

ثم يقول : « واعلم أن هذا الضرب هو المنزلة التى تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ويتسع لها كيف شاءت المجال فى تفننها وتصرفها » [2] .

وقد استعار القرآن كلمة « النور » فى تصرفاتها المختلفة كثيراً . والمتتبع لوروده فيه يجده على النحو الآتى :

١ - أن يكون وصفاً لكتاب . ولهذا عدة صور ففى سياق الحديث عن القرآن وردت الصور الآتية :

(أ) ﴿ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ [3]

(ب) ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [4]

(جـ) ﴿ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنزَلْنَا ﴾ [5]

(د) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ [6] .

(هـ) ﴿ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [7]

فى الآيات الخمس جاء « النور » فى سياق الحديث عن القرآن الكريم ، وفى القرآن مواضع أخرى يمكن حمل النور فيها عليه ، وسوف نشير إلى ذلك فى مواضعه .

---

(١) الفاتحة : ٦ (٢) أسرار البلاغة ص ٤٥ (٣) الأعراف : ١٥٧

(٤) المائدة : ١٥ (٥) التغابن : ٨ (٦) النساء : ١٧٤

(٧) الشورى : ٥٢

٢ - فى سياق الحديث عن التوراة . وذلك مخصوص بموضعين :

أولهما : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ ﴾ (١) .

وثانيهما : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِّلنَّاسِ ﴾ (٢) .

٣ - فى سياق الحديث عن الإنجيل ، وذلك مخصوص بموضع واحد ، هو قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإنجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ ﴾ (٣) .

مما تقدم نستنتج :

أولاً : أن القرآن قد وُصفَ بأنه نور فى خمسة مواضع ، على أن وصفه بالنور محتمل فيما يأتى من أمثلة أخرى .

ثانياً : أن التوراة وصفت بالنور فى موضعين .

ثالثاً : أن الإنجيل وصف به فى موضع واحد .

رابعاً : أن سورة المائدة وحدها ورد فيها وصف الكتب الثلاثة - القرآن والتوراة والإنجيل - بالنور . وقد قدم القرآن ثم جىء بعده بالتوراة وأخيراً الإنجيل .

*

● سؤال وجواب :

والآن لا بد من سؤال : هل لكثرة الحديث عن القرآن ووصفه بالنور فى مواضع تفوق مواضع التوراة والإنجيل مجموعة من سر ؟ وهل تقديمه عليهما فى « المائدة » ثم تقديم التوراة على الإنجيل وزيادتها عليه بموضع . هل لكل ذلك سر بلاغى اقتضاه ؟

والجواب : نعم .. لكل ذلك سر وهو - فيما أرى والله أعلم - أن كثرة وصف القرآن بالنور ، ثم تقديمه على التوراة والإنجيل فى سورة المائدة لما للقرآن من أثر بالغ فى الهداية من ثلاث جهات :

---

(١) المائدة : ٤٤ (٢) الأنعام : ٩١ (٣) المائدة : ٤٦

أولاً : أن فيه لكل مشكلة حلاً ، فقد شملت هدايته وتوجيهاته : العقائد ، والعبادات ، والمعاملات . وجاء بكثير من العلوم والمعارف : بَشَّر ، وأنذر ، وأجمل ، وفصَّل ، ورغَّب ، ورهَّب ، وشرَّع فأحكم ، وقصَّ ، وهذَّب .. وصدق الله إذ يقول : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (١) .

وهذه ميزة من حيث الموضوع ..

ثانياً : أن كل نبى كان يُبعث إلى قومه خاصة ومنهم موسى وعيسى عليهم السلام . وكتاب كل نبى كان وصايا وإرشادات لأولئك القوم . ومحمد عليه الصلاة والسلام بُعِثَ للناس عامة ، فجاء القرآن عاماً لهؤلاء الناس . وليس لشعب جزيرة العرب خاصة .

وهذه ميزة من حيث المكان ..

ثالثاً : والرسالات السابقة كانت واجب العمل بها ما دام رسولها حياً ، فإذا قُبِضَ أُفسح المجال لرسول آخر ورسالة أخرى . أما رسالة محمد ﷺ فهى خالدة إلى يوم القيامة لا يلغيها رسول بعده ولا يبطل العمل بها بحال .

وهذه ميزة من حيث الزمان ..

وهذا يُفسِّر لنا تلكما الظاهرتين وهما كثرة وصفه بالنور ثم تقديمه عليهما فى « المائدة » ، أما تقديم التوراة على الإنجيل وزيادتها عليه بموضع ، فلأن التوراة أسبق وجوداً من الإنجيل ، فالترتيب بينهما زمنى محض . أما الزيادة المذكورة فلأن التوراة أصل للإنجيل وهو مكمل لها . فلذلك خصصت بزيادة موضع عليه حين وصفا بالنور .

٤ - فى سياق الحديث عن كتاب مفروض وجوده فى معرض الجدل .. وذلك فى موضعين هما :

---

(١) الأنعام : ٣٨

أولاً : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (١) .

ثانياً : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٢) .

٥ - فى سياق الحديث عن الكتب التى أنزلها الله فى الأمم السابقة .. وذلك فى موضعين أيضاً وهما :

أولاً : ﴿ جَاءُواْ بَالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالكِتَابِ المُنِيرِ ﴾ (٣) .

ثانياً : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ المُنِيرِ ﴾ (٤) .

ونلاحظ الفرق بين الموضع الثالث والرابع . إذ الكتاب فى الموضع الثالث « مُنكَّر » وفى الموضع الرابع « مُعرَّف » وسر التنكير هناك لأن الكتاب فى الثالث لا وجود له . بل مفروض وجوده فى معرض الجدل . فهو موغل فى التنكير .

أما فى الموضع الرابع فالحديث عن كتاب سبق وجوده . والألف واللام فيه فى موضعيه لتعريف الجنس باعتبار القيد الذى هو الوصف .

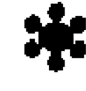
وقد جاء « منيراً » جزء وصف تمثيلى للنبى ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ (٥) ، وكون الرسول « سراجاً منيراً » تجريد متضمن للتشبيه لأن الذات المجرَّدة مخالفة للذات المجرَّد منها . وتجريد الشئ من غيره متضمن للتشبيه بخلاف تجريد الشئ من نفسه لئلا يلزم تشبيه الشئ بنفسه .

---

(١) الحج : ٨ (٢) لقمان : ٢٠ . (٣) آل عمران : ١٨٤

(٤) فاطر : ٢٥ (٥) الأحزاب : ٤٦

ولا شك أن التجريد المتضمن للتشبيه - كما هنا - أبلغ من التشبيه المجرد لإفادة هذا من وجهين : التشبيه الذى تضمنه التجريد ، ثم تجريد المشبه به . وهذا وحده فى قوة الاستعارة التصريحية الأصلية .



● النور للهدى والإيمان :

وإذ تركنا القرآن وهو يتحدث عن الكتب واصفاً لها بـ « النور » وما اشتق منه من أسماء الفاعلين فإننا نراه يستعير النور للهدى والإيمان فى مواضع متعددة وفى هذا النوع فإنه كثيراً ما يستعير « الظلمات » للضلال والكفر فى مقابلات عجيبة بين الأضداد والمتخالفات . ويتضح هذا من الأمثلة الآتية :

١ - ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (١) .

٢ - ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ﴾ (٢) .

٣ - ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٣) .

٤ - ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ (٤) .

٥ - ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (٥) .

٦ - ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٦) .

٧ - ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (٧) .

---

(١) البقرة : ٢٥٧ (٢) المائدة : ١٦ (٣) إبراهيم : ١

(٤) النور : ٣٥ (٥) النور : ٤٠ (٦) الأحزاب : ٤٣

(٧) الزمر : ٢٢

٨ - ﴿ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (١) .

٩ - ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٢) .

١٠ - ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (٣) .

١١ - ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ﴾ (٤) .

١٢ - ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ (٥) .

فى هذه النصوص ضرب الله « النور » مثلاً للإيمان والهدى . و « الظلمات » مثلاً للضلال والكفر .

*

● منهج آخر للقرآن فى استعمال النور :

وللقرآن الكريم منهج آخر فى التعبير بالنور ، حيث صاغها فى جمل وعبارات ترسم صوراً حسيَّة معبراً بها عن معان ذهنية بغية الإيضاح والتقرير ؛ من ذلك مشهدان من مشاهد التكريم خَصَّ الله بهما عباده الطائعين يوم العرض الأكبر .

أحدهما قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ (٦) .

فهذا فريق من الناس كافأه الله حُسناً . فمنحه نوراً يوم القيامة يسير على هداه ويبدو أن المراد بالنور - هنا - نور حقيقى لا مجازى . ومع ذلك فإن الآية لم تخل من المجاز .

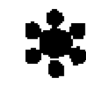
---

(١) الحديد : ٩ (٢) الطلاق : ١١ (٣) الأنعام : ١٢٢

(٤) الحديد : ٢٨ (٥) التحريم : ٨ (٦) الحديد : ١٢

فقد أسند السعى إلى النور وليس هو فاعله الحقيقى . وهذا مجاز حكمى - كما يسميه عبد القاهر - أو عقلى كما اشتهر عند المتأخرين . والتقدير : يسعون بنورهم .

والعلاقة اللزومية لأن النور ملازم لهؤلاء . والقرينة : استحالة أن يسعى النور منفرداً .



● السر البلاغى لهذا المنهج :

والسر البلاغى أن كل شئ أصبح فى خدمة هذا الطريق . حتى النور أصبح خادماً لهم ، يمهد الطريق ويسير عن أيمانهم وبين أيديهم .

فهاتان كنايتان رائعتان بديعتان . فهو يسعى بين أيديهم وبأيمانهم لأن هاتين الجهتين هما اللتان يتلقى المؤمنون سجلات أعمالهم عن طريقهما ، كما أن الكفار يؤتون كتبهم عن شمائلهم ومن وراء ظهورهم [1] .

إذن فهما كنايتان عما قدّموا من عمل صالح . فحققوا لأنفسهم رضا اللّه ورحمته ، ويجوز حمل العبارة على التمثيل . بأن مثّل اللّه حالهم وما يلقونه من تكريم ورضوان بقوم هذه حالهم من سعى النور أمامهم وعن أيمانهم .

وصورة أخرى مماثلة . وهى قوله تعالى : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ [2] .

وليس بين الصورتين إلا فرق ، واحد ففى الآية الأولى قدّم : « يسعى » على الفاعل المجازى : « نورهم » وأسند الفعل إلى صريح لفظ الفاعل .

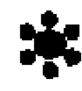
وفى الآية الثانية قدّم : « نورهم » وجعل مبتدأ وأخّر الفعل : « يسعى » وأسند إلى ضمير النور إسناداً مجازياً ... وليس بعد ذلك بينهما من فرق .

---

(١) الكشاف : ٢٨٧/٤

(٢) التحريم : ٨

ولعل السر أن الله أراد أن يثبت صفة النور للمؤمنين والمؤمنات بكلتا الطريقتين المعروفتين في العربية - الجملة الإسمية والجملة الفعلية - ليفيد أن ذلك حاصل لا محالة . متجدد مستحدَث . وثابت متأصل .



● محاولات يائسة :

وصورة أخرى مختلفة مع هاتين : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) .

والنور هنا صالح حمله على القرآن والإسلام .. « مثلت حالهم بحال مَنْ ينفخ في نور الشمس ليطفئه بفيه » .

وهذا التمثيل له دلالتان : قوة نور الله وظهور أمره حتى مثل أمامهم نوراً حقيقياً كنور الشمس ..وهذا أحد الدلالتين .

أما ثانيتهما : فضعف كيد الكافرين . لأن كل محاولاتهم لم تكد تعدو النفخ بأفواههم وما ذلك بمحقق لهم ما يريدون .

وكلمة : « بأفواههم » تعبير جميل رشيق . لأن المعنى تم بدونه فجاء هو لإضافة ظلال رقيقة على المعنى العام اكتسى بها جمالاً ورواء .

فقد أفادت - أولاً - أن كيدهم للقرآن لم يعد كلمات جوفاء اتهموه بها : أساطير الأولين - رئى من الجن - شعر - لو نشاء لقلنا مثل هذا . هذه الكلمات لم يكن لها نصيب من الوجود سوى التلفظ بها لم تتمكن حتى من قلوب قائليها . وهذا يدل على ضعف كيدهم .

وهي تفيد - ثانياً - أن النور كان ماثلاً أمامهم حتى قصدوه قصداً في مكان وجهة ، وهذا يدل على ظهور أمر الله وقوة انتصاره .

---

(١) الصف : ٨

وهى تفيد – ثالثاً – أن هذا النور لم يكن لأى عامل آخر أن يطفئه . ريح شديدة – مثلاً – أو عاصفة مدمرة . فهو قائم رغم هذه التقلبات التى لا يكاد يخلو منها وقت . فكيف يتسنى لهم أن يطفئوه بأفواههم . ؟ إنه نور قوى باهر وسيظل – هكذا – نوراً باهراً قوياً .. ولو كره الكافرون .

وبعد هذا يمكن أن نستنتج الحقائق الآتية :

أولاً : أن القرآن الكريم يضرب « النور » مثلاً للمعانى الشريفة والصفات الحميدة . كما يضرب « الظلمات » مثلاً للمعانى الوضيعة والصفات الذميمة .

ثانياً : أن القرآن لم يستعمل النور فى تلك الأغراض إلا مفرداً اسماً أو صفة ، أما « الظلمات » فلم يستعملها فى أغراضها إلا مجموعة – لا مفردة ولا مثناة – فهل لهذا من سر ؟

نقَّبتُ عن هذا السر فى مظانه فلم أعثر على توجيه . لا فى كتب التفسير ولا خارج كتب التفسير . ولذلك فإنى أسجل – هنا – ما خلصتُ إليه مما ظننتُ أنه يصلح أن يكون توجيهاً لهذا الصنع .

*

● لماذا أفرد القرآن « النور » وجمع « الظلمات » :

إن النور سواء أكان المراد به كتاباً يهدى إلى الرُّشد ، أو حُجَّة تكشف النقاب عن الشُّبهات . أو رسولاً يدعو الناس إلى الحق . أو إيماناً يعمر به قلب المؤمن . أو عملاً يحقق لصاحبه رضوان الله ... كل ذلك له مصدر واحد هو الله سبحانه وتعالى . والقرآن على ذلك خير شاهد :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوات وَالأَرْضِ ﴾ (١) ، ﴿ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (٣) .

---

(١) النور : ٣٥ (٢) النور : ٣٥ (٣) النور : ٤٠ .

ولهذه الاعتبارات وَحَّد النور فى القرآن تبعاً لوحدة مصدره . وهو « اللّه » نور السموات والأرض .

أما الكفر والجهل والضلال فقد تعددت أسبابها ومصادرها . فالشيطان ضال مضل . والأصنام والأوثان مضلة . والأهواء مضلة ، وأصدقاء السوء ضالون مضلون .. ولهذا تعددت الظلمات تبعاً لتعدد مصادرها .. واللّه أعلم .



● خصائص المجاز القرآنى :

أولاً : أن المجاز فى القرآن بأنواعه المختلفة . سواء أكان لغوياً أو حكمياً ، واللغوى سواء أكان استعارياً أو مرسلاً ، يؤدى وظيفة جليلة الخطر فى البيان القرآنى من التوسع فى ضروب التعبير . واستخدام المادة الواحدة سواء اختلفت مشتقاتها أو اتحدت فى البنية فى معان شتّى وأغراض مختلفة . لم يكن لها هذا الاتساع لولا فن المجاز .

ثانياً : أن المجاز فى القرآن يختار الكلمات الوافية بحق المعنى والمصورة تصويراً حسياً للمعانى كاستعارة « الطيبات » للحلال ترغيباً فيه وحثاً عليه ، واستعارة « الخبائث » للمحرَّم تنفيراً عنه وتزهيداً فيه .

ثالثاً : قد رأينا التفرقة العجيبة بين مشتقات المادة الواحدة . كمادة « مرض » فقد اختص القرآن صورها الفعلية بالمجاز إلا فى موضع واحد جاءت فيه المادة فعلا مراداً به المعنى اللغوى . وهو قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (١) .. وما عدا ذلك فمجاز مستعمل فى مقام الذم .

فإذا استعملت اسماً أو صفة .. فلا تجوز فيها حينئذ ، مثل : ﴿ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (٢) ، ومثل : ﴿ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى ﴾ (٣) وتستعمل هنا فى مقام التشريع .

---

(١) الشعراء : ٨٠ .   (٢) النور : ٦١   (٣) النساء : ١٠٢

رابعاً : يحقق المجاز القرآني - وتدخل في ذلك كناياته - سمه هامة من سماته البلاغية هي التصوير والتجسيم والتخييل . وقوة المعنى وتقريره وإيضاحه .. وهو لذلك يغلب فيه المجاز الاستعارى لتصوير المعقول بالمحسوس كما يكثر فيه المجاز المركّب ، وكل مجاز فيه بالغ حد الإعجاز بحيث لو بدلت صورة بأخرى لنبا المعنى ورفضه إحكام الأسلوب كما يرفض الجسم الصحيح عضواً غريباً رُكّب فيه .

*

● سكوت الغضب ووضع الحرب :

خذ إليك مثلاً موضعين متشابهين من مجاز القرآن . وليكونا قوله تعالى - مصوراً هدوء ثورة موسى على قومه - : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الغَضَبُ ﴾ (١) .

وقوله تعالى مصوِّراً إنهاء الحرب الطاحنة : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (٢) .

فسكوت الغضب أمكن - كما مرَّ - حمله على المجاز المركب أو الاستعارة المكنية .. أو الاستعارة التصريحية التبعية .

و « تضع الحرب أوزارها » استعارة مكنية كذلك أو تمثيل ، والعبارتان تعبران عن الهدوء الذى يعقب الحركة الشديدة . فهما متشابهان وقد اختلفت الألفاظ من عبارة إلى أخرى - فالسكوت والغضب فى الأولى ، والوضع والأوزار فى الثانية - كل منها موف بمعناه واقع موقعه من البلاغة . فموسى إنما كان يتكلم ويتحرك فناسب ذلك السكوت بشرط أن يكون فاعله الغضب ، والحرب يُحمل فيها السلاح الثقيل والخفيف ، وهى نفسها شدة وخَطْب ، فناسب ذلك الوضع . لأنه يكون فى المحمول والأوزار - كذلك - لأنها أحمال .

*

---

(١) الأعراف : ١٥٤   (٢) محمد : ٤

● عض الأنامل وعض الأيدى :

وكذلك إذا أجرينا ذلك بين كنايتين متشابهتين .. وليكونا قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ ﴾ (١) .

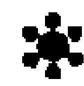
وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ (٢) .

كلتا العبارتين تدل على الألم والحسرة فهما - إذن - كنايتان عن صفة وقد تفاوتتا فى تصوير المعنى . لأن عض الأنامل دون عض الأيدى ، وذلك التفاوت راجع إلى تفاوت المقامين .

فالمنافقون يتحسرون عندما يرون قوة المسلمين وظفرهم وتتابُع انتصارهم ، وهم على ما هم عليه من النفاق لاحول لهم ولا قوة ، وهذا خطأ يمكن إصلاحه بأن يؤمنوا ويتبعوا الهدى .

أما الظالم فحسرته أشد وألمه أوقع ، لأنه يكون فى وقت لم تبق فيه فرصة لمستتيب ولا نفع لنادم .

ولهذا يمكن فهم المبالغة فى الكناية الثانية بالعض على الأيدى دون الأنامل فكل من العبارتين وقع موقعه من غير ما قصور أو فضول ، وهذه سمة أيضاً من سمات الإعجاز البيانى فى القرآن .



● منهج فريد :

خامساً : للمجاز فى القرآن الكريم منهج لم يُعرف لسواه ، فهو فضلاً عما تقدَّم - نراه فى بعض الصور يعمد إلى وصف له صلة بأمرين ، وهذا الوصف من حيث صلته بالأمرين قائم بأحدهما وواقع على الآخر . وقيامه بأحدهما يكون عن

---

(١) آل عمران : ١١٩ (٢) الفرقان : ٢٧

طريق الحقيقة ، ويكون عن طريق المجاز .. أما وقوعه على الآخر فعلى طريق الحقيقة .

وهذا الوصف - هنا - هو العمى ، فالكافر - وهو أحد الأمرين - يوصف به على طريق المعنى اللغوى بأن يكون أعمى حقيقة ، وليس هذا بمراد لنا هنا ، ويوصف به على طريق المجاز بأن يشبَّه جهله بالعمى ، وهذا هو المراد لنا ، وكثيراً ما شبه القرآن الكافرين بالعمى ، واستعار ذلك لهم .

أما الأمر الثانى - الذى له صلة بهذا الوصف من حيث وقوعه عليه - فهو البيِّنات التى جاء بها الرسل ، فهى يُعمى عنها ، ولا تعمى هى .

إذا تقرر ذلك .. فإن فى القرآن موضعين وصف فيهما الأمر الثانى بالعمى مجازاً ، أحدهما قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (١) .

وثانيهما : قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (٢) .

فقد أسند العمى إلى الأنباء فى الأولى على أنها فاعل له ، وأوقع عليها فى الثانية .. وكل هذا إنما هو من قبيل المجاز .

فالأنباء لا تعمى وإنما العمى يحجب رؤيتها عمن قام به ، والبيِّنات أو الرحمة لا تعمى وإنما يعمى عنها ما من شأنه أن يراها ، إذن فلماذا سلك القرآن هذا المسلك ؟

إن حقيقة الموضعين أن يقال : خفيت عليكم الأنباء ، وخفيت عليكم البينة أو الرحمة ، فلماذا إذن شُبِّه خفاؤهما بالعمى ؟ وإنما العمى صفتهم لا صفة الأنباء ولا البيِّنة ولا الرحمة ؟

---

(١) القصص : ٦٥ - ٦٦

(٢) هود : ٢٨

أقول باختصار – وقد سبق الحديث عن هذين الموضعين –: إن فى هذا التعبير تعريضاً بهم فى الموضعين ، وفيه كذلك مبالغة فى وصفهم بالعمى .

أما التعريض .. فلأنهم يدركون أن الأنباء لا تعمى ، وبقياس سهل ، يدركون أن الأعمى إنما هم لأنهم هم الذين لم يروها ، والبيِّنة أو الرحمة لا تعمى ، وبنفس القياس السهل يدركون أن الذى أعماه جهله إنما هو هم ، لأنهم لم يفقهوا البيِّنة أو الرحمة وقد فقهها آخرون .

وهذا هو جانب التعريض فى التعبير ..

أما المبالغة : فإن وصفهم بالعمى قد فاق حد التصور حتى عَمَّ المكان الذى هم فيه ، وحتى أصاب ما من شأنه ألا يعمى بالعمى ، لزيادته على كل حد معهود وقدر معروف .

*

● وضوح المناسبة :

سادساً : ويمتاز المجاز القرآنى بوضوح المناسبة بين المستعار منه وبين المستعار فى المجاز الإفرادى والمجاز التركيبى ، وقوة الصلة بين الصور المكنَّى بها وما تدل عليه من معان كنائية . كما يمتاز بالإبداع والجزالة ، وأنه قد منح الجمادات حياة ، والمعانى حدوداً وأبعاداً ومساحات ، وأمثلة ذلك كثيرة .

*

● الذوق فى القرآن :

سابعاً : أن المجاز القرآنى يجمع بين الأضداد وما هو كالأضداد ، ويؤلف بين المتباعدات والمتباينات ، فلا تحس مع ذلك غرابة فى الأسلوب ولا ضعفاً فى المعنى .

ولنأخذ لذلك استعارة واحدة لنرى ما انتظمته من أجناس وأنواع ، وهذه الاستعارة هى « ذاق » وما تصرَّف منها .

لهذه الاستعارة شأن عظيم فى القرآن الكريم ، ولم تأت هذه الكلمة فى القرآن إلا استعارة ، فلنذكر أمثلتها مكتفين من كل نوع بمثال ما لم تدع إلى الزيادة ضرورة .

وقد استعيرت هذه الكلمة فى جانب الموضوعات الآتية :

١ - مع الشجرة : ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ (١) .

٢ - مع الوبال : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ﴾ (٢) .

٣ - مع البأس : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾ (٣) .

٤ - مع السوء : ﴿ وَتَذُوقُواْ السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٤) .

٥ - مع العذاب : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العَذَابَ ﴾ (٥) .

٦ - مع الكنز : ﴿ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (٦) .

٧ - مع العمل : ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُم تَعْمَلُونَ ﴾ (٧) .

٨ - مع الفتنة : ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (٨) .

٩ - مع المس : ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ (٩) .

١٠ - مع اللباس : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ ﴾ (١٠) .

١١ - مع الرحمة : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (١١) .

---

(١) الأعراف : ٢٢ — (٢) الطلاق : ٩ — (٣) الأنعام : ١٤٨

(٤) النحل : ٩٤ — (٥) النساء : ٥٦ — (٦) التوبة : ٣٥

(٧) العنكبوت : ٥٥ — (٨) الذاريات : ١٥ — (٩) القمر : ٤٨

(١٠) النحل : ١١٢ — (١١) الروم : ٣٣

١٢ - مع الخزى : ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الخِزْيَ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

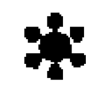
١٣ - مع الضعف : ﴿ إذاً لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ﴾ (٢) .

١٤ - مع النعماء : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ (٣) .

١٥- مع الموت : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٤) .

١٦ - مع البرد : ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً ﴾ (٥) .

وهذا هو الموضع السادس عشر وقد أوقع فيه الفعل منفياً على البرد ، معطوفاً عليه الشراب .

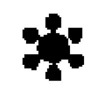


● الذوق لغة وبياناً :

والذوق فى اللغة وجود الطعوم بالفم ، وأصله أن يكون بطرف اللسان فيما قَلَّ من مأكول أو مشروب ، فإذا كثر فهو أكل أو شرب وليس ذوقاً .

فما السر البلاغى فى القرآن الذى اقتضى إيقاع هذا الفعل على ما ليس بمذوق وقد علمنا أن هذا التعبير مجاز استعارى فى جميع صوره حتى فى : ﴿ ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾ ، وفى هذا المثال مجازان استعارى ومرسل :

أما الاستعارى فإنه عبَّر عن الأكل بالذوق ، والمعروف أن آدم عليه السلام وحواء أكلا من الشجرة ، أكلا ولم يتذوقا ، وهذا هو المجاز الاستعارى .. أما المرسل فلأن المذوق هو ثمار تلك الشجرة وليست الشجرة نفسها .



---

(١) الزمر : ٢٦ (٢) الإسراء : ٧٥ (٣) هود : ١٠ .
(٤) العنكبوت : ٥٧ (٥) النبأ : ٢٤

● مقام المخالفات :

ومن الملاحظات الهامة أن هذه الاستعارة لم ترد إلا فى مقام المخالفات سواء أكان ذلك حال الحياة أو بعد الموت ، فآدم وحواء خالفا ربهما بعصيان أمره ، والكافرون المقول لهم : ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ مخالفون لشرائع ربهم . والذى أذاقه اللّٰه الرحمة مخالف لربه حيث لم يشكره فى السرّاء ولم يصبر فى الضرّاء .

والذى يقال لهم : ﴿ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ مخالفون لربهم فى كنزهم المال وعدم التصدق منه وإخراج زكاته .

ففى هذه الاستعارة معنى التهكم وهذا واضح فى ما خوطب به الكافرون أو أسند إليهم مثل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (١) ، ومثل : ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ (٢) .. ويظهر هذا التهكم فى كل ما يُقال للعصاة يوم القيامة .

أما فيما أُسند إلى آدم وحواء فلبيان أن بدو السوءات حصل بأقل ما يكون من الأكل بمجرد الذوق ، وهذا يبيِّن أن نصح اللّٰه لهما كان من أجل مصلحتهما وأنهما حين خالفا أسرع إليهما أثر تلك المخالفة فالحكمة كانت فى امتثال أمره .

والصورة الأدبية التى أراد القرآن إيضاحها فى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ (٣) أن الجوع والخوف محيطان بهما إحاطة اللباس بلابسه وتكون فائدة الإذاقة حينئذ أنهم وجدوا طعمهما المر وأحسوه كما يحس المتذوق طعم ما ذاقه من مأكول أو مشروب ، وفى هذا معنى التهكم حيث جعل طعامهم ولباسهم جوعاً وخوفاً ، وأوقع عليهما الإذاقة .

---

(١) الدخان : ٤٩ — (٢) سورة ص : ٥٧ — (٣) النحل : ١١٢

كما يبدو التهكم مع التعجيب من شأن مَن يُعرِض بجانبه بمجرد أن يذيقه اللّه الرحمة فإذا سمل منها طغى وتكبر .

فانظر إلى سحر المجاز فى القرآن الكريم وروعة أثره ووظيفته الكبرى فى التربية والتهذيب ، وهو – على كثرته وتنوعه فيه – خال من التكلف والمآخذ بل هو آية الآيات فى الحُسن والجمال .

* * *

الباب الخامس

البديع .. فى القرآن الكريم

- المحسنات المعنوية .
- المحسنات اللفظية .
- قيمة البديع القرآنى .

الفصل الأول

المحسنات المعنوية

الظاهر أن نظرة الكُتَّاب لم تتفق على آراء محددة فى فنون البديع ، ولذلك يجد الباحث خلطاً فى كتاباتهم ، وهذا الخلط له عدة مظاهر :

أولاً : لم يحددوا تحديداً دقيقاً الفرق بين المعنوى واللفظى منه ، فالخطيب يذكر « الاطراد » ضمن المحسنات المعنوية ، وهو من اللفظية على الأصح [(١)] . كما ذكر ذكر المشاكلة ضمن المعنوية والظاهر أنها من اللفظى .

ثانياً : درجهم فنوناً تحت اسم « البديع » وهى ليست منه . مثل الالتفات والكناية والإيغال والتذييل والاعتراض .. إلخ .

ثالثاً : اختلافهم فى الفنون البديعية نفسها .. فقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [(٢)] يعده بعضهم إيهاماً ، وبعضهم تورية وآخرون يذكرونه تحت اسم « تجاهل العارف » [(٣)] . والمطابقة درج الأكثر على أنها : الجمع بين الأضداد أو ما فى حكمها مثل : الليل والنهار . والصدق والكذب .

وقدامة بن جعفر يخرق هذا الإجماع ويرى أن المطابقة هى ، اشتراك المعنيين فى لفظة واحدة بعينها ، ومثَّل لها بقول الأفوه الأودى :

وَأَقْطَعُ الهَوْجَلَ مُسْتَأْنِساً ... بِهَوْجَلٍ عَيْرَانَةٍ عَنْتَرِيسْ

فلفظ « الهوجل » فى البيت اشترك فى معنيين : المفازة البعيدة ، والناقة التى بها هوج من سرعتها .

---

(١) الإيضاح ص ٦ — (٢) سبأ : ٢٤ — (٣) نقد الشعر ص ٩٧

أما المطابقة .. فهى عنده التكافؤ ، وهذا التكافؤ يطلقه ابن أبى الاصبع على المطابقة إذا كان طرفاها مجازيين وكانت الأوصاف لموصوف واحد (١) .. وأمثلة هذا كثيرة جداً .

رابعاً : إيرادهم فنوناً مختلفة تحت اسم واحد . فالتطريز - مثلاً - يُعرِّفه أبو هلال بقوله : « أن يقع فى أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية فى الوزن فيكون فيها كالطراز فى الثوب .. » .

ثم يقول : « وهذا النوع قليل فى الشعر . وأحسن ما جاء فيه قول أحمد بن أبى طاهر :

إذَا أبُــو قَاسِــمٍ جَادَتْ لَنَا يَدَهُ ... لَمْ يُحْمد الأجْوَدانِ : البَحْرُ والمَطَـرُ
وَإنْ أضَــاءَتْ لَنَا أنْــوَارُ غُـرَّتِه ... تَضَاءَلَ الأنْوَرانِ : الشَّمْسُ وَالقَمَرُ
وَإنْ مَضَــى رَأيُهُ أوْ جَدَّ عَزْمَتُهُ ... تَأخَّــرَ المَاضِيَانِ:السَّيْفُ وَالقَــدَرُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ حَذِراً مِنْ حَدِّ صَوْلَتِه ... لَمْ يَدْرِ مَا المُزْعِجَانِ : الخَوْفُ وَالحَذَرُ (٢)

ويعرِّفه ابن أبى الاصبع فيقول : « أن يذكر المتكلم - شاعراً أو نأثراً - جملاً من الذوات غير منفصلة ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب العدد الذى قدَّره فى تلك الجُمَل الأولى » (٣) .

ومثَّل له بقول ابن الرومى :

أُمُورُكُمو بَنِــى خَاقَانَ عِنْدِى ... عِجَابٌ فِى عِجَابٍ فِى عِجَابِ
قُرُونٌ فِــى رُءُوسٍ فِــى وُجُوهٍ ... صِلاَبٌ فِى صِلاَبٍ فِى صِلاَبِ

فأيهما التطريز إذن ؟

---

(١) انظر كتاب بديع القرآن ص ٣٢

(٢) سر الصناعتين ص ٤١٢ - ٤١٣

(٣) تحرير التحبير .

لعل الصواب فى ذلك مع ابن أبى الاصبع . لأن ما ذكره أبو هلال قد عدّه العلماء من فن التوشيع . وعرّفوه بـ : « بأن يأتى المتكلم ، باسم مثنى فى حشو العجز ثم يأتى تلوه باسمين مفردين هما عين ذلك المثنى يكون الأخيرة منهما قافية بيته ، أو سجعة كلامه .. » [1] .

والتوشيع معروف أنه أحد فروع الإطناب الذى هو من مباحث المعانى . وهذا يقوى وجهة نظر ابن أبى الاصبع .

*

● سبب الخلط :

ولعل السر فى هذا الخلط راجع للأسباب الآتية :

١ - كثرة الكاتبين فى الفن البديعى .

٢ - مرونة الفن البديعى نفسه .

٣ - دقة علله وتداخل جهاته .

ولنعرض - الآن - نماذج من صور البديع فى القرآن الكريم ثم نعقب ذلك بفصل نتبين فيه منزلة البديع عامة ، وبلاغة البديع فى القرآن خاصة .

على أننا فى ذكرنا لتلك النماذج سنجعل الأساس فى ضبطها ما ذكره ابن أبى الاصبع فى كتابه « بديع القرآن » لأنه حرص على التمثيل لكل فن من فنونه بنصوص قرآنية . أما غيره فأن التمثيل بالقرآن ليس بلازم عندهم وهذا لا يمنع من ذكر آراء الآخرين إذا تطلّب ذلك غرض هام .

١ - الطباق :

لم يعرّفه ابن أبى الاصبع بل اكتفى بتقسيمه فقال : « الطباق على ضربين : حقيقى ومجازى.. وكل من الضربين على قسمين : لفظى ومعنوى ، فما كان

---

(١) الصبغ البديعى - د . أحمد إبراهيم موسى ص ٢٨٣

بألفاظ الحقيقة أبقوا عليه اسم الطباق . وما كان كله بألفاظ المجاز أو بعضه سموه تكافؤاً بشرط أن تكون الأضداد لموصوف واحد . فإن كان الضدان أو الأضداد لموصوفين والألفاظ حقيقية فهو الطباق إن كان الكلام جامعاً بين ضدين فذين ، وإن كانت الأضداد أربعة فصاعداً كان ذلك مقابلة .. فالفرق بين الطباق والمقابلة من وجهين :

أحدهما : أن الطباق لا يكون إلا بالجمع بين ضدين فذّين فقط ، والمقابلة لا تكون إلا بما زاد على الضدين من الأربعة إلى العشرة .

« والوجه الثانى : المقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد » (١) .

والعلماء (٢) - ما عدا قدامة بن جعفر - على أن الطباق هو الجمع بين الشئ وضده ، وابن الأثير يُصوِّب رأى قدامة هذا ، ويرى أن المعنى اللغوى للكلمة ينصره (٣) .

ومثّل ابن أبى الاصبع للتكافؤ بقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى ﴾ (٤) .

ومن شواهد التكافؤ قوله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ (٥) . أى ضالاً فهديناه ..

وعلى هذا فلا بد أن يكون فى الكلام المتضمن التكافؤ استعارة ، فإن لم تكن فيه استعارة فلا تكافؤ .

أما الطباق الحقيقى فهو على ثلاثة أقسام : طباق سلب . وطباق إيجاب . وطباق ترديد .

---

(١) بديع القرآن ص ٣١ وما بعدها

(٢) انظر مثلاً : أسرار البلاغة لعبد القاهر - ص ٤ ، والمفتاح للسكاكى ص ١٧٩ ، وسر الصناعتين لأبى هلال ص ٢٣٨ ، وبديع ابن المعتز ص ٦٦١ لعبد المنعم خفاجى ، والمثل السائر لابن الاثير : ١٤٣/٣ شرح طبانة ... إلخ

(٣) بديع القرآن لابن أبى الاصبع ص ٣٦

(٤) البقرة : ١٦

(٥) الأنعام : ١٢٢

ومثّل للأول بقوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

وقوله عزّ وجلّ : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ (٣) .

ومثّل للثانى بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ (٤) .

ثم علّق على هذه الآيات فقال : « فانظر إلى فضل هذا الطباق ، كيف جمع إلى الطباق البليغ التسجيع الفصيح لمجىء المناسبة التامة بين فواصل الآى » (٥) .

قال (٦) : ومما جاءت المطابقة فيه على انفرادها من هذا القسم قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ (٧) .. أى ما تنقص وما تزيد .

ومن هذا القسم قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (٨) .

فجمع سبحانه للمؤمنين فى هذا الوصف بين الفعل والترك .. وهذا كله من طباق الإيجاب المعنوى .

والقسم الثالث - طباق الترديد - قسّمه أيضاً إلى قسمين : طباق سلب ، وطباق إيجاب .

وعرّفه فقال : « أن يرد آخر الكلام المطابق على أوله ، فإن لم يكن مطابقاً فهو رد الأعجاز على الصدر » (٩) .

---

(١) الأعراف : ١٤٦ (٢) البقرة : ٦ (٣) المائدة : ١١٦
(٤) النجم : ٤٣ - ٤٥ (٥) بديع القرآن ص ٣٣ (٦) نفس المصدر ص٣٣
(٧) الرعد : ٨ (٨) المؤمنون : ٢ - ٣ (٩) بديع القرآن ص ٣٣

ومثّل للموجب بقوله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وقد جمعت هذه الآية بين المقابلة وبين طباق السلب المعنوى . فالمقابلة بين الكراهية والحب ، والخير والشر ، والطباق بين ثبوت العلم لله ، ونفيه عن البَشر .

ولم يمثّل لطباق الترديد السلبى ، وقد صرّح بأن للطباق نوعاً غير ما تقدّم يجتمع فيه الطباق والتكافؤ . ومثّل له بقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٢) .

فهمود الأرض واهتزازها ضدان ، لأن الهمود سكون خاص ، والاهتزاز ههنا حركة خاصة ، وهما مجازان ، والربو والإنبات ضدان ، وهما حقيقتان ، فالأول تكافؤ والثانى طباق (٣) .

أما أبو هلال فقد ساق للطباق الآيات الآتية :

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ﴾ (٤) .. وهو من طباق الترديد الموجب

﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٥) .. أى من الكفر إلى الإيمان وهو من التكافؤ – حسب ما ذكره ابن أبى الاصبع .

وقوله تعالى : ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ ﴾ (٦) .. وهذه مقابلة بين الباطن والظاهر ، والرحمة والعذاب .

وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ ﴾ (٧) .. وقد جمعت هذه الآية العكس والتبديل إلى الطباق .

---

(١) البقرة : ٢١٦ (٢) الحج : ٥

(٣) وفى الآية حديث طويل . انظر بديع القرآن ص ٣٤ – ٣٥ (٤) فاطر : ١٣

(٥) الأحزاب : ٤٣ (٦) الحديد : ١٣ (٧) الروم : ١٩

وقوله تعالى : ﴿ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ ضَراً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً ﴾ (٢) .

وهو من طباق السلب الحقيقى المعنوى .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ (٣) .

ثم ذكر قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ (٤) .

فقال : « وقد تنازع الناس هذا المعنى . قال ابن مطير : « تَضْحَكُ الأَرْضُ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ » .

وقال آخر : « ضَحِكَ المُزْن بِهَا ثُمَّ بَكَى » .

وقال آخر :

فَلَهُ ابْتِسَامٌ فِى لَوَامِعِ بَرْقِهِ　　وَلَهُ بُكاً مِنْ وَدْقِهِ المُتَسَرِّبِ

وقال آخر :

لاَ تَعْجَبِى يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ　　ضَحِكَ المَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

ثم علّق عليها فقال : « فلم يقرب أحد لفظ القرآن فى اختصاره وصفائه ورونقه وبهائه وطلاوته ومائه وكذلك جميع ما فى القرآن من الطباق » (٥) .

وهذه لمحة نقدية بارعة لم نعثر على مثلها عند ابن أبى الاصبع . وإن كان هو مولعاً بتحليل الأسلوب القرآنى .

(١) الفرقان : ٣　　(٢) الفرقان : ٣　　(٣) الفرقان : ٧٠.

(٤) النجم : ٤٣ - ٤٤　　(٥) انظر كتابه : الصناعتين ص ٣٣٨ - ٣٣٩

وقد زاد ابن الأثير والخطيب القزوينى موضعاً فيه دقة ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (١) .

قال ابن الأثير : « فإن الرحمة ليست ضد الشدة ، وإنما ضد الشدة اللين، إلا أنه لما كانت الرحمة من المسببات عن اللين حسنت المقابلة بينها وبين الشدة » (٢) .

أما الخطيب .. فقد جعل هذا الموضع من الملحق بالطباق . وعلّله بما علّل به ابن الأثير ، ثم قاس عليه موضعاً آخر هو قوله تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ (٣) .

فإن ابتغاء الفضل يستلزم الحركة المضادة للسكون ، والعدول عن لفظ الحركة إلى لفظ « ابتغاء الفضل » ، لأن الحركة ضربان : حركة لمصلحة وحركة لمفسدة ، والمراد الأولى لا الثانية (٤) ، واستبدال هذا اللفظ بذاك نوع بديعى يسمى الإرداف (٥) .



● الطباق والتشبيه المسلوب :

ذلك ما ذكره العلماء من تقعيد وتصنيف لهذا الفن البديعى « الطباق »، والواقع أنه كثير الورود فى القرآن الكريم . وربما كان أكثر ألوان البديع وروداً فيه ، وكل ما ذكرناه من أمثلة التشبيه السلبى فى القرآن داخلة فى أسلوب الطباق ، وهو غير مقصور عليه بل تعداه إلى كثير من صور التعبير وذلك أن القرآن كثيراً ما يتحدث عن الإيمان والكفر فى سياق واحد أو ما يشبه السياق الواحد ، والطاعات والمعاصى ، والظلمات والنور ، والنفع والضر ، والرشد

---

(١) الفتح : ٢٩ (٢) المثل السائر : ١٥٢/٣ (٣) القصص : ٧٣

(٤) الإيضاح : ١٥/٦ - شرح عبد المنعم خفاجى .

(٥) انظر : بديع القرآن لابن أبى الاصبع ص ٨٣

والغى ، والجنة والنار ، والسماء والأرض ، والحسنات والسيئات ، والحياة والموت ... إلى غير هذه المعانى المتقابلة ، ولذلك كان أسلوب الطباق أصيلاً فيه لم يجتلب تكلفاً أو ترفاً فى الأسلوب . بل هو من مقتضيات الأحوال إذا ما أحسنًا التفكير والفهم ، يقول سبحانه : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ (٢) .

ويقول : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ .. ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلا نَكِداً ﴾ (٨) .

وقال : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ ﴾ (٩) .

---

(١) الملك : ٢٢ — (٢) الملك : ١ — (٣) الأنعام : ١٢٥

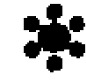
(٤) النساء : ٨ — (٥) النساء : ٨٣ — (٦) المائدة : ١٦

(٧) المائدة : ٤٠ — (٨) الأعراف : ٥٨ — (٩) الأعراف : ١٣١

وقال : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (١).

وقال : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ (٣) .



● نتائج مهمة :

من تلك النصوص التى ذكرناها - وهى قليل من كثير - نتبين الأمور الآتية :

أولاً : أن القرآن يستخدم أسلوب الطباق كثيراً ، وهى كثرة قد تفوق كل ألوان ما سموه « البديع » وذلك فى المجالات الآتية :

(أ) العظة والاعتبار عند ما يقص أنباء الأمم الماضية مثلاً .. كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ .

(ب) بيان قُدرة الله ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾.

(جـ) للتمييز بين نوعين مختلفين ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

(د) فى تمثيل الحقائق تمثيلاً يتضمن المدح فى جهة ، والذم فى أخرى .. وذلك كقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٥) .

(هـ) فى الكشف عن سلوك قوم ضلُّوا عن الحق .. كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَعَهُ ﴾ (٦) .. وغير ذلك كثير ، قد تتعدد أغراضه بتعدد أمثلته .

---

(١) هود : ١٠٠ (٢) الرعد : ١١ (٣) الحجر : ٧٤

(٤) الملك : ٢٢ (٥) البقرة : ٢٥٧ (٦) الأعراف : ١٣١

ثانياً : أن القرآن يستخدم هذا الأسلوب فى معان أساسية داخلة - لا محال - ضمن مقتضيات الأحوال . وهو بهذا يسمو بالطباق - كما يسمو بغيره من ألوان البديع - فوق ما يعتبره البلاغيون من الحسن الإضافى إلى الدلالة الذاتية . خاصة عندما يُجرى القرآن مقارنة بين حقيقتين مختلفتين فيكون التقابل بينهما - حينئذ - واجباً فى حكم البلاغة .. وإلا فكيف يمكن إجراء تلك المقارنة فى غياب طرفيها ؟

ثالثاً : أن الطباق فى القرآن الكريم - ومثله كل فنون البديع - يؤدى دوراً هاماً فى مظاهر إعجازه ، وهو سمة عظيمة من سمات أسلوبه قد سلم - مع كثرته - من التكلف بل هو آية الحسن ومصدر العجب ، بينما نرى كل مسرف فيه يسير ثم يكبو ، ويصيب ثم يخطىء .. وإن شئت فوازن بين قوله تعالى ، وقد طابق فيه بين أربعة وأربعة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (١) .

وبين قول الشاعر وقد طابق فيه بين خمسة وخمسة :

أَزُورُهُـــم وَسَـوادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِى وَأَنْثَنِى وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِى بِى

وازن بينهما لترى الفَرق من حيث نزاهة الألفاظ وجزالتها فى القرآن ثم دقة التعبير وشرف المعنى ، وهل أنت واجد فى قولة هذا الشاعر نظيراً لتلك ؟

ولم يسلم بيت أبى الطيب المذكور من المآخذات ، قال ابن سنان بنقده : « فهذا البيت مع ما به من التكلف ، كل لفظة من ألفاظه مقابلة بلفظة هى لها عن طريق المعنى بمنزلة الضد : فأزورهم وأنثنى ، وسواد وبياض ، والليل والصبح ، ويشفع ويغرى ، ولى وبى . وأصحاب صناعة الشعر لا يجعلون الليل والصبح ضدين ، بل يجعلون ضد الليل النهار ، لأنهم يراعون فى المضادة استعمال الألفاظ ، وأكثر ما يقال : الليل والنهار ، ولا يقال : الليل والصبح » (٢) .

* *

---

(١) الليل : ٥ - ١٠ .   (٢) سر الفصاحة - شرح عبد المتعال الصعيدى ص ١٩٣

● شروط الطباق :

ويضع ابن سنان شرطاً لاستعمال الطباق ، لم يخالفه فيه أحد قال : « وهذا الباب يجرى مجرى المجانس ، ولا يستحسن منه إلا ما قَلَّ ووقع غير مقصود ولا متكلف .. فأما إذا كان مَعْنيا الكلمتين غير متناسبين لا على جهة التضاد ولا التقارب فإن ذلك يقبح » (١) .

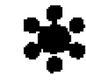
فحُسن الطباق إذن يتوقف على ثلاثة أمور :

١ - عدم الإسراف فيه . ٢ - تناسب المعانى بالتضاد .

٣ - تناسب المعانى بالتقارب .

وكذلك يرى عبد القاهر الجرجانى : « وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع فلا شُبهة أن الحُسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعانى خاصة ، من غير أن يكون فى ذلك للألفاظ نصيب ، أو يكون لها فى التحسين أو خلاف التحسين تصعيد أو تصويب » (٢) .

وعملاً بهذه القواعد حكموا بحسن كثير من النصوص ، كما عابوا كثيراً منها .



٢ - التورية :

التورية نمط من التعبير فيه خلابة وله أسر ، ومادة « ورى » تدور فى اللغة حول الاختفاء والستر .

يقال : واريت كذا - إذا سترته . قال تعالى : ﴿ قَدْ أَنزَلْنا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ ﴾ (٣) .

وتوارى : استقر ، قال : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ (٤) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٢

(٢) أسرار البلاغة ص ١٤

(٣) الأعراف : ٢٦

(٤) سورة ص : ٣٢

وروى أن النبى عليه السلام كان إذا أراد غزواً أورى بغيره ، والورى - قال الخليل - : « الورى الأنام الذين على وجه الأرض فى الوقت ، ليس مَن مضى ولا مَن يتناسل بعدهم فكأنهم الذين يسترون الأرض بأشخاصهم » (١) .

والتورية فى اصطلاح البلاغيين عرَّفها ابن أبى الاصبع فقال : « أن تكون الكلمة تحتمل معنيين ، ويستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله » (٢)

وقد صرَّح قبل بأنها تسمى التوجيه ، وهذا التعريف فيه طول .

وأجود منه ما ذكره الخطيب : « أن يطلق لفظ له معنيان . قريب وبعيد ، ويراد به البعيد منهما » (٣) .

وأجود منهما ما نراه فى بحوث المحدَثين : « التورية : أن يذكر لفظ له معنيان : بعيد مراد ، وقريب غير مراد » .

والفرق بينها وبين التوجيه أن المعنيين فى التوجيه فى نحو قول الشاعر فى أعور : « لَيْتَ عَيْنَيهِ سَوَاء » .

إن تصور المعنيين فى التوجيه يأتى بدرجة واحدة لا قُرب ولا بُعد فى أحدهما . أما التورية .. فأحد المعنيين قريب ، والآخر بعيد . فليسا سواء فى التصور ، والمناسبة بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى ظاهرة لأن المعنى القريب غير المراد ، يستر البعيد ويخفيه .

وقد قسَّم الخطيب - وتابعه آخرون - التورية إلى : مجردة ومرشحة (٤) . والمجردة هى التى لا تجامع شيئاً مما يلائم المورى به - يعنى المعنى القريب - الذى يشبه المعنى الحقيقى لتبادره إلى الفهم . ومثله من القرآن الكريم : ﴿ الرَّحْمنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٥) .

---

(١) مفردات الراغب ص ٥٢ .

(٢) بديع القرآن ص ١٠٢

(٣) الإيضاح : ٣٩/٦ ، شرح خفاجة

(٤) المرجع السابق .

(٥) طه : ٥

فـ « استوى » له معنيان ، قريب هو الاستقرار ، وهو غير مراد ، ولم يقرن بما يلائمه .

ومعناه البعيد المراد هو الاستيلاء ، والقرينة استحالة الاستقرار الحسى فى جانب الله .

والمرشحة هى التى قرنت بما يلائم الموري به ومثاله من القرآن الكريم : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [١] . فقد أراد بـ « الأيدى » المعنى البعيد الذى هو القدرة ، وقد قرن بها ما يلائم المعنى القريب الذى هو الجارحة المخصوصة ، وهو « بنيناها » لأن البناء يكون باليد ، والذى يبدو أن الآية من قبيل الاستعارة التمثيلية إذ معناها يرجع إليها عند التحقيق [٢] .

وعلى القول المشهور بأنها تورية فإن القرينة هى استحالة الجارحة فى حق الله سبحانه .

وللتورية - كما يرى السكاكى - دور كبير فى توجيه متشابهات القرآن كقوله تعالى : ﴿ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [٥] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴾ [٦] .

---

(١) الذاريات : ٤٧

(٢) شروح التلخيص - لأبى يعقوب المغربى : ٤/٣٢٤ - ٣٢٦

(٣) المؤمنون : ٢٧

(٤) الرحمن : ٢٦ - ٢٧

(٥) سورة ق : ١٦

(٦) سورة ص : ٤٧

فما فى هذه الآيات ، وما أشبهها ، من إثبات العين أو الوجه ، أو القُرب والمكان ، كلها محمولة على التورية ، بأن يراد من الأعين : الرعاية والحفظ ، ومن الوجه : الذات التى لا يعلمها إلا هو ، والقُرب : قُرب العلم لا قُرب المكان والملاصقة . ومن العندية : العندية المعنوية لا عندية المكان . وقد ذكر ابن أبى الاصبع ثلاثة مواضع أخرى كانت التورية فيها فى معان ليست وصفاً لله ، وهى قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ (١) لأن الضلال يُحمل على ضد الهدى ويحتمل الحب ، فاستعملوه مريدين به ضد الهدى مورين به عن الحب ليعلم أن المراد ما أهملوا ، لا استعملوا (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ (٣) .. فالبدن يُطلق على الجسد ، وعلى الدرع ، وقد استعمله بمعنى الجسم وأهمل معنى الدرع ومراده ما أهمل ، لأن نجاة فرعون - أى خروجه من البحر بعد الغرق - بدرعه ، أعجب من خروجه مجرداً (٤) .

ثم قال : « ومن التورية اللطيفة قوله تعالى بعد ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ، وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ، وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ (٥)

ولما كان الخطاب لموسى عليه السلام من جانب الطور الغربى توجهت اليهود إليه وتوجهت النصارى إلى الشرق ، وكانت قبلة الإسلام وسطاً بين القبلتين قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ (٦) أى خياراً ، وظاهر اللفظ يوهم التوسط مع ما يعضده من توسط قبْلة المسلمين ، صدق على لفظ « وسط » هنا أن يسمى تعالى به ، لاحتماله المعنيين . ولما كان المراد - والله أعلم - أحد المعنيين الذى هو الخيار دون الآخر ، صلحت أن تكون من أمثلة هذا الباب (٧) .

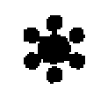
---

(١) يوسف : ٩٥ (٢) بديع القرآن ص ١٠٢ (٣) يونس : ٩٢
(٤) بديع القرآن ص ١٠٢ (٥) البقرة : ١٤٥ (٦) البقرة : ١٤٣
(٧) بديع القرآن ص ١٠٣

وأيّاً كان .. فإن التورية فى القرآن الكريم لها وظيفة هامة . وهى قريبة من المجاز ، بل كثيراً ما يُراد المعنى المجازى فيها كإرادة القُدرة من اليد ، وهذا ظاهرو فيها .

وقد سبق عن السكاكى أن متشابهات القرآن من قبيل التورية . فهى فيه إذن ذات دور هام لم تُجتلب لتأدية معنى إضافى ، أو تحسين عرضى ، فعدها من البديع فيه تسامح ، وأجدر بها أن تلحق بأقسام البيان إنصافاً ووصفاً لكل فن فى موضعه ، وإلى هذا ذهب العصام فى « الأطول » حيث قال فى تعريفها : « فالمختصر الواضح أن يقال : هو أن يطلق اللفظ على غير ما وضع له بقرينة خفية مما يتعلق بإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة » .

ثم قال : « فهو داخل فى أصل البلاغة فكيف عُدَّ من البديع » ؟ [1] .



٣ - المشاكلة :

عرَّفها الخطيب [2] . وغيره ، فقال : « ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، تحقيقاً أو تقديراً » .

ومثَّل لها من القرآن بقوله : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [3] .. فأطلق النفس على ذات الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [4] .. فسمى الجزاء سيئة .

أما وقوعه تقديراً فقد مثَّل له بقوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [5] .. أى تطهير الله .

وفى الواقع فإن أسلوب المشاكلة كثير فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [6] .

---

(١) الأطول : ١٩٤/٢ — (٢) الإيضاح : ٢٧/٦ — (٣) المائدة : ١١٦

(٤) الشورى : ٤٠ — (٥) البقرة : ١٣٨ — (٦) البقرة : ١٩٤

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ (٣)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ (٥) .

هذه بعض النصوص التى وردت على أسلوب المشاكلة من القرآن الكريم وهى ذات ملامح بلاغية آسرة . ولنأخذ لذلك أمثلة :

فى قوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (٦) .على طريق المجاز المرسل الذى علاقته المسببية ، لأنه مسبب عن السيئة وهذا تعبير اقتضاه الحال لأن فاعل السوء قمين بأن يُساء إليه ، فإطلاق السيئة على الجزاء أوقع لإقلاعه عن عمل السيئات وآلم على نفسه ، لأن النفس ترهب أن تُعامَل بالسوء .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ ﴾ (٧) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ .. سمى الجزاء كذلك اعتداءً وسخرية ليكون أوقع فى نفس المعتدى فيكف عن الاعتداء ، وفى نفس الساخر ليُقلع عما هو فيه .

أما فى نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ (٨) .. أى جازاهم على مكرهم - فإن العدول إلى لفظ « المكر » فى جانب اللّه لتربية الرهبة فى نفوس الماكرين لأن الويل كله لمن مكر اللّه عليه .

---

(١) الأنفال : ٣٠ . (٢) الفتح : ١٠ . (٣) طه : ١٢٦

(٤) البقرة : ١٤ - ١٥ (٥) هود : ٣٨ (٦) الشورى : ٤٠ .

(٧) البقرة : ١٩٤ (٨) آل عمران : ٥٤

وقوله تعالى : ﴿ وكَذَلكَ اليَوْمَ تُنْسَى ﴾ .. فيه تهكم بالمخاطَب وتوبيخ على ما قدَّم ، لأن الواقع ألاَّ نسيان ولا إهمال بل جزاءً وفاقاً ، أى نعاملك اليوم بمثل ما كنتَ تعاملنا به فى الحياة الدنيا .

*

• أصالة المشاكلة فى القرآن :

فأسلوب المشاكلة أسلوب أصيل فى القرآن الكريم ، وهو جدير بأن يُلحَق – كذلك – بأقسام البيان الأصيل ، لأنه من مقتضيات الأحوال ، كما نَصَّ على ذلك العصام فيما نقلناه عنه ، فهى إما مجاز مرسل كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [1] وما جرى مجرى هذه الآية ، وإما استعارة كقول أبى الرقعمق [2] :

قَالُواْ : اقْتَرِحْ شَيْئاً نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ   قُلْتُ اطبِخُوا لِى جُبَّةً وَقَمِيصاً

قال الإنبابى : « وقد تلَّخص من كلام ابن يعقوب والحفيد أن المشاكلة واسطة بين الحقيقة والمجاز والكناية ، وقيل : إنها دائماً مجاز مرسل علاقته المجاورة التى هى هنا الوقوع فى الصحبة ، وقيل : إنها تجامع المجاز المرسل والاستعارة إن لوحظ علاقتهما ، وإلا فهى واسطة – قاله بعض المشايخ » [3] .

وقد خالف عبد الحكيم القول بأن المشاكلة من المجاز فقال معلقاً عليه : « القول بكونه مجازاً ينافى كونه من المحسنات البديعية ، وأنه لا بد فى المجاز من اللزوم بين المعنيين فى الجملة ، فتعيَّن الوجه الأول » [4] .

---

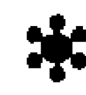
(١) الشورى : ٤٠ .

(٢) هو أحمد بن محمد الأنطاكى – شاعر – توفى سنة ٣٩٩ هـ .

(٣) تقرير الإنبابى على التجريد : ٣٨/٤

(٤) فيض الفتاح على حواشى تلخيص المفتاح : ٢٧١/٤

ومهما كان الخلاف فإن المشاكلة من أساليب البلاغة الأصيلة وليست محسناً ثانوياً كما يقال عنها ، ولها فوق ما تؤديه من خدمة للمعانى وظيفة من حيث اللفظ لا يُستهان بها ، هى : أن المشاكلة بالجُناس من حيث تماثل اللفظين ، بل من الجُناس التام لاتفاق اللفظين فى جنس الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها . ولا فرق بينها إلا من حيث المعنى ، وللجُناس وظيفة سنذكرها فى موضعها ، وما دامت المشاكلة شبيهة بالجُناس - بل التام منه - فإن ما يثبت له من مزايا يثبت لها كذلك .



٤ - صحة الأقسام :

عرَّفه ابن أبى الاصبع تحت هذا العنوان بقوله : « صحة الأقسام عبارة عن استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذى هو آخذ فيه ، بحيث لا يغادر شيئاً » [(١)] .

وعرَّفه أبو هلال تحت عنوان : « صحة التقسيم » فقال : « التقسيم الصحيح أن تُقسِّم الكلام قسمة مستوية تحتوى على جميع أنواعه ولا يخرج منها جنس من أجناسه » [(٢)] .

وعرَّفه ابن سنان فقال : « أما الصحة فى التقسيم فأن تكون الأقسام المذكورة ، لم يخل بشيء منها ، ولا تكررت ولا دخل بعضها تحت بعض » [(٣)] .

وقد تحدَّث عنه آخرون كعبد القاهر فى « الدلائل » ، وابن الأثير وغيرهما وكلهم يرفعون من شأنه ، ويظهرون الاهتمام به ، وقد أفاض ابن أبى الاصبع فى التمثيل له من القرآن الكريم وبدأ بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ [(٤)] .. إذ ليس فى رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق ، والطمع فى الأمطار . ولا ثالث لهذين القسمين .. ثم أخذ يبيِّن سر تقديم الخوف

---

(١) بديع القرآن ص ٦٥

(٢) الصناعتين ص ٣٦٧

(٣) سر الفصاحة ص ٢٢٦

(٤) الرعد : ١٢

على الطمع . فقال : « ومن لطيف ما وقع في هذه الآية : تقديم الخوف على الطمع ، إذ كانت الصواعق يجوز وقوعها من أول برقة . ولا يحصل المطر إلا بعد تواتره لا يكاد يختلف . لهذا كانت العرب تعد سبعين برقة ، وتنتجع فلا تخطىء الغيث » (١) .

والذى أراه : أن تقديم الخوف على الطمع من تقديم الأهم على المهم . لأن متعلق الخوف الحرص على أصل الحياة ، ومتعلق الطمع الحرص على الزيادة من متع الحياة .

ومن صحة الأقسام قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ (٢) .. فلم يترك سبحانه قسماً من أقسام الهيئات حتى أتى به ، وقد جاء ترتيب الهيئات على حسب الأفضلية ، فقدّم الذكر قياماً عليه قعوداً ، وقدّم الذكر قعوداً عليه رقوداً ، وفى هذا من حسن النسق وجودة الترتيب ما فيه . ويجوز حمل التقديم فيها على مراعاة الأكثر فالأكثر ، لأن ذكر الله قياماً أكثر من ذكره قعوداً ، وذكره قعوداً أكثر من ذكره رقوداً .

ومن صحة الأقسام قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ﴾ (٣) .

فهيئات الدعاء هنا ثلاث كهيئات الذكر هناك ، ولم يفت ابن أبى الاصبع أن يلحظ اختلاف النظم فى الترتيب فى الآيتين ، فتراه يقول : « لكن وقع بين ترتيب الآيتين مغايرة أوجبتها البلاغة . فتضمن الكلام بها الائتلاف . وذلك أن الذكر يجب فيه تقديم القيام لأن المراد به الصلاة – والله أعلم – والقعود لمن يستطيع القيام . والاضطجاع للعاجز عن القعود .

والضر يجب فيه تقديم الاضطجاع لغلبة الضعف ومبادىء الإعلال وتزيدها وإذا أزال بعض العلّة .. قعد المضطجع . وإذا زالت العلّة كلها وتراجعت القوة قام القاعد . والمراد بالدعاء هنا الصلاة أيضاً » (٤) .

*

(١) بديع القرآن ص ٦٥

(٢) آل عمران : ١٩١

(٣) يونس : ١٢

(٤) بديع القرآن ص ٦٧

● تعقيب :

وأقول : لقد وفق المؤلف إلى توجيه الترتيب فى الآيتين توفيقاً ليس وراءه مزيد فيما نرى . ولكنى أرى ضرورة مناقشته فى المراد بالذكر والدعاء فيهما .

فقد حمل الذكر فى الأولى على الصلاة ، وهذا صواب ، ولكن ما المانع أن يراد به مطلق ذكر .. فتدخل الصلاة فيه دخولاً أولياً ؟

أما الدعاء .. فقد حمله على الصلاة أيضاً ، والأولى - هنا - حمله على الدعاء الحقيقى ، لأن مس الضر يلجأ منه الإنسان إلى ربه فيدعوه ليكشف عنه ضره فلو أبقاه على أصله لكان أصوب .

كما أشار إلى العدول عن « الواو » إلى « أو » وبيَّن أن السر فيها الإشارة إلى تعداد المضرورين لتوخى الصدق فى الخبر [(١)] .

كما عَدَّ من صحة التقسيم قوله تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ، وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً ﴾ [(٢)] .

ومن صحة التقسيم كذلك قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [(٣)] .

فالآية الأولى استوعبت جميع الأوصاف المحمودة إذ وُصِفَ المؤمنون فيها بجميع العبادات . لأن العبادات كلها نوعان : بدنية ومالية ، والبدنية قسمان : عبادة الباطن وعبادة الظاهر ، والمالية أيضاً قسمان : ما يشترك فيه المال والبدن

---

(١) بديع القرآن ص ٦٨ (٢) الشورى : ٤٩ - ٥٠ . (٣) البقرة : ٣ - ٤ .

كالحج والجهاد ، وما ينفرد به المال كالزكاة وصدقة التطوع .. فقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ إشارة إلى عبادة الباطن ، وقوله سبحانه : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ تصريح بعبادة الظاهر . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ إشارة إلى العباده المالية . فاستوعبت جميع الأقسام على الترتيب فقدّم عبادة الباطن على عبادة الظاهر ، وعبادة البدن على عبادة المال .

وأما الآية الثانية فاستوفت أقسام الزمان فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ .

فإيمانهم بما أُنزل على الرسول إيمان فى الحال ، وبما أُنزل على الرسل من قبله إيمان فى الماضى ، وإيمانهم بالآخرة إيمان بالمستقبل ، وعبّر عن إيمانهم بالآخرة باليقين ليدل على قوة تصديقهم بالرسول وما أخبر به .

قال ابن أبى الاصبع : « فحصل فى هذه الآية مع نهاية المدح صحة الأقسام فى اللفظ ، والمبالغة فى معنى المدح والإيغال فى الفاصلة » (١) .

ثم تعرّض لنقض بيت زهير ، وهو أجمل ما جاءت فيه صحة التقسيم وأبلغه ، وهو قوله :

وَأَعْلَمُ مَا فِى الْيَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ   وَلَكِنَّنِى عَنْ عِلْمِ مَا فِى غَدٍ عَمِى

داعياً للموازنة بينه وبين الآية الثانية من آيتى البقرة ، منتصراً للآية عليه مبيّناً ما فيه من زيادة لم يؤت بها إلا من أجل الوزن ، وهى قوله : « قبله » ملاحظاً ما بين فاصلة الآية وقافية البيت من فروق جوهرية ، لافتاً النظر إلى ما تضمنته الآية الكريمة من معان شريفة ، لو عددت بألفاظها الموضوعة لها ملأت الأكوان (٢) .

---

(١) بديع القرآن ص ٧٠

(٢) نفس المصدر ص ٧١

وذكر ابن الأثير لصحة التقسيم نصوصاً غير ما ذكره ابن أبى الاصبع ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ .. فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ (١) .

قال معلّقاً على هذه الآية : « وهذه قسمة صحيحة . فإنه لا يخلو العباد من هذه الثلاثة : فإما عاص ظالم لنفسه ، وإما مطيع مبادر بالخيرات ، وإما مقتصد بينهما » (٢) .

ومثّل أيضاً بقوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ (٣) .

وقال معلّقاً عليها : « وهذه الآية منطبقة المعنى على الآية التى قبلها : فأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم ، وأصحاب الميمنة هم المقتصدون ، والسابقون هم السابقون بالخيرات » (٤) .

*

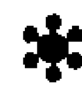
● رأى لابن الأثير :

ويعالج ابن الأثير فى هذا الموضع موضوعاً مهماً لم يتنبه إليه سواه قال : «فإن قيل : إن استيفاء الأقسام ليس شرطاً ، وترك بعض الأقسام لا يقدح فى الكلام . وقد ورد فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٥) . فذكر أصحاب الجنّة دون أصحاب النار ، فالجواب على ذلك أنى أقول : هذا لا ينقض على ما ذكرته . فإن استيفاء الأقسام يلزم فيما استبهم الإجمال فيه ، ألا ترى إلى

---

(١) فاطر : ٣٢ (٢) المثل السائر : ٩٦٧/٣ (٣) الواقعة : ٧ - ١٠ .
(٤) المثل السائر : ٩٦٧/٣ (٥) الحشر : ٢٠ .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (١) فإنه حيث قال : « فمنهم » لزم استيفاء الأقسام الثلاثة ، ولو اقتصر على قسمين منها لم يجز ، وأما هذه الآية التى هى : ﴿ لا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ ﴾ فإنه إنما خص أصحاب الجنة بالذكر للعلم بأن أصحاب النار لا فوز لهم ، ولو خص أصحاب النار بالذكر لعلم أيضاً ما لأصحاب الجنة وكذلك كل ما يجرى هذا المجرى فإنه إنما ينظر فيه إلى المستبهم وغير المستبهم فاعرفه » (٢) .



٥ - المذهب الكلامى :

سبق أن أبا هلال حين تعرَّض لهذا الفن نفى أن يكون منه شىء فى القرآن الكريم ، متابعاً فى ذلك ابن المعتز ، بحجة أنه مظنة التكلف فالقرآن منزه عنه (٣) . ولم يسلم هذا الزعم من التعليقات ، فابن أبى الاصبع يقول (٤) : « الذى ذكره ابن المعتز أن الجاحظ سماه هذه التسمية وزعم أنه لا يوجد منه شئ فى القرآن ، والكتاب الكريم مشحون به ، منه قوله تعالى - حكاية عن الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام - : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ ... إلى قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ (٥) .. ثم ذكر تعريفه فقال : « إنه احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام » .

وفى هامش الصناعتين (٦) : « هو إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام ، وهو أن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة المطلوب » .. ومؤدى التعريفين واحد كما ترى .

---

(١) فاطر : ٣٢ (٢) المثل السائر : ٣/٩٦٧ (٣) الصناعين ص ٣٢٦
(٤) بديع القرآن ص ٣٢٦ (٥) الأنعام : ٨٠ - ٨٣ (٦) صفحة ٣٢٦

ومن أمثلته فى القرآن الكريم : ﴿ قُلْ إنْ كَانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأنَا أوَّلُ العَابِدِينَ ﴾ (١) .

قال الزمخشرى : ﴿ قُلْ إنْ كَانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ ﴾ وصَحَّ ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحُجّة واضحة تدلون بها فأنا أول من يُعَظِّم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له .. وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة فى نفى الولد والإطناب فيه ، وأن لا يترك الناطق به شُبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم فى باب التوحيد . وذلك أنه علّق العبادة بكينونة الولد ، وهى محال فى نفسها ، فكان المعلّق بها محالاً مثلها ، فهو فى صورة إثبات الكينونة والعبادة ، وفى معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها (٢) .

وليس فى هذا الكلام اعتراض لنا - بل هو فى غاية الجودة - بَيْدَ أنى أضيف ملاحظتين :

أولاهما : أن نفى الولد مستفاد من نفى عبادته ، فالرسول إنما كان يعبد الله وحده .

ثانيهما : أن فى هذا التعبير رمياً لهم بالجهل ، فإن الرسول عليه السلام يقول لهم : يا معشر الجاهلين ؛ أنا أعلم منكم بالله وما يجب له ، ولو فُرِضَ أن له ولداً وصحَّ ذلك عندى لكنت أولاكم بالطاعة والامتثال له .

ومن شواهد هذا الفن فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ وَهُوَ أهْوَنُ عَلَيْه ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِى سَمِّ الخِيَاطِ ﴾ (٥) .

---

(١) الزخرف : ٨١ (٢) الكشاف : ٢/٢.٩ وما بعدها (٣) الروم : ٢٧

(٤) الأنبياء : ٢٢ (٥) الأعراف : ٤٠

وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ ﴾ (١) .

وغير ذلك كثير . والواقع أن ما سموه بالمذهب الكلامى دعامة أساسية فى الأسلوب القرآنى ، مثل الطباق ، لأن القرآن خاصمَ وجادَل كثيراً فى سبيل إحقاق الحق ، ودحر الباطل . وكثيراً ما كان يُشرك العقل والإحساس والعواطف والوجدان فى الخطاب ، ولذلك فإن المذهب الكلامى فيه لم يأت على الطريقة المنطقية الجافة . بل ساق لهم الحقيقة نابضة حية لا يحير فى تمثيلها عقل ولا تجمد فى الإحساس بها عاطفة ، ولا يتبلد شعور .

* *

● قياس المذهب الكلامى :

وطريقة القياس فيه سهلة واضحة . ومقدماته صادقة معتَرف بها حتى عند ألد الخصوم . ونتائجه واضحة مسلَّمة إلا مَن كابر وعاند وناقض نفسه والواقع .

انظر إلى هذا الوضوح : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوات وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنَ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ (٢) وهذه حقيقة مسلَّمة .

ثم انظر كيف استخدم القرآن هذه الحقيقة فى إثبات البعث : ﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوات وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ (٣) .

ثم تأمل كيف وصل القرآن إلى نفى تعدد الآلهة فى كلمات قصار لفتت الأنظار إلى حقيقة كبرى لا يختلف فيها اثنان ، ثم اتخذ من هذه الحقيقة الكبرى مبدأً للقياس : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٤) .

لا فساد فى السموات والأرض . هذا حق ثابت ، إذن فهو دليل التوحيد فلا إله إلاَّ اللّه .

ذلك هو دور المذهب الكلامى فى القرآن .. جدل حى ، ومنطق وجدان .

* * *

---

(١) النحل : ١٧ — (٢) غافر : ٥٧

(٣) يس : ٨١ — (٤) الأنبياء : ٢٢

الفصل الثانى

المحسنات اللفظية

● الجناس :

لم يعرِّفه ابن أبى الاصبع بمعناه العام . بل اهتم بتقسيمه ، ثم أخذ فى تعريف كل فرع من فروعه عند التمثيل لها [(١)] . وقد عرَّفه كثير من العلماء ، نذكر منهم ابن المعتز وقد عرَّفه بقوله : « هو أن تجىء الكلمة تجانس أخرى فى بيت شِعر وكلام » [(٢)] .

وقدامه بن جعفر : وقد عرَّفه بقوله : « أن تكون فى الشِعر معان متغايرة قد اشتركت فى لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة » [(٣)] .

وأبا هلال العسكرى ، وقد عرَّفه بقوله : « أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها فى تأليف حروفها حسبما ألَّف الأصمعى فى كتاب الأجناس » [(٤)] .

وضياء الدين ابن الأثير ، وقد عرَّفه بقوله : « إن حقيقته أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً » [(٥)] .

وابن سنان الخفاجي . وقد عرَّفه بقوله : « وهو أن يكون بعض الألفاظ مشتقاً من بعض وإن كان معناهما واحداً . أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفاً . أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى » [(٦)] .

---

(١) بديع القرآن ص ٢٧
(٢) المرجع السابق ص ١٨
(٣) نقد الشعر ص ٩٦ وما بعدها
(٤) الصناعتين ص ٣٠٨
(٥) المثل السائر جـ ٣
(٦) سر الفصاحة ص ١٧٣

والخطيب القزوينى ، وقد عرّفه بقوله : « هو تشابههما فى اللفظ » [١] . وغير هؤلاء كثير كالرمانى . ولم يخل تعريف منها من النقد ، والأقرب إلى الصواب ما ذكره الخطيب مع اختصاره .

والأستاذ على الجندى يفضل تعريف العلوى وهو : « اتفاق اللفظين فى وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما » [٢] .

ولست أدرى ما الذى يحملنا على تفضيل هذا التعريف بعد ذكر تعريف الخطيب وهو أقرب من تعريف العلوى إذ يقال : « ما المراد بوجه من الوجوه ! وما أكثر الوجوه التى يشترك فيها اللفظان ولا يقال إنهما متجانسان كاشتراك لفظين فى الإسمية أو الفعلية ... وهكذا .

وكل ما يؤخذ على الخطيب أنه أغفل اختلافهما فى المعنى . ولهم مع ذلك تقسيمات كثيرة للجناس ، لا أراها أنها تهمنا هنا بقدر ما يهمنا وروده فى القرآن . ووظيفته فى جمال التعبير .



● من صور الجُناس فى القرآن :

ومن أمثلته فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [٣] .

الساعة الأولى : القيامة ، والثانية : المراد بها اللحظة من الزمن ، وهذا يسمى عندهم الجُناس التام المماثل .

وقد أثار ابن أبى الحديد جدلاً حول عد هذه الآية من الجناس [٤] وذلك فى تعقيبه على رأى ابن الأثير بجعلها من الجُناس ، ولكن الحق أن فى الآية جُناساً لاختلاف معنى اللفظين .

---

(١) الايضاح : ٣٥١/٣
(٢) الطراز : ٣٥١/٣
(٣) الروم : ٥٥
(٤) الفلك الدائر ص ٣

قال السيوطى : « قيل : ولم يقع منه - أى الجناس التام المتماثل - فى القرآن سواه - أى هذه الآية المذكورة - واستنبط شيخ الإسلام ابن حجر موضعاً آخر هو قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِه يَذْهَبُ بالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ ﴾ (١) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٢) فالجناس بين : يسقين ويشفين . وهذا من الجناس المصحف ، وضابطه أن تختلف الحروف فى النقط .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ (٣) .

والجناس بين مُنذِرين ومُنذَرين . وهذا من الجناس المحرف . وضابطه أن يقع الاختلاف فى الحركات .

وقد اجتمع المحرف والمصحف فى قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (٤) .

ومن الجناس قوله تعالى : ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (٦) .

والجُناس بين الساق والمساق . وكلى وكل . وهذا من الجُناس الناقص وضابطه أن يكون الاختلاف فى عدد الحروف .

ومنه المذيل ، وضابطه أن تكون الزيادة بأكثر من حرف كقوله تعالى : ﴿ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ ﴾ (٧) .

---

(١) الإتقان : ٢/٩١ - والآية من سورة النور : ٤٣ - ٤٤

(٢) الشعراء : ٧٩ - ٨٠ (٣) الصافات : ٧٢ - ٧٣ (٤) الكهف : ١٠٤

(٥) القيامة : ٢٩ - ٣٠ (٦) النحل : ٦٩ (٧) طه : ٩٧

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (١) ، و ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾ (٢) ، و ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ ﴾ (٣) .

ومنه المضارع . وضابطه أن يختلفا بحرف مقارب فى المخرج كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ (٤) .

فإن اختلفا بحرف غير مقارب فهو اللاحق . كقوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ (٥) .

ومنه المرفق : وهو ما تركب من كلمة وبعض كلمة كقوله تعالى : ﴿ جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (٦) .

ومنه اللفظى : بأن يختلفا بحرف مناسب للآخر مناسبة لفظية كالضاد والظاء فى قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (٧) .

ومنه القلب : بأن يختلفا فى ترتيب الحروف كقوله تعالى حكاية عن هارون عليه السلام : ﴿ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ (٨) .

ومنه الاشتقاق : وهو أن يجتمعا فى الأصل الاشتقاقى ويسمى المقتضب كقوله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ (٩) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ (١٠) .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ ... ﴾ (١١) .

ومنه تجنيس الإطلاق : بأن يتفقا من حيث الظاهر مع اختلاف المادة المشتق منها . كقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ (١٢) .

---

(١) القصص : ٤٥ — (٢) البقرة : ٦٢ — (٣) العاديات : ١١

(٤) الأنعام : ٢٦ — (٥) الهمزة : ٢ — (٦) التوبة : ١٠٩

(٧) القيامة : ٢٢ - ٢٣ — (٨) طه : ٩٤ — (٩) الواقعة : ٨٩

(١٠) الروم : ٤٣ — (١١) الأنعام : ٧٩ — (١٢) الشعراء : ١٦٨

وقوله تعالى : ﴿ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ (١) .

فأنت ترى أنهم عثروا فى القرآن الكريم على أمثلة لكل فروع الجُناس وما شاكله .

وبقى من الجُناس نوع سموه « مستوفى » وهو ما اختلف لفظا الجناس فيه بين الإسمية والفعلية . ويقابله المماثل وهو ما اتحد طرفاه : إسميه أو فعليه .

وقد قسَّم ابن أبى الاصبع الجناس إلى قسمين كبيرين . سمى أحدهما : جناس مزاوجة ، والثانى : جناس مناسبة (٢) .. وفرَّع منهما عشرة فروع . ما بين اللفظى والمعنوى .

أما جناس المزاوجة فقد مثَّل له بأمثلة المشاكلة : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (٣) .

﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ (٤) .

وسبب هذه التسمية أن الله تعالى - كما قال هو - سمى جزاء السيئة سيئة . وجزاء الاعتداءً اعتداء ليكون فى الكلام مزاوجة . واشتراط المثلية فى الاعتداء توخياً للعدالة .

أما ما سماه جُناس المناسبة ، فقد مثَّل للفظى منه بأمثلة جناس الاشتقاق وهى قوله تعالى : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ ﴾ (٦) .

* *

---

(١) المائدة : ٣١ (٢) بديع القرآن ص ٢٨ (٣) الشورى : ٤٠ .

(٤) البقرة : ١٩٤ (٥) الأنعام : ٧٩ (٦) بديع القرآن ص ٤٩

● الجُناس يجامع فنوناً أخرى :

رأينا أن ابن أبى الاصبع قد مثَّل لما سماه جُناس المزاوجة بأمثلة هى بعينها أمثلة المشاكلة . ومنه نستطيع القول بأن الجُناس فى القرآن قد يجامع المشاكلة .

كذلك فإن جُناس الاشتقاق قد جامع فيه الطباق فى قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وجامع الجُناس الترديد فى قوله تعالى : ﴿ لا يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمُ الفَائِزُونَ ﴾ (٣) .

والترديد هو إيراد الكلمة بعينها مرتين ، وبعضهم يخصها بالشعر ، ولكن العلوى وابن أبى الاصبع أجازا مجىء ذلك فى النثر .

ومن أمثلته عند ابن أبى الاصبع قوله تعالى : ﴿ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ (٦) .

ومن العجيب أن الآية الثانية جمعت بين ثلاثة فنون من فنون البديع فى موضع واحد باعتبارات مختلفة :

١ - الطباق حيث وقع العلم منفياً مرة ومثبتاً أخرى ، فهو من طباق السلب .

---

(١) المائدة : ٤٤ (٢) النور : ١٩ (٣) الحشر : ٢٠

(٤) الأنعام : ١٢٤ (٥) الروم : ٦ - ٧ (٦) التوبة : ١٠٨

٢ - الجُناس لتماثل اللفظين « يعلمون » ، « يعلمون » : فهو من جناس الاشتقاق .

٣ - الترديد حيث تكرر اللفظان وكل منهما متعلق بمعنى مختلف .

وقد يجامع الجُناس التعطف . الذى هو إعادة اللفظة بعينها غير مشروط اجتماعهما ومثاله قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ، فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (١) .

فقد أعيدت الكلمة هنا أربع مرات : « تربصون بنا » ، « ونحن نتربص بكم » ، « فتربصوا » ، « إنَّا معكم متربصون » . ولا شك أن بين هذه المواضع الأربعة جناس اشتقاق .

ويجامع الجناس التصدير . ومن أمثلة ذلك فى الكتاب الحكيم قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٢) .



● وظيفة الجناس :

للجناس وظيفتان ، إحداهما من حيث المعنى ، والأخرى من حيث اللفظ ..

أما التى من حيث المعنى فيقول عنها الإمام عبد القاهر فى الأسرار : « وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ، ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه وساق نحوه . وحتى لا تبغى به بدلاً ، ولا تجد عنه حولاً . ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه ، وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه .. وذلك كما يُمثِّلون به أبداً من قول الشافعى

---

(١) التوبة : ٥٢ (٢) الأنبياء : ٤١

رحمه الله – وقد سئل عن النبيذ – فقال : « قد أجمع أهل الحرمين على تحريمه » (١) .

ويقول : « واعلم أن النكتة التى ذكرتها فى التجنيس ، وجعلتها العلّة فى استيجابه الفضيلة ، هى : حُسن الإفادة مع أن الصورة صورة الإعادة » (٢) .

ومعنى هذا أن الكلمة المكررة فى التجنيس مع أن الصورة توهم السامع فى أول أمرها أنها لم تأت بجديد . بل هى مكررة لمعنى سابقتها ، فإذا حصل للسامع منها المعنى الجديد جاءه ذلك من غير مظانه ومن حيث لم يتوقعه . وفى ذلك متعة للنفس ، وربح من غير انتظار .

وقال العلوى : « هو عظيم الموقع فى البلاغة ، جليل القدر فى الفصاحة » (٣) .

ويقول ابن السبكى : « وكفى التجنيس فخراً قوله عليه الصلاة والسلام : « غِفار غفر الله لها . وأسلم سالمها الله . وعصية عصت الله » .. ويرى بعضهم أنه أشرف الأنواع اللفظية » (٤) .

وأما وظيفته من حيث اللفظ فإنه يحمل السامع على الإصغاء ، كما يقول صاحب كنز البلاغة (عماد الدين إسماعيل بن الأثير الحلبى من علماء القرن الثامن الهجرى) : « لم أر مَن ذكر فائدة الجُناس وخطر لى أنها الميل إلى الإصغاء إليه . فإن مناسبة الألفاظ تُحدث ميلاً وإصغاءً إليه . ولأن اللفظ المشترك إذا حُمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوق إليه » (٥) .

وفى هذا النص بيان للوظيفة اللفظية . وإشارة إلى الوظيفة المعنوية .

* *

---

(١) أسرار البلاغة ص ٧ (٢) نفس المصدر ص ١١ (٣) الطراز : ٣٥١/٣

(٤) شرح عقود الجمان ص ١٤٩ (٥) شرح السبكى على التخليص : ٤١٢/٤

● مقومات الجمال فى الجُناس :

وإذا أمعنا النظر فى جمال الجُناس حين يقع جميلاً أمكن أن نرجعه إلى ثلاث أسباب :

١ - تناسب الألفاظ فى الصورة كلها أو بعضها ، ومما لا شك فيه أن التوافق فى الصورة واقتران الأشباه والنظائر بعضها ببعض تميل إليه النفوس بالفطرة . وتأنس به وتغتبط ويطمئن إليه الذوق لأنه نظام وانسجام وائتلاف . ويخلع على النفوس راحة وبشاشة . وهدوءاً وقراراً .

٢ - التجاوب الموسيقى الصادر من تماثل الكلمات تماثلاً تاماً أو ناقصاً فيطرب الأذن ، ويهز أوتار القلوب .

٣ - ذلك هو العمل الأخّاذ الذى يسلكه « المجنس » لاختلاف الأذهان واستمالة الأفهام [١] .

وفى هذا يقول عبد القاهر : « .. وقد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها .. ويوهمك كأنه لم يزدك شيئاً وقد أحسن الزيادة ووفاها » [٢] .

ولهذا فإن الجُناس من مقتضيات الأحوال . وموجبات البلاغة وشرط ذلك أن لا يكون الجُناس متكلفاً [٣] .



● منزلة جُناس القرآن :

وقد جاء الجناس فى القرآن الكريم على أحسن صورة وأجمل موقع لا تكلف فيه ، ولا تصنع ، ولا جور على المعنى لحساب اللفظ .. ولا اقتسار للفظ بدون دلالة حسنة .

---

(١) فن الإسجاع لعلى الجندى - ص ٢ (بتصرف فى الصياغة) .
(٢) أسرار البلاغة : ٥
(٣) انظر الصبغ البديعى - د . أحمد ابراهيم موسى ص ٤٩٥

سواء فى ذلك التام منه أو الناقص . وسواء ما كان جُناساً خالصاً . أو اختلط بغيره من ألوان البديع ، فليس فيه موضع نازل فى معناه . أو مستكره فى لفظه بل هو - كله - جار مع طبيعة الأسلوب القرآنى فى قوته وجزالته وبلاغته وفصاحته .

وإن شئتَ فتأمل هذه المواضع مع ما سبق من نصوص ورد فيها الجُناس فى القرآن الكريم : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُواْ ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ (١) .

﴿ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ (٢) .

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَات ﴾ (٣) .

فإنك تجد فوق روعة المعنى وسحر الجرس . مناسبة بين ركنى الجُناس جد رائعة ، وهذه المناسبة لو لم يكن للجُناس وظيفة سواها لكانت كفيلة بأصالته وحسنه : « انصرفوا - صرف » - « تتقلب - القلوب » - « الربا - يربى » وهكذا فى كل جناس أنت واجد خلابة وسحراً . وأسراً للسمع والفكر معاً .

وهل أنت واجد فى هذه إلا جمالاً وحسناً . والآن فانظر إلى سجع الناس المتكلف لترى الأصالة هنا - أى فى القرآن - والزيف فيما عداه ، إلا مَن عصم الله .

* * *

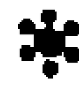
٢ - ائتلاف اللفظ مع المعنى :

عرَّفه ابن أبى الاصبع فقال : أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضاً ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها . غير لائقة بمكانها . كلها موصوف بحسن الجوار ، بحيث إذا كان المعنى غريباً فجاً كانت ألفاظه غريبة محضة ، وإذا كان

---

(١) التوبة : ١٢٧ (٢) النور : ٣٧ (٣) البقرة : ٢٧٦

المعنى مولّداً كانت الألفاظ مولّدة . وإذا كان المعنى متوسطاً كانت الألفاظ كذلك ، وإذا كان متداولاً كانت الألفاظ معروفة مستعملة [1] .



● ائتلاف اللفظ مع المعنى سمة للقرآن كله :

هذا ملخص ما ذكره المؤلف .. ونحن إذا نظرنا إلى عنوان الباب كان القرآن كله مثالاً له . لأن الألفاظ فى القرآن مؤتلفه مع معانيها لم يند منها موضع واحد . وعلى هذا فإن إيراد الأمثلة فيه شيء من التسامح . هذا بالنظر إلى عنوان الباب كما قلنا .

أما بالنسبة للأحوال التى ذكرها كشرح وتعريف للباب . فإن التمثيل واجب لبيان الأقسام الواردة فى التعريف . ولم يختص ابن أبى الاصبع بالكلام عن هذا الأصل بل تحدث عنه كثيرون من العلماء كابن سنان وابن الأثير والعلوى .

وقد مثّل ابن أبى الاصبع له بقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ ﴾ [2] .

وقد وجّه النص بما ملخصه :

فإنه سبحانه لما أتى بأغرب ألفاظ القَسَم وهى التاء - إذ الواو والباء أعرف منها عند العامة وهما أكثر دوراناً على الألسنة - لما أتى بها أتى بأغرب صيغ الأفعال التى ترفع الأسماء وتنصب الأخبار ، لأن « كان » وبقية أخواتها أعرف عند الكافة من « تفتأ » وأكثر منها استعمالاً .. وكذلك « حرضاً » فإنها أغرب الألفاظ الدالة على الهلاك ، فاقتضى حسن النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها فى الغرابة أو الاستعمال . توخياً لحسن الجوار ورغبة فى ائتلاف المعانى بالألفاظ . ولتتلاءم الألفاظ فى الوضع وتتناسب فى النظم

---

(١) بديع القرآن ص ٧٧

(٢) يوسف : ٨٥

ويتضح هذا إذا ما قورن بمثله . وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ (١) .. فلما كان هذا الموضع كل ما فيه من ألفاظ معروفاً مستعملاً قال : « أقسموا » ، و « بالله » فلم تأت لفظة غريبة تفتقر إلى ما يشاكلها فى الغرابة ويلائمها .

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (٢) . لأن الركون إلى الظالم دون فعل الظالم نفسه . ولذلك وجب أن يكون العقاب عليه دون عقاب الظالم ، ولهذا قال سبحانه : « فتمسكم النار » ، فالركون إلى الظالم يناسبه مس النار للراكن . فلم يقل : « فقد دخلوا النار » - مثلاً - لأن المتبادر إلى الفهم أن مس النار أول ملاقاة الجسم لها .



● المس والذوق :

هذا وقد جاء « المس » فى غير هذا الموضع مراداً به العذاب المؤلم ولا يكون إلا بالدخول فى النار والمكث فيها ، كقوله تعالى : ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ (٣) .

فالمعوّل - إذن - على القرائن كما يقول ابن أبى الاصبع نفسه : « وإذا احتملت اللفظة احتمالات صرف منها إلى ما تدل عليه القرائن » (٤) .

وحتى فى هذه الآية - ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ - قد يبلغ ائتلاف اللفظ مع المعنى ومع اللفظ منتهاه . فإذا كان المس أول ملاقاة الجسم للنار ، فإن الإذاقة هى أول ملاقاة المطعوم للسان - إذن - فههنا مقابلة آسرة .. ولعل السر البلاغى فى هذا التعبير أن إذاقة مس سقر كاف فى الإيلام فما بالك بدخولها ؟

وبهذا تنتهى أمثلة ابن أبى الاصبع لهذا الباب من القرآن الكريم . والقرآن - بعد - مشحون بهذه الصور الآسرة . فلنورد بعضها فيما يأتى :

---

(١) النور : ٥٣

(٢) هود : ١١٣

(٣) القمر : ٤٨

(٤) بديع القرآن ص ٧٨

● ذل اليهود ومسكنتهم :

﴿ .. وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ ﴾ (١) .

هذا إخبار من الله تعالى عن اليهود لما عصوا الله وكفروا به . وقتلوا الأنبياء ظلماً وعدواناً ، وخلاصة هذا الإخبار أن اليهود أذلاء وضعفاء أينما كانوا وحيثما حلوا . جزاء لهم على جرائمهم المنكرة ، فلازمتهم الذلة والمهانة ، وجاء التعبير وافياً بالغرض أيما وفاء .

يقول الزمخشرى : « جُعِلَت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم فهم فيها كما يكون فى القبة مَنْ ضُرِبت عليه . أو ألصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يُضرب الطين على الحائط فيلزمه » (٢) .

ويُفهم من هذا معنيان : الإحاطة ، واللزوم . وفى التعبير معنيان آخران ذلك أن الضرب فى نفسه مشعر بذل المضروب فاختير هنا ليناسب لفظة « الذل » المجعولة عليهم .

والضرب من شأنه إيلام المضروب وإيجاعه . وهذا يُشعر بالأثر السيء الذى يجده اليهود من ملازمة الذلة والمسكنة لهم . وإحاطتهما بهم .

وهذا الضرب مجاز طريقه الاستعارة التمثيلية أو المكنية . ويجوز حمله على الاستعارة التصريحية التبعية .

وهذا من باب مناسبة اللفظ للمعنى . وفى قوله تعالى بعد هذا مباشرة : ﴿.... وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (٣) مناسبة كذلك ، فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم يناسبه : ﴿ وبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

* *

---

(١) البقرة : ٦١ (٢) الكشاف : ١/١٠٩ (٣) البقرة : ٦١

● غرابة اللفظ لغرابة المعنى :

ويدخل فى هذا الباب من غرابة الألفاظ لغرابة المعانى قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ (٣) .

فـ « القسورة » الصياد أو الأسد . وهما أكثر من لفظ : « قسورة » دوراناً على الألسن ووروداً فى الاستعمال . وهذا مناسب لغرابة نفور العصاة عن الدعوة إلى الطاعة والهدى .

و « رءوس الشياطين » لم يستعمله أحد لأنه لم يقف على حقيقته فجاء مثالاً لثمار أغرب شجرة تنبت فى أصل الجحيم .

وقسمة الإناث للّه سبحانه والذكور للكافرين قسمة غريبة فدل عليها بأغرب لفظة عرفتها لغة العرب .

وهذا ميدان واسع فى القرآن الكريم يظهر فى حقيقته ومجازه ، وما أردنا بما ذكرنا إلا التدليل والتمثيل .

* * *

٣ - المساواة (٤) :

عرفُها ابن أبى الاصبع بقوله : « أن يكون اللفظ مساوياً للمعانى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه » (٥) .

ثم يعلق عليها فيقول : « وهو من أعظم أبواب البلاغة ، بل هو بعينه نفس البلاغة » (٦) .

---

(١) المدثر : ٥٠ - ٥١ (٢) الصافات : ٦٥ (٣) النجم : ٢٢

(٤) تابعنا ابن أبى الاصبع الذى تابع قدامة بن جعفر فى تفريع هذه الأنواع التى يعدها من ائتلاف اللفظ مع المعنى . (٥) بديع القرآن ص ٧٩ (٦) المرجع السابق ص ٧٩

ومعروف أن المساواة من مباحث علم المعانى - وهذا هو شأن البديع - إنما هو فى معظم أبوابه مسائل منتزعة من علمى المعانى والبيان ، وللعلماء مذهبان فى أسلوب القرآن .

فالجمهور يرى أن القرآن فيه الإطناب والمساواة والإيجاز .. وعرّفوا الأول بأن الألفاظ فيه تزيد على المعنى زيادة تؤدى فائدة . والمساواة قد سبق تعريفها .

أما الإيجاز .. فأن تكون الألفاظ أقل من المعنى المفهوم منها ، وقسّموا الإيجاز إلى إيجاز حذف ، وإيجاز قصر .

وقد مثّلوا للمساواة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى القُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ وَالبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

قال ابن أبى الاصبع فى بيان المقصود من هذه الآية : « إن الله سبحانه أراد أن يأمر بجميع المحاسن الممدوحات المنجيات ، وينهى عن جميع القبائح الموبقات المذمومات . فأخرج المعنى فى لفظ هو طبقه . وقالب هو قدره وصوره مساوية لمعناه لا تزيد ولا تنقص عن فحواه ،. ومصداق ذلك أن أى لفظة لو حذفتها من ألفاظ الآية اختل شيء من المعنى بحذفها اختلالاً ظاهراً ...

وكذا إذا زيد فى ألفاظها لفظة حصل من الاختلال بالزيادة ما حصل منها عند النقص . ولا معنى للمساواة غير هذا (٢) .

* * *

● نقد وتحليل :

ولكن الحق أن الآية ليست من قبيل المساواة ، بل هى شاهد ناطق على الإيجاز وهذا نلمحه من ناحيتين :

---

(١) النحل : ٩٠ .

(٢) بديع القرآن ص ٨٠ .

من حيث الصناعة النحوية فإن فيها حذفاً فى مواضع لا أظن أن المؤلف يخالفنا فيها ، وتلك المواضع هى : حذف معمول « يأمر » - حذف معمول المصدر « إيتاء » - حذف معمول « ينهى » - حذف معمول « تذكرون » .

هذه الحذوفات وإن كانت كثيرة فى الأسلوب القرآنى . فإنها تنقل الآية من شاهد المساواة إلى شاهد الإيجاز بالحذف .

ومن ناحية دلالة الكلمات أنفسها .. فإن « العدل » تحته أفراد . وكذلك « الإحسان » و « الفحشاء » تحتهما أفراد . وكذلك « المنكر » و « البغى » ، فهذه أسماء جوامع دالة على كثير وهذا ينقل الآية من شاهد المساواة إلى شاهد الإيجاز بالقصر .

* *

● ابن أبى الاصبع يناقض نفسه :

وكلام ابن أبى الاصبع نفسه دليل على أن الآية فيها إيجاز قصر حيث يقول : « إن الله سبحانه أراد أن يأمر بجميع المحاسن المنجيات الممدوحات . وينهى عن جميع الموبقات المذمومات » ، فكيف يستقيم بعد أن يقال إن الآية من قبيل المساواة ؟

ومن شواهد المساواة أيضاً - حسبما ذكروه - قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِىَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

وهذه الآية كأختها شاهد إيجاز وليست شاهد مساواة .

وإنى لأعجب لابن أبى الاصبع إذ أورد هذه الآية فى باب المساواة وهو نفسه يعلّق عليها تعليقاً واضحاً بأنها من باب الإيجاز ، فهو يقول : « فإنه سبحانه

---

(١) هود : ٤٤

وتعالى أراد اقتصاص هذه القصة بأوجز لفظ وأبلغه فجاء بها كما ترى مرتبة الألفاظ والجُمل حسبما وقع » .

فمن هذا النص تعلم أن ابن أبى الاصبع قد سلك الآية فى موضعها اللائق بها من البلاغة والإيجاز وحسن النسق .

وبعدها مباشرة يقول : « فإن قيل لفظة : « القوم » زائدة تمنع الآية من أن توصف بالمساواة لأنها إذا طرحت استقل الكلام بدونها بحيث يقال : « وقيل بعداً للظالمين » . قلت : لا يستغنى الكلام عنها » .

ثم أخذ فى بيان أصالة لفظة « القوم » فى موضعها هنا فوُفِّقَ أيما توفيق [1] .

والذى نأخذه عليه اضطرابه فى نسبة الآية إلى المساواة مرة ، والإيجاز مرة أخرى ، وكونها من الإيجاز أمر لا يحتاج إلى دليل .

ثم أخذ يبرر هذا الخلط والاضطراب فقال : « واعلم أن البلاغة قسمان - كما قيل - البلاغة إيجاز من غير اختلال وإطناب من غير إملال . والمساواة معتبرة فى القسمين معاً » .

*

● والسؤال الآن :

كيف تكون المساواة معتبرة من قسمى الإيجاز والإطناب .. وعلى أى أساس يمكن فهم هذا التقسيم وبين الأقسام الثلاثة حواجز وضوابط لا تسمح بالتداخل بينها ؟ إن فى ما يقول ابن أبى الاصبع خروجاً عن إجماع العلماء .

ثم تورط أكثر وأكثر عندما راح يطبق فكرته الغريبة هذه على نصوص القرآن . وهذا يظهر مما يأتى :

قال : « فما جاء من قسم الإيجاز وهو موصوف بالمساواة ! قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [2] . فإن معنى هذه الجملة جاء فى قوله

---

(1) بديع القرآن ص ٨.

(2) البقرة : ١٧٩

تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِف فِي القَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً ﴾ (١) .

ثم قال : « لكن الأول إيجاز والثانى إطناب .. وكلاهما موصوف بالمساواة » (٢) .

وفضلاً عن هذا الخلط والاضطراب فإننا نرى فى كلامه ضعفاً حيث يرى أن معنى الآية الثانية متفق مع معنى الآية الأولى - وظاهر أن معنى الآية الأولى بيان أن « القصاص من القاتل » يُضعف رغبة الناس فى الاعتداء بالقتل ، فتحفظ الحياة بصون الدماء .

ومعنى الآية الثانية هو تشريع يبيح لولى المقتول المطالبة بالاقتصاص من القاتل مع الاقتصار فى الدعوى على المجرم الحقيقى لا يتعداه إلى سواه .

فهل بعد هذا يقال : إن معنى الآية الأولى جاء فى الآية الثانية ؟ وعلى أى أساس أيضاً يدّعى الاتحاد بين معنى الآيتين ؟!

* * *

٤ - الإرداف :

وهو مفرّع كذلك عن ائتلاف اللفظ مع المعنى . وعرّفوه فقالوا : أن يريد المتكلم معنى فلا يُعبِّر عنه بلفظه الموضوع له ، ولا بلفظ الإشارة الدال على المعانى الكثيرة . بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص وتابعه قريب من لفظ المعنى الخاص قرب الردف من الرديف (٣) .

ومنه فى الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ (٤) ، وحقيقة ذلك : وهلك مَن قضى اللّه بهلاكه . ونجا مَن قضى بنجاته .

---

(١) الإسراء : ٣٣

(٢) بديع القرآن ص ٨١

(٣) نفس المصدر ص ٨٢

(٤) هود : ٤٤

وإنما عدل عن هذه الحقيقة إلى لفظ الإرادف لما فيه من الإيجاز والتنبيه على أن هلاك الهالك ونجاة الناجى كان بأمر آمر مطاع ، وقضاء مَن لا يُرد قضاؤه ، والأمر يستلزم آمراً وقضاؤه يدل على قُدرة الآمر به ، وطاعة المأمور تدل على قدرة الآمر وقهره وأن الخوف من عقابه ورجاء ثوابه يحضان على طاعة الآمر ولا يحصل ذلك كله من اللفظ الخاص » [1] .

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ﴾ [2] .

قال : « فإن هذا الكلام عُدِلَ فيه عن المعنى الخاص فى موضعين توخياً للمناسبة والتسجيع لأن المعنى الخاص فى الموضعين أن يقال : لأخذناه أخذاً شديداً وأهلكناه . لكن هذه العبارة خالية من المناسبة لما تقدَّم هذين الموضعين وما تأخَّر عنهما . ولما كانت المناسبة والتسجيع أمراً مطلوباً عدل عن اللفظ الخاص الذى لا يعطى ذلك إلى لفظ يعطيه مع جزالة فيه » [3] .

وأقول : إن المواضع التى ذكرها شواهد للإرداف لا تخرج عن الاعتبارات الآتية :

١ - إيجاز القصر .. وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ وقد جرى هذا التعبير مجرى الحكمة لإجازة لفظه ووفرة معناه .

٢ - الكناية عن الصفة .. وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ [4] ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ﴾ لأن الأولى كناية عن العفة . والثانية كناية عن الهلاك .

والوتين : نياط القلب إذا قُطِعَ مات صاحبه [5] .

---

(١) بديع القرآن ص ٨٣ (٢) الحاقة : ٤٤ - ٤٦ (٣) بديع القرآن ص ٨٤

(٤) الصافات : ٤٨ ، وسورة ص : ٥٢ ، الرحمن : ٥٦ (٥) الكشاف : ٤/٤٨٦

٣ - الاستعارة التمثيلية .. وذلك فى قوله تعالى : ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ شبَّه حاله - سبحانه - فى سيطرته عليه بحال مَن يمسك يمينه فلا يستطيع دفعاً ولا فوتاً .

* * *

٦ - التمثيل :

وهذا مفرَّع كذلك عن ائتلاف اللفظ مع المعنى . وقد عرَّفه ابن أبى الاصبع فقال : « هو أن يريد المتكلم معنى فلا يُعبِّر عنه بلفظه الخاص ولا بلفظى الإشارة ولا الإرداف بل بلفظ هو أبعد من لفظ الإرداف قليلاً ... » (١) .

ومنه : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ (٢) فإن حقيقة ذلك : وجلست على هذا المكان ، فعدل عما فيه زيغ إلى ما لا زيغ فيه ولا ميل ولا حركة ولا اضطراب ، فإن بهذا الجلوس تسكن قلوب أهل السفينة فحصل تمام الأمن وتمام السكينة ، ولا يحصل هذا من قولنا : « جلست » ، فلذلك عدل عن لفظ الحقيقة إلى لفظ التمثيل .. هذا معنى من معانى التمثيل وخلاصته : إيثار لفظ مكان آخر ، ليس أحدهما مجازاً .

* *

● معان آخرى للتمثيل :

ومعنى آخر مثَّلوا له بقوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

فإن ألفاظ هذه الآية ومعناها تمثيل مجازى أتى به لتتبين به حقيقة أمر مراد . لأنه لما كان هؤلاء المحدَّث عنهم بذلك لا ينتفعون بما يسمعون من الزواجر . ولا يرتدعون بما يشاهدون من الآيات .. كان امتناعهم عن ذلك بختم وغشاوة

---

(١) بديع القرآن ص ٨٥ (٢) هود : ٤٤ (٣) البقرة : ٧

حالا بينهم وبين ما يسمعون وما يبصرون وما يعتقدون ، إذ لولا هذه الحيلولة لسمعوا وأبصروا وعقلوا .

وفى هذا فإن التمثيل يكون بإيثار لفظ مجازى على آخر حقيقى كـ « الختم » ومعنى ثالث للتمثيل عندهم . وهو حمله على الاستعارة التمثيلية التى تشبه بها الهيئات .. وقد نَصَّ على ذلك كثير منهم كابن أبى الاصبع إذ يقول فى توجيه الآية المذكورة : « ويجوز أن تُضرب الجملة مثلاً لصفة أحوالهم كقولهم : سال بهم الوادى - إذا هلكوا ، وطارت بفلان العنقاء - إذا طالت غيبته » (١) .

ومعنى رابع للتمثيل عندهم هو أن يراد به المثل . وهذا كثير فى القرآن الكريم .. منه قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ (٢) .

* * *

(١) بديع القرآن ص ٨٦

(٢) النجم : ٥٨

الفصل الثالث

قيمة البديع القرآنى

نعرض فى هذا الفصل نصوصاً من القرآن الكريم ، محاولين توضيح ما فيها مما أطلقوا عليه « بديعاً » سواء دخل عندهم فى المعنوى ، أو اللفظى ، والفرق بين ما قلناه فيهما ، وما نقوله فى هذا الفصل واضح .

١ - من سورة البقرة (آيات : ٢٦ - ٢٧) :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ ، أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ .

جاءت فى هاتين الآيتين ضروب عدة من البديع نذكرها فيما يلى :

(أ) المشاكلة : وذلك فى قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا .. ﴾ وهى مشاكلة من النوع الثانى الذى ذكروه فى قولهم : « المشاكلة هى ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً » (١) .

فهى مشاكلة تقديرية . وذلك بناء على ما ذكره المفسرون . فالزمخشرى يقول : « ويجوز أن تقع هذه العبارة فى كلام الكفرة . فقالوا : أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب - إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً ﴾ (٢)

(١) الإيضاح : ٢٧/٦

(٢) الحج : ٧٣

فجاءت على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال - وهو فن من كلامهم بديع وطراز عجيب منه قول أبى تمام :

مَنْ مُبْلِغُ أَفْنَاءَ يَعْرُبَ كُلِّهَا   أَنِّى بَنِيتُ الجَارَ قَبْلَ المَنزِلَ

ويلاحَظ أن اللفظ « المشاكل » هنا مجازى المعنى حقيقته الترك . فمعنى : « إن اللّه لا يستحى » أى لا يترك الضرب بالبعوضه ترك مَن يستحى أن يمثّل بها لحقارتها ... لأن الحياء تغير وانكسار يعترى الإنسان من تخوف ما يُعَاب به أو يُذَم [١] وهو بهذا المعنى مستحيل فى جانب اللّه .

إذن فقد اجتمع هنا لونان بديعيان : المشاكلة .. وقد تقدم شرحها .

(ب) المماثلة أو التمثيل .. وقد سبق أنهم يعتبرونه لوناً بديعياً . وسبق كذلك أنه عندهم يُطلق على عدِةّ أمور : الاستعارة المفردة ، الاستعارة التمثيلية ، المثل السائر .

(جـ) الإبهام : وذلك بناء على ما ذكره المفسِّرون - كذلك - من أن « ما » فى قوله تعالى : ﴿ مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ أن « ما » الأولى إبهامية ، وهى التى إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته شياعاً وعموماً [٢] . وكون « ما » إبهامية مشروط بنصب « بعوضة » - كما هى القراءة المشهورة - وإن رفعت « بعوضة » فإن « ما » تصبح موصولة .

(د) التوجيه : وذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ فإن الفوقية هنا لها معنيان ، أحدهما : فما تجاوزها فى المعنى الذى ضُرِبَت فيه وهو القِلَّة والحقارة .

وثانيهما : فما زاد عليها فى الحجم .

ولما كان أحد هذين المعنيين لم تنصب قرينة على إرادته بعينه ، وبقى الفهم والاعتقاد شركة بينهما حصل النوع البديعى الذى يسمونه « التوجيه » ؛ وهو

---

(١) الكشاف : ١/٨٤   (٢) نفس المصدر ص ٨٦

أن يكون للفظ معنيان لم تقم قرينة على إرادة أحدهما . والمتأمل يرى أن كلا المعنيين هنا صالح للفهم والاعتقاد .

(هـ) حسن التقسيم : حيث قسَّم الناس بالنسبة لضرب الأمثال بالبعوضة وما زاد عليها فى الحقارة أو ما زاد فى الحجم إلى فريقين : فريق مؤمن مُصدِّق ، وآخر كافر مُكذِّب .

(و) المقابلة : حيث طابق بين « آمنوا » و « كفروا » و « يضل » و « يهدى » ، وقد جامعت المقابلة هنا التكافؤ حسبما يرى ابن أبى الاصبع لأن « يهدى » و « يضل » مجازيان .

(ز) التعطف : وذلك فى ثلاثة مواضع « مثلاً » و « مثلاً » ، « يضل » و « يضل » ، « كثيراً » و « كثيراً » .

(ح) البيان بعد الإبهام : وذلك أنه سبحانه قال : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً ﴾ فبيَّن أن فريقاً يضل به وآخر يهدى ، ولم يبيِّن مَن المهدى ومَن المضل ، ثم عاد فقال : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلا الفَاسِقِينَ ﴾ ليعلم مَن هو الفريق المضل وفى هذا البيان معنى الاحتراس .

(ط) صحة التفسير : حيث فسَّر « الفاسقين » فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاَّ الفَاسِقِينَ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ .

(ى) النزاهة : وذلك لأنه سبحانه حين أراد ذمهم لم يستعمل فيه هجين اللفظ ، ولا قبيح المعنى ، بل سجَّل عليهم نقضهم ميثاق اللّه ، وترك ما أمر اللّه بفعله وفسادهم فى الأرض ، وأخبر عنهم بأنهم هم الخاسرون لا غيرهم .

(ك) التكافؤ : وهو- كما عرَّفه ابن أبى الاصبع - أن يكون ركنا الطباق مجازين لا حقيقين ، وأن تكون أركان المقابلة مجازية كذلك . والتكافؤ بهذا

المعنى وارد فى الآية الثانية : ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّه من بَعْد ميثَاقه ويَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ به أن يُوصَلَ ﴾ ، حيث قابل بين النقض والتوثقة ، والقطع والوصل ، وهذه كلها أركان مجازية ، فالنقض لا يكون إلا فى المركبات الحسية ، وكذلك التوثقة ، والقطع لا يكون إلا فى المتماسك الحسى وقد استعمل هنا مراداً به الترك ، والوصل صنو القطع ، واستعمل هنا فى أمر معنوى هو : الإتيان والفعل .

(ل) الترشيح : وذلك أنه قال : ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّه ﴾ وهو الذى رشّح لإيقاع النقض على العهد ، وهو لا يكون إلا فى المركّب الحسى و « العهد » معنى من المعانى ، فالذى رشّح له أنهم يسمون العهد « حبلاً » على سبيل الاستعارة . قال الزمخشرى : « فإن قلتَ من أين ساغ استعمال النقض فى إبطال العهد ؟ قلتُ : من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من إثبات الوصلة بين المتعاهدين » (١)

(م) التسجيع : وهذا ظاهر من فاصلتى الآيتين : ﴿ وَمَا يُضلُّ به إلا الفَاسقينَ ﴾ ، ﴿ أُولَئكَ هُمُ الخَاسرُونَ ﴾ فاتحدت الفاصلتان فى حرف النون مسبوقاً بحرف مد فى الموضعين .

(ن) التذييل : وذلك فى قوله تعالى : ﴿ أُولَئكَ هُمُ الخَاسرُونَ ﴾ فإنه تذييل جاء مؤكداً لما فُهم من أوصاف الفاسقين .

(س) حسن النسق : حيث جاءت الجمل مترتبة ترتيباً حسناً خالية من عيوب النظم . فقد بدأ - سبحانه - بأنه مطلق الإرادة يمثّل بما شاء لما شاء . والناس إزاء هذا التمثيل ضربان : مؤمن مصدِّق ، وكافر مستريب ، وفى هذا يضل اللّهُ مَن يشاء وهم كثيرون ، ويهدى مَن يشاء وهم كثيرون ، ثم بيّن أنه لا يضل إلا الفاسقين ، ثم شرع فى بيان صفات الفاسقين فبدأ بنقضهم عهد اللّه ،

---

(١) الكشاف : ١/ ٩٠.

وتركهم ما أمر اللّٰه به أن يؤتى ، ثم عطف عليه كونهم مفسدين فى الأرض . ثم أخبر عنهم بأنهم الخاسرون .

والمتأمل يرى أن كل جزء تقدَّم على آخر فإنه كالسبب فيه أو أخص منه وما أتى بعده عام . أو حكم تقدمت مسبباته . فجاء التعبير محكم البناء ، موصول العرى ، متلاحم الفقرات .

(ع) الانسجام : وقد عرَّفه ابن أبى الاصبع بأن يكون الكلام منحدراً كانحدار الماء المنسجم بسهولة سبك وعذوبة ألفاظ وسلامة تأليف . حتى يكون للكلام موقع فى النفوس وتأثير فى القلوب ما ليس لغيره وإن خلا من البديع (١) .

وهذا الانسجام ينطبق على آيتينا هاتين بل ينطبق على كل موضع فى القرآن الكريم فهو وصف عام له . لم يختص به موضع دون آخر .

(ف) المجاز : هكذا عدُّوا المجاز من فنون البديع ، وهو فى آيتنا ظاهر فى بعض مواضعها كالنقض فى الإبطال ، والتوثق فى الحفاظ على عهد اللّٰه ، والقطع فى الترك والوصل في الفعل ، ومن قبل هذا كان الاستحياء فى الترك أيضاً .

(ص) الإدماج : وهو كما عرَّفه ابن أبى الاصبع (٢) أن يدمج غرض فى غرض أو بديع فى بديع بحيث لا يظهر إلا أحد الغرضين . وهذا قد مرَّ بنا فى موضعين من النص الكريم :

أحدهما : دمج التكافؤ فى المقابلة فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ﴾ فإن « يضل » و « يهدى » مجازيان - كما سبق - وهذا تكافؤ مدمج فى المقابلة .

(١) بديع القرآن ص ٦٦٦ (بتصرف يسير) .
(٢) المصدر السابق ص ١٧٢

وثانيهما : دمج التكافؤ فى المقابلة - كذلك - فى قوله تعالى : ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ على ما سبق بيانه .

(ق) التفصيل : وهو الواقع بعد « أما » ، و « أما » فى قوله تعالى [1] : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ... ﴾ ولا يقف بنا الأمر عند هذا الحد ، فإن لنا أن نصف النص بما يأتى :

(ر) ائتلاف اللفظ مع المعنى : لأن كل لفظ فيه قد ائتلف مع معناه . فهما مقدران بقدر ، وموضوعان بحكمة وهذا اللون - وإن مثّلوا له ببعض آيات القرآن - فإنه وصف عام ليس له فيه موطن دون موطن بل القرآن كله موصوف بائتلاف ألفاظه مع معانيه .

(ش) حسن الجوار : وهذا مثل سابقه : وصف عام للقرآن حيث لم تقع فيه لفظة واحدة متنافرة مع سابق عليها أو لاحق لها ، وهو ينطبق على آيتينا باعتبارهما جزءاً من التنزيل الحكيم .

فهذه أكثر من عشرين لوناً بحثوها فى ألوان البديع ، وقد جاءت فى القرآن على أحسن موقع وأجمل مطلع .

وهل ترى فى هذا النص - وقد علمنا ما فيه من ألوان البديع - قصوراً فى معناه الذى سيق من أجله ؟ أم انتصاراً للفظ على المعنى ؟

ليس فى النص شىء من هذا . بل هو واف بالمراد فى وضوح وقوة ، وهذا هو الفارق بين كلام معجز ، وكلام هو عرضة للخطأ والمغالاة .

* *

---

(١) بديع القرآن ص ١٥٤

٢ - من سورة هود (٤٤) :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ ، وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة تصوِّر لنا فى إيجاز نهاية قصة الطوفان فى عهد نوح عليه السلام ، وقد اشتملت على الألوان البديعية الآتية :

(أ) المناسبة اللفظية التامة ، بين « أقلعى » و « ابلعى » . فقد جمع بين اللفظين وهما هنا موزونان مقفيان بزنة وقافية واحدة وهذا هو معنى المناسبة التامة [١] .

(ب) المطابقة : بين « السماء » و « الأرض » فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ وقد مرَّ تعريف المطابقة فلا حاجة إلى ذكره .

(جـ) الاستعارة : فى قوله تعالى : « أقلعى » و « ابلعى » .

(د) المجاز المرسل : فى قوله تعالى : « يا سماء » والحقيقة : يا مطر السماء والعلاقة : المجاورة .

(هـ) الإشارة : وهى أن يدل اللفظ القليل على المعنى الكثير بحيث يكون اللفظ لمحة دالة . وذلك فى قوله تعالى : « وغيض الماء » لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج منها من عيون الماء ، فدل هذا التركيب القليل : « وغيض الماء » على أن كل ذلك قد حدث .

(و) الإرداف : فى قوله تعالى : « واستوت على الجودى » وقد مرَّ بحث هذه العبارة .

(ز) التمثيل : وقد مرَّ تعريفه والتمثيل له بهذه العبارة : « وقُضِي الأمر » .

(ح) التعليل : لأن « غِيضَ الماء » علِّة الاستواه

---

(١) انظر بديع القرآن لابن أبى الاصبع ص ٢٤٧

(ط) صحة التقسيم : حيث استوعب - سبحانه - حالة الماء حين نقصه .

(ى) الاحتراس : من توهم متوهم أن الماء قد عم مَن لا يستحق الهلاك وقد تحقق « الاحتراس » بالدعاء على الهالكين .

(ك) الانفصال : لأن لقائل أن يقول : إن لفظة « القوم » يستغنى عنها للمعنى إذ لو قيل : « وقيل بُعداً للظالمين » لتم الكلام .

(ل) المساواة : لأن لفظ الآية لا يزيد على معناه ولا ينقص عنه ، وستأتى مخالفة هذا الوجه .

(م) حسن النسق : فى عطف القضايا بعضها على بعض حسبما وقعت الأول فالأول .

(ن) ائتلاف اللفظ مع المعنى : لكون كل لفظة لا يصلح غيرها مكانها ، وقد مَرَّ تعريفه .

(س) الإيجاز : لأن اللّه اقتص قصة السفينة بلفظها مستوعبة فى أخصر عبارة بألفاظ غير مطوَّلة .

(ع) التسهيم : لأن من أول الآية إلى قوله تعالى : « أقلعى » يقتضى آخرها ، والتسهيم أن يكون فى أول الكلام ما يدل على آخره لأنها تقتضيه .

(ف) التهذيب : لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن كل لفظة سهلة مخارج الحروف عليها رونق الفصاحة .

(ص) حسن البيان لأن السامع لا يتوقف فى فهم معنى هذا الكلام لوضوحه ، وصفائه .

(ق) التمكين : لأن الفاصلة مستقرة فى قرارها . مطمئنة فى مكانها غير قلقة ولا مستكرهة .

(ر) الانسجام : وهو تحدر الكلام بسهولة وعذوبة سبك .

(ش) الإبداع : وهو فى مجموع الآية .

هذا خلاصة ما ذكره ابن أبى الاصبع فى بديع هذه الآية . ولنا عليها ملاحظة هامة ..

ذلك أنه وصف الآية بالمساواة وجعل المساواة فناً من فنون البديع كما جعل الاستعارة كذلك .

ثم عاد ووصف الآية بالإيجاز ، والإيجاز والمساواة ضدان لا يجتمعان ، فإما أن يكون الكلام مساوياً أو غير مساو بأن يكون موجزاً أو مطنباً ، أما أن يوصف كلام واحد بعينه بأنه مساو مرة وموجز مرة أخرى فهذا شىء غير مفهوم على الإطلاق ، ونحن - إذا جاريناه على أن الإيجاز من فنون البديع - فإن الآية موصوفة به لا بالمساواة إذ هى قد اشتملت على نوعى الإيجاز :

ففيها إيجاز الحذف . ويكفى فى تصور ذلك أن فى الآية قد بنى الفعل للمفعول فى عدة مواضع : « قيل يا أرض » و « غيض » و « قضى الأمر » و « وقيل بعداً » .

كما طوى ذكر السفينه وأضمر فاعل الفعل « استوت » ، وحذف معمول « أقلعى » ... وهذا موسوم بإيجاز الحذف .

وفيها إيجاز قصر .. لأن بعض ألفاظها قد حوى كثيراً من المعانى مثل : « غيض الماء » و « قضى الأمر » .

وبهذا يظهر خلط ابن أبى الاصبع فى عَدِّ الآية من باب المساواة مرة والإيجاز مرة أخرى .

وكيف ساغ له ذلك وهو البلاغى الضليع والناقد الأديب ؟ لا أرى سبباً وراء ذلك إلا ولوعه بألوان البديع وكثرة محصوله منها .

* *

٣ - من سورة يوسف عليه السلام (٢٦ - ٢٧) :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

• المعنى الإجمالى لهاتين الآيتين :

تكذيب يوسف عليه السلام لدعوى امرأة العزيز ، ثم تأييده فيما قال بشهادة شاهد من أهلها لفت نظر العزيز إلى قرائن الأحوال التى منها علم العزيز صدق يوسف عليه السلام وكذب امرأته هو على يوسف .

والناظر فيهما لا يجد تكلفاً فى العبارات . ولا نقصاً فى المعنى ، ومع هذا فقد جاءت فيها فنون شتَّى من البديع لم تخرج عن سمات البلاغة الأصيلة ، والبيان الآسر .

وتلك الفنون هى :

١ - المناقضة : وهى - هنا - مناقضة المتكلم غيره فى معنى . فقد ادعت امرأة العزيز أن يوسف عليه السلام راودها عن نفسها . فنقض هذا المعنى فى قوله : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ .

٢ - الكناية : فى قوله أيضاً : ﴿ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ وحقيقته : طلبت منى الفحشاء .

والمراودة : أن تنازع غيرك فى الإرادة فتريد غير ما يريد [١] ، فقد كان يوسف عليه السلام عزوفاً عنها فأرادت أن تثنيه عن رأيه لتحقق مقصودها .

٣ - النزاهة : لأن فى قوله : ﴿ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ بُعداً عن الألفاظ المعيبة . وفيها كذلك الاعتدال فى الاتهام ويبدو هذا جلياً إذا ما قورنت هذه

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٠٦

العبارة بعبارة امرأة العزيز : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إلا أن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) فهى تدل على نفس حاقدة كائدة مغيظة إذ لم تكتف بمجرد الاتهام . بل بالغت فيه مقترحة الجزاء : إما السجن ، وإما العذاب الأليم .

٤ - جُناس الاشتقاق : وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ ﴾ لأنهما يرجعان فى اللفظ إلى أصل واحد .

٥ - الاستقصاء : وهو فى قوله تعالى : ﴿ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ وصفاً للشاهد ، وفى هذا مدخل عظيم الأثر فى براءة يوسف عليه السلام ، وإدانة امرأة العزيز .

٦ - حسن البيان : لأن المعنى فى هاتين الآيتين واضح لا يعوق عنه فهم ولا يغرب عن طالب .

٧ - حسن التفسير : لأن قوله تعالى : ﴿ إن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ من قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ، والآية التى بعدها - كل هذا تفسير للشهادة التى أشارت إليها العبارة السابقة.

٨ - حسن التقسيم : حيث قسّم قرائن الواقعة إلى قسمين باعتبار ما حدث من قَدِّ القميص .

٩ - المزاوجة : حيث زاوج بين الشرط والجزاء ، فقَدُّ القميص من القُبُل يترتب عليه صدقها وكذبه . وقَدُّه من الدُّبُر يترتب عليه كذبها وصدقه .

١٠ - الإيهام : حيث ساوى بين امرأة العزيز ويوسف عليه السلام فى احتمال دعوى كل منهما فى الصدق والكذب ، والقرائن التى أشار إليها الشاهد تخص دعواها بالكذب . وتثبت الصدق ليوسف عليه السلام .

١١ - المقابلة : حيث طابق بين القُبُل والدُّبُر ، والصدق والكذب .

---

(١) يوسف : ٢٥

١٢ - العكس والتبديل : حيث قدَّم الصدق مرة وأخَّره مرة أخرى ، وقدَّم الكذب تارة وأخَّره تارة أخرى .

١٣ - التمكين : لأن الفاصلة فى الموضعين قارة فى مكانها لا نافرة ولا قلقة .

١٤ - التسهيم : لأن قوله فى الآية الأولى : ﴿ إن كَانَ قَميصُهُ ﴾ إلى : ﴿ فَكَذَبَتْ ﴾ يدل على الفاصلة وكذلك القول فى الآية الثانية .

١٥ - التسجيع : لأن الفاصلتين فى الموضعين متماثلتان : « الكاذبين » ، « الصادقين » .

١٦ - لزوم ما لا يلزم : حيث التزم فى الفاصلة الياء المكسور ما قبلها وذلك نلحظه فى الموضعين .

١٧ - الإيجاز : ففى الآيتين لوحظ حذف بعض الكلمات منها : « قال » قبل : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن أَهْلِهَا ﴾ وحذف الفاعل فى « قد » فى الموضعين . وكان فى هذا الحذف من الفخامة والروعة ما فيه .

١٨ - حسن النسق : حيث رتبت الأجزاء ترتيباً حسناً فبدأ بتكذيب يوسف لدعوى امرأة العزيز ثم ذكر شهادة الشاهد الذى أيَّده . ثم تفصيل تلك الشهادة وما يترتب عليها فى عرض حسن ونسق جميل .

١٩ - الانسجام : وذلك ظاهر من جزالة الألفاظ ، وجودة السبك والترتيب المنطقى لأجزاء القضية .

٢٠ - الافتنان : وقد عرَّفه ابن أبى الاصبع بأن يأتى المتكلم فى كلامه بفنين إما متضادين أو مختلفين ، وقد جاء ذلك ظاهراً فى الجمع بين البراءة والإدانة ، ثم الإدانة والبراءة فى قوله تعالى حكاية عن شاهد واقعة امرأة العزيز : ﴿ إن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ من قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

ففى الآية الأولى جمع بين براءة امرأة العزيز - فرضاً - وإدانة يوسف عليه السلام ، وفى الآية الثانية جمع بين إدانتها - حقيقة - وبراءة يوسف عليه السلام .

وإلى هنا فإننا تناولنا ثلاثة نصوص من القرآن الكريم . وقد أبنا على طريقتهم ما يحتمله النص من وجوه البديع ، هذه النصوص فى جملتها تتكون من خمس آيات : آيتان من سورة البقرة (٢٦ - ٢٧) ، وآية من سورة هود (٤٤) ، وآيتان من سورة يوسف (٢٦ - ٢٧) .



● صور البديع فيما تقدَّم :

وكان جملة ما ظهر لنا من فنون البديع فيها - بعد حذف المكرر - واحداً وأربعين فناً . وهى :

١ - التمثيل ٢ - المشاكلة ٣ - الإبهام ٤ - التوجيه ٥ - حسن التقسيم ٦ - المقابلة ٧ - التعطف ٨ - البيان بعد الإبهام ٩ - صحة التفسير ١٠ - النزاهة ١١ - التكافؤ ١٢ - الترشيح ١٣ - التسجيع ١٤ - التذييل ١٥ - حسن النسق ١٦ - الانسجام ١٧ - المجاز ١٨ - الإدماج ١٩ - التفصيل ٢٠ - ائتلاف اللفظ مع المعنى ٢١ - حسن الجوار ٢٢ - الإشارة ٢٣ - الإرداف ٢٤ - التعليل ٢٥ - الاحتراس ٢٦ - الانفصال ٢٧ - المساواة ٢٨ - التسهيم ٢٩ - التهذيب ٣٠ - التمكن ٣١ - الإبداع ٣٢ - المناقضة ٣٣ - الكناية ٣٤ - الجُناس اللفظى ٣٥ - الاستقصاء ٣٦ - المزاوجة ٣٧ - الإيهام ٣٨ - العكس والتبديل ٣٩ - لزوم ما لا يلزم ٤٠ - الإيجاز ٤١ - الافتنان .



● نتائج مهمة :

والباحث فى بديع القرآن مع إطلاق القول به حتى يشمل ما هو من المعانى والبيان يخرج بعدة نتائج :

أولاً : أن العلماء قد اشترطوا لقبول البديع وحسنه وبلاغته شروطاً منها : ألا يكون متكلفاً ولا مسرفاً فيه صاحبه ، وأن يُرسَل مع الطبع والسجية ولا يكون على حساب المعنى .

وبديع القرآن قد تحقق فيه عدم التكلف وكونه لا على حساب المعنى .

أما الشرط الثانى - وهو عدم الإكثار - فلم يتحقق ذلك إذ أن نصوص القرآن قد اشتملت على كثير من ألوان البديع ، وقد رأينا أن آية هود المذكورة آنفاً قد استخرج منها العلماء أكثر من عشرين فناً من فنون البديع ، ولم تزد كلماتها على سبع عشرة كلمة ، بل إن ابن أبى الاصبع قد استخرج من حرف واحد وهو « ثُمَّ » - فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾ [1] - قد استخرج من هذا الحرف وحده ثمانية فنون بديعية [2] .



● كثرة وجوده :

ومع هذه الكثرة فى بديع القرآن لم تجد له إلا بلاغة وحُسناً ، ولم يجرؤ أحد من العلماء والنقّاد بتقليل قيمة بديع القرآن ، وما رأيناهم قد استحسنوا فيما سواه ما كثر فى القصيدة أو البيت لأن التاريخ والنقد الأدبيين لم يجدا مكثراً منه أو مسرفاً فيه إلا كان خطؤه أكثر من صوابه وإجادته أقل من رداءته .

ولم يكن الإقلال منه عاصماً من التكلف فيه حتى يكون مع الإكثار عذر لذلك التكلف . فقد أخطأ المقلّون كما أخطأ المكثرون .

فمثلاً .. قد ورد فى القرآن الكريم أسلوب مراعاة النظير فسلم وحسن ، كقوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [3] .

وتناول الشعراء هذا الأسلوب فأصابوا وأخطأوا .

---

(١) آل عمران : ١١١ (٢) انظر : بديع القرآن (٣) الرحمن : ٥ - ٦

فقد خطأ نصيب الشاعر الكميت فى قوله :

أَمْ هَــلْ ظَعَائِنُ بِالعُلْيَا رَافِعَة وَإِن تَكَامَــلَ فِيهَا الدَلُّ وَالشَنَبُ

قال نصيب للكميت : أين الدّل من الشنب ، ألا قلت كما قال ذو الرمة :

لَمْيَاءُ فِي شَفَتِيهَا حَــوةٌ لَعَسٌ وَفِي اللثَاتِ وَفِي أَنْيَابِهَا الشَنَبُ (١)

فإن الشنب يُذكر مع اللّمس ، والدل يُذكر مع الغنج . وبمثل هذا عاب ابن الأثير قول أبى نواس يصف الديك :

لَهُ اعْتِــدَالٌ وَانْتِصَابُ قَدٍّ وَجِلْدُهُ يُشْبِــهُ وَشْــيَ البرَد

كَأَنَّهَا الهِدَابُ فِــى الفِرِنْد مَحْدُوبُ الظَهْرِ كَرِيمُ الجد

لأنه ذكر الظهر وقرنه بالجد . وهذا لا يناسب هذا ، لأن الظهر من جهة الخلق والجد من جهة النسب (٢) .

وكذلك خطأه فى قوله :

وَقَــدْ حَلَفــتُ يَمِيناً مَبْــرُورَةَ لا تَكْذِب

بِرَبِّ زَمْزَم وَالحَوضْ وَالصَفَــا وَالمحْصَب

لأن ذكر الحوض مع الصفا والمحصب غير مناسب . وإنما يُذكر الحوض مع الصراط والميزان (٣) .

وجاء التكرار فى القرآن فعزب وراق . كقوله تعالى : ﴿ القَارِعَةُ * مَا القَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ (٥)

---

(١) انظر الأغانى ١٣٤/١ والشنب : ماء ورقة وعذوبة وبرد فى الأسنان .

(٢) المثل السائر : ١٥٥/٣ (٣) نفس المصدر السابق .

(٤) القارعة : ١ - ٣ (٥) الانفطار : ١٧ - ١٨

وقوله : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ [1] .

وهو على تقاربه تجد له قوة وجزالة وأغراضه : إما المدح ، وإما التهويل وإما للاستبعاد [2] كما فى قوله تعالى : ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ [3] ... إلى غير ذلك من الأغراض التى مرّت فى مبحثه الخاص .

وهذا التكرار لا يخرج عندهم عما سموه الترديد أو التعطف . أو الجُناس والمشاكلة .. وقد جاء فى الشعر وغيره من كلام الناس فلم يسلم من العيب إلا فيما قَلّ .

فمما عيب قول أبى الطيب :

فَقَلْقَلْتُ بِالسَهْمِ الَّذِى قَلْقَلَ الحَشَا ... قَلاَقِلَ عَيْشٍ كُلهُنَّ قَلاَقِلُ
غَثَاثَةُ عَيْشٍ أن تُغَثَّ كَرَامَتِى ... وَلَيْس بِغَثٍّ أن تُغَثَّ المَآكِلُ

قال ابن سنان معلّقاً عليهما : « فقد اتفق له أن كرَّر فى البيت الأول لفظة مكررة الحروف فجمع القبح بأسره فى صيغة اللفظة نفسها ، ثم فى إعادتها وتكرارها ، واتبع ذلك بغثاثة فى البيت الثانى وتكرار « تغث » فلست تجد ما يزيد على هذين البيتين فى القبح » [4] .

وقال أبو تمام :

قَسَمَ الزَمَانُ رُبُوعَها بين الصَبَا ... وَقَبُولُهَا وَدَبُورُها أثْلاثَا

وقد أخطأ أبو تمام فى ذكر « القبول » مع « الصبا » ، لأن الصبا هى القبول لذلك عدّه النقاد غير مفيد [5] .



(1) الواقعة : 10 .
(2) بديع القرآن لابن أبى الاصبع ص 151 .
(3) المؤمنون : 36
(4) سر الفصاحة ص 94
(5) المثل السائر لابن الأثير ص 30 .

● المبالغة :

وجاءت المبالغة فى القرآن قوية جزلة لا تنبو عن ذوق ولا ينكرها عقل . مثل قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ (١) .

ففى هذه الآية مبالغة مقبولة غير منكرة ولا نافرة تصف أثر الخوف وهذا يصوره زوغان الأبصار لشدة الاضطراب وهذا أمر واقع ، عطف عليه أمر قريب من الواقع هو بلوغ القلوب الحناجر فإن القلب حين يضطرب تظهر آثار اضطرابه فى تهدج الصوت واضطرابه ، والصوت يكون مسموعاً بعد مروره بالحنجرة ، فلذلك ساغ هذا التعبير وقوى به المعنى وحَسُن .

ومثل قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ (٢) .. مبالغة فى صفاء الزيت .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ (٣) .. مبالغة فى تصوير الظُلمة المحيطة به .

وجاءت هذه المبالغة على ألسنة الشعراء فأصابوا وأبعدوا فى الخطأ .

قال الأعشى :

فَتىً لَو يُنَادِى الشَمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا
أَوِ القَمَـرَ السَّارِى لأَلْقَىْ المَقَالِدَ (٤)

فقد غالى فى تصوير المعنى فعلق تبذل الشمس على مجالسته لها ، وكذلك تخلى القمر السارى عن المقالد مرهون بتلك المجالسة ، وهذه مبالغة موصوفة بالغلو . ولم يخل كلامه من التكلف . فقد أثبت للشمس قناعاً وللقمر مقالد وجوّز فى جانبهما المنادمة .

---

(١) الأحزاب : ١٠ .
(٢) النور : ٣٥
(٣) النور : ٤٠ .
(٤) الصناعتين ص ٢٨٣

وقال أبو نواس :

وَأَخفْتَ أهـــلَ الشرْكَ حَتَّى أنَّهُ   لتَخَافُكَ النُطفُ الَّتِى لَم تُخْلَقْ [1]

وهذا البيت معيب « لما فى ذلك من الغلو والإفراط الخارج عن الحقيقة » .

* *

● صحة التقسيم :

وصحة التقسيم جاء فى الكتاب الحكيم على أبلغ وجه ، وأصح منهج كقوله : ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [3] .

الآية الأولى : تبيِّن قسمى أثر البرق عند الناس .

والآية الثانية : تبيِّن أقسام الناس يوم العرض ، فهم ثلاثة لا رابع لهم . فهذه قسمة صحيحة .

وقد أخطأ بعض الشعراء عندما تناولوا هذا الفن . مثل قول البحترى :

قِفْ مَشُوقاً أَوْ مُسْعِداً أَوْ حَزِيناً   أو مُعِيناً أَوْ عَاذِراً أو عَذُولا [4]

قال ابن الأثير : « فإن المشوق يكون حزيناً والمسعد يكون معيناً ، وكذلك يكون عاذراً .. وكثيراً ما يقع البحترى فى مثل ذلك » [5] .

وعابوا قول أبى الطيب :

فَافْخَر فَإِنَّ النَّاسَ فيكَ ثَلاَثَةٌ   مُسْتَعْظِمٌ أَوْ حَاسِدٌ أو جَاهِلُ

---

(١) سر الفصاحة لأبى سنان ص ٢٦٣   (٢) الرعد : ١٢   (٣) الواقعة : ٨٨ - ٩٤

(٤) ديوان البحترى : ٢/ ٢١ .   (٥) المثل السائر : ٣/١١٧

لأن المستعظم يكون حاسداً ، والحاسد يكون مستعظماً ، ومن شرط التقسيم ألا تتداخل أقسامه بعضها فى بعض » (١)

« وأما صحة التقسيم .. فأن تكون الأقسام المذكورة لم يخل بشىء منها ، ولا تكررت ولا دخل بعضها فى بعض » (٢) .

ومثّل للمعيب منه بقول جرير :

صَارَتْ حَنِيفَةُ أثْلاَثاً فَثُلْثُهُم مِنَ العَبِيدِ وَثُلْثٌ مِن مَوَالِيهَا

ثم علّق عليه قائلاً : فهذه قسمة فاسدة من طريق الإخلال لأنه قد أخل بقسم من الثلاثة . وقيل : إن بعض بنى حنيفة سُئِل من أى الأثلاث هو ؟ قال : من الثلث الملغى » (٣) .

وهذه لمحة نقد بالغة الدّقة .



● الإيجاز :

وجاء الإيجاز فى القرآن الكريم بقسميه : إيجاز الحذف وإيجاز القصر ، فلم يبهم معه معنى ولا اختفى معه مراد . كقوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ القَرْيَةَ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إذْ فَزِعُواْ فَلا فَوْتَ وَأُخِذُواْ من مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (٦) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ به الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ به الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ به المَوْتَى ﴾ (٧) ، وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ ﴾ (٨) ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم ﴾ (٩) ، وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَّا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ (١٠) .

---

(١) المثل السائر – نفس المصدر (٢) سر الفصاحة ص ٢٣٦
(٣) نفس المصدر ص ٢٢٧ (٤) يوسف : ٨٢ (٥) الفجر : ٢٢
(٦) سبأ : ٥١ (٧) الرعد : ٣١ (٨) الأنعام : ٨٢
(٩) يونس : ٢٣ (١٠) البقرة : ١٣٤

والقرآن مليء بمثل هذه الدرر الغوالى مع قوة المعنى ووضوحه وشدة أسره للأفهام .

وقد تناوله قوم فأصابوا وأخطأوا ، فأما ما جاء فى القرآن فهو أبلغ منه وأوجز ، ولعل مضرب الأمثال فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (١) .

فإذا قورن به قول العرب : « القتل أنفى للقتل » . فإن عبارة القرآن قد فاقته من عدة وجوه (٢) قد عَنِىَ العلماء بإفاضة القول فيها . مع أن هذا القول الصادر عن العرب كانوا يعدونه أبلغ ما قيل فى معناه .

* *

● نصوص معيبة :

على أن كثيراً من الشعراء قد أوجزوا فأخلُّوا ، وشرط بلاغة الإيجاز وضوح المعنى .. من ذلك قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود :

أعَاذِلُ عَاجِـــلُ مَا أشْتَهِى أحَبُّ مِنَ الأكْثَرِ الرَّائِثُ (٣)

لأنه أراد : عاجل ما أشتهى مع القِلّة أحبُّ إلىَّ من الأكثر البطىء ، فترك « مع القلة » وبه تمام المعنى .

ومنه قول عروة بن الورد :

عَجِبْتُ لَهُمْ إذْ يَقْتُلُونَ نُفُوسَهُم وَمَقْتَلُهُم عِنْدَ الوَغَى كَانَ أعْذَرُ

لأنه أراد أن يقول : عجبتُ لهم إذ يقتلون نفوسهم فى السلم وقتلهم فى الحرب أعذر ، فترك « فى السلم » وبه تمام المعنى كذلك .

---

(١) البقرة : ١٧٩

(٢) انظر - مثلا - بديع القرآن لابن أبى الاصبع .

(٣) الرائث : البطىء .

وكذلك قول الحارث بن حلزة :

وَالعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلاَلِ النَوْكِ ... مِمَّـــنْ عَـــاشَ كَـــداً

أراد : العيش الناعم فى ظلال الجهل خير من العيش الشاق فى ظلال العقل [1] .

والوجه الذى يُقرِّب هذه الأمثلة الثلاثة إلى الصواب أنه يمكن أن يقال : إن دليل الحذف فيها ما قابل المحذوف . فقوله : « ومقتلهم عند الوغى » دليل « فى السلم » المحذوف ، وإلا لخرج الكلام مخرج الآحاجى والألغاز ، ولما استحق أن يدخل فى باب الأدب .

* *

● بين القرآن والناس :

ولوأننا تتبعنا سائر فنون البديع بمعناها العام لوجدنا أمثلتها فى القرآن لا تخرج عن البلاغة الأصلية مع الوفاء بحق المعنى ، وحق اللفظ .

فليس فيه إحسان فى موضع وإساءة فى آخر ، بل هو على وتيرة واحدة فى جميع فنونه وطرق تعبيره ، وهذا هو الفرق الذى رمناه بين بديع القرآن وبديع الناس

فالناس - شعراؤهم وناثروهم - إذا أكثروا من استعمال البديع لم يسلم لهم منه إلا القليل ، وإذا لم يكثروا منه - وهذا شرط قبوله - فإنهم ليسوا فى مأمن من السقوط والكلفة ، كما وقع لبشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبى تمام ، وكما وقع للمتأخرين منهم حينما أسرفوا وغالوا فى السعى وراء البديع فضعف معه المعنى أو زال من أساسه كبديع الزمان الهمذانى وصفى الدين الحلى ، وغيرهما من عشاق البديع ومصروعيه .

---

(١) الأمثلة مستقاة من سر الفصاحة ص ٧ ، وغيره .

والبديع فى القرآن فِطرى جرى مع طبيعة الأسلوب ولم يُصرْ إليه إلى حلية لفظ أو تزويق عبارة ، وهو فيه سمة من سمات إعجازه وحسنه سواء أكان راجعاً إلى المعنى أو راجعاً إلى اللفظ وحسنه ذاتى لا عرضى ، ولو ذهبنا ننحى ما جاء من بديع القرآن عن أصالة أسلوبه وروعة معانيه ، لذهبنا بشطر الحُسن فيه لقوة صوره وأصالة وروده فيه ، وقد تقدَّم لنا أن كثيراً من فنون البديع من صميم طرق التعبير فى القرآن الكريم - كالمطابقة - لأنه كثيراً ما يقارن بين أنواع متضادة أو كالمتضادة ، والمشاكلة والسجع ... وما إلى هذه الألوان الآسرة .



● ملاحظتان مهمتان :

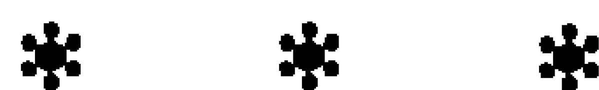
على أن هنا ملاحظتين إحداهما ترجع إلى البديع بعامة ، والثانية ترجع إلى بديع القرآن بخاصة .

أما ما ترجع إلى البديع بعامة .. فإنه فن فى حاجة إلى الإنصاف وإعادة النظر ، ونحن هنا أمام طريقين :

إما أن نطلق كلمة « البديع » على فنون البلاغة جميعاً ، وإما أن نرد كل حق إلى نصابه ، فنرد ما للمعانى للمعانى ، وما للبيان للبيان - مما يُدرس ضمن فنون البديع - ولو فعلنا ذلك لما بقى شىء يمكن أن يُطلق عليه بديعاً ، لاختلاس هذه الفنون من علمى المعانى والبيان ، إلا فيما ندر .

وأما ما يتعلق ببديع القرآن .. فإن بعض الباحثين مسرف فى إثبات الألوان كما فعل ابن أبى الاصبع فى كتابه الموسوم « بديع القرآن » مثل التفويف والتنكيت والانفصال ، والتردد والإطراد ، فإن إدراك جمال التعبير فى القرآن لا يحتاج إلى أكثر من الذوق وصفاء النفس فلا داعى لكثرة التلقيب والتنويع .

والحمد لله فى الأُولى والآخرة ..



قائمة المصادر والمراجع

١ - ابن المعتز - د . عبد المنعم خفاجى

٢ - الإتقان فى علوم القرآن - جلال الدين السيوطى .

٣ - أثر القرآن فى النقد العربى - د . زغلول سلام .

٤ - الأدب فى عصره الذهبى - د . عبد الرحمن عثمان .

٥ - إرشاد العقل السليم - أبو السعود العماوى

٦ - أسباب النزول - الواحدى .

٧ - أسرار البلاغة - الإمام عبد القاهر الجرجانى .

٨ - أسرار التنزيل - الإمام النسفى .

٩ - الأسس الجمالية - د . عز الدين إسماعيل .

١٠ - الأسلوب - د . أحمد الشايب .

١١ - الأطول - العصام .

١٢ - الإعجاز البيانى - د . بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن) .

١٣ - إعجاز القرآن - القاضى أبو بكر الباقلانى .

١٤ - إعجاز القرآن - الخطابى .

١٥ - إعجاز القرآن (النكت) - الرمانى .

١٦ - الأغانى - الأصفهانى .

١٧ - الانتصاف على الكشاف - ابن المنير .

١٨ - البديع - ابن المعتز

١٩ - بديع القرآن - ابن أبى الإصبع العدوانى .
٢٠ - البرهان فى علوم القرآن - الزركشى .
٢١ - بحث جديد فى القرآن - محمد على صبيح .
٢٢ - البحر المحيط - أبو حيان التوحيدى .
٢٣ - البلاغة التطبيقية - د . أحمد إبراهيم موسى .
٢٤ - البلاغة تطور وتاريخ - د . شوقى ضيف .
٢٥ - البيان والتبيين - الجاحظ .
٢٦ - البيان الأدبى - د . بدوى طبانة .
٢٧ - البيان القرآنى - د . رجب البيومى .
٢٨ - تاريخ آداب اللغة العربية - جورجى زيدان .
٢٩ - تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة .
٣٠ - تحرير التحبير - ابن أبى الإصبع .
٣١ - التصوير الفنى فى القرآن - سيد قطب .
٣٢ - التفسير البيانى - بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن) .
٣٣ - تفسير جزء عم - محمد عبده (الإمام) .
٣٤ - تفسير الجواهر - طنطاوى جوهرى .
٣٥ - التفسير الكبير - الرازى .
٣٦ - تفسير المنار - رشيد رضا .
٣٧ - الجامع لأحكام القرآن - الإمام القرطبى .
٣٨ - جواهر الألفاظ - قدامة بن جعفر .

٣٩ - حاشية السيد على المطول - السيد الشريف .
٤٠ - حاشية الصبان على الأشمونى - الصبان .
٤١ - حاشية عبد الحكيم على المطول - عبد الحكيم السيالكوتى .
٤٢ - الحُجَّة فى القراءات - أبو على الفارسى .
٤٣ - حجج النبوة - الجاحظ .
٤٤ - حول إعجاز القرآن - د . على العمارى .
٤٥ - الحيوان - الجاحظ .
٤٦ - خزانة الأدب - الحموى .
٤٧ - الخصائص - ابن جنى .
٤٨ - ديوان ابن الرومى - ابن الرومى .
٤٩ - دائرة المعارف الإسلامية
٥٠ - دُرَّة التأويل - الخطيب الإسكافى .
٥١ - دلائل الإعجاز - الإمام عبد القاهر الجرجانى .
٥٢ - روح الاجتماع - چوستاف لوبون .
٥٣ - زهر الآداب - الحصرى .
٥٤ - سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجى .
٥٥ - شذرات الذهب - ابن العماد .
٥٦ - شروح التلخيص - سعد الدين التفتازانى وآخرون .
٥٧ - الشعر والشعراء - ابن قتيبة .
٥٨ - الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى - القاضى عياض .

٥٩ - صبح الأعشى - القلقشندى .
٦٠ - الصبغ البديعى - د . أحمد إبراهيم موسى .
٦١ - الصناعتين - أبو هلال العسكرى .
٦٢ - الطراز - العلوى .
٦٣ - الظاهرة القرآنية - مالك بن نبى .
٦٤ - العِقد الفريد - ابن عبد ربه .
٦٥ - عقود الجمان - جلال الدين السيوطى .
٦٦ - علم اللغة - د . على عبد الواحد وافى .
٦٧ - العمدة فى صناعة الشِعر ونقده - ابن رشيق .
٦٨ - التفكير فريضة إسلامية - عباس محمود العقاد .
٦٩ - الفلسفة اللغوية - جورجى زيدان .
٧٠ - الفلك الدائر على المثل السائر - ابن أبى الحديد .
٧١ - فن الإسجاع - الأستاذ على الجندى .
٧٢ - فن التشبيه - الأستاذ على الجندى .
٧٣ - فن الجُناس - الأستاذ على الجندى .
٧٤ - الفهرست - ابن النديم .
٧٥ - الكشاف - الزمخشرى .
٧٦ - كشف الظنون - حاجى خليفة .
٧٧ - الكامل - المبرد .
٧٨ - الكتاب - سيبويه .

٧٩ - لسان العرب - ابن منظور .
٨٠ - اللغة بين الفرد والمجتمع - محمد عبد الرحمن أيوب .
٨١ - اللغة الشاعرة - عباس محمود العقاد .
٨٢ - اللغة العربية وطرق تدريسها - الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد .
٨٣ - المثل السائر - ابن الأثير .
٨٤ - محاضرات فى الأدب - د . سليمان ربيع .
٨٥ - محاضرات فى البلاغة - د . محمود فرج العقدة .
٨٦ - المطول - سعد الدين التفتازانى .
٨٧ - معالم النقد الأدبى - د . عبد الرحمن عثمان .
٨٨ - معترك الأقران فى إعجاز القرآن - جلال الدين السيوطى .
٨٩ - المعجزة الكبرى - الإمام محمد أبو زهرة .
٩٠ - مفتاح العلوم - أبو يعقوب السكاكى .
٩١ - المغنى عن كتب الأعاريب - ابن هشام .
٩٢ - المغنى فى أبواب التوحيد والعدل - القاضى عبد الجبار .
٩٣ - مفردات القرآن - الراغب .
٩٤ - المفضليات - الضبى .
٩٥ - المقدمة - ابن خلدون .
٩٦ - مقدمة تلخيص البيان - عبد الغنى حسن .
٩٧ - مقدمة الظاهرة القرآنية - الأستاذ محمود شاكر .
٩٨ - المناهج الجديدة فى تفسير آيات الله المجيدة - د . عبد الغنى الراجحى

٩٩ - مناهل العرفان فى علوم القرآن - الشيخ عبد العظيم الزرقانى .

١٠٠ - من بلاغة القرآن - د . أحمد بدوى .

١٠١ - من حديث الشعر والنثر - د . طه حسين .

١٠٢ - المنهج الحديث - د . عبد الغنى الراجحى .

١٠٣ - الموازنة - الآمدى .

١٠٤ - الموشح - المرزبانى .

١٠٥ - النبأ العظيم - د . محمد عبد الله دراز .

١٠٦ - النحو الوافى - د . عباس حسن .

١٠٧ - نسمات من عبير الأدب - د . محمد سرحان .

١٠٨ - النقد الأدبى - أحمد أمين .

١٠٩ - النقد الأدبى - سيد قطب .

١١٠ - النقد الأدبى - د . محمد غنيمى هلال .

١١١ - النقد المنهجى عند العرب - د . محمد مندور .

١١٢ - نقد الشعر - قدامة بن جعفر .

١١٣ - الوساطة - القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى .

* * *

محتويات الجزء الثانى

الباب الثالث : من روائع « المعانى »
فى القرآن الكريم
(٣ - ٢.٢)

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الباب الرابع : من سحر « البيان » فى القرآن الكريم

(٢٠٣ - ٤٠٦)

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

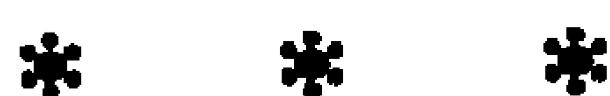
الصفحة

الباب الخامس : البديع فى القرآن الكريم

(٤٠٧ - ٤٧٧)

الصفحة

الصفحة



رقم الإيداع : ٤٥٥٨ - ٩٢
I . S . B . N . 977 - OO - 34O3 - 5

مكتبة
وهبة

